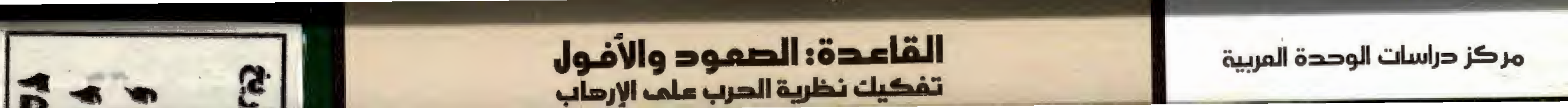


مركز دراسات الوحدة العربية

القاعدة
الصعود والأفول

تفكيك نظرية الحرب على الإرهاب

الدكتور فوّاز جرجس



مركز دراسات الوحدة العربية
القاعدة: الصعود والأفول
تفكيك نظرية الحرب على الإرهاب

هذا الكتاب

يؤسّس هذا الكتاب، كما يعتقد المؤلّف، ومن خلال ما يكفي من الأدلة، لفكرة أن التهديد الأصلي الذي كانت تمثّله «القاعدة» قد انتهى. فمعظم قادتها المجرّبين اعتقلوا أو قتلوا، وأُبدلوا بناشطين من غير خبرة أو فاعلية؛ والمتطوعون الجدد لن يأتوا.

ويرى المؤلّف أن موت بن لادن فجّر أزمة قيادة داخل «القاعدة» التي كان ينقصها، في الأصل، بنية فعّالة للقيادة والسيطرة؛ فما من واحد من الموجودين في التنظيم يمتلك الآن كاريزما بن لادن وموقعه. وفي كل الأحوال، فأزمة «القاعدة» بنيوية ووجودية وتتجاوز الأشخاص. ففاعليتها الميدانية المتآكلة، والإخفاقات العسكرية المتتالية التي لاحقتها فاقمت من أزمة الشرعية والسلطة في هذا التنظيم؛ وفي هذه النقطة تحديداً يكمن الإخفاق الأكبر للجهاد الأممي.

فهل خسارة «القاعدة» التأييد العام الإسلامي لها (والذي لم يكن لها في يوم)، بالإضافة إلى الانقسامات الداخلية، هما ما يفسّر الكارثة على مستوى القيادة التي قام رهانها على كسب أفئدة المسلمين وعقولهم في إطار إحداث صدام حضارات بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي؟ وهل تفاقمت أزمة «القاعدة» أكثر حين نجح مواطنون عرب في قلب حكّامهم المستبدّين، من دون اللجوء إلى العنف والإرهاب. وإذا نجحت الثورات العربية في ملء الفراغ في شرعية السلطة السياسية، فهل تكون الفرصة متاحة لتلاشي «القاعدة» وأخواتها من الفروع المحلية؛ وحينها، حينها فقط، لا تموت «القاعدة» كما مؤسّسها، فحسب، بل يُسمح لها أخيرًا أن تموت؟

أسئلة، وفرضيات كثيرة، يجيب عنها المؤلّف، رصدًا وتحليلاً ونقدًا، في سياق بحث معمّق، وموثّق، يتناول عوامل نشوء وصعود «القاعدة» وأسباب ضمورها وتشتّت أركانها وشعاراتها.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

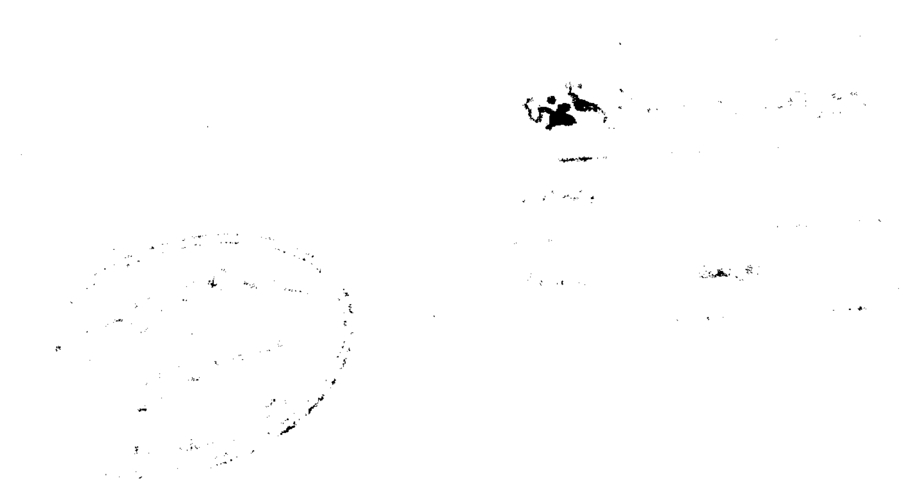
e-mail: info@caus.org.lb

Web site: http://www.caus.org.lb



القاعدة
الصعود والأفول

تفكيك نظرية الحرب على الإرهاب







مركز دراسات الوحدة العربية

القاعدة
الصعود والأفول

تفكيك نظرية الحرب على الإرهاب

الدكتور فوّاز جرجس

ترجمة

الدكتور محمد شيا

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

جرجس، فواز

القاعدة: الصعود والأفول: تفكيك نظرية الحرب على الإرهاب/ فواز جرجس؛ ترجمة محمد شيّا.

٢٧١ ص.

ببليوغرافية: ص ٢٤٣ ـ ٢٥٩.

يشتمل على فهرس

ISBN 978-9953-82-538-0

١. القاعدة (تنظيم). ٢. الإرهاب. أ. العنوان. ب. شيّا، محمد (مترجم).

324.2382

العنوان الأصلي بالإنكليزية

The Rise and Fall of Al-Qaeda

by Fawaz A. Gerges

(New York; Oxford: Oxford University Press, 2011)

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣

الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت، فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

e-mail: info@caus.org.lb

Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى

بيروت، آب/ أغسطس ٢٠١٢

كلمة شكر

يضيق المجال هنا لذكر جميع الزملاء، والناشطين، والأجانب في الشرق الأوسط الذين صرفوا، عبر سنوات، ساعات لا تحصى معي، يجيبون صابرين عن أسئلتي ومعمّقين من معرفتي بالظاهرة الإسلامية والجهادية. لهؤلاء أدين بالشكر، للوقت الذي صرفوه معي، لرؤاهم، ولإشراكهم لي في خبراتهم. وما كان بإمكاني كتابة هذا العمل لولا أخبارهم الشخصية، وتعليقاتهم، وقصصهم المثيرة.

أودّ أن أتقدم بالشكر من مساعدي في البحث أندرو بوين، طالب الدكتوراه في مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية (London School of Economics and Political Sciences)، الذي ذهب أبعد من مجرد نداء الواجب، في التحرير، والتلخيص، والتأليف بين مقاطع عدة من كتاب **القاعدة: الصعود والأفول**. لقد كانت طريقته في العمل وغناه الروحي استثنائيين.

وأودّ أن أشكر أيضاً هادي مكرم، طالب الدكتوراه في مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، الذي انضمّ إليّ حديثاً كمساعد باحث، والشكر الخاص إلى الزملاء الذين قرأوا فصولاً مختلفة من هذا العمل وعلّقوا عليها، بمن فيهم فريد سنزاي، ومحمّد أيوب، ونادر هاشمي، وحسن عبّاس، وكمران بوخاري، وأنطونيو غيوستوزي، وكريم مزران، وآفي شليم، وشارلز تريب، وكوديو فرانكو، وعمر عاشور، ومارفين واينبوم.

كما أودّ أن أتقدم بالتقدير للتحرير الغني والمكثّف والتعليقات لمحرر **منشورات جامعة أوكسفورد** تيم بنيت، الذي صرف الكثير من الوقت والجهد على هذا الكتاب. وكان تيم قد حرّر من قبل كتابي **رحلة مجاهد**، وأبدى فيه التزاماً عميقاً وإخلاصاً لعمله.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنني كنت قد بدأت كتابة **القاعدة: الصعود**

والأفول، في كلية سارة لورنس في نيويورك، وقد أكملته في مقرّي الحالي، مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية. وكلية سارة لورنس تعتبر مجتمعاً متفرّداً، متمدّناً، ويمنح إحساساً هائلاً بالحرية الأكاديمية والتمحيص النقدي والتفكير. لذلك وسواه، فأنا مدين بالشكر لسارة لورنس، وجولي كيدْ، التربوي البارز والمتنوّر الذي أسس لكرسي مؤسسة كريستيان إي. جونسون في مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، ووفّر لي الوقت لأسافر وأنجز البحث الميداني الذي احتاج إليه. كما أشكر مؤسسة كارنيغي لتزويدي بمنحة سمحت لي بصرف أكثر من عام في الشرق الأوسط. وأنا مدين بشكل خاص إلى مايك ماهوني الذي كان موجوداً دائماً كلما احتجت إليه.

كتابي **القاعدة: الصعود والأفول**، مهدىً إلى الأستاذ في أكسفورد آفي شليم، ليس فقط لأنه صديق عزيز، بل لأنه أسهم أيضاً في الكثير من الكتابات العميقة والمثيرة للنقاش في موضوع الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

أخيراً، وليس آخراً، فإنه لم يكن بوسعي كتابة هذا الكتاب من دون محبة عائلتي ودعمها. فنورا قدّمت أفكاراً عميقة في ما خصّ اليمن وهذّبت نصّي، وابني بسّام جرجي، طالب التاريخ، دقق في أبحاثي التي لا تتوقف حول التطورات التاريخية المقارنة في حقبة مطلع أوروبا الحديثة، كما في المسائل المتعلقة بالتقنية والتحرير أيضاً. وكانت ابنتي آن ـ ماري معنية على نحو رئيسي بجوهر أطروحتي، وغالباً ما كانت تلحّ عليّ بالسؤال: هل أنت مقتنع بأن «القاعدة» لم تعُد تمثّل خطراً؟ أما حنّا وليث، فكانا يريدان معرفة متى أنتهي من الكتاب، كيما آخذهما إلى أمكنتهما المفضّلة. لقد كان في نأيي بنفسي عن العائلة قدر من قوة الإرادة والأنانية في آن معاً. وعليه، فالكتاب، وبأكثر من معنى، هو لهم.

المحتويات

مقدمــة

أولاً: حقيقة رواية الإرهاب

ارتكبت «القاعدة»، بدم بارد، إحدى أكثر الهجمات وحشية على الإطلاق التي علقت بذاكرة جيل كامل، ولتبدّل من بعدها في المشهد الدولي، وتغيّر من غير رجعة في حركة القوة الأعظم ـ التي شنّت لا حرباً واحدة بل اثنتين، استمرّتا فترة من الزمن فاقت ما استغرقته حربا القرن العشرين العالميتين معاً. لقد غدت السياسات الراديكالية لعصبة صغيرة من المتطرّفين المسلمين الشغل الشاغل لكل إنسان تقريباً، واستدعت أعمالها، وبخاصة تلك التي حدثت يوماً ما قبل عشر سنوات، ردود أفعال، وردوداً مقابلة، استمرت تتصدّر عناوين الأخبار، وتقود السياسة الخارجية، وتعيّن الأجندات المحلية.

ورغم ذلك، وكما أسامة بن لادن نفسه، فإن المنظمة الإرهابية الأكثر مدعاة للخوف والكراهية في العالم، بل والتجسيد التام لما ستعنيه مفردة «منظمة إرهابية» في عقول الأمريكيين والغربيين، على حدّ سواء، والرمز النقيض لكل ما هو قيم غربية، لم تعُد موجودة. لقد تبخّرت، أو تلاشت على الأقل، لتغدو الظلّ الأكثر شحوباً مما كانت عليه سابقاً.

وفي حين ترسّخت أخبار مقتل بن لادن على أيدي القوات الأمريكية الخاصة في مجمّع قريب من العاصمة إسلام آباد، وفي عمق الداخل الباكستاني، فإن أخبار تلاشي «القاعدة» نفسها، وعلى العكس تماماً، لا تجري الإشارة إليها. لقد نشأت مسافة ما بين تصوّر الخطر الذي تمثله «القاعدة» وقدراتها الحقيقية، والمسافة تلك ما انفكت تتسع. وبعد ستة أسابيع من موت بن لادن، قال أيمن الظواهري، الرجل الثاني بعد بن لادن وخليفته رسمياً بعد وفاته، إن قائده السابق ورفيق السلاح قد «أرعب أمريكا في حياته»، وسوف

«يستمر في إرعابها حتى بعد موته». لقد استمرت «القاعدة» تمسك بمخيّلة الغرب، وجزئياً لأن الغرب نفسه لا يريد لها أن ترحل.

استمرت «القاعدة» تكبر كما الأساطير، تتحرك سرّاً في كل مكان، وتخطّط من دون توقف لقتل الناس الأبرياء وعلى نحو جماعي. وفيما يجري الآن تحليل مكثّف لمجمّع بن لادن في أبوتاباد ومحتوياته، وإمكانية العثور فيه على دليل لاشتراكه الفاعل، أو عدم اشتراكه، في عمليات «القاعدة»، وإلى لحظة مقتله، فإن الإعلام لا يتناول إلا في الحدّ الأدنى النقاش في موضوع منظمته وقدرتها على الاستمرار. ويتقبّل المعلّقون والمحلّلون من دون نقد الرواية التي يقدمها المسؤولون ومن يُدعون بـ «خبراء الإرهاب»، والذين يذهبون إلى أن «القاعدة» تظلّ الخطر الأكبر الذي يهدّد الغرب.

ومع ذلك، وأبعد من واقعة مقتل بن لادن، فإن الصحوة العربية في ربيع ٢٠١١ ـ في تونس، ومصر، وليبيا، واليمن، والبحرين، وعُمان، وسورية ـ لم تهزّ أسس أنظمة الاستبداد المحلي فقط، بل هي هدّدت بنسف حديث الإرهاب السائد. ففيما كانت الثورات العربية تستجمع قواها، كانت مركزية «القاعدة» غائبة بوضوح. كذلك لم تجد شعارات الجهاديين وطقوسهم، ولا تكتيكاتهم العنيفة، أذناً صاغية بين ملايين العرب المحتجّين.

وفيما لا تقدّم «القاعدة» خارطة اقتصادية، ولا أفقاً سياسياً، ولا رؤية للمستقبل، يطالب الملايين من العرب بانتخابات حقيقية، وبفصل بين السلطات؛ كذلك تستمر «القاعدة» في إدانة الانتخابات والديمقراطية باعتبارهما «بدعة» و«مبدأ شيطانياً». لقد تجنّب زعماء «القاعدة» باستمرار المشاركة والنشاط السياسيين، مبشّرين بأن العنف والإرهاب وحدهما يجلبان التغيير. ورغم ذلك، فقد بيّن ملايين العرب الذين احتلوا الشوارع أن السياسة تعنيهم، وأن الاحتجاجات السياسية هي أكثر تأثيراً في تحقيق التغيير. لقد هتفوا عالياً للقانون والدستور، وليس للإسلام المتشدّد، وفي ذلك رفض واضح لأيديولوجيا «القاعدة». ويمكن اعتبار الثورات تلك حركات ما بعد إسلامية من حيث إن الناشطين فيها على أساس ديني، كالإخوان المسلمين والإسلاميين المستقلين، إنما يمثلون مجرد شريحة من المحتجّين إلى جانب الوسطيين، والقوميين، والليبراليين، والناشطين غير المنتمين. ومع أن الجماعات ذات التوجه الإسلامي، كالإخوان المسلمين والسلفيين، ستكون إحدى ركائز النظام ما بعد

الاستبدادي، غير أن ما يجمعها بـ «القاعدة» ضئيل جداً، كما أنها ستكون واحدة من بين جماعات عدة متنافسة.

وعليه، فقد أكدت الثورات ما كان يعلمه الكثير منّا علم اليقين، وهو: أن جوهر أيديولوجيا «القاعدة» لا يتسق مع التطلعات الشاملة للعرب. فالعرب والمسلمون لا يكرهون أمريكا والغرب، بل هم معجبون بمؤسساتهم الديمقراطية، بما فيها الانتخابات الحرّة، والتداول السلمي للسلطة، والفصل بين السلطات. وملايين العرب المعنيين لم يحرقوا أعلاماً أمريكية أو غربية، ولا نحوا غالباً باللائمة على الغرب لأوضاعهم الصعبة. كذلك لم يخاطب بن لادن ولا خليفته اليوم، الظواهري، الأمة (أي مجموع الجماعة الإسلامية)، أو مارسا أي نفوذ على الرأي العام العربي.

ثانياً: انحسار قدرات القاعدة

ما الذي يتبقّى من «القاعدة»، إذاً؟ القليل. هي باتت الآن مؤلفة من عُصب جوّالة تقبع في المناطق القبلية في جبال باكستان وأوديتها على الحدود الأفغانية (حيث كان يُظن أن بن لادن يختبئ)، أو في المناطق النائية من اليمن عند الحدود السعودية، كما في وسط الصحراء الأفريقية والمغربية، وأفعالها تشير على نحو متزايد إلى نمط من العشوائية. كما أن قيادتها باتت أكثر اعتماداً على متطوعين غير مجرّبين، وعلى منتسبين يفتقرون إلى المهارة.

قلّة في الغرب ـ ومن الأمريكيين خصوصاً ـ من يعتقد أن مخاوفه من الإرهاب تستند إلى واقع حقيقي. ومع ذلك، فإن الخطر الذي يستشعرونه من «القاعدة» غدا نمطاً في الحياة. فقنوات الإعلام الرئيسية تحول دون أي نقاش حقيقي في الموضوع، ولا تعطي الأصوات البديلة أو الناقدة الوقت أو المجال الكافيين. وبات كل حدث، مهما كان هامشياً، يأخذ حجماً يفوق حجمه الفعلي، وباتت وظيفته أن يعزّز من القلق والخوف المرضي من الإرهاب عموماً، ومن «القاعدة» على وجه الخصوص. لكن الأخطر من ذلك، هو أن الساسة الغربيين، وبخاصة الأمريكيين مرة ثانية، يتقبلون من دون نقد هذا الاجتزاء في خطر «القاعدة» الافتراضي؛ فهو ببساطة يبرر مهنتهم ويوفر لهم فرصاً سياسية لتأكيد قدرتهم على التأثير في السياسة الخارجية، وفي استراتيجية الأمن القومي.

وفيما لجأت إدارة بوش إلى هذا التصوير المقصود والأيديولوجي إلى حدّ

كبير لقدرات القاعدة «الكليّة» التي لا تُقهر، والذي روّجت له بالفعل، ذهب الرئيس أوباما مذهباً ألطف قليلاً جعله في الوسط بين تغيير لغة سلفه ومفردات «الحرب على الإرهاب» وتبني «استراتيجيا جديدة» تمثّل استمراراً بنيوياً للسياسة الخارجية للولايات المتحدة. صمّمت تلك الاستراتيجيا لطمأنة الأمريكيين إلى أن الرئيس وإدارته، و«في مواجهة خطر الإرهاب المستمر والمتزايد»، سيبذلان «جهوداً لا تلين ولا تضعف لإلحاق الهزيمة بالقاعدة وحلفائها وتمزيقهما»[١]. وقالت هيلاري كلينتون، وزيرة الخارجية، إنه «بالنسبة إلى معظمنا» تمثّل «القاعدة» وحلفاؤها ـ الشبكات العابرة للحدود الدولية ـ خطراً داهماً على أمن الولايات المتحدة يفوق ما تمثله إيران وكوريا الشمالية[٢]. ورغم أنها تعني بعبارة «معظمنا» مؤسسة السياسة الخارجية والأمن في الولايات المتحدة تحديداً، لكن كلينتون لا ترى ضيراً في الافتراض ضمناً أن الغرب بكامله يواجه خطراً استراتيجياً من «القاعدة».

وعلى نحو مشابه، أكد الرئيس أوباما أن الخطر الذي تمثله الجماعات الإرهابية الشريرة يفوق ذاك الذي تمثله كوريا الشمالية وإيران. وقد مثّلت جهود «القاعدة»، بحسب أوباما، لامتلاك أسلحة نووية «أعظم خطر منفرد واجهه أمن الولايات المتحدة ـ على المدى القصير ـ كما على المديين المتوسط والبعيد»[٣]. ويضيف أوباما: «نحن نعلم أن منظّمات مثل «القاعدة» تسعى، أو هي في الطريق، إلى محاولة امتلاك سلاح نووي ـ سلاح دمار شامل سوف لن يتردّدوا في استخدامه». وأضاف: «إذا كان لتفجير مثل هذا أن يحصل في مدينة نيويورك أو لندن أو جوهانسبورغ، فالعواقب ستكون بالتأكيد كارثية، اقتصادياً وسياسياً وأمنياً»[٤].

ومن أجل تحضير الأمريكيين لإمكانية ورود أخبار سيئة، يعترف المحامي

---

(١) «A New Approach to Safeguarding Americans,» remarks by John O. Brennan, Assistant to the President for Homeland Security and Counterterrorism-as prepared for delivery (Center for Strategic and International Studies, Washington, DC), The White House, Office of the Press Secretary (6 August 2009).

(٢) Eamon Javers, «Clinton: Al Qaeda More «Agile»,» *Politico* (2 July 2010), <http://www.politico.com/news/stories/0210/32633.html> (with video clip).

(٣) Ross Colvin and Caren Bohan, «Obama: Al Qaeda Bid to Go Nuclear Is Top «Threat»,» Reuters, 11 April 2010, <http://www.reuters.com/article/idUSTRE63A1YJ20100412>.

(٤) المصدر نفسه.

العام لأوباما، أريك هولدر، أن خطر وجود إرهابيين نشأوا في الولايات المتحدة «يجعله لا ينام الليل». ففي مقابلة مع برنامج «صباح الخير أمريكا» من الـ «ABC»، يحذّر هولدر الأمريكيين من أن التهديد الإرهابي موجود بقوة، وعلى نحو مباشر، يقول: «ما أحاول فعله في هذه المقابلة هو جعل الأمريكيين مدركين لواقع أن الإرهاب حقيقي، إرهاب مختلف، ومستمر». وأضاف: «لقد تغيّر الإرهاب من مجرد القلق من أفراد أجانب يأتون إلى بلادنا، إلى قلق من أناس هم من سكان الولايات المتحدة، مواطنين أمريكيين، نشأوا هنا، ولدوا هنا، ولسبب ما قرروا أن يصبحوا متطرفين ويحملوا السلاح ضد البلد الذي ولدوا فيه»[٥].

تظهر تصريحات أوباما، وكلينتون، وهولدر أن «حديث الإرهاب»، كما سأدعوه ـ أي فكرة أن الغرب تحت تهديد الإرهاب الدائم والداهم ـ غدا مكوناً مؤسساتياً بين صنّاع السياسات، ومسؤولي الحكومات، والآن لدى الرأي العام. ويمكن أن يُنسب الفضل في مثل هذا التحوّل إلى المحافظين الجدد في أمريكا. وفي الحقيقة، فلعل الإرث الأكثر ديمومة الذي تركه المحافظون الجدد لسياسة الولايات المتحدة الخارجية، ليس الحرب العراقية ـ وهو التورط الأمريكي الذي يسعى الرئيس أوباما إلى إنهائه مع نهاية عام ٢٠١١ ـ وإنما التحوّل في المزاج الأمريكي بعد ١١ أيلول/ سبتمبر.

ثالثاً: «القاعدة» واستخدام السلاح النووي

لكن الصحيح، في هذا الباب، هو أن السيناريو المنطقي الوحيد الذي يمكن من خلاله تصوّر امتلاك «القاعدة» لسلاح نووي هو أن تصنّعه بنفسها. غير أن احتمالاً كهذا سيكون مفاجئاً جداً مقارنة بقدرات مجموعة لم تظهر في هجماتها أية إمكانيات تدل على تطور تقني متقدم. ومع الافتراض أن في وسع «القاعدة» أن تحصل على التقدم التقني اللازم لصنع قنبلة نووية ـ وهذا من باب الخيال ـ يبقى أنه تنقصها القدرة العملية لتطوير مثل هذا السلاح، ناهيك عن توفير مكوّناته الضرورية[٦]. وفي العام الماضي، نشرت مجموعة من خبراء حظر

---

(٥) Lucy Madison, «Attorney General Eric Holder: «Threat of Homegrown Terrorism «Keeps Me Up at Night»,» ABCNews.com, 23 December 2010.

(٦) John Mueller, *Atomic Obsession* (New York: Oxford University Press, 2010), pp. 155-236.

انتشار الأسلحة النووية بياناً صرّحوا فيه أنه ما من معلومات عن حالات حصلت فيها مجموعات إرهابية على مواد ـ يورانيوم مخصّب أو بلوتونيوم ـ يمكن أن تستخدم حتى في صنع سلاح نووي بدائي. وقد لاحظوا أنه وقعت منذ أوائل تسعينيات القرن الماضي ثماني عشرة حالة سرقة أو اختفاء لمواد نووية، إلا أن جميعها قد حدث قبل قيام «القاعدة» وتبلورها الكامل، ومن غير المتوقع بالتالي، إلى الحدّ الأقصى، أن تكون قد حصلت على أي من المواد تلك(٧).

وإلى ذلك، فتمويل تصنيع قنبلة نووية هو فوق قدرات «القاعدة». ويقدّر بيتر زيمرمان، وهو فيزيائي نووي، وجفري لويس، وهو متخصّص نووي من معهد كيندي، بتحفّظ، كلفة بناء قنبلة واحدة بعشرة ملايين دولار(٨)، فيما لم تمتلك «القاعدة» في ذروة نجاحها في أواخر التسعينيات ميزانية أسلحة دمار شامل لعمل فردي تفوق الثلاثة آلاف دولار(٩).

وإذا افترضنا (وهذا غير مرجّح) أن «القاعدة» قد حصلت على المواد والتمويل المطلوبين، فإن الوقائع الصريحة التي تلي ذلك لا قِبلَ لهم بها. يلاحظ جون ميلر، الخبير في إمكانيات «القاعدة» النووية، أن التنظيم ذاك عليه أن يتعامل مع ما لا يقلّ عن عشرين سيناريوهاً تكنولوجياً مختلفاً لإكمال إنتاج ونشر قنبلة واحدة، وهو ما يمثل تحدياً لبلد كإيرانَ. وحتى لو حدث أن سمحت جهة ما للقاعدة للإفادة من فرصة ٣٠ بالمئة في تخطّي كلّ من السناريوهات العشرين لإنتاج القنبلة، تبقى نسبة نجاح نشر قنبلة واحدة في

---

(٧) Scott Wilson and Mary Beth Sheridan, «Obama Leads Summit's Nuclear Security Efforts: «This Is Truly a Global Issue» Challenge Is in Persuading Others,» *Washington Post*, 11/4/2010, and Colvin and Bohan, «Obama: al Qaeda Bid to Go Nuclear Is Top «Threat»».

(٨) Peter D. Zimmerman and Jeffrey G. Lewis, «The Bomb in the Backyard,» *Foreign Policy*, vol. 85, no. 6 (November-December 2006), pp. 32-39.

بحسب موللر، وزيمرمان، ولويس أن الكلفة تنخفض كثيراً: سيكون المتآمرون محظوظين بشراء ثلاثة رجال بمثل هذا المبلغ، وهو ١٠ ملايين دولار. أكثر من ذلك، الإرهابيون يحتاجون إلى أن يعرضوا أهدافهم القصوى، وبعضها الفاسد على الأقل. وفي النقطة تلك، إن لم يكن قبل ذلك، سوف يتحوّلون إلى ضحايا. هم لا يستطيعون أن يتركوا أناساً غير موثوقين على معرفة بأهدافهم (مع أن في وسعهم محاولة قتلهم)، وهكذا أناس سوف تكون لهم القدرة على احتكار السلطة لرفع أسعارهم. كلفة العملية مع الرشوة يمكن أن تصبح بسهولة ١٠ أضعاف الكلفة التي افترضها زيمرمان ولويس، وحتى ساعتذاك، يلاحظ موللر أن هناك قدراً عالياً من المخاطرة بأن المشترين قد يقرّرون في لحظة ما أن يأخذوا المال ويختفون، وهو ما يضع السلطات التي تمثل الحكومة اليائسة أمام احتمالات أخرى لإنفاق لا حدّ له لوقف المخطط النووي واعتقال أو قتل المعدّين له. انظر: Mueller, Ibid., p. 178.

(٩) Mueller, Ibid., pp.155-236.

حدود واحد من ثلاثة مليارات[١٠]. وعلى ذلك، يغدو من الأسرار العصيّة على الفهم كيف يمكن لعصبة من المتطرفين الملاحقين ـ ومعظمهم هاربون وتحت النار في منطقة القبائل الباكستانية على حدود أفغانستان ـ أن تكون «في الطريق لمحاولة امتلاك سلاح نووي»، ما يسمح لها بالتالي أن يكون في وسعها تهديد مدينة غربية كبرى. وهكذا، فلا دليل البتّة على قدرة «القاعدة» أو على إمكانية وصولها استراتيجياً إلى درجة التهديد السابق، ولا يحتاج الأمر إذاً إلى براهين أو نقاشات إضافية. ومع ذلك، فلا يني الإعلام يلحّ ويكرر نغمة التحذير متجنّباً في الوقت عينه إخضاع هذه الأخبار لأي نقد أو مساءلة، ومعزّزاً بالتالي على نطاق واسع من صورة «القاعدة» ذات القدرات الخارقة.

وحين كان الاتحاد السوفياتي في مراحل أفوله الأخيرة، استمر معظم مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية ـ في المعسكر الجمهوري، على وجه الخصوص، مع تيار لا بأس به من المثقفين والمعلّقين الإعلاميين ـ في الاعتقاد بقوة أن السوفيات يزدادون نفوذاً، ويظهرون المزيد من التهديد للغرب. وتبيّن بعد ذلك أن تقييمات الاستخبارات الأمريكية في هذا الصدد كانت، وفي الغالب، مجرد اختلاقات هدفت إلى ترسيخ فكرة الإنذار. وحتى حين بلغ ضعف السوفيات درجة لم تعُد تخفى على أحد، استمرت التقييمات تلك في اعتبار الأمر مجرد خدعة من موسكو لجعل الغرب يخفّض من درجة حذره.

والتشابه واضح بين الصورة التي كانت سائدة عن الاتحاد السوفياتي إبّان «الحرب الباردة» وصورة اليوم عن «القاعدة». فعدد من المسؤولين الأمريكيين الحاليين كانوا في السابق من المتخصّصين بالشأن السوفياتي، وهم إنما يرون الحرب على الإرهاب اليوم من خلال منظار «الحرب الباردة». وما من طريقة في إيضاح الاستمرارية بين «الحرب الباردة» و«الحرب على الإرهاب» أفضل من تفحّص الأولوية التي يوليها فريق أوباما للأمن القومي لقضية الإرهاب. فحين كان الرئيس، القائد الأعلى، وخلال حقبة الحرب الباردة، يسافر بعيداً عن البيت الأبيض، كان مساعدوه للشؤون السوفياتية والحرب النووية بمثابة الظلّ له، يصحبونه في كل مكان. واليوم، يفعل مستشاروه في مكافحة الإرهاب الأمر عينه. لقد حلّ خطر الإرهاب، في الموقف الأمريكي الرسمي الدولي، بديلاً للخطر النووي.

---

(١٠) المصدر نفسه.

رابعاً: صراع الغرب مع «الإرهاب الإسلامي»

باختصار، لقد غدا الإرهاب لكثير من مسؤولي الحكومات وصنّاع السياسة الغربيين في «المستوى الأول»[(١١)]. وحلّت فكرة «الإرهاب الإسلامي» محل أفكار مثل «إمبرطورية الشر» أو «الشيوعية السوفياتية». وتضاعفت بالتالي نفقات إعلان «الحرب على الإرهاب»، وهي توشك أن تبلغ على نحو مباشر وغير مباشر ٥ تريليونات دولار. والصراع الأطول بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي السابق، بل ما هو جارٍ اليوم في أفغانستان. وحتى مع خروج بن لادن من الصورة، فما من نهاية وشيكة في الأفق[(١٢)].

(١١) حول التهديد من المستوى «أ»، انظر: Ashton B. Carter and William J. Perry, *Preventive Defense: A New Security Strategy for America* (Washington, DC: Brookings Institution Press, 1999), pp. 11-15, and Joseph S. Nye, Jr., «Redefining the National Interest,» *Foreign Affairs*, vol. 78, no. 4 (July-August 1999).

(١٢) John Mueller and Mark G. Stewart, *Terror, Security, and Money: Balancing the Risks, Benefits, and Costs of Homeland Security* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2011).

يقدّر مارك ستيوارت وجون مولر في كتابهما أن الكلفة المتزايدة للحرب على الإرهاب زاد مجموع نفقاتها الداخلية على تريليون واحد من الدولارات. يضاف إليها أكثر من ٢ تريليون عمليات خارجية، وربما ضعف ذلك أيضاً. ويقدر جوزف ستيغليتز وليندا بيلميز أن النفقات المباشرة وغير المباشرة للحرب العراقية سوف تصل إلى ٣ تريليونات، ويقولان إن تقديراتهما متحفظة: إذ يجب أن يضاف ٦٠٠ بليون دولار رعاية صحية طوال العمر لجرحى الحرب الأمريكيين، و٤٠٠ بليون خسائر عمال في الاقتصاد، جرحى أو انتقلوا إلى الحرس الوطني، و٦٠٠ بليون دولار فوائد على المال المقترض لإدارة الحرب، من ١ إلى ٢ تريليون خسائر على المستوى الماكرو اقتصادي. انظر: Linda Bilmes and Joseph Stiglitz, *The Three Trillion Dollar War: The True Coast of the Iraqi Conflict* (New York: W. W. Norton and Company, 2008).

وقد خصص الكونغرس ١,٠٥ تريليون دولار لحربي العراق وأفغانستان، انظر: «Notes and Sources: Cost of War Counter,» National Priorities Project, <http://www.nationalpriorities.org/cost-of-war-counter-notes>.

منذ ٢٠٠٨ أنفقت الولايات المتحدة أكثر من ٣٠٠ بليون دولار على الوزارة الجديدة التي أنشئت بعد ٩/١١ (شؤون الأمن الداخلي)، وهي وزارة دفاع ثانية. ولا يتضمن الرقم ما أنفقته الحكومة أو القطاع الخاص على الأمن الداخلي. إلى ذلك تجاوز إنفاق الولايات المتحدة على وسائل مكافحة الإرهاب (فدرالية، وزارات، محلية... إلخ) تريليون دولار. انظر: John Mueller, «Terrorphobia: Our False Sense of Insecurity,» *American Interest* (May-June 2008), <http://www.the-american-interest.com/article.cfm?piece=418>.

إلى ذلك، فإن «تقدير الإنفاق الفدرالي المتزايد للولايات المتحدة على الأمن الداخلي منذ عام ٢٠٠١ يشير إلى ارتفاع كلفة حماية الفرد الواحد من مليون واحد إلى ١٠ ملايين دولار. وارتفعت النفقات قياساً بالفرص إلى ٣٢ بليون في السنة، والأرجح أن أرواحاً أكبر كانت ستنقذ لو وظفت هذه الأموال في برامج أخرى غير الحرب». انظر: M. G. Stewart and J. Mueller, «Assessing the Costs and Benefits of United States Homeland Security Spending,» Research Report no. 265.04.08, Centre for Infrastructure and Reliability, University of Newcastle, Australia.
=

ومثل «التجمّع العسكري - الصناعي» الذي حذّر منه الرئيس دوايت أيزنهاور أثناء الحرب الباردة، والذي ألحّ على بناء أسلحة نووية لردع الاتحاد السوفياتي، ينشأ اليوم، ومنذ ما بعد ١١ أيلول/ سبتمبر «تجمّع أمن وطني» مشابه جديد[١٣]. وكشف تحقيق استقصائي على مدى سنتين، إلى صحيفة **الواشنطن بوست** وجود «أمريكا سريّة عليا» فرّخت في عشر سنوات لتشمل ١٢٧١ منظمة حكومية، و٢٠٠٠ شركة خاصة تقريباً، تعمل على مكافحة الإرهاب في ١٠,٠٠٠ موقع في طول الولايات المتحدة وعرضها، يعمل فيها ٨٥٤,٠٠٠ شخص على الأقل - أي أكثر من مرة أو مرة ونصف من عدد سكان واشنطن العاصمة - يحملون تصاريح أمنية عالية السرية (حتى عمال النظافة يحملون تلك التصاريح الأمنية العالية السرية بسبب المكان الذي يعملون فيه). وارتفعت ميزانية وكالة الاستخبارات الأمريكية من ٤٠ مليار دولار سنة ٢٠٠١ إلى أكثر من ٨٠ مليار دولار سنة ٢٠١١، من دون احتساب عدد من الأنشطة العسكرية، وبرامج مكافحة الإرهاب المحلية. وتتجاوز الثمانون مليار دولار كثيراً مبلغ الواحد والخمسين مليار دولار الذي أنفق سنة ٢٠١٠ على وزارة الخارجية وبرامج المساعدة الأجنبية[١٤].

= منذ ١١/ ٩ ارتفعت نفقات ميزانية الدفاع الأمريكية ضد الإرهاب، خصوصاً دول الخطوط الأمامية في الحرب على الإرهاب - باكستان، أفغانستان، اليمن، تركيا، الأردن، لبنان، إندونيسيا، الفيليبين، وسواها - وفق صيغة دعم الحلفاء التي كانت سائدة في الحرب الباردة. وعلى سبيل المثال، فإن المساعدة في التنمية تضاعفت ٣ مرات تقريباً لتصل إلى ١٠ بلايين دولار سنة ٢٠٠٠، ثم ٢٨ بليوناً سنة ٢٠٠٥. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٩ خصص الرئيس أوباما ميزانية إنمائية بقيمة ٧,٥ بليون لباكستان. انظر: Stephen Kaufman, «Bush's Budget Request Would Continue Increase in Foreign Aid: USAID Administrator Says U.S. Aid Has Nearly Tripled Since 2000,» America.gov, 5 February 2007, <http://www.america.gov/st/washfile-english/2007/February/20070205173017esnamfuak8.193606e-02.html#ixzz0i9F93xof>; Jim Lobe, «U.S. Foreign Aid Budget Takes on Cold War Cast,» Inter Press Service (IPS News), 3 February 2004, <http://www.ipsnews.net/interna.asp?idnews=22232>, and «Obama Signs Big Pakistan Aid Bill,» BBC News, 15 October 2009, <http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/americas/8309643.stm>.

(١٣) هناك حجم كبير من أدبيات الخارجية حول البيروقراطيات وميلها الطبيعي إلى التزايد والتضخم. ويبيّن الباحثون أن البيروقراطيات الحكومية تطور ضغوطاً داخلية للتضخيم الذاتي والتوسّع. انظر: William A. Niskanen Jr., *Bureaucracy and Representative Government* (Chicago, IL: Aldine-Atherton, 1971); Hugh Heclo and Aaron B. Wildavsky, *The Private Government of Public Money: Community and Policy Inside British Politics* (London: Macmillan, 1974); Anthony Downs, «A Theory of Bureaucracy,» Rand Paper (1964), and Daniel Tarschys, «The Growth of Public Expenditures: Nine Modes of Explanation,» *Scandinavian Political Studies*, vol. 10 (1975).

(١٤) Dana Priest and William Arkin: «Top-Secret America: A Hidden World, Growing beyond Control,» (Part 1), *Washington Post*, 18/7/2010; «Top-Secret America: National Security Inc.,» (Part 2), =

وبحسب سلسلة مقالات **الواشنطن بوست** التي نشرت في صيف ٢٠١٠، «أضحى العالم السرّي جداً، الذي خلقته الحكومة رداً على هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر الإرهابية، ضخماً جداً، ثقيل الحركة، وسريّاً جداً إلى درجة أنه ما من أحد يعرف كلفته المالية، أو عدد الناس الذين يوظّفهم، وكم برنامجاً يحتوي، وما عدد الوكالات التي تقوم بالعمل نفسه»[١٥]. وقد رصدت الدراسة التوسع الهائل في المجمّع الأمني الوطني، فلاحظت أنه في نهاية عام ٢٠٠١ كان قد جرى خلق ما لا يقل عن ٢٤ مؤسسة، من بينها وزارة الأمن الداخلي والقوة الخاصة لتعقب أصول الإرهاب الأجنبي. وفي السنة التي تلت، جرى خلق ٣٧ هيئة إضافية ـ «للتقصي عن أسلحة الدمار الشامل، وجمع المعلومات السرية المتعلقة بالإرهاب، والتنسيق بين الجهات المعنية بمكافحة الإرهاب». ثم أضيف إلى العدد السابق ٣٦ هيئة جديدة سنة ٢٠٠٣، و٢٦ أخرى جديدة سنة ٢٠٠٤، و٣١ أخرى سنة ٢٠٠٥. وأنشئت في السنوات ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ و٢٠٠٩ على التوالي، ٣١، ٣٢، و٢٠ هيئة جديدة[١٦].

ورغم التضخم ذاك، تبقى البيروقراطية الأمنية التي نشأت بعد ١١ أيلول/سبتمبر غير مرئية في الغالب من الناس الذين أخذت على عاتقها حمايتهم. وهي، إلى ذلك، غير فعّالة إلى حدّ بعيد. فهناك ما لا يقل عن ٥١ وكالة فدرالية وقيادات عسكرية تعمل في ٥١ مدينة أمريكية، ومهمتها تقصّي أثار أية تحويلات مالية من وإلى الشبكات الإرهابية. وتقوم تقاريرهم بتدوير المعطيات نفسها، بكميات تتجاوز قدرة أي كان على تحليلها. وتعترض أنظمة جمع المعلومات في وكالة الأمن القومي يومياً ١,٧ مليار رسالة إلكترونية، واتصال هاتفي، وأنواع اتصالات أخرى، وتقوم بتصنيفها وخزنها. وينشر المجمّع ٥٠ ألف تقرير سنوياً ـ وهو عدد هو من الضخامة بحيث إن بعضه بات لا يلتفت إليه أحد. وأدخلت الحكومة أخيراً أحدث أنواع التكنولوجيا في جهد يهدف إلى تحليل هذا الكمّ الهائل من المعلومات. وفي مقابلة مع **الواشنطن بوست**، اعترف وزير الدفاع، روبرت غايتس، الذي استقال للتوّ،

= *Washington Post*, 20/7/2010; «Top-Secret America: The Secrets Next Door,» (Part 3), *Washington Post*, 21/7/2010, and Kimberly Dozier, «Total U.S. Intelligence Bill Tops $80 Billion,» Associated Press, 28 October 2010.

(١٥) Priest and Arkin, «Top-Secret America: A Hidden World, Growing beyond Control».

(١٦) المصدر نفسه.

بالتحدّي الكبير الذي يتطلبه الحصول على معلومات دقيقة و«صعوبة» ذلك[١٧].

ورغم التوسع المشهود للآلة الأمنية، فقد أشارت **الواشنطن بوست** إلى أن تلك الآلة فشلت في استباق مؤامرات وهجمات خطيرة عدة ضد الأمن الداخلي الأمريكي، من مثل إطلاق النار في فورت هود، في تكساس، الذي خلّف ١٣ قتيلاً، والقنبلة المخبأة في الثياب الداخلية، أو ما يعرف بمحاولة الهجوم بقنبلة عيد الميلاد لسنة ٢٠٠٩، التي لم يعترض طريقها واحد من المليون شخص تقريباً العاملين في أجهزة أمنية رفيعة موظفة لتقصّي أية إشارة إرهابية والتصدّي لها، وإنما كشفها راكب عادي مسافر على رحلة جوية لفت نظره الدخان المتصاعد من حذاء مسافر آخر إلى جانبه. وفي قنبلة «تايمز سكواير» في نيويورك كان جرس إنذار عادي هو الذي نبّه الشرطي إلى رؤية الدخان المتصاعد من السيارة الرباعية الدفع المركونة.

والمقلق، على وجه الخصوص، الفشل في منع حامل «قنبلة عيد الميلاد»، عمر فاروق عبد المطلب، من ركوب الطائرة الأمريكية من أمستردام، رغم التحذير المسبق حول هجوم ينطلق من اليمن من مواطن جزائري. ويعلّق أوباما: «لقد حدث فشل كامل، وأنا أعتبر ذلك أمراً غير مقبول كلياً»، والمقصود المحاولة الفاشلة التي اتهمت السلطات بها عبد المطلب في محاولته تفجير طائرة مدنية لشركة «نورث وست آيرلاينز»، فيما كانت تستعد للهبوط في ديترويت، ميشيغان[١٨]. كانت لدى الحكومة الأمريكية معلومات تكفي لاكتشاف هذه المؤامرة ووأدها، لكن جماعة الاستخبارات فشلت في الربط بين المعطيات. ويخلص أوباما إلى أننا «يجب أن نتعلّم مما جرى والتصرف بسرعة لإصلاح الثغر في نظامنا، لأن أمننا على المحك وأرواح مواطنينا على المحك أيضاً»[١٩].

وفيما كان مسؤولو الاستخبارات، بحسب **الواشنطن بوست**، يبلغون الكونغرس أن النظام ذاك قد تضخّم إلى الحدّ الذي ضاعت فيه حدود المسؤوليات، كانت ردّة الفعل رمي المزيد من المال فيه، وإنشاء هيئات أخرى.

---

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) «Obama: Human, Systemic Failure to Blame in Terror Attempt,» CNN.com, 30 December 2009, <http://edition.cnn.com/2009/POLITICS/12/29/airline.terror.obama/Index.html>, and «Obama on Intel System: «This Was a Screw-Up»,» CNN.com, 6 January 2010, <http://edition.cnn.com/2010/POLITICS/01/05/obama.terror.meeting/index.html>.

(١٩) «Obama on Intel System: «This Was a Screw-Up»,» CNN.com.

وقبل استقالته، أبلغ مدير الاستخبارات القومية، الأدميرال دنيس بلير، الكونغرس أنه بحاجة إلى المزيد من المال ومن المحلّلين لتفادي أخطاء أخرى. وأبلغت وزارة الأمن الداخلي، بالمثل، عن الحاجة إلى المزيد من المراقبين على الرحلات الجوية، ومن أجهزة الكشف على المسافرين، ومن المحلّلين، رغم اعترافها بعجزها عن إيجاد الأفراد الكفوئين لملء الوظائف التي حصلت على التمويل الضروري لها[٢٠]. وكان الرئيس أوباما قد قال إنه لن يجمّد الإنفاق على الأمن القومي، ملمحاً على الأرجح إلى أن طلبه المزيد من المال والأفراد سيجري تلبيته. وبعد مقتل بن لادن، سارع المسؤولون الأمريكيون وخبراء الإرهاب إلى التحذير من أن الحرب على «القاعدة» لم يتحقق النصر فيها بعد. وقالت وزيرة الخارجية، كلينتون، إنه بالرغم من موت بن لادن، تبقى «القاعدة» مصدراً لتهديد جدّي. وأضافت كلينتون إن الولايات المتحدة ستواصل عملياتها العسكرية ضد المسلّحين، الأمر الذي يعني أن حديث الإرهاب مستمر في الهيمنة على كل نقاش، وكذلك تستمر «القاعدة» مجالاً واسعاً للاستثمار[٢١].

خامساً: دراسة «الإرهاب»

وغدت «القاعدة» أيضاً استثماراً كبيراً في قطاع التعليم. فقد افتتحت برامج وصفوف جديدة في الجامعات والمعاهد الغربية لدراسة الإرهاب. وبات هناك طلب كبير على دراسة الإرهاب، كما أن هناك الكثير ممن يتشوّقون لتلبية هذا الطلب. ويبقى المال الأساس للطلب، كما للعرض، كما تستمرّ الحكومة الفدرالية في توفير المال. في الوقت نفسه، ومن باب المفارقة، بات الباحثون المتخصّصون الراسخون في الشرق الأوسط يخلون الساحة، لأنهم يرون تلك النقاشات مريبة سياسياً، ويتركون المجال لـ «خبراء» الإرهاب في المراكز الفكرية ومؤسسات البحث المعنية.

ومع ذلك، فما من أداة قياس لحجم الطلب على دراسة الإرهاب أفضل من مراجعة أعداد طلاب الدراسات العليا ومرشحي الدكتوراه الذين باتوا يتخصّصون في هذا الحقل. ففي سنة ٢٠٠٩ حين وصلتُ إلى «مدرسة لندن

(٢٠) Priest and Arkin, «Top-Secret America: National Security Inc.».

(٢١) Mark Mazzetti and Scott Shane, «Data Show Bin Laden Plots: C.I.A. Hid Near Raided House,» New *York Times*, 5/5/2011.

للاقتصاد والعلوم السياسية» كان معظم طلبات التسجيل للطلاب القادمين من البلدان الغربية قائماً في موضوعات متصلة بمكافحة الإرهاب والإسلام المتشدّد. و«مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية»، في هذا الصدد، كما في أعلى الجامعات الغربية الأخرى، هي القاعدة لا الاستثناء. فالدارسون المرشحون للتخرّج إنما يلتحقون ببساطة حيث هناك تمويل للأبحاث وفرص عمل مستقبلية في الجامعات والوظائف الأكاديمية، وهي وفيرة في الموضوعات المتصلة بالإرهاب. هناك إذاً علاقة سببية بين مجمّع الأمن القومي ومليارات دولاراته من جهة، وتدريب جيل جديد من الخبراء من جهة أخرى. ومن الطبيعي بالتالي، أن يكون هؤلاء الذين يتصل شريان حياتهم بآلية الأمن القومي، والذين يؤدون لحسابها وظائف مكمّلة، ضد أي طرح بديل في موضوع الإرهاب.

ويؤدي المقاولون من القطاع الخاص دوراً مباشراً وفعّالاً في استمرار آلة الأمن القومي، أكثر من الخبراء الذين يحتفظ كثير منهم ببعض الاستقلال المؤسسي والمالي. فقد كشفت سلسلة مقالات **الواشنطن بوست**، التي مرّ ذكرها، عن ضخامة عدد المتعاقدين من القطاع الخاص الذين يؤدون وظائف عدة، من بينها قتل جنود الأعداء، والتجسّس على المقيمين من جنسيات أجنبية، وتعقّب الإرهابيين، وقيادة الطائرات الحربية. ويقدّر أن من أصل ٨٥٤,٠٠٠ شخص يعملون في مهام أمنية ذات صلة، هناك ٢٦٥,٠٠٠ شخص يعملون وفق عقود عمل خاصة، أي حوالى ٣٠ بالمئة من إجمالي العاملين في القطاع.

إلا أن خصخصة الأمن القومي تثير أسئلة جدّية حول الصراع الداخلي الضمني بين الولاء للبلاد أو لحملة الأسهم. وقد أسهمت التصرّفات الخاطئة لبعض المتعاقدين في العراق وأفغانستان في الإضرار بصدقية الولايات المتحدة على مستوى العالم[٢٢]. فإساءة معاملة المعتقلين في سجن «أبو غريب» في العراق، التي قام ببعضها متعاقدون، أثارت دعوات إلى الانتقام من الولايات المتحدة، وهي تستمر إلى اليوم، تماماً كما حالة قتل المدنيين العراقيين التي ارتكبها أشخاص متعاقدون من شركة «بلاك ووتر» الأمنية. وقد أصبحت كلتا الحالتين، وستبقيان، رمزاً للتهوّر الأمريكي[٢٣].

---

(٢٢) من أجل نظرة أقوى على سياسة خصخصة الأمن القومي، انظر: Peter W. Singer, *Who Provides an Excellent Overview in his Work Corporate Warriors: The Rise of the Privatized Military Industry* (Ithaca, NY: Cornell Security Studies, 2003).

(٢٣) المصدر نفسه.

ويشبّه أحد المحافظين النافذين في لجنة الخدمات في مجلس الشيوخ خصخصة الأمن القومي بعملية خلق «كائن حيّ، يتنفّس». ويضيف: «نحن بنينا هذه الآلة الكبيرة، فماذا ستفعلون بها؟»[٢٤]. لم يحدث قطّ أن نشأ ما يشبه مثل هذا المجمّع الأمني القومي في الغرب، حتى في ذروة الحرب الباردة، حين كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يخوضان حروباً بالوكالة في أنحاء العالم من فيتنام إلى أفغانستان. ويساعدنا التاريخ في إيضاح الصورة تلك؛ فقد امتلك الاتحاد السوفياتي في ذروة قوته ١٠,٠٠٠ قنبلة نووية، وجيشاً مؤلفاً من ملايين الجنود، وآلاف الطائرات الحربية، والغواصات، والعربات المدرّعة، والدبابات، التي كان في مقدورها تدمير الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين مرات عدة. في مقابل ذلك، لم يزد عديد أفراد «القاعدة»، في ذروة سطوتها في أواخر التسعينيات، على ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ مقاتل[٢٥]. وبالطبع، لا يملك «جيش» القاعدة فيالق أو مقاتلات أو دبابات ثقيلة، وهو دون أسلحة الدمار الشامل بأشواط بعيدة.

تعتقد وكالات الاستخبارات الأمريكية والغربية أن هناك في مكان ما، في باكستان وأفغانستان بشكل رئيسي، حوالى ٣٠٠ عنصر من «القاعدة»، وحيث يوجد للولايات المتحدة ما يقارب ١٠٠,٠٠٠ جندي[٢٦]. وقد قُتل أو اعتقل معظم العناصر الفاعلة الكفوءة في «القاعدة»، وكذلك القادة الميدانيون فيها، ما استنفد من صفوفها أحسن مقاتليها وإدارييها، وحرمها من قدرات ميدانية أساسية. ومعظم من تبقّى من أفراد «القاعدة» الآن يعملون طهاةً، أو سائقين، أو حراساً شخصيين، أو جنوداً راجلين.

تفكّكت القيادة والسيطرة المركزيتان في «القاعدة»، وأوغل معظم قادتها الكبار في التخفي عميقاً أو بعيداً عن الأنظار، واختاروا السلامة الشخصية على الفاعلية الميدانية، وفق استخبارات الولايات المتحدة نفسها. وخلال اختبائه لخمس سنوات في أبوتاباد في باكستان، اعتمد بن لادن في الاتصال بالعالم الخارجي، كما قيل، وحصرياً - بل وعلى نحو يائس - ساعي بريد

---

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) Rohan Gunaratna and Anders Nielsen, «Al Qaeda in the Tribal Areas of Pakistan and Beyond,» *Studies in Conflict and Terrorism*, vol. 31, no. 9 (September 2008), pp. 775-807.

(٢٦) David E. Singer and Mark Mazzetti, «New Estimate of Strength of Al Qaeda is Offered,» *New York Times*, 30/6/2010.

واحداً، هو الشيخ أبو أحمد، باكستاني، مولود في الكويت (واسمه الحربي أبو أحمد الكويتي)[٢٧].

سادساً: تطوير سلاح القاعدة

وتبقى القنابل البشرية الانتحارية سلاح «القاعدة» المفضّل، إلا أن قدرتها على تنفيذ هجمات انتحارية معقّدة على طريقة ١١ أيلول/سبتمبر تضاءلت كذلك إلى حدّ كبير. ويقول المسؤولون الأمريكيون بعد مراجعتهم لملفات ووثائق الكومبيوتر التي عثر عليها في المجمّع الذي قتل فيه بن لادن، إن هناك من الأدلة ما يكفي للتأكيد أن بن لادن شجّع أتباعه، وحتى موته، على الضرب داخل الولايات المتحدة. لكن هؤلاء المسؤولين يعترفون بأن توجيهات بن لادن كانت أقرب إلى «الإيحاءات» منها إلى الأوامر الصريحة، وهي تخلو من التفاصيل[٢٨]. ومع أن من تبقّى من «القاعدة» استمر في التركيز على مهاجمة أهداف غربية، إلا أنهم باتوا يواجهون ليس فقط أمناً شديد اليقظة فقط، وإنما كذلك نقصاً عملانياً في قدراتهم ـ قيادة وتحكم على نحو صحيح، وبنية تحتية عسكرية واستخباراتية، وتسهيلات مالية، والتدريب المناسب ـ بما لا يسمح لهم بتنفيذ مخطّطاتهم الطموحة.

بالإضافة إلى ذلك، تواجه «القاعدة» الآن أزمة قيادة يمكن أن تزيد في إضعاف قدراتها. فهي حين اختارت أيمن الظواهري أميراً لها، فضّلت الاستمرارية على التغيير. وبحسب الإعلان الذي صدر، فإن اختيار الظواهري إنما يظهر الاحترام لـ «الشهداء الأبرار»، ويكرّم تراث بن لادن. وقد وعد الظواهري بدوره باستمرار الكفاح ضد القوى الغربية والثأر لابن لادن. ولكن الأكثر إثارة للانتباه هو تعهّده باستمرار التحالف مع الملاّ عمر، زعيم طالبان، في محاولة لترطيب العلاقة التي ساءت بين التنظيمين. وإلى ذلك، فلقد انطوى الاختيار على قدر من المخاطرة. فالظواهري، وكما سنرى، شخصية خلافية،

---

(٢٧) Mark Mazzetti and Scott Shane: «Data Show Bin Laden Plots: C.I.A. Hid Near Raided House,» and «Phone Call by Kuwaiti Courier Led to bin Laden,» Associated Press, 3 May 2011.

(٢٨) Jonathan Marcus, «Osama Bin Laden: At al-Qaeda's Helm in Abbottabad,» BBC.com, 12 May 2011; Pierre Thomas and Martha Raddatz, «Osama Bin Laden Operational Journal among Evidence from SEAL Raid,» ABC NEWS.com, 11 May 2011; Pete Williams, «Al-Qaeda Aspired to Attack U.S. Train on 9/11/11: Records Seized in bin Laden Raid Show Anniversary Plot under Consideration,» NBC News.com, 6 May 2011.

ولا يمتلك جاذبية بن لادن. وفي أية حال، فقد ساعده أن منافسيه على الزعامة، من مثل سيف العدل، كان ينقصهم ذكاءه، ومصداقيته الفقهية، وخبرته الميدانية.

ومع ذلك، فربما تنجح «القاعدة» ومنظمات مشابهة في تنفيذ هجوم ما على المدى القصير إلى المتوسط، نتيجة تصاعد الحرب في أفغانستان ـ باكستان، وموجة التطرف الناتجة منها، التي قد تحرّك عناصر محدودة منتمية إلى الشعبين ومقيمة في الغرب (وهناك، إلى ذلك، دافع الثأر لقتل بن لادن، الذي اعتبروه اغتيالاً أو جريمة قتل نفّذت بدم بارد). ومعظم التوقيفات الراهنة تجري لشبان باكستانيين أو أفغان. لكن الاحتمال ذاك، الذي يبدو للوهلة الأولى مقلقاً، يجب أن لا يعمينا عن محدودية التحديات التي تمثلها «القاعدة»، وعن التفكّك التدريجي والمستمر لآلتها العسكرية.

وبالمثل، فقد أظهرت الفروع المحلية لـ «القاعدة» في العراق، والسعودية، واليمن، والمغرب، وأمكنة أخرى، افتقاد «القاعدة» للسيطرة العملياتية المركزية، كما أضرّت بجهودها لكسب تعاطف المسلمين. فقد جعل استهدافها العشوائي للمدنيين الرأي العام المسلم يقف ضدها، وضد تكتيكاتها، وعقيدتها. وبحسب معظم المسلمين، فإن مواقف «القاعدة» قد جلبت الدمار للأمة[٢٩]، بل إن البعض يصرّ على أن «القاعدة» هي اختراع أمريكي، ومجرد ذريعة للتدخل في بلاد المسلمين.

سابعاً: تقبّل الرأي العام للقاعدة

لقد خسرت جماعة بن لادن ـ كما يمكن تسمية بقاياها ـ معركة الفوز بأفئدة وعقول المسلمين. وفي بلدان عدة، باتت المعلومات عن مشتبهي «القاعدة» تأتي لا من مصادر الاستخبارات والرصد وإنما من مواطنين، وأفراد الأسرة، وأصدقاء، وجيران. هذا التحوّل يظهر قوة مشاعر المسلمين العامة المعادية لجماعة بن لادن، وأن تبشيرهم بجهاد أممي قائم على العنف ما عاد يجد صداه عند المسلم العادي، وأن تنظيمهم يعاني أزمة عميقة في ما خصّ شرعيته وسلطته.

---

(٢٩) انظر أبحاث استطلاعات «PEW» أو استطلاع رأي العرب لشبلي تلحمي ٢٠١٠ على الموقع التالي:
< http//www.brookings.edu/reports/2010/0805-arab-opinion-poll-telhami.aspx >.

انظر أيضاً: John Esposito and Dalia Mogahed, *Who Speaks for Islam? What Do a Billion Muslims Really Think?* (New York: Gallup Press, 2008).

وخلافاً للأفكار الرائجة في الغرب، لم يكن هناك في أي وقت تأييد إسلامي عام ذا شأن لابن لادن ومشروعه الجهادي الأممي. فقد ظلّ هذا المشروع أشبه بظاهرة ثانوية، ولم يمتلك في أي وقت تأييداً كبيراً في المجتمعات الإسلامية[٣٠]. ومع أن العرب والمسلمين كانوا، ويستمرون متشكّكين جداً في السياسات الأمريكية والغربية، وإشعالها الحرب في أفغانستان وباكستان، فإن شريحة صغيرة فقط منهم أقرّت أو أيدّت حرباً مباشرة مع الغرب، أو قتل المدنيين. لم يدع منظّر مسلم معروف واحد أو عقائدي معروف واحد إلى مهاجمة الغرب. والصراع الداخلي ـ بين القوميين العلمانيين من جهة، والمسلمين المتشدّدين من جهة ثانية ـ غطّى أو حجب الصراع الخارجي في إطار صدام الثقافات والحضارات المزعوم.

بعد ١١ أيلول/سبتمبر، اكتشف بن لادن والظواهري وعصبتهما أن لا الجهاديين المحليين، ولا الأمة بعامة، لديهم الرغبة في الانضمام إلى القافلة. وفي الحقيقة، فقد حذّر عدد من قادة الرأي الفاعلين، ورجال الدين، والزعماء الجهاديين المحليين، من أن تصرّفات «القاعدة» المتهورة تغامر بتوريط المسلمين في حروب مكلفة وغير ضرورية، وتهدّد صميم وجود الحركة الإسلامية وفرص استمرارها. وباستثناء جيب واحد أو اثنين من مخيّمات اللاجئين، لم يعتبر العالم الإسلامي ١١ أيلول/سبتمبر نصراً، بل كارثة بالأحرى.

واليوم، وبعد حوالى عشر سنوات، كذّبت الثورات العربية السلمية، إلى حدّ كبير، زعم «القاعدة» أن الجهاد الإسلامي سوف يكون نموذج التغيير في المجتمعات الإسلامية. فالثورات هي في الإجمال سلمية، غير أيديولوجية، ما بعد إسلاموية، تقودها الطبقة الوسطى، وتضم الرجال والنساء من أعمار مختلفة وألوان مختلفة: وسطيين ليبراليين، وديمقراطيين، ويساريين، وقوميين، وإسلاميين. ورجال الدين والملالي ليسوا المفاتيح المقرّرة فيها؛ وما من آية الله خميني ينتظر ليخطف الثورة ويقبض على السلطة. وحتى التيارات الإسلامية الرئيسية، مثل الإخوان المسلمين، هم مجرد لبنة واحدة في الموزاييك الاجتماعي. لقد تركت الثورات العربية طليعيي بن لادن في الصفوف الخلفية.

كذلك تعرّض «حديث الإرهاب»، بالمقدار نفسه، لأزمة مصداقية حادة.

---

(٣٠) المصدر نفسه.

فالسؤال الحقيقي ليس لماذا يكره العرب والمسلمون أمريكا إلى هذا الحدّ، وكما أشاع المحافظون صياغته بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، بل يجب أن يكون: لماذا يحطّ أساتذة الغرب وصنّاع سياسته من حقيقة توق ملايين العرب والمسلمين إلى القيم العالمية، كحقوق الإنسان، وحكم القانون، والمجتمعات المفتوحة والمتعددة، والحريات الفردية والليبرالية؟ وجليّ يومياً، أنه بالرغم من نقد العرب لسياسات الولايات المتحدة، فالثورات العربية لا تني تظهر إعجابها بالمثل الديمقراطية[٣١].

وإلى ذلك، فقد كان الرأي المهيمن في الدوائر الغربية، ولا يزال، أن «القاعدة» تمثّل شريحة مهمة من المسلمين، كما تمثّل الإسلاميين من كل الأطياف. ولم يجر أي تمييز بين الجهاديين المحليين وأنماط «القاعدة» العابرة للحدود، أو بين «القاعدة» والإسلام السياسي، من مثل الإخوان المسلمين، وحماس الفلسطينية، وحزب الله. ولا يزال إلى اليوم معمولاً بالنتيجة السريعة التي استخلصها الغرب بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، التي تزعم أنه يواجه خطراً مباشراً وداهماً يجب الردّ عليه بأقصى قوة وبضربة واحدة[٣٢].

لقد كانت «الحرب على الإرهاب» هبة هبطت على تنظيم بن لادن والظواهري، فرفعت بعض الأفعال الخطيرة القائمة إلى مستوى التهديد الجيو - ستراتيجي العالمي، وجعلت الرجلين في مرتبة الفاعلين دولياً. وقد لقيت رسالتهما الجريئة بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٦ آذاناً صاغية، وبخاصة بين الناشطين الدينيين المتطرفين سياسياً الذين استبدّ بهم الغضب جرّاء ما رأوه من احتلال أمريكي لبعض أجزاء بلاد المسلمين. وعلى ذلك، حاول شبّان كثر، من لندن إلى الجزائر، ومن إسلام أباد إلى صنعاء، الحجّ إلى العراق للمشاركة في الجهاد والقتال إلى جانب عناصر «تنظيم القاعدة في بلاد

---

(٣١) يردد أوباما في مؤتمر صحافي بعد إجبار مبارك على الاستقالة، صدى شعور مشابه: «المصريون يلهموننا الآن، لقد بيّنوا كذب فكرة أن لا تغيير إلا بالعنف. لقد كانت قوة اللاعنف الأخلاقية هي التي غيّرت في مصر - لا الإرهاب ولا القتل الأعمى المجنون. هي قوة التغيير اللاعنفي التي تدفع التاريخ نحو العدالة مرة أخرى». انظر: Robert Mackey, «Updates on Day 18 of Egypt Protests,» *New York Times*, 11/2/2011.

(٣٢) Juan R. Cole, *Engaging the Muslim World* (New York: Palgrave Macmillan, 2009); Rashid Khalidi, *Resurrecting Empire: Western Footprints and Americas Perilous Path in the Middle East* (Boston, MA: Beacon Press, 2005); Robert Jervis, *American Foreign Policy in a New Era* (New York: Routledge, 2005); Francis Fukuyama, *America at the Crossroads: Democracy, Power, and the Neoconservative Legacy* (New Haven, CT: Yale University Press, 2006), and «Iraq/Middle East,» Project for the New American Century, <http://www.newamericancentury. org/iraqmiddleeast2000-1997.htm>.

الرافدين»، الجماعة التي تدين بأفكار بن لادن لكنها تتمتع باستقلاليتها.

ولقد التقيتُ شخصياً شباناً عديدين ـ ليبيين، وتونسيين، وسوريين، وفلسطينيين، وأردنيين، ولبنانيين، وسعوديين، ويمنيين، وجزائريين، ومغربيين، وباكستانيين، وآخرين ـ رووا قصص إخفاقهم في الوصول إلى العراق، والانضمام إلى الألوية «الاستشهادية». لقد لوّحت أمريكا بـ «الحرب الصليبية» ضد الإسلام والمسلمين، فكانت تلك مناسبة لـ «القاعدة» لتكون طليعة المقاومة الإسلامية. لم يصدّق واحد من أولئك الزعم أن غزو العراق واحتلاله لهما أية صلة بأحداث ١١ أيلول/ سبتمبر. كان هناك إجماع أن تلك هي مجرد ذريعة لاحتلال أراضي العرب، وسرقة ثرواتهم النفطية، وإهانة شعوبهم.

ورغم كل ذلك، خسرت «القاعدة» العراق، كما سنرى، وكان السبب أبو مصعب الزرقاوي، زعيم «القاعدة» في العراق. فقد أرهب الزرقاوي العراقيين، وصبّ الزيت على نار حرب مذهبية مفتوحة[٣٣]. ومن أجل الحدّ من الخسائر، ولبنأى بنفسه عن عمليات الزرقاوي العنيفة، اعتذر بن لادن علناً من المسلمين للأخطاء والتصرّفات الخاطئة من رجاله، وذكّرهم أنه كانت هناك أخطاء حتى في زمن الرسول (ﷺ). لكن اعتذار بن لادن كان طفيفاً جداً ومتأخراً جداً. وتحوّل العراقيون السنّة ضد رجال بن لادن مع الرغبة بالانتقام، فيما رجعُ صدى الحرب الأهلية لا يزال يشعرُ به في العراق، وفي ما هو أبعد من العراق أيضاً.

ثامناً: معالجة موضوع «الإرهاب»

كل هذه المعلومات هي وثائق معلنة اليوم، إلى هذا الحدّ أو ذاك. ومع ذلك، فلا تزال سياسات الإرهاب في الغرب تُعلي من شأن «القاعدة»، أو على الأقل من فكرة «القاعدة». كما لا تزال الثقافة السياسية للولايات المتحدة تحت ثقل «القاعدة»، كما يستمر حديث الإرهاب يترجّع صداه لدى الأمريكيين العاديين، كما لدى أعلى القادة المسؤولين عن الأمن القومي. ووفق جنرال ذي ثلاثة نجوم في واشنطن، «لن تجد جنرالاً ذا أربعة نجوم إلا وهو محاط بإجراءات أمنية». ويضيف: «لقد جعل الخوف كل واحد [يحيط نفسه بجيش

(٣٣) Loretta Napoleoni, *Insurgent Iraq: Al Zarqawi and the New Generation* (New York: Seven Stories Press, 2005), and Jean-Charles Brisard, *Zarqawi: The New Face of Al-Qaeda* (Cambridge, MA: Polity Press, 2005).

من الحرّاس والمساعدين]»[٣٤]. ويعترف وزير الدفاع روبرت غايتس بالمشكلة في مقابلة له في آب/ أغسطس ٢٠١٠، فيقول إنه منذ ١١ أيلول/ سبتمبر «حين يصل الأمر إلى موضوع الإنفاق في وزارة الدفاع، فإن قدراً ضئيلاً فقط يجري وفق القانون، أما الباقي فيخرج من النافذة». ويرى غايتس أن البيروقراطية «مالت إلى التضخيم، وإلى الإنفاق بنسب عالية ومتزايدة على المتعاقدين، وغدت معتادة على العمل مع اهتمام طفيف بمسألة الكلفة»[٣٥].

دفعت سياسات الإرهاب العسكر إلى مزيد من المغامرات، وقدمت البيئة المناسبة لتفريخ شبكات أمنية على المستوى الوطني، وإلى عسكرة الشؤون المحلية (تعذيب، ومحاكمات عسكرية، وتوسع هائل في الآلة الأمنية القومية)[٣٦]. كما أحدثت داخل المجتمعات الغربية خطوط صدع ثقافية وقانونية وفلسفية عميقة، أفسحت في المجال أمام محاولات إعادة النظر في وضع المسلمين داخل هذه المجتمعات باعتبارهم أجانب (طابوراً خامساً). ورغم أنها كانت مدفوعة بوضوح من جماعات قوية من اليمين المتطرف العامل في الظلّ، فقد غدت «الإسلامافوبيا» أو الخوف من الإسلام، والمدعوة أحياناً «العداء الجديد للسامية»، التيار الرئيسي المهيمن. وفي أوروبا، غدا التحذير من أسلمة القارة، التي تختصرها الأزمة الديمغرافية، حيث أعداد الولادات عند المسلمين تفوق تلك عند نظرائهم المسيحيين، مكاناً شائعاً، يجد تعبيراته في الأدب، الذي يتدرّج من المعالجات المعقّدة، كما لدى كريستوفر كالدويل في *Reflections on the Revolution in Europe* إلى صيغ أكثر سطحية وشراسة، مثل مارك ستاين في *America Alone*، وبات يثور في *Eurabia*[٣٧].

---

(٣٤) Priest and Arkin, «Top-Secret America: A Hidden World, Growing beyond Control».

(٣٥) John Barry and Evan Thomas, «A War Within,» *Newsweek* (12 September 2010).

(٣٦) Benjamin Friedman, Jim Harper, and Christopher Preble, eds., *Terrorizing Ourselves: Why U.S. Counterterrorism Policy is Failing and How to Fix It* (Washington, DC: Cato Institute, 2010).

(٣٧) Daniel Luban, «The New Anti-Semitism,» *Tablet* (19 August 2010), <http://www.tabletmag.com/news-and-politics/43069/the-new-anti-semitism-2/>; Emran Qureshi and Michael Sells, eds., *The New Crusades: Constructing the Muslim Enemy* (New York: Columbia University Press, 2003); Matti Bunzl, *Anti-Semitism and Islamophobia: Hatreds Old and New in Europe* (Chicago, IL: Prickly Paradigm Press, 2007); Peter Gottschalk and Gabriel Greenberg, *Islamophobia: Making Muslims the Enemy* (Lanham, MD: Roman and Littlefield, 2007), and Bobby Ghosh, «Does America Have a Muslim Problem,» *Time* (30 August 2010).

للاطلاع على أهمية العمق التاريخي، انظر: Thierry Hentsch, *Imagining the Middle East* (Montreal: =

وأظهرت استطلاعات الرأي العام أن عدداً متزايداً من المواطنين الغربيين يتقبّلون الآن فكرة تخفيض عدد المسلمين. فبحسب استطلاع أجرته جامعة كورنل، فإن نصف الأمريكيين تقريباً (٤٤ بالمئة) قالوا إن على الحكومة تقييد الحريات المدنية للمسلمين الأمريكيين(٣٨). كما أن هناك صناعة رائجة الآن في الولايات المتحدة، وهي تصريحات المعلقين والسياسيين الذين باتوا يتقدمون في مهنهم وفق درجة مهاجمتهم الإسلام. وقد وفّرت الحرب على الإرهاب مستوى عالياً من التغطية لعملهم وأخبارهم(٣٩). وحين قاد خبراء الإرهاب من مثل دانيل بايبس، وستيف أمرسون، وروبرت سبنسر، الحملة على الإسلام، سرعان ما انتشر هذا الخطاب في كل وسيلة إعلامية. وكلمحة من هذا الخطاب المتعصب، نقرأ على الموقع الألكتروني لمارتن بيريتز، رئيس تحرير مجلة **نيو ريببليك**، «بصراحة، الحياة الإسلامية رخيصة، وللمسلمين خصوصاً». ويضيف: «أنا أتعجّب إذا ما كان عليّ تكريم هؤلاء الناس، وأتظاهر أنهم يستحقون فضائل البند الأول [من الدستور] الذي لديّ شعور أنهم سيسيئون استخدامه»(٤٠). ورغم اعتذاره مرتين، فقد دافع مع ذلك عن تأكيده أن الحياة الإسلامية رخيصة، وقال: «هي عبارة وصف لا قيمة لها»(٤١).

وعلى نحو مماثل، وضعت الانعكاسات الثقافية للحرب على الإرهاب القيم الأمريكية حول التسامح الديني والحرية الفردية تحت الضغط. فعند بدايات عام ٢٠١١ كان هناك بين ٢,٥ و٧ ملايين مسلم في الولايات المتحدة (من أصل مجموع السكان البالغ ٣٠٠ مليون)، ثلثهم من الأمريكيين الأفارقة. وكانت مواجهات عدة قد اندلعت على خلفية إنشاء مساجد في تنيسي، وكاليفورنيا، وجورجيا، وكنتاكي، وويسكونسن، وإلينوي، كما في بروكلين، وستالن أيلاند،

Black Rose Books, 1992), and Norman Daniel, *Islam and the West: The Making of an Image* (Oxford: = Oneworld, 2009).

(٣٨) James Shanahan and Erik C. Nisbet, «Restrictions on Civil Liberties, Views of Islam, and Muslim Americans,» 17 December 2004, Institute for Social Policy and Understanding, Media and Society Research Group of Cornell University, <http://www.ispu.org/reports/articledetailpb-64.html>.

(٣٩) Luban, Ibid.

(٤٠) Martin Peretz, «The New York Times Laments «A Sadly Wary Misunderstanding of Muslim-Americans: But Really Is It «Sadly Wary» or a «Misunderstanding» at All?,» *New Republic*, 4/9/2010, <http://www.tnr.com/blog/77475/the-new-york-times-laments-sadly-wary-misunderstandingmuslim-americans-really-it-sadly-w>, and Nicholas D. Kristof, «Is this America?,» *New York Times*, 11/9/2010.

(٤١) Martin Peretz, «An Apology,» *New Republic*, 13/9/2010, <http://www.tnr.com/blog/the-spine/77607/martin-peretz-apology>.

وميدلاند بيتش، وشيبس هيد باي، في نيويورك[٤٢]. وقد خيّم الخوف من الإسلام على الموقف من بناء جامع ومركز إسلامي في مانهاتن السفلى، وأثار مشاعر معادية للمسلمين. ويذكّي نيوت غنغريش نار المعارضة لبناء مثل هذا الجامع، طالما أن السعودية تمنع بناء الكنائس والمعابد اليهودية. ويضيف غنغريش أن بناء جامع «على بعد بضع شوارع فقط من المكان الذي قتل فيه متشدّدون إسلاميون ٣٠٠٠ أمريكي هو عمل سياسي»، ورمز إلى «النصر»[٤٣]. ويبرّر غنغريش معارضته بإقامة تشابه مع حالة الهولوكوست، فيقول: «لا يحق للنازيين وضع شعارهم على مقربة من متحف الهولوكوست في واشنطن»[٤٤]. وفي المقابل، دافع عن مشروع بناء الجامع عدد من السياسيين والمواطنين، استناداً إلى مبدأ الحرية الدينية، بمن فيهم حاكم نيويورك مايكل بلومبيرغ، ولاحقاً الرئيس أوباما الذي جهر بتأييده مشروع البناء بعدما أجازته لجنة التنظيم المدني لأراضي مدينة نيويورك.

يظهر هذا النقاش الحاد، مع ذلك، كيف تهدّد سياسات الإرهاب والحرب على الإرهاب القيم الأمريكية، القيم نفسها التي يدافع عنها أولئك الذين خرجوا إلى الشوارع في بلدان منطقة الشرق الأوسط في احتجاجاتهم الأخيرة[٤٥]. حتى الرئيس أوباما أثار مسألة «الحكمة» من بناء مركز إسلامي في مكان هو موضع تساؤل[٤٦]. منذ البدايات كان هناك نقاش مستمر في أمريكا حول الآثار المفسدة التي تجلبها الحرب على الدولة والمجتمع. وفي سنة ١٧٩٥ علّق جايمس ماديسون، الشخصية المعروفة والمؤلف الرئيسي للدستور الأمريكي، على موضوع انعكاسات الحرب، فقال: «بين كل أعداء الحرية العامة، الحرب هي أكثر ما يجب الخشية منه، لأنها تستحضر وتفاقم أسوأ ما في كلّ منّا. ويخلص

---

(٤٢) Laurie Goodstein, «Across Nation, Mosque Projects Meet Opposition,» *New York Times*, 7/8/2010, and Ron Scherer, «Ground Zero and Beyond: Four Mosque Battles Brew across US,» *Christian Science Monitor*, 19/8/2010.

(٤٣) «Address by Newt Gingrich, America at Risk: Camus, National Security and Afghanistan,» 29 July 2010, American Enterprise Institute for Public Policy Research.

(٤٤) Andy Barr, «Newt Gingrich Compares Mosque to Nazis,» *Politico* (16 August 2010), <http://www.politico.com/news/stories/0810/41112.html>, and Maureen Dowd, «Our Mosque Madness,» *New York Times*, 17/8/2010.

(٤٥) Richard Kim, «The Center Cannot Hold: Why the Mainstream Media Can't Stop the «Ground Zero Mosque» Hysteria,» *Nation*, 19/8/2010, <http://www.thenation.com/blog/154077/center-cannot-hold-why-mainstreammedia-cant-stop-ground-zero-mosque-hysteria>.

(٤٦) «Under Fire, Obama Clarifies Support for Ground Zero Mosque,» Fox News, 14 August 2010, and Dowd, Ibid.

إلى أنه «ما من أمة تستطيع حفظ حريتها وسط حالة حرب مستمرة»[٤٧].

وطوال عقد كامل استنفد العداء للإسلام غاياته كلها. وفي العام ٢٠١٠ نشر مشروع غالوب حول الحقائق المتعلقة بالإسلام الغربي نتائج استطلاع رئيسي للرأي في موضوع الأوهام الأمريكية حيال الإسلام. وقد أظهرت النتائج صلة سببية بين ارتفاع حمى العداء للإسلام وسياسات الإرهاب. ولعل النتيجة الأخيرة التي بلغها الاستطلاع هي الأكثر إثارة: فقد أفاد أكثر من نصف الأمريكيين بقليل (٥٣ بالمئة) أن رأيهم بالإسلام إما عدم الترحيب كثيراً (٢٢ بالمئة) أو عدم الترحيب إطلاقاً (٣١ بالمئة). ومع ذلك، فقد أظهر الاستطلاع أن الأمريكيين بنسبة تتجاوز الضعفين هم أكثر عداء للمسلمين منهم للبوذيين، أو للمسيحيين، أو لليهود. وأظهرت أغلبية الأمريكيين كذلك عدم توافقها مع القول إن معظم المسلمين يقبلون الديانات الأخرى (٦٦ بالمئة)، إلا أنهم اعترفوا أنهم إما لا يعرفون غير القليل عن الإسلام (٤٠ بالمئة) أو أنهم لا يعرفون عنه شيئاً البتّة (٢٣ بالمئة)[٤٨]. وفي أحسن اختصار لنتائج استطلاع غالوب، يقول جايمس كارول، كاتب عمود رئيسي في **بوسطن غلوب**، إن هناك سوء فهم واسعاً وأحكاماً مسبقة ضد المسلمين، وسبب ذلك أن الأمريكيين «هم في حرب، وخائفون»، وقد زاد ذلك «من مخاوفهم ومن ديناميات الأوهام التي شكّلوها»[٤٩]. ويربط كارول هذه الصورة النمطية عن المسلمين بتيار غير مرئي راسخ لأكثر من ألف عام في الجذور المشكّلة لثقافة واشنطن[٥٠].

تاسعاً: الحرب على الإرهاب

أين هو النقاش اليوم؟ تجنّب معظم الدارسين لمنطقة الشرق الأوسط، كما ذكرت سابقاً، البحث في «الحرب على الإرهاب»، إما خوفاً أو تشكّكاً في السياسات السائدة. وباستثناء بضعة مؤلفات شجعت على معالجة أوسع وأكثر تقدماً ـ مثل جون ميللر في *Overblown*، وبيتر بينرت في *The Icarus Syndrome*، وساندرا سيلبر شتاين في *War or Words* ـ فالمفاهيم القاطعة الجاهزة والمقدمات

(٤٧) <http://en.wikiqunote.org/wiki/James-Madison>.

(٤٨) Gallup and the Co-Exist Foundation, «Religious Perceptions in America».

(٤٩) James Carroll, «How to Spot an Islamophobe,» Daily Beast, 30 January 2010, <http://thedailybeast.com/blogs-and-stories/2010-01-30/how-to-spot-anislamaph>.

(٥٠) المصدر نفسه.

النظرية المناسبة يستمران في الهيمنة، وحفر حديث الإرهاب عميقاً داخل الثقافة السياسية الأمريكية، كما في المزاج القومي العام. كذلك، لا تبدو السياسات الفاعلة في واشنطن اليوم، أو التشاور الذي يجري داخل الأحزاب، مهتمّة بتقديم الصورة الحقيقية للعالم الآن. لقد أصبح الردّ على تحدّي الإرهاب وخطره أيديولوجيا قائمة في ذاتها. وعليه، تبدو ضئيلة جداً ـ حتى من رئيس تقدمي كأوباما ـ فرص إعادة تقييم استراتيجية البلاد الشاملة، والتضخّم الذي حدث للمجمّع الأمني القومي على وجه الخصوص، باستثناء الجانب اللفظي الإنشائي ربما. وخطاب أوباما لا يمثّل قطيعة كاملة مع الخطب النارية لسلفه. فقد كرّر الرئيس ومستشاروه الأرفع رتبة أكثر من مرة التأكيد أن الولايات المتحدة ليست في حالة «حرب كونية» ضد «الجهاديين» أو «التطرف الإسلامي المقاتل»، وهو تعبير بوش الأيديولوجي المفضل في وصف «القاعدة» وحلفائها. بدلاً من ذلك، تقدّم استراتيجية أوباما للأمن القومي (NSS) المعلنة في أيار/مايو ٢٠١٠ «شبكة تذهب بعيداً بالكراهية والعنف»، ولكن في عبارات أقل ضجيجاً وأكثر حياداً أيديولوجياً[٥١]. وبحسب جون برنن، أرفع مساعدي أوباما في مجال مكافحة الإرهاب، فإن اللغة الجديدة المستخدمة إنما هدفت إلى محاربة الفكرة الشائعة بأن الولايات المتحدة هي في حالة حرب مع باقي العالم، وأن «القاعدة» هي كيان عالمي في وسعه أن يحلّ محل الدول ذات السيادة[٥٢].

قدّم أوباما تفسيراً أكثر دقة وواقعية للحرب على «القاعدة». كذلك كان خطابه الاحتفالي في تخريج دورة ٢٠١٠ في الأكاديمية العسكرية في وست بوينت، حيث اختصر استراتيجيته في جملة أفكار رئيسية منها أن: «القاعدة وفروعها هم قلة من أفراد يقفون على الجانب الخاطئ من التاريخ. هم لا يقودون بلداً. هم لا يقودون ديناً. علينا أن لا نستسلم إلى الخوف كل مرة يحاول فيها إرهابي إفزاعنا. وعلينا أن لا نتخلّى أو نحطّ من حرياتنا، لأن المتطرفين يحاولون استغلالها»[٥٣]. ورغم أن أوباما يحتفظ صراحة بحق

---

(٥١) «National Security Strategy,» White House, May 2010, <http://www.whitehouse.gov/sites/default/files/rss_viewer/national_security_strategy.pdf>.

(٥٢) «A New Approach to Safeguarding Americans,» remarks by John O. Brennan, White House, Office of the Press Secretary (6 August 2009).

(٥٣) «Remarks by the President at United States Military Academy at West Point Commencement,» The White House, Office of the Press Secretary, 22 May 2010, <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/remarks-president-united-states-military-academy-west-point-commencement>.

التصرّف منفرداً، والاستخدام الاستباقي للقوة العسكرية، فقد حضّ على تشكيل «نظام عالمي» يقوم على الالتزام، والدبلوماسية، والتعاون مع الحلفاء التقليديين، كما مع الفاعلين الصاعدين الجدد أصحاب التأثير[٥٤].

ويكرّر برنن صدى الرسالة نفسها، فيقول: «لماذا يتوجب على أمة كبرى وقوية مثل الولايات المتحدة أن تسمح لعلاقتها مع أكثر من مليار مسلم حول العالم [أن] تحدّدها التصرفات المكروهة والفوضوية لقلة صغيرة استثنائية من المسلمين؟»[٥٥].

لقد حدث تحول مهم في لغة خطاب إدارة أوباما لتبتعد عن اللهجة النارية للإدارة التي سبقتها. ومع ذلك، فخطاب إدارة أوباما يبقى على تضاد مع الواقع المؤسساتي. وبالرغم من أن عبارة «الحرب على الإرهاب» لم تعد مستخدمة، إلا أنها لا تزال تعكس وجوداً لها في العقل[٥٦]. ومستشارو أوباما للأمن القومي عاجزون عن القطع بحرية مع هذا الجزء، خصيصاً في ظلّ النقد الجمهوري للرئيس بأنه ضعيف في موضوع الأمن القومي[٥٧]. وكل محاولة من جهة أوباما

---

(٥٤) «National Security Strategy,» May 2010, The White House.

(٥٥) «A New Approach to Safeguarding Americans».

(٥٦) من حيث اللغة، أزال مستشارو الرئيس للأمن القومي مفردات، مثل «التطرف الإسلامي» من وثيقة جديدة تلخص استراتيجية الأمن القومي، واستخدموا صيغة جديدة لتأكيد أن الولايات المتحدة لا تنظر إلى الإسلام من منظار الإرهاب. يقول المستشارون، بعدما أبعدوا أنفسهم عن استراتيجية بوش للأمن القومي، التي تلخص فلسفته في محاربة الإرهاب، والتي تنص على أن «الحرب ضد التطرف الإسلامي المسلح هي الحرب الأيديولوجية العظمى لأمريكا في القرن الحادي والعشرين». اللغة المستخدمة هي جزء من جهد أكبر يسعى إلى تغيير كيف تنظر الولايات المتحدة إلى العالم الإسلامي، كما إلى نفسها، من التحول التكنولوجي إلى الصحة العقلية إلى التعليم إلى الآمال. انظر: Matt Apuzzo, «Not All Terrorism: Obama Tries to Change Subject,» Associated Press,7 April 2010.

(٥٧) في مقابلة مهمة، قال نائب الرئيس السابق ديك تشيني إنه قلق من أن فريق أوباما للأمن القومي ليس جاهزاً للتعامل مع المخاطر التي تواجه الولايات المتحدة في حقبة ما بعد ١١/ ٩. وهو يسجل أن «هناك عدداً من الأشخاص الذين يؤدون عملاً جيداً، وكانوا موظفين ممتازين ومسؤولين جيدين خلال إدارة كلينتون الماضية. إلا أن ما أقلق بسببه مع ذلك هو أنهم قد يعتقدون أنهم يفعلون الصحيح حين يتركون. لكن العالم تغيّر في الحقيقة منذ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠١ عندما تسلّمنا نحن. وسيجد هؤلاء أن نوع المخاطر قد تغيّرت كلياً في ثماني سنوات». انظر: «Political Punch: Cheny Assails Obama Decision to Close Gitmo: Express Concern that Democrats about to Take over Don't Realize World Has Changed,» ABCnews, 13 January 2009, <http://blogs.abcnews.com/politicalpunch/2009/01/cheny-assails.html>.

وفي خطاب في مؤسسة المشاريع الأمريكية، يشكك تشيني في قرار أوباما إغلاق معتقل غوانتانامو، وطريقة مقاربته للأمن القومي. قال: «ما هو أكثر من ذلك التحكم كلياً خارج منهج متكامل متقدم للمستقبل، وعلى نحو غير حكيم إلى الحدّ الأقصى. إنها الحماقة في ثوب الحكمة، التي ستجعل الأمريكيين أقل أمناً». وبحسب =

لإعادة تقييم الجهد الحربي تواجه فوراً طوفاناً من هجمات الصقور والمحافظين الجدد معاً.

لقد أصبح المشهد السياسي الأمريكي مسموماً جداً، وفي غاية الاستقطاب، إلى درجة أن مجرد ذكر إعادة تقييم الاستراتيجيا الأمنية ضد «القاعدة» باتت تؤخذ مباشرة باعتبارها علامة ضعف. والإدارة واعية تماماً للواقع هذا. وهكذا تبقى «القاعدة» مخيّمة بقوة فوق السياسة الخارجية الأمريكية. وعليه، لم تخرج إدارة أوباما على نحو رئيسي عن استراتيجيتها الشاملة: فقد عزّزت من وتيرة الحرب في أفغانستان وباكستان، كما احتفظت من إدارة بوش ببضعة برامج تثير تساؤلات، مثل المراقبة السرية المزعومة، ولجان غوانتانامو العسكرية. وبالرغم من أنها أمرت بإغلاق ما اعتبر مواقعَ سُوْداً، إلا أنه يبقى، مع استحالة الدخول إلى المعلومات المصنّفة السرية جداً، معرفة مدى التغيير الذي حدث فعلاً في طرائق عمل أجهزة الاستخبارات في أثناء اصطياد وتوقيف مشبوهي الإرهاب(٥٨).

وفي تشديدهم على التزام الرئيس خوض الحرب ضد «القاعدة» وحلفائها، كطالبان في أفغانستان وباكستان واليمن، يذكّر مستشارو أوباما الأمريكيون أنه يخوض «الحرب الصحيحة». كما يؤكدون أن أوباما قد زاد من العمليات السرية في باكستان ضد «القاعدة» وطالبان، ومن دون التصريح العلني أن سلاح الإدارة في اختيار الأهداف هو الآن الطائرات بلا طيّار الفتّاكة والتابعة للسي. آي. إيه.، فقد أمر أوباما في السنة الأولى من حكمه بعدد من الضربات الجوية فاق ما أمر به الرئيس بوش في فترتين رئاسيتين كاملتين(٥٩). كذلك وسّع من استخدام

= تشيني، «ليس هناك أبداً من مجال للمساومة على أرواح الأمريكيين وأمنهم». ومنتقداً مقاربة أوباما لمسألة الحرب على الإرهاب عموماً، يقول تشيني «خلف الرؤية البعيدة لرد الفعل على التصور المتكامل المتقدم، هناك سوء تقدير للمخاطر التي لا تزال تواجه بلادنا. هناك تصور خاطئ يدفع إلى إبعاد المسافة الفاصلة بين الأمريكيين وإدراكهم لعدوهم الإرهابي. وظاهرياً، يبدو أن استعمال مفردة «حرب» لتعني الإرهابيين باتت من قاموس قديم. وبتنا ننصح الإدارة أن الحرب على الإرهاب أصبحت بمفردات الإدارة «عمليات مؤقتة وراء البحار». انظر نسخة من خطاب تشيني ذاك في ٢١ أيار/مايو ٢٠٠٩، في: «Transcript of Former Vice President Dick Cheney's Speech on Interrogation,» delivered at the American Enterprise Institute, 21 May 2009, About.com Guide by Justin Quinn, <http://usconservatives. about.com/od/capitalpunishment/a/Cheney_AEI_Speech.htm>.

(٥٨) Noah Feldman, «How Different Is Obama from Bush on Terrorism,» *Foreign Policy* (3 September 2010).

(٥٩) *Washington Post*, 14/2/2010; *New York Times*, 17/3/2010, and David Cole, «License to Kill,» *Nation*, 16/4/2010.

الطائرات تلك لتشمل أهدافاً من مستويات دنيا، مثل جنود المشاة، وأحياناً ـ كما ذُكر ـ زعماء عصابات المخدرات الذين يقدمون المال إلى طالبان، وهو تعريف حاد لـ «الدعم المادي» للإرهاب. ورغم أن ضربات هذه الطائرات قد قتلت فعلاً عشرات من ناشطي القاعدة وطالبان، إلا أنها قتلت أيضاً، منذ ٢٠٠٤، أكثر من ألف مدني، بمن فيهم من نساء وأطفال. وبحسب تحليل لمصادر في حكومة الولايات المتحدة، فمنذ اشتداد وتيرة ضربات الطائرات بلا طيار صيف ٢٠٠٨، قتلت سي. آي. إيه. من مقاتلي المستوى الأدنى في القاعدة وطالبان أكثر مما فعلت من مقاتلي المستويين الأوسط والعالي[٦٠].

أطلقت الطائرات بلا طيار في العام ٢٠١٠ أكثر من ١٠٠ صاروخ في باكستان وحدها، أي أكثر من ضعفي ما أطلقته الضربات في أفغانستان، المسرح المعلن للحرب. وقد غدا تسارع الضربات الجوية في باكستان شأناً يومياً، وأكثر بأربعة أضعاف مما كانت عليه في سنوات بوش. لقد خلقت إدارة أوباما، وبحسب **نيويورك تايمز**، و**وول ستريت جورنال**، ترسانات وضربات جوية إضافية على جبهة الحرب الأفغانية، كما وسّعت بقوة من حملة سي. آي. إيه. ضد المقاتلين في معاقلهم الباكستانية. وقد وضع ذلك المزيد من الضغط على العلاقات الأمريكية ـ الباكستانية، وزاد من التوترات بين الحليفين، التي بلغت غير مرة درجة القطيعة، منذ مقتل بن لادن، على وجه الخصوص.

بالرغم من خطابها اللطيف، فقد سرّعت إدارة أوباما، في الواقع، من وتيرة الحرب على الإرهاب على المسرح الأفغاني ـ الباكستاني، واستهدفت في حملة طموحة جداً عناصر «القاعدة»، و«حلفاء لها متطرفين»، كما تسمّيهم، في البلدين. ومن الواضح أن طاقم الأمن القومي لدى الرئيس أوباما يجمع في خانة واحدة «القاعدة» وطالبان معاً، وبخاصة طالبان الباكستانية. وعلى نقيض سابقتها، تركّز إدارة أوباما على قتل العناصر الإرهابية، لا أسرهم. وتبرر إدارة أوباما الضربات الجوية، مثلاً، بتأكيد أنها أضعفت من قدرات طالبان الباكستانية والقاعدة، ومن دون الحاجة إلى أن تضع القوات الأمريكية على نحو يعرّضها للخطر فوق التراب الباكستاني. وبعد موت بن لادن، استمر المسؤولون الأمريكيون في الدفاع عن الضربات الجوية تلك باعتبارها ضرورية

---

(٦٠) Adam Entous, «Special Report: How the White House Learned to Love the Drone,» Reuters, 18 May 2010, and Feldman, Ibid.

لتدمير الشبكة المركزية لـ «القاعدة» في باكستان وأفغانستان(٦١).

عاشراً: تداعيات الضربات الوقائية ضدّ القاعدة

لكن الحسابات تلك تتجاهل الأضرار التي خلّفتها ضربات الطائرات من دون طيّار على سمعة أمريكا في العالم الإسلامي، و«إمكانيات الانتقام» التي حذّرت منها سي. آي. إيه.، مطلقة هذه الطائرات. فقد أشعلت هذه الهجمات مشاعر الغضب ضد الولايات المتحدة بين الأفغان والباكستانيين، ومن بينهم أفراد نخب رفيعة في الأجهزة الأمنية، وفي الطبقة المتوسطة الحضرية الذين يشعرون أن بلادهم عاجزة عن الوقوف في وجه القوة المهيمنة. هناك إدراك منتشر بين النخب الباكستانية، ومن بينها العسكرية، أن الهجمات الجوية هي انتهاك لسيادة باكستان وكرامتها. وكانت عملية غزو قاعدة جوية باكستانية، وقتل ابن لادن، والمغادرة من دون اعتراض، القشة التي قصمت ظهر البعير، واعتبرت أمراً مهيناً للجيش الباكستاني. كان هناك غضب حتى الغليان بين مختلف رتب الجيش الباكستاني - سابع أكبر جيش في العالم من حيث من هم في الخدمة الفعلية - في الثكنات عبر البلاد(٦٢). ويتفق وزير الدفاع غايتس ورئيس هيئة الأركان المشتركة على أن عملية قتل بن لادن كانت «تجربة مهينة» للباكستانيين، وحطّت من صورتهم أمام أنفسهم(٦٣).

وربما ينعكس ذلك على الولايات المتحدة بطرائق تصل إلى أبعد مما بلغته «القاعدة» في أيام عزها. فالكثير من الباكستانيين، ومنهم من يعيش في الغرب، بات يرى في تصعيد الحرب هجوماً على هويته الإسلامية. وليس من المصادفة في شيء أن أعداداً كبيرة من الباكستانيين والأفغانيين هم من وقف خلف معظم المخطّطات الإرهابية الأخيرة. وتحاول طالبان الباكستانية وميليشيات أخرى من دون كلل استغلال هذا الغضب، متعهدة بتنفيذ هجمات انتحارية في مدن أمريكية رئيسية. لقد غدت ضربات الطائرات بلا طيار صرخة جهاد متنقلة، تدفع بموجات من المتطوعين نحو شبكات صغيرة، منتشرة، يصعب تتبعها، وعلى

(٦١) «U.S. Believes It Can Now Destroy al Qaeda,» Reuters, 3 May 2011.

(٦٢) Karin Brulliard, «Anger Simmers in Pakistani Army over bin Laden Riad,» *Washington Post*, 19/5/2011.

(٦٣) Adam Levine, «Bin Laden Raid Was Humiliating to Pakistanis, Gates and Mullen Say,» CNN.com, 18 May 2011.

نحو يزيد عمّا هو عليه شبح «القاعدة». وفي رأي جفري أديكت، المستشار القانوني لـ «عمليات الجيش الخاصة»، أن هذه الاستراتيجيا «تخلق أعداءً لنا أكثر بكثير مما نقتل أو نأسر»[٦٤].

تشكّل هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، من وجهة نظر الولايات المتحدة، نقطة تحول في التاريخ الأمريكي المعاصر، وقد باتت عالمية بامتياز بالنسبة إلى واشنطن الرسمية، كما إلى المواطنين العاديين، سواء بسواء. لقد مزّقت «القاعدة» راحة البال الجماعية للأمريكيين، الذين شاهدوا يائسين على شاشات التلفاز البثّ الحيّ لانهيار البرجين «التوأمين». كان ذلك، بعكس الحرب الباردة، أمراً حقيقياً يمكن تحسّسه. لقد حققت «القاعدة» وبن لادن شيئاً لم يتوصل إليه حتى الاتحاد السوفياتي القوي: مهاجمة الداخل الأمريكي، وإجبار الأمريكيين على التفكير في أمنهم الشخصي، فيما هم في سياق حياتهم اليومية، كالعمل في مكاتبهم مثلاً. لذلك علينا عدم التقليل من الانعكاسات الانفعالية التي أرخت بظلها على مزاج أمة بكاملها. لذلك بالضبط نزل عدد ممن كانوا أطفالاً حين وقعت هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر إلى الشوارع ليحتفلوا بأنباء مقتل بن لادن. كانت إزالة بن لادن بالنسبة إليهم، وإلى الأمريكيين من كل الأعمار، «لحظة جراحية في غاية الأهمية» للأمة، وفق جاي كارني، سكرتير أوباما الصحافي[٦٥]. لكن مقتل بن

---

(٦٤) Peter Bergen and Katherine Tiedemann, «The Year of the Drone»; «Latest Drone Strikes in Northwest Pakistan Killls,» CNN.com, 16 September 2010.

يصل برغن وتيدمان في تحليلهما إلى نتيجة مشابهة للسياسة التي كانت متبعة بين عامي ٢٠٠٤ و٢٠١٠. وقد وجدا أنه منذ دخل أوباما البيت الأبيض ارتفع معدل استخدام الدروع جوهرياً. وقد وجدا استناداً إلى تقارير عسكرية وإعلامية أن معدل إصابة المدنيين في الغارات هو ٣٢ بالمئة. وفيما دقة الطائرات مقبولة، فالآثار هي موضع التساؤل. فهي **أولاً** لم توقف من ارتفاع معدل الهجمات الإرهابية في أفغانستان وباكستان، ومن تنفيذ عمليات جديدة. **وثانياً** هي مخالفة للقانون الدولي. **وثالثاً**، هي تكتيك وليست استراتيجيا، وهي لا تقول كيف تنتهي الحرب. وأخيراً إن استقبالها لدى الباكستانيين سيئ جداً، بل هي شجعت على زيادة اللجوء إلى طالبان باكستان. وعليه، فكلفة ضربات الطائرات بلا طيّار أعلى بكثير من المنافع المتأتية عنها.

وروبرت بايب (Robert Pape) يلقي الضوء على أسباب الإرهاب الانتحاري والربط بين هجمات الطائرات من دون طيار وحدوث مخططات إرهابية انتحارية ضد الولايات المتحدة، حيث درس أكثر من ٤٠٠ هجمة إرهابية بين عامي ١٩٨٠ و٢٠٠٣، وخلص إلى أنه بدلاً من دوافع أيديولوجية أو لأسباب اقتصادية، فإن منطق الإرهاب الانتحاري يتم بدوافع استراتيجية هي إنهاء الاحتلال الأجنبي للأراضي الإسلامية. وغالباً ما يستخدم الأفراد الذين ينفذون هجمات انتحارية من قبل الجماعات لتحقيق أهدافهم الاستراتيجية، وعلى المستوى الشخصي تدعم أعمالهم من قبل مجتمعهم، وتسند بدافع من الإثارة المتصورة عن أفعالهم. انظر:
Robert Pape, *Dying to Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism* (New York: Random House, 2005).

(٦٥) «Analysis: Obama Being Re-evaluated after Gutsy Raid,» Associated Press, 6 May 2011.

لادن لم يكن نهاية المطاف؛ وقلة فقط من الأمريكيين والغربيين أمكن لها، بعد أكثر من عقد من الزمان من ذاك الحدث، أن تتيقّن من الدرجة غير المناسبة التي بلغها خوفهم من الإرهاب والإرهابيين. ومع ذلك، لا يبدو أن هذا الملف سيغلق طالما بقيت الأيديولوجيا السائدة، كما الواقع نفسه، في حالة ارتباك.

وقادة «القاعدة» وحلفاؤهم المحليون، مدركون لذلك تماماً، بل إذا كان لهم من موقع، بعد، فبسبب من ذلك تماماً. وفي كل الأحوال، فإن نشر الخوف يبقى أفضل وسيلة لاستمرار الأعمال. وفي مقالة على موقع «Inspire» الإلكتروني باللغة الإنكليزية، أدّعت «القاعدة في شبه الجزيرة العربية» (AQAP) المسؤولية عن محاولات لتفجير طائرتي شحن أمريكيتين، متباهية أن ما دعته «عملية النزف» في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠ إنما كانت عملية رخيصة وسهلة، لم يكلف تنفيذها أكثر من ٢٤٠٠ دولار. ويتباهى ناشرو الموقع مضيفين: «ومن جانب ثان، فإن ذلك. . . سوف يكلّف من دون شك أمريكا والغرب بلايين الدولارات من أجل إجراءات أمنية جديدة. هذا ما ندعوه بـ «الفاعلية»»(٦٦).

«لقد كشفت «القاعدة في شبه الجزيرة العربية» عمّا أسمته «استراتيجية الألف سكين»، التي سوف تجعل «العدو ينزف حتى الموت»؛ أما الهدف، بحسب مسؤول الجماعة للعمليات الخارجية، فهو إيقاع الخوف في قلوب الغربيين، وإجبارهم على استثمار مبالغ ضخمة في إجراءات أمنية جديدة. إن إنفاق عدة آلاف لجعل الغرب ينفق البلايين لهي صفقة جيّدة»(٦٧).

تلك هي لعبة الحرب الراهنة، لعبة تظن «القاعدة» أنه سيكون لها فيها، ورغم كل الوقائع المعاكسة، اليد العليا في معركتها ضد البلد الأقوى في العالم. وإذا ما قيّض للقاعدة أن تنتصر، فذلك بسبب سيطرتها على مخيّلة الأمريكيين. لذلك، ومن أجل فهم كيف تتحقق هذه السيطرة، علينا النظر في القصة الكاملة لصعود «القاعدة» وأفولها.

---

(٦٦) Kimberly Dozier, «Mullen Says Al-Qaeda Threat from Yemen Is Serious,» and «Qaeda Thousand Cuts Threat «Very Serious», Says Mullen,» Agence France-Presse (APP), 21 November 2010.

(٦٧) «Qaeda Thousand Cuts Threat «Very Serious», Says Mullen».

الفصل الأول

صعود القاعدة



لم تظهر «القاعدة» ميدانياً، كتنظيم مستقلّ، مركزي، أممي وعابر للحدود، إلا في النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين، وليس أواخر الثمانينيات، كما يزعم بعض خبراء الولايات المتحدة والغرب. وحين أخرجت القوات الأمريكية بن لادن وجماعته من معاقلهما في أفغانستان في أواخر ٢٠٠١، كان عمر «القاعدة» خمس سنوات لا أكثر.

وبعيداً عن أن تكون حركة اجتماعية ذات جذور تاريخية عميقة في المجتمعات الإسلامية، تبدو «القاعدة»، والمجاهدون الأمميون عموماً، كما لو كانوا «أيتاماً» نشأوا داخل الجماعات الإسلامية المسلحة، ورأس حربة طموح تقوده طليعة «صغيرة». ومفردة «صغيرة» يجب أن نتذكرها باستمرار. لم تجذب «القاعدة» في أحسن أيامها غير عدد محدود من الأنصار المخلصين، ولم تتحوّل قط إلى تيار شعبي. لقد تميّز تاريخها القصير بغياب القاعدة الاجتماعية الكثيفة والدائمة، كما بغلبة الطابع البدوي. ولا تستطيع أية نظرة شاملة إلى وقائع صعود «القاعدة» إلا أن تعترف بهذه الأصول الاجتماعية المحدودة والمتواضعة، إذ هي تكشف السياق والشروط التي حدّدت صعود جيل بن لادن.

وهم محدودون أيضاً. فـ «القاعدة» منذ البداية تعاني روابط وصلات مجتمعية ضعيفة. وهي أقل في الواقع حتى مما تراه العين. ورغم ذلك يصرّ حديث الإرهاب التقليدي على تصوير «القاعدة» كقوة كونية فائقة القوة. ولا يتردّد روهان غونارتنا، الذي كان كتابه عن «القاعدة» بين الأكثر مبيعاً في الولايات المتحدة، في القول إن «القاعدة» غدت أكثر قوة بعد ١١ أيلول/ سبتمبر:

«بالرغم من الخسائر التي تكبّدتها «القاعدة» في أفغانستان، نتيجة لتدمير بنيتها التحتية العملياتية والتدريبية، فقد انتقلت خلاياها في الخارج من نصر إلى نصر. وفيما كانت عناصرها عرضة لاصطياد الولايات المتحدة وحلفائها

وأصدقائها، بدت «القاعدة» قادرة على التعويض عن نزيفها البشري وخسائرها المادية»[1].

ويخلص غونارتنا وآخرون إلى أن الإسلام المتطرف «ينمو ببطء»[2]. وفي الحقيقة، فحين تختفي النخبة المركزية في «القاعدة» ـ العرب الأفغان ـ سوف يكون من العسير إعادة شحن «القاعدة» بالكفاءات المستنزفة التي كانت قد منحت التنظيم، وبفعل «العصبية» أو الولاء القبلي، جزءاً رئيسياً من قوته الخارجية. وبدايات التنظيم هي المفتاح لكشف لغز هذا التنظيم العالمي، ووزنه النسبي، وحتمية تراجعه وأفوله.

أولاً: نشأة القاعدة

احتوت «القاعدة» باستمرار على بذور نهايتها. فمنذ قيامها في أواخر الخمسينيات وإلى أواسط التسعينيات من القرن المنصرم، أي إلى حوالى أربعين عاماً، انصبّ تركيز الحركة الإسلامية المقاتلة المعروفة بـ «الجهاد» على الداخل، وشغلها حتى الثمالة مطلب استبدال الحكام المسلمين العلمانيين «الكفرة» بدول تقوم على القرآن، أي بحكومات تحكمها الشريعة الإسلامية. وقد رأس سيّد قطب من سجنه، بين سنتي ١٩٥٤ و١٩٦٥، تنظيماً شبه عسكري سمّاه «التنظيم السرّي». اقترح قطب على أتباعه أن الأولوية في الكفاح يجب أن تعطى ضد أعداء الداخل، أي التخلص من «الطغاة» الذين لا يطبقون الشريعة. وبحسب مقابلاتي على مرّ السنين مع أفراد عدة من تنظيمه معاصرين له، فقد حذّر قطب أتباعه من أي عمل أو التزام يصرفهم عن الصراع المحلي الوجودي بين أتباع حكم الله (الإيمان) وجماعة الردّة، أو بين «الحاكمية» و«الجاهلية». وبحسب قطب، فإن صراع الداخل هو النقطة الحاسمة لهذا الزمن، إذ إن الحكام المحليين العلمانيين هم الذين سمحوا للغرب بالهيمنة الثقافية على بلاد الإسلام.

لأربعة عقود تقريباً، انخرط الناشطون الإسلاميون المتشدّدون، ورثة تراث سيّد قطب، في حرب طويلة ضد العدو القريب ـ الحكام المسلمين المؤيدين

---

(١) Rohan Gunaratna, *Inside Al Qaeda: Global Network of Terror* (New York: Columbia University Press, 2003), p. xxxiii.

(٢) Ibid., p. xxxv.

للغرب ـ فيما أحجموا عن مهاجمة العدو البعيد ـ القوى الغربية. لقد انصبّ اهتمامهم على جبهة الداخل. ما من توجّه للحركة الإسلامية المقاتلة في الفترة تلك دعا إلى المواجهة المسلحة مع الغرب، وما من مانيفستو طلب مثل هذه المواجهة. بات الشأن الداخلي هو ميدان المجاهدين. ومع ذلك، لم يتردّد المعلقون الغربيون الذين اكتشفوا فجأة بعد ١١ أيلول/ سبتمبر سيّد قطب، في تصويره «فيلسوفاً للإرهاب»، والعرّاب الروحي والعملياتي لابن لادن والظواهري؛ ولا يتردّدون بالتالي في جعل «القاعدة» امتداداً مباشراً لأفكار سيد قطب.

وكان ذلك ملائماً لمخطّطات «القاعدة» تماماً. فقد ساعدها كلياً في سعيها المستمر إلى انتزاع الشرعية الدينية والسياسية من خلال دعوى الانتساب إلى تراث سيد قطب[٣]. فلطالما كرّر بن لادن والظواهري الادعاء أنهما وريثان مخلصان لسيد قطب، ومقاتلان في طليعته الإسلامية الأمامية. وفي الحقيقة، فعلاقة الظواهري بقطب تعود بمعنى ما إلى زمن إعدام قطب سنة ١٩٦٦. فقد بادر الظواهري، طالب المدرسة الثانوية يومذاك، وفي حيّ للطبقة الوسطى في القاهرة، الذي هزّه إعدام قطب، إلى تأسيس خلية سرية صغيرة مع عدد من رفاق صفّه. نظر الظواهري منذ اللحظة تلك إلى قطب «الشهيد» باعتباره المثال والإيحاء، وعاد إليه باستمرار في خطبه ونصوصه. وكما يلاحظ سيّد إمام الشريف، أقرب رفاق الظواهري في المرحلة تلك وفي ما تلاها (الذي عرف بـ «عبد القادر بن عبد العزيز»، و«دكتور فضل»)، فإن التطور الفقهي للظواهري قد توقف مع كتابات قطب قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وأنه لم يتقدم خطوة أخرى إلى الأمام بعد النقطة تلك. وبالمثل، يشهد رفاق آخرون للظواهري أن قطب قد صاغ عالم الظواهري بأكمله[٤].

ورغم ادعاء القرابة تلك، فقد كيّف بن لادن والظواهري أفكار سيد قطب لتلائم أهدافهما. فبحسب بعض أتباع قطب المعاصرين له، ممن قضى سنوات

---

(٣) انظر على سبيل المثال: Paul Berman, *Terror and Liberalism* (New York: W. W. Norton, 2003).

(٤) Ahmed al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad: Sayyid Fadl, Mufti al-Jihad, Responds to Zawahiri's «Exoneration»: Al-Qa'ida's Second-in-Command is a «Hypocrite»,» no. 12 (1 December 2008);

منتصر الزيّات، **أيمن الظواهري كما عرفته** (القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٢). انظر أيضاً مذكرات الظواهري حيث يعترف بتأثير قطب: أيمن الظواهري، **فرسان تحت راية النبي**، سلسلة مقالات في الشرق الأوسط (كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١).

معه في السجن أو في العمل السرّي، فإن قطب لم يدعُ قط إلى مواجهة مع الغرب، وإنما دعاهم إلى استهداف الحكام المحليين الذين يتآمرون مع أعداء الإسلام في الخارج ويسمحون له بالتسلل إلى بلاد المسلمين[٥]. ويضيف أتباع قطب المعاصرون، أنه لم يبد اهتماماً بعولمة الجهاد أو باستهداف القوى الغربية. هو دعا المسلمين بالتأكيد إلى الدفاع عن «دار الإسلام» ضد التدخل الصليبي والغزو الثقافي. ورغم ذلك، فدعوى بن لادن ومن معه هي بأن قطب قد وفّر الحجة الشرعية لعمليات «القاعدة» الجهادية في الخارج.

والصحيح أن زعم بن لادن هذا يجافي الحقيقة إلى حدّ بعيد. فقطب هو المنظّر الرئيسي لمفهوم «العدو الداخلي» وتنظيمه، «التنظيم السري»، إنما استهدف تحديداً النظام القومي العلماني للرئيس المصري (الراحل) جمال عبد الناصر. لم يذكر واحد من قادة التنظيم السرّي الذين قابلتهم أن قطباً قد أشار عليهم في أي وقت بمهاجمة الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين، أو أنه نظّر لضرورة مواجهة «العدو الخارجي». وكما يشير سيّد عيد، ابن الثمانين سنة الآن، والذي أمضى سنوات مع قطب في السجن، وكان مساعداً مخلصاً له داخل السجن وخارجه: «كان جوهر مشروع قطب يقوم على استبدال «الجاهلية» بـ «الحاكمية» في الوطن، وعلى تأسيس دولة القرآن بالتالي. ويضيف: «لا أذكر البتّة أن «الشهيد» دعا يوماً إلى شنّ حرب على أمريكا أو بريطانيا؛ لقد دعا بالأحرى إلى الاحتراس من الاختراق الثقافي الغربي لمجتمعاتنا».

بعد إعدام قطب سنة ١٩٦٦، انصبّ تركيز أكثرية الناشطين الدينيين المتطرفين سياسياً، أو المجاهدين المحليين، الذين لبّوا دعوته، على الشأن الداخلي. أما ما فعله الظواهري وبن لادن، فكان إبدال العدو الداخلي بالخارجي، ثم إلغاء أي فارق بين الاثنين في ما بعد، مستخدمين مقولات سيد قطب الأيديولوجية الشمولية نفسها. وفي كل الأحوال، فخطاب قطب المعادي للأمريكيين، مع فكرته الثورية حول الإسلام الحركي، سهّلا بلا شك من نشاط «القاعدة»، وسمحا لها بتكريس القوة الروحية المطلوبة خلف جهادها الأممي «المبارك».

---

(٥) سيد قطب، **لماذا أعدموني؟** (القاهرة: منشورات نون، ٢٠٠٧)؛ Sayyid Qutb, *Milestones [Ma'ālim fī al-ṭarīq]* (Cedar Rapids, IA: Mother Mosque Foundation, 1981), and Ibrahim M. Abu-Rabi, *Intellectual Origins of Islamic Resurgence in the Modern Arab World* (New York: State University of New York Press, 1996).

لكن قطب، ورغم إدانته الحادة للروح الصليبية في سياسات الولايات المتحدة، لم يدع إلى مواجهة معها. لكن البعض لا يعوّل كثيراً على هذه التمييزات الدقيقة، بل يرى أن عداءه لأمريكا ـ حيث قضى فيها سنوات مهمة من شبابه في الخمسينيات ـ قد أرسى التربة المناسبة لنشأة التنظيمات الإسلامية الأممية الراديكالية، مثل «القاعدة»؛ المتجذّرة في ثقافة شمولية واستقطاب حضاري، هما في جوهر تراث قطب الفقهي والأيديولوجي. وبحسب هؤلاء، فحين يجعل قطب الولايات المتحدة العدو الرقم واحد للإسلام، ويحذّر المسلمين من أن إسلامهم في خطر، فهو إنما يؤسس في الواقع على نحو ثابت للمشاعر المعادية للولايات المتحدة بين العرب والمسلمين، ويمهّد الطريق بالتالي لـ ١١ أيلول/ سبتمبر.

وفيما تردّد على نحو واسع بين المسلمين صدى نقد قطب العنيف للولايات المتحدة، فإن خطاب «القاعدة» تحديداً لا يقع ضمن هذه الفئة. لقد أخذ الإسلام الجهادي الأممي أولويات قطب الاستراتيجية، ثم قلبها رأساً على عقب. صحيح أن «القاعدة»، كما تنظيم سيد قطب الطليعي، يكافحان من أجل هدف واحد هو إقامة دولة القرآن، إلا أنهما يختلفان في كيفية تحقيق ذلك الهدف. فقد قضى قطب حياته سجيناً أو مطارداً، صارفاً جهده في تربية وتدريب طليعة تكون الخط الأمامي في مواجهة الطغاة المحليين، وفي أسلمة المجتمع من القاعدة إلى القمة. أما كفاح «القاعدة»، فكان على العكس، من القمة إلى القاعدة. لقد كانت تنظيماً مسلحاً صمّم على إعلان حركة كفاح أممية ضد الغرب، ساعياً إلى جرّه إلى حرب شاملة ضد العالم الإسلامي. أرادت «القاعدة» امتلاك أفئدة المسلمين وعقولهم بهدف إشاعة المقاومة الشعبية الشاملة ضد الغرب الصليبي المعادي لـ «الأمة»[٦]. وفي اللحظة التي يتمكن فيها بن لادن والظواهري من امتلاك الصدقية في أعين الجماهير المسلمة، يمكن آنذاك مبارزة الحكام المستبدّين في الملعب المحلي والقبض على السلطة في أوطانهم.

وهكذا اتسم التحوّل من «التنظيم الطليعي» لقطب إلى «القاعدة» عند بن لادن بالتواصل والقطيعة في آن معاً. فقد استخدم بن لادن والظواهري بعض مفاهيم قطب ومصطلحاته الأساسية، ثم عدّلا فيها بما يخدم قضيتهما أو هدفهما في الجهاد الأممي. وعلى سبيل المثال، فقد أخذا مفهوم «الإسلام

(٦) الظواهري، المصدر نفسه.

الحركي» (الطليعة المقاتلة) ـ الذي صاغه وروّجه قطب ـ ليستخدماه بعد ذلك ضد المؤسسة الدينية والسياسية في الوطن، كما ضد القوى الأجنبية في الخارج. كان قطب منظّراً لفكرة الجهاد في الداخل، وليس لفكرة القاعدة في الجهاد الأممي. ومنذ إعدامه، حافظ أتباعه على خط الجهاد الداخلي هذا، وانصبّ جهدهم تحديداً على الثأر من الحكام العرب العلمانيين، وبخاصة عبد الناصر ومن جاء بعده.

يمكن اعتبار جماعات الجهاد الإسلامي الأممي عموماً أصحاب الفضل في إطلاق الحرب الأفغانية ضد السوفيات، الحرب التي استمرت حوالى عقد من الزمان، والتي نجح المجاهدون في أن يحشدوا لها ما بين ١٠,٠٠٠ و٥٠,٠٠٠ متطوع مَن كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي. كانت أفغانستان المهد الذي تدرّج فيه جيل جديد من المجاهدين، تعمّد فيها بالدم والنار، وتذوّقوا فيها كذلك حلاوة النصر على إحدى أقوى آلات الحرب العظمى التي عرفتها البشرية. لقد طبع الجهاد بطابعه شخصية أفراد هذا الجيل وعالمه، وبعث فيهم شعوراً طاغياً بالقوة التي لا تُهزم. وهو ما يفسّر سِمتي الإقدام والإصرار في هذا الجيل، التي أسعفته «عصبيته» في تخطي المحن.

استند الجهاد الأفغاني إلى صعود «القاعدة» والجهاد الأممي، وأثمر تيارين أيديولوجيين قويين: إسلامي راديكالي مصري، وآخر سعودي محافظ جداً. وكانت «القاعدة» ثمرة الزواج بين هذين الخطّين، الظواهري ومجموعته المصرية القوية من جهة، وبن لادن ومعه المتطوعون السعوديون واليمنيون من جهة ثانية، وهو اتحاد بين عشيرتين إسلاميتين. ورغم استمرار هذا الاتحاد، حتى بعد موت بن لادن، إلا أنه بات مكشوفاً؛ أفراده قلة، معزولة، عن باقي الجماعة الإسلامية الرئيسية، وبات مستقبله بالتالي عرضة للخطر.

كان الظواهري ومجموعته المصرية قد قضوا سنوات طوالاً يقاتلون النظام المصري القومي ـ العلماني. وفي سنة ١٩٩٥ نشر الظواهري في نشرة **المجاهدين** (العدد ٢٦، نيسان/أبريل) التي كان يصدرها «تنظيم الجهاد» السرّي، مقالة تحت عنوان: «الطريق إلى القدس تمر بالقاهرة». يقول في المقالة «إن القدس لن تتحرر حتى يتحقق النصر في معركتي مصر والجزائر، وإلى أن تتحرر مصر». وهكذا فهو يؤكد من جديد على أولوية المعركة مع الحكّام المسلمين. وبحسب «فضل»، أرفع مساعدي الظواهري منذ الستينيات وحتى

تسعينيات القرن الماضي، لم يظهر الظواهري طوال هذه الفترة أي اهتمام في مهاجمة أعداء في الخارج[٧]. ولربما رأى في ذلك تشتيتاً لأنشطته أو إهداراً في موارده وإمكانياته المحدودة، ناهيك عن تناقضه مع ثوابته النظرية والفقهية.

شكّل الكفاح ضد «العدو القريب»، بالنسبة إلى جيل الظواهري، ضرورة استراتيجية، إذاً، وواجباً دينياً سواء بسواء؛ إذ وحدها الدول القائمة على القرآن تستطيع حماية الإسلام وتعزيز انتشاره في مواجهة المؤثرات الغربية الثقافية المفسدة والصليبية الإمبريالية. بل إن مساعديه كانوا أكثر تشدّداً في إيمانهم أن الأولوية يجب أن تعطى للجهاد الداخلي وفوق أي هدف آخر. وعلى سبيل المثال، ففي أواخر تسعينيات القرن الماضي، طلب الظواهري من قادته الأساسيين في أفغانستان واليمن ومصر وفي كل مكان الانضمام إلى «الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين» المشكّلة حديثاً مع بن لادن. لكن أوامر الظواهري لقيت تمرّداً واعتراضاً داخل تنظيمه، ونشأت في إثر ذلك منظمة جديدة تحت اسم الجهاد، ثم أعيدت تسميتها «تنظيم الجهاد»، وقد أبدت معارضة شرسة ضد الانضمام إلى تنظيم بن لادن الأممي المغامر.

وقد اتهم عدد من أتباع الظواهري بالتهور، وبتعريض وجود الحركة الإسلامية للخطر، بل إن عدداً من كبار مساعديه حذّره تحديداً من مغبّة السقوط في فخ خطاب بن لادن، الذين رأوا فيه شخصية غير موثوقة، ومغامراً مهموماً بتعزيز صورته الإعلامية أكثر من اهتمامه بالقتال من أجل إعلاء كلمة الله. وفي اجتماع رئيسي في أفغانستان في أواخر التسعينيات بلغ الأمر بالظواهري، وفي مواجهة الاعتراضات المتزايدة على تحالفه مع بن لادن، أن عرض استقالته من إمارة تنظيم الجهاد. وبحسب عدد من الذين شاركوا في الاجتماع، فقد عبّر قادة رفيعو المستوى عن صدمتهم من لجوء قائدهم إلى الانضمام إلى جبهة بن لادن «الإسلامية العالمية» من دون التشاور معهم أولاً، ومن دون درس عواقب مثل هذه المغامرة ثانياً[٨].

وبالإضافة إلى المعارضة داخل الحلقة الصغرى للظواهري على مهاجمة

---

(٧) Al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad,» no. 3 (21 November 2008).

(٨) انظر أيضاً: «مذكرات هاني السباعي قائد سابق في الجهاد،» **الحياة**، ١-٤/٩/٢٠٠٢ (سلسلة من أربع مقابلات مطولة مع الإسلامي المصري هاني السباعي)؛ الزيّات، **أيمن الظواهري كما عرفته**؛ **الحياة**، ٢٤/١/٢٠٠١، و Al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad,» no. 11 (30 November 2008).

الولايات المتحدة، كان أنصار العمليات الأممية قلة أيضاً داخل الحركة الجهادية عموماً. وقد دعا القادة المعتقلون لـ «الجماعة الإسلامية»، أكبر الجماعات الجهادية في العالم الإسلامي، أنصارهم إلى عدم الانضمام إلى الجبهة الإسلامية العالمية، وإلى الالتزام بالهدنة من جانب واحد التي أعلنوها سنة ١٩٩٧. واندلعت في إثر ذلك حرب كلامية بين أرفع قيادات الجماعة من جهة، والظواهري من جهة ثانية، عملت على بذر الشقاق بين القيادات المعتقلة تلك وأتباعها في المنفى(٩).

كانت فكرة الجبهة الإسلامية العالمية فكرة غير صائبة انتهت إلى إيقاع المزيد من الخسائر الجسيمة بأبناء الإسلام، بحسب بعض الأتباع السابقين للظواهري الذين قابلتهم في مصر واليمن وأمكنة أخرى في أواخر التسعينيات. لم ينجذب واحد من هؤلاء إلى تحوّل الظواهري المفاجئ إلى الجهاد الأممي. كان هناك إجماع على أن الظروف المالية والميدانية الضاغطة التي كبّلت يده هي التي ألزمته الانضمام إلى جبهة بن لادن، في خطوة تكتيكية يحاول بها إنقاذ سفينته المشرفة على الغرق. فقد بدا الظواهري المفلس، في النصف الثاني من التسعينيات، عاجزاً عن إعالة حتى أرامل شهداء تنظيمه، وتلك مصيبة كبرى، ناهيك عن نفقات عيش مسؤوليه وعناصره الموزّعين. وإلى ذلك، عانى تنظيم الظواهري، «تنظيم الجهاد»، من تراجع عسكري كارثي (حيث كان بلغ عدد معتقليه سنة ١٩٩٣ لدى السلطات المصرية حوالى الألف، من بينهم مسؤولون رفيعون، بسبب حماقات أفراد من الرتب الوسطى والدنيا). وفي العام ١٩٩٥ أرسل الظواهري مذكّرة داخلية إلى أتباعه طلب فيها تعليق الهجمات ضد النظام المصري داخل البلاد، نظراً إلى الصعوبات العملياتية، ومعترفاً بالتالي بما يشبه الهزيمة.

وأكّد آخرون أن الظواهري لم يكن له في الأصل ميل إلى الجهاد الأممي، ولكنه حاول، كما يعتقدون، المناورة والتزاكي على بن لادن من خلال الانخراط في مشروع الجبهة الإسلامية العالمية في مسعى إلى بعث الحياة في معركته الأصلية ضد العدو القريب. وليس بعيداً عن ذلك دفاعه عن نفسه بالقول إن قراره المضي في الهجمات ضد العدو البعيد إنما سببه تورّط الولايات المتحدة في

---

(٩) منتصر الزيّات: المصدر نفسه، و«الجماعة الإسلامية: رؤية من الداخل،» (سلسلة مقالات) **الحياة**، ١٠ ـ ١٤/ ١/ ٢٠٠٥.

أواخر التسعينيات في اعتقال قادة كبار من «الجهاد» في ألبانيا وبلدان أخرى وتسليمهم إلى مصر، والحكم على بعضهم بعدها بالإعدام. وعليه، قرر الظواهري الانتقام من أمريكا. وفي كل الأحوال، فإن دعوته إلى الجهاد الأممي لم تلق صدى إيجابياً في حلقته الداخلية الضيّقة، ولا في أوساط الحركة الجهادية بوجه عام. لكن الظواهري ما عاد باستطاعته التراجع إلى الوراء. وهكذا بات ملزماً، وهو يترك وراءه ثلاثين عاماً من الكفاح ضد العدو القريب، ويتحوّل كلياً إلى مقاتلة العدو البعيد، تبرير انقلابه، فأصدر سنة ٢٠٠٠ بياناً كان أقرب إلى السيرة الذاتية ـ تحت عنوان **فرسان تحت راية النبي** ـ بررّ فيه انقلابه، داعياً إلى إعطاء الأولوية للمعركة مع «رأس الكفر»: الولايات المتحدة الأمريكية[١٠].

قصة «القاعدة»، إذاً، هي قصة التحالف بين رجلين ميزتهما المشتركة الاندفاع وقوة الشخصية، ولكن بحساسيات وخلفيات وأنماط عيش متباينة. فقد نشأ الظواهري، منذ شبابه المبكر، في حقبة التغيير الاجتماعي الاقتصادي والسياسي المثير في مصر إبان الخمسينيات والستينيات، فعقد العزم على أن يواصل معركة سيد قطب في تأسيس دولة قائمة على القرآن إلى خواتيمها. وكما أخبرني أحد رفاقه في السجن، فالظواهري «قطبي من رأسه حتى أخمص قدميه». أسس الظواهري، فيما كان طالباً في المرحلة الثانوية في مدرسته في المعادي بالقاهرة، خلية سرية، ودعا عدداً من رفاق المدرسة وأصدقائه الأقربين إلى الانضمام إليه. ورغم أنه ينتمي إلى أسرة مهنية ذات جذور سياسية عربية قومية، إلا أن الظواهري رفض كلياً العملية السياسية، وفضّل عليها العمل السري والتكتيكات شبه العسكرية. وكما أخبرني مقرّبون معاصرون له، فهو وبالرغم من مشاركته في بضعة احتجاجات، إلا أنه لم يؤمن البتّة بالنشاط السياسي أو الديني أداة لقلب النظام السياسي المصري العلماني، ولا حتى استخدم الجامع من أجل التجنيد والحشد.

والطريف أن الظواهري قد وافق عدوه اللدود، عبد الناصر، على أسلوب الانقلاب العسكري وسيلة لإحداث التغيير الجذري المطلوب. فهو حاول اختراق المؤسسة العسكرية المصرية من خلال تجنيد ضباط من رتب دنيا في خلاياه، متجنّباً مع ذلك المواجهة العسكرية المباشرة مع السلطات المصرية، ومنتظراً في الظلّ إلى أن يحين الوقت المناسب. وبالرغم من أن الظواهري لم يكن متورّطاً

---

(١٠) الظواهري، **فرسان تحت راية النبي**، وAl-Khatib, Ibid.

مباشرة بعملية اغتيال السادات سنة ١٩٨١، إلا أنه سجن مع ذلك لثلاث سنوات لعلاقته الوثيقة بالمنفّذين. وقد غدت سيرة حياته في الضوء بفعل التحقيقات المكثّفة والتعذيب اللذين خضع لهما، كذلك تعرّضت خليته الجهادية للتدمير على أيدي أجهزة الرئيس (السابق) حسني مبارك الأمنية. وعلى نحو يشبه تجربة سيد قطب في السجن، لم تذهب سنوات السجن بالظواهري بعيداً عن قناعته بالعمل السري، بل هي شدّت من عوده. فتجربة العمل الشاق، والإساءات الجسدية والنفسية، والإهانات، والتعذيب، تركت كلها فيه ندوباً لا تمّحي. خرج الظواهري من السجن سنة ١٩٨٤ مشبعاً بالحقد الشديد على السلطةَ والرغبة العارمة بالانتقام. ورغم تحوّله من الجهاد المحلي إلى الجهاد الأممي، احتفظ الظواهري على الدوام بقرار الكفاح ضد حكّام مصر العلمانيين «المرتدّين»: عبد الناصر، أنور السادات، وحسني مبارك. وشنّ بالتالي، وطوال خمسين سنة، «حرباً صليبية» ضدهم، حرباً تواصلت من مقاعد الدراسة في المدرسة الثانوية في حيّ للطبقة الوسطى العليا في القاهرة إلى ميادين القتال في أفغانستان وباكستان.

ثانياً: أسامة بن لادن والقاعدة

بخلاف ذلك، عاش بن لادن حتى سنة ١٩٨٠ حياة أكثر بساطة من تلك التي كانت لشريكه اللاحق في الجهاد. فقد تمتع بن لادن مذ كان فتى، وواحداً من ٥٤ ولداً لمحمد بن لادن، رجل الأعمال السعودي الشهير، بالثروة والحظوة والفرص الكثيرة. صرف بن لادن سنوات الشباب في مدينة جدة على البحر الأحمر، وساعات كثيرة في مزرعة العائلة في التلال والأودية بين جدّة ومكة. كما زار بانتظام عائلة والدته في اللاذقية في سورية، وتلقّى بعض تعليمه المبكر في اللاذقية وبيروت[(١١)].

كان والد بن لادن قد رحل إلى العربية السعودية من منطقته الجبلية الوعرة في شمال اليمن، ولم يكن يملك غير ما في جيبه، ومع ذلك فقد تمكّن من أن يبني من الصفر إمبراطورية من الأعمال تقدر بمليارات الدولارات، وأن يؤسس بالتالي علاقات متينة بالأسرة الملكية. أعاد بن لادن الوالد بناء مجمّعات

(١١) تستند هذه الفقرة عن بن لادن إلى حدّ كبير على: Steve Coll, *The Bin Ladens: An Arabian Family in the American Century* (London: Penguin Books, 2008), and Peter Bergen, *The Osama bin Laden I Know: An Oral History of al-Qaeda's Leader* (New York: Free Press, 2006).

المساجد الضخمة في مكة والمدينة، الحرمين الشريفين المقدّسين في الإسلام. وحتى بعد وفاته، وكان أسامة لا يزال في العاشرة من العمر، استمرّ محمد بن لادن مثالاً عملياً لولده، الذي لم يتأخر في التخلّق بأخلاق والده العملية، وفي التواضع وعمل الخير والاستقلالية. زرع الوالد في شخصية أسامة الفتى القدرة على الاحتمال، والمثابرة، والإيمان أنه بالإمكان تخطّي كل الصعوبات. وأسلوبه في متابعة أعماله بنفسه أثّر بقوة في طريقة قيادة بن لادن، فقد فضّل باستمرار مباشرته مشاريعه عملياً وبنفسه بدل البقاء في الظلّ أو المكاتب.

ومنذ شبابه المبكر، كان بن لادن أكثر تديّناً من إخوته غير الأشقاء، وقد شعر كسواه بعمق الإهانة التي عمّت الوطن العربي بعد هزيمة حرب ١٩٦٧ أمام إسرائيل، والتي هزمت إسرائيل فيها الجيوش العربية. كذلك استشعر مع آخرين عمق التحولات التي عصفت بعقد السبعينيات، والتي كانت ذروتها الثورة الإسلامية في إيران، وغزو السوفيات لأفغانستان، واحتلال المسجد الحرام في مكة، وتوقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل. وشكّل انتسابه سنة ١٩٧٣ إلى صفوف إسلامية في فترات ما بعد المدرسة تابعة لجماعة إسلامية في «الثغر»، وهي مدرسة للنخبة في جدة، نقلة مفصلية في حياة بن لادن. وقد اعتبر ذلك ولادة من جديد. لقد ملأت الصحوة الدينية تلك الفراغ النفسي الذي خلفه موت والده.

وبينما كان بن لادن ربما أكثر ورعاً من أشقائه، إلا أنه لم يكن عموماً مختلفاً كثيراً عن غيره من الشبان السعوديين الذين تلوّنت حساسيتهم وعالمهم بالأحداث العاصفة لأواخر الستينيات والسبعينيات. إلى ذلك، هو لم يظهر أي ميل إلى القطيعة مع أسرته، ناهيك عن الفرار منها للانضمام إلى حرب أممية من دون حدود. حتى أواخر السبعينيات، ظلّ بن لادن إلى حدّ كبير خارج السياسة، ولم ينتم إلى قضايا سياسية.

كما الكثير من الشباب السعودي من جيله، درس بن لادن الاقتصاد في جامعة الملك عبد العزيز في جدّة، وأتيح له التعرّف إلى أستاذين محاضرين هناك ـ عبد الله عزّام، الداعية الإسلامي وصاحب الحضور القوي الذي أصبح المرشد الروحي له خلال الجهاد الأفغاني في الثمانينيات، ومحمّد قطب، شقيق سيّد ـ وكان لكليهما تأثير أساسي في التحول اللاحق لابن لادن. وبالإضافة إلى دراسته الاقتصاد الكلي (Macro Economics)، قرأ أسامة المنشورات الثورية

لسيّد قطب، وشكّل مفاهيمه وأفكاره الخاصة به. ورغم أن ورعه قد تعمّق أثناء دراسته في الجامعة، إلا أن ذلك لم يصرفه عن ترسيخ دوره في أعمال أسرته وتعهداتها. لذا فهو صرف الساعات الطوال في مواقع البناء المختلفة، مشرفاً على العمل، كما سافر إلى أوروبا في رحلات عمل، وعلى طائرات الشركة الخاصة. ومع ذلك، فقد اختار في بلده في جدّة نمط حياة أكثر تواضعاً وبساطة من أشقائه، ثم صار له أسرة خاصة به. ولكن سرعان ما بدّلته أفغانستان، فانخراطه وتوسّع دوره في الحرب هناك ساعداه على ترسيخ مكانة أسرته داخل المملكة، التي كانت المحرّك القوي للجهاد الأفغاني.

عاش بن لادن والظواهري، إذاً، نمطي حياة مختلفين تماماً: الأول فوق الأرض، بينما الثاني سرّي وتحت الأرض. كان بن لادن بنّاءً، فيما كان الظواهري مدمّراً. ومع ذلك، التقى الرجلان في أفغانستان في الثمانينيات، وتقارب نمطا حياتهما. فقد بدّل الجهاد الأفغاني من بن لادن، فأمسك بتلابيب مخيّلته بالكامل، وترك بصمات عميقة على مزاجه. لقد وجد نفسه بين مجاهدين شبّان أو أكبر سنّاً يقاتلون عدواً لا يؤمن بالله، يسعون إلى الشهادة، ويحلمون بالثواب الإلهي، وبنعيم السماء لا الأرض. وشعر الثري القادم من أرض الإسلام المقدسة، السعودية، بأنه في بيته مع مسلمين بسطاء ـ أتى بعضهم من أمكنة بعيدة بعدما باع أثمن ما لديه، بما فيه مجوهرات زوجته أو مدخّرات العمر ـ وقرّروا التضحية بأنفسهم دفاعاً عن الأمة. وأدرك بن لادن أن الدرس الأول هو تعبئة إرادة المسلمين وامتشاق الجهاد، هو واجب في حالة أفغانستان أو «فرض كفاية»، وفي وسعه أن يتحوّل سلاحاً جبّاراً، وأن يترك بالتالي آثاراً عظيمة.

نجح الجهاد في أفغانستان في إعادة تشكيل بن لادن، نفسياً وروحياً، كما لم تفعل مدرسة من قبل. ووفّر عبد الله عزّام، الشخصية الأردنية من أصل فلسطيني، والمرشد الروحي لابن لادن، الإرشاد الأيديولوجي والفقهي له، بل غدا القوة الدافعة خلف دخوله إلى البيئة الجهادية. نظر بن لادن إلى عزّام باعتباره الأب الروحي والمعلّم، وانحنى دائماً بين يديه. وفي الواقع، فقد مثّل عزّام لابن لادن ما مثّله قطب للظواهري. كان كلاهما، ومع قدر من الاختلاف، ينتسبان إلى مدرسة في التفكير، إسلامية راديكالية متشدّدة، كما سقط كلاهما شهيداً.

فضّل عزّام، كما قطب، تشكيل «الطليعة المقاتلة» التي سيقع على عاتقها تمهيد الطريق نحو بناء المجتمع القرآني الأمثل، وبعث صحوة إسلامية على

مستوى العالم. يقول عزّام، في بيانه الذائع الصيت «انضم إلى القافلة»، إن تأسيس أساس صلب، موطن، يكون قاعدة للإسلام هو أمر حاسم:

«إن تأسيس مجتمع إسلامي على بقعة من الأرض هو أمر حتمي، وضروري كالماء والهواء. لكن موطن الإسلام هذا لا يتحقق من دون حركة إسلامية، تتوسل الجهاد بوعي وواقعية، وتكون مصمِّمة على القتال باعتباره عاملاً حاسماً وأداة لا مفرّ منها»(١٢).

إلا أن عزّام، بخلاف قطب، عارض حمل السلاح ضد مسلمين آخرين، بمن فيهم الحكام القوميين أمثال عبد الناصر ومبارك. ومنذ سنة ١٩٨٧، وإلى حين اغتياله سنة ١٩٨٩، عارض عزّام بدون هوادة سعي الفرعين المصري والجزائري بقيادة الظواهري إلى نشر العرب الأفغان (الذين قاتلوا السوفيات في أفغانستان) لمحاربة أنظمة الحكم الإسلامية العلمانية المؤيدة للغرب، وإلى نشر الثورة الإسلامية في بلاد الإسلام كافة، انطلاقاً من مصر والجزائر. كان رأي عزّام أن «العنف يجب ألّا يُستخدم لمحاربة الأنظمة الإسلامية، كائناً ما كانت درجة انحرافها عن مبادئ الشريعة»(١٣).

ووفق ما أخبرني به في التسعينيات رفاق سابقون للظواهري، فقد شنّ حملة على عزام معتبراً أنه هو الذي «سمّم» تفكير بن لادن، فقد أغاظه التأثير الطاغي لعزّام في الأمير، وسعى جاهداً إلى إحداث الشقاق بين المُريد السعودي ومعلّمه. وفي اجتماع لأفغان عرب، وبحسب أحد المشتركين فيه، انتقد الظواهري عزّام علناً قائلاً إنه «ليس عزّام الذي نعرفه»(١٤). أمل الفرع المصري، بقيادة «فضل» والظواهري، كسب بن لادن إلى صفّه في المعركة ضد الحكّام العرب «المرتدين» ـ العدو القريب ـ والوصول بالتالي إلى موارده المالية. لكن بن لادن لم يحقق لهم أياً من الهدفين. فقد عارض طوال الثمانينيات والتسعينيات قتال المسلم للمسلم، ناصحاً العرب الأفغان تجنّب إراقة دماء المسلمين. وكيما يضع حداً للإشاعات التي انتشرت عن تمويل بن لادن لهجمات جهاديين محليين على

---

(١٢) Caravan, <http://www.kavkazcenter.com/eng/content/2007/05/28/8351.shtml>, and Defense of the Muslim Lands, <http://www.religioscope.com/info/doc/jihad/azzam_defence_1_table.htm>.

(١٣) عبد الباري عطوان، **التاريخ السري للقاعدة** (لندن: دار الساقي، ٢٠٠٦).

(١٤) Al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad,» no. 8 (27 November 2008).

أهداف مصرية وجزائرية، سحب بن لادن أي نوع من أنواع الدعم للتنظيمين.

أظهر الظواهري وحلفاؤه قدراً من الشراسة في مواجهة بن لادن، فاتهموه بالجشع والأنانية، وأنه ليس واحداً منهم. وعلى سبيل المثال، فحين قلّص بن لادن سنة ١٩٩٥ من دعمه المالي لتنظيم الجهاد في مصر، الذي يقوده الظواهري، كتب الأخير في مجلة التنظيم **كلمة حق** منتقداً بن لادن، قائلاً: «فيما الشباب يضحّون بأرواحهم، يحبس الأثرياء على أموالهم»[١٥]. ويفسّر حبسُ بن لادن للتمويل جزءاً من المعارضة الشرسة في الحلقة الداخلية للظواهري وباقي العصبة في أواخر التسعينيات لفكرة الاندماج في تنظيم بن لادن الأممي.

لم يدعُ عزام، كما قطب، إلى عولمة الجهاد، ولا أوحى بمنظمة أممية لها أيديولوجيا «القاعدة»، وبنيتها وتكتيكاتها. ربما تبنّى فكرة «القاعدة الصلبة» الذي استخدمه في كتابات ١٩٨٧، إلا أنه خلافاً للتفسيرات المبسّطة والمضللة التي كان يصدع بها المدعوون «خبراء في الإرهاب» مثل غونارتنا، فالقاعدة الصلبة التي استخدمها عزّام لها معنى مختلف تماماً عن فكرة التنظيم الذي ولد في النصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي[١٦].

لا شيء يجمع بين «القاعدة الصلبة» عند عزام والتنظيم العسكري لابن لادن الذي كان بدأ سنة ١٩٩٨، الذي أطلق رسمياً تحت اسم «الجبهة الإسلامية العالمية»[١٧]. وفي الحقيقة، وبحسب «فضل»، أمير تنظيم الجهاد وأرفع مساعدي الظواهري، وصاحب الاجتهاد الفقهي في الثمانينيات بابتعاد بن لادن عن عزّام، فإن «على الشعب أن يعرف أن نشوء «القاعدة» كان انحرافاً عن أفكار عبد الله عزّام ورفضاً لها»[١٨]. فقد رأى عزّام في «القاعدة» منطلقاً، أساساً، يتألف من أفراد ملتزمين بالقضية، وفي وسعهم عبر التراكم التصاعدي لنضالاتهم

---

(١٥) Ibid., no. 12 (1 December 2012).

(١٦) Gunaratna, *Inside Al Qaeda: Global Network of Terror*, p. 3.

(١٧) تعريف عزّام لمصطلح «القاعدة الصلبة» الذي استخدمه مشابه للطليعة عند قطب، ويعني الأسلوب: «كل مبدأ يحتاج إلى طليعة تسير به إلى الأمام، وفيما هي تدفع نحو المجتمع، فهي تحمل أثقالاً وتضحيات مضاعفة. ما من عقيدة على الأرض أو في السماء إلا وتحتاج إلى مثل هذه الطليعة التي تعطي كل ما تملك لتصل إلى انتصار عقيدتها. انظر: عبد الله عزّام، «القاعدة الصلبة،» **الجهاد**، العدد ٤١ (نيسان/ أبريل ١٩٩٨)، ص ٤٦.

(١٨) Al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad,» no. 10 (29 November 2008).

أن يحدثوا التغيير. ما عناه عزّام بـ «القاعدة» هو التكتيك، وليس التنظيم[١٩].

يستخدم كثيرون المصطلحات، من مثل «القاعدة الصلبة» لعزام، خارج سياقها التاريخي والسوسيولوجي، ويقومون بتطبيقها على نحو عشوائي. من مثل ذلك، اعتقاد هؤلاء أن «القاعدة الصلبة» لعزّام هي المرادف لتنظيم بن لادن الأممي الذي أنشئ بعد عقد كامل من الزمن. إنها أشبه بمقارنة التفاح بالبرتقال. فأن تساوي بين نظرية عزّام وتنظيم «القاعدة» هو أن تحرّف في وقائع التاريخ، وأن تتجاهل التشابهات والتباينات بين قادة الأفغان العرب. وعلى سبيل المثال، حاول عزّام كبح النزعة المغامرة الطائشة لدى البعض، أمثال الظواهري و«فضل» وبعض أتباعهما، ومنعها من خطف الجهاد الأفغاني. وحاول عزّام من دون كلل منذ ما قبل اغتياله سنة ١٩٨٩، ووسط غضب الظواهري، انتزاع بن لادن من سيطرة الشريحة المصرية.

في مذكّرته المسماة «الكشف»، كما في مقابلات إعلامية عدة بالعربية، يلقي فضل بعض الضوء على الصراع الحادّ الذي دار في أواخر الثمانينيات بين الشريحة المصرية وعزّام حول مستقبل الأفغان العرب. وقد كثّف الظواهري من جهوده للحطّ من قيمة عزّام في أعين الأفغان العرب، وبخاصة بن لادن. وتذهب أنشطة فضل مذهب أنه لو لم يقتل عزّام، لما كان لتنظيم بن لادن أن يأخذ منذ أواسط التسعينيات المنحى الأممي القاتل الذي أخذه. لقد كان عزّام الزعيم غير المنازع للأفغان العرب، وامتلك بينهم المكانة العالية والشخصية صاحبة النفوذ. وفي ذروة الحرب الأفغانية، عارض عزّام مهاجمة المدنيين، بمن فيهم الروس، رغم أن القوات السوفياتية دمّرت بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٩ أفغانستان تقريباً، وقتلت الملايين من السكان. لقد عارض طوال الوقت استخدام الإرهاب أداة في الحرب، كما عارض أي هجوم على الأشخاص غير المقاتلين.

في عدد من المقابلات، أخبرني عدد من الرواة الثقات أن عزّام رفض دائماً اقتراحات الظواهري ومتطرّفين آخرين باستهداف المدنيين الروس، بحجة أن ذلك سيشوّه سمعة المجاهدين والجهاد. امتلك عزّام، بخلاف الظواهري، حسّاً أخلاقياً يميّز بقوة بين الصحيح والخطأ، بل حرّم القتل. رفض عزّام، كما قالوا، مبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة ـ أي لم ير أن الالتزام بتحرير أفغانستان من

(١٩) Jason Burke, *Al Qaeda: The True Story of Radical Islam* (London: I. B. Tauris, 2003), p. 2.

الاحتلال السوفياتي يبرّر استخدام الإرهاب ضد المدنيين الروس غير المسلحين. لم يكن عزّام بالتأكيد ملاكاً، بل إن بعض تصريحاته الملتهبة في ذروة الحرب الأفغانية قد حمل مضموناً حربياً. فقد تركت الحرب الأفغانية ندوباً عميقة في كل المقاتلين، وبخاصة الرابحين، من مثل جيل عزام. لقد جعلهم النصر متهوّرين تقريباً، وأحياناً فقدوا الحس بالاتجاه الصحيح. وفي رأيي أن عبارات عزام يجب أن توضع في سياقها الصحيح، فتقارن وتقابل بتصرّفاته في خلال الحرب الأفغانية. وهناك نقاش نقدي حول طبيعة الانقسام والتناقضات بين الشخصيات القيادية لهذا الجيل، كما في داخله. يذهب النقاش إلى قلب مسألة: لماذا، ومتى قطع بن لادن مع عزام وأنشأ شبكته العسكرية؟. تظهر المقاربة التاريخية أن العرب الأفغان لم يكونوا كتلة واحدة متراصّة، كما طاب لـ «حديث الإرهاب» أن يصورهم بعد ١١ أيلول/سبتمبر، بل إن خلافات جديدة نشأت بين قادتهم. يتجاهل «حديث الإرهاب» تنوّع العرب الأفغان ووجود شخصيات قيادية أخرى فاعلة غير بن لادن والظواهري، مثل عزام، والشيخ عمر عبد الرحمن، الفقيه الأعمى وزعيم الجماعة الإسلامية في مصر، و«فضل» بالطبع.

في كتابه **داخل القاعدة** يجعل روهان غونارتنا الإسلاميين جميعاً في موقع «القاعدة»، ويرى تبعاً لذلك أن التهديد الذي يمثلونه خطير، بل وجودي. يزعم غونارتنا أكثرمن ذلك، فيقول إن القاعدة اخترقت الشبكات الإسلامية حول العالم ـ الشرق الأوسط، شرق آسيا، جنوب شرق آسيا، بما فيها جنوب تايلاندا، وماليزيا، وسنغافورة، وبروناي، وإندونيسيا، وكمبوديا، وميندانو. وهو يحذّر جمهوره الغربي من أن «القاعدة» حركة عالمية قادرة على إثارة صراعات عالمية جديدة لا يمكن تخيّلها (طليعة ميدانية رائدة ورأس حربة تهديد إسلامي عالمي ستفرض نفسها على المدى البعيد)، وفي صراع مستمر مع الغرب، بشكل أو بآخر[٢٠]. لذلك فهو ينتهي إلى الدعوة إلى حرب عالمية مستمرة مفتوحة ضد الإرهاب. لكن الواقع، كما بيّنت سابقاً، ليس كل الإسلاميين نسخاً طبق الأصل عن بن لادن. كان عزام، إلى حدّ كبير، الأكثر تأثيراً بين القادة المؤسسين للأفغان العرب، واستمرت كلماته وأفعاله موضع احترام وتقدير، وبخاصة من بن لادن الذي ربما كان يعدّه كزعيم مستقبلي

(٢٠) Gunaratna, *Inside Al Qaeda: Global Network of Terror*, pp. xxviii and 1-3.

لـ «الطليعة الرائدة». وفيما كانت الحرب الأفغانية تضع أوزارها، حوّل عزّام بصره باتجاه فلسطين، موطنه ـ الذي لم يفارقه ـ كقاعدة محتملة للجهاد. وقد رأى أن مطلب تحرير فلسطين هو واجب مقدّس، ودعا المسلمين إلى الانضمام إلى قافلة الجهاد هناك. ورغم أن محنة فلسطين لم تفارق مخيّلة معظم المجاهدين من أتباع قطب ـ وبخاصة الشريحة المصرية من أمثال «فضل»، والظواهري، وصبحي أبو ستة (المعروف أيضاً بأبي حفصة المصري)، وعلي أمين الرشيدي (أبو عبيدة البنشيري)، وسيف العدل (المعروف أيضاً بمحمد إبراهيم المكاري) ـ كان رأي هؤلاء أنها تنتظر التخلّص من الأنظمة العلمانية في البلدان الإسلامية وإبدالها بأنظمة اسلامية. وبدل مواجهة العدو الصهيوني، دعا الظواهري إلى شنّ الحرب لإزالة الحكام المسلمين والإمساك بالسلطة، وحين تصبح الحركة الإسلامية في السلطة يبدأ تحرير فلسطين. وبحسب «فضل»، فإن «فلسطين ليست المسألة المركزية أو الأساسية للعرب والمسلمين، كما يروّج لذلك بعض «الفلاسفة»». ويضيف، «الأولوية هي لاسترجاع حكم الخلافة الإسلامية الذي يوحّد بين المسلمين»[٢١]. ومن هنا شعار الظواهري أن الطريق إلى القدس يمرّ بالقاهرة والجزائر وعمّان.

حاول كلا المعسكرين جذب بن لادن إلى قضيته، إلا أن بن لادن كان يأمل في هذه المرحلة في أواخر الثمانينيات التي امتلأت بالكفاح ضد السوفيات، تحرّك قافلة الجهاد إلى جمهوريات آسيا الوسطى لمتابعة القتال ضد روسيا[٢٢].

من المفيد إذاً التشديد على أنه عند نهاية الحرب الأفغانية سنة ١٩٨٩، لم يدعُ أحد من قادة المجاهدين ـ عزّام، وفضل، والظواهري، أو بن لادن، أو أية شخصية أخرى ـ إلى استهداف الولايات المتحدة. لم ينصح صوت بارز واحد، في هذه المرحلة، بالصراع المسلح مع الغرب. فالولايات المتحدة مع حلفائها كانوا على الضفة نفسها مع المجاهدين لقتال «إمبرطورية الشر». وكان التقارب بين الولايات المتحدة والمجاهدين في أفغانستان، في الواقع، وثيقاً جداً، ولا يفرّق بينهما سوى خلافات محدودة.

مع ذلك، فقد ذهب المعلّقون بعد ١١ أيلول/ سبتمبر بعيداً جداً في

---

(٢١) Al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad,» no. 9 (28 November 2008).

(٢٢) Lawrence Wright, *The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/11* (New York: Alfred A. Knopf, 2006), p. 131.

محاولتهم العثور على أدلّة تدعم فكرتهم عن العداء والكراهية الفطريين لابن لادن ضد الولايات المتحدة والغرب عموماً.

في مقابل هذه المزاعم، نتوقف عند نقاط عدة. ولا نستطيع في هذا الباب إلا ملاحظة أن معظم الروايات التي انتشرت عن «القاعدة»، وعن بن لادن، تميل إلى فرض الحاضر على الماضي، وإلى قراءة الماضي من خلال عدسة ما بعد ١١ أيلول/سبتمبر المجتزأة وتداعياته الدموية، والحرب على الإرهاب بالتالي. وعلى سبيل المثال، ألّف ياروسلاف تروفيموف، مراسل **وول ستريت جورنال**، كتاباً كان له صدى واسع في الإعلام الأمريكي، هو: **احتلال مكة**، يُرجع فيه نشأة «القاعدة» إلى تمرّد ١٩٧٩، حيث نجحت قلّة من المتشدّدين في احتلال الحرم الشريف في مكة لبعض الوقت، ولم ينته الأمر إلا بعد معركة شرسة مع السلطة السعودية. ويخلص تروفيموف إلى الاستنتاج التالي: «رغم إدراكنا المتأخر لأهمية ما حدث يومذاك، إلا أن المشهد المؤلم كان جلياً: كان العدّ العكسي لـ ١١ أيلول/سبتمبر قد بدأ، وكذلك للهجمات بالقنابل في لندن ومدريد، وللعنف الإسلامي الذي دمّر أفغانستان والعراق. لقد بدا ذلك كلّه في ظلال الكعبة صبيحة نهار حار من تشرين الثاني/نوفمبر العام ذاك»[٢٣]. لكن بلاغة تروفيموف لا تقدّم في الواقع أي دليل موثوق على كيفية تشكيل معركة مكة ـ «في ظلال الكعبة» ـ لعقلية بن لادن ولمزاجه النفسي، بل هي مجرد تخمينات تفتقر إلى الأدلة.

ثالثاً: تبدّل استراتيجية القاعدة

ليس هناك قبل ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، وخلافاً لمزاعم تروفيموف وآخرين، من دليل أو إشارة إلى أي موقف أو مواقف من بن لادن معادية للأمريكيين. ولا حاجة إلى التذكير بأن بن لادن كان في خلال الحرب الأفغانية نقطة وصل رئيسية بين أجهزة الاستخبارات السعودية ونظيرتها الباكستانية، وجزءاً حيوياً في شبكة الدعم الأمريكي للمجاهدين الأفغان. وبحسب مصادر ثقة، فغالباً ما التقى بن لادن ضباطاً في الاستخبارات العسكرية الباكستانية، وبخاصة الجنرال محمود أحمد، بغرض التنسيق التكتيكي والاستراتيجي. وكان تحديداً على اتصال مباشر

---

(٢٣) Yaroslav Trofimov, *The Siege of Mecca: The Forgotten Uprising* (London: Penguin Books, 2007), p. 7.

مع مكتب الأمير تركي الفيصل، رئيس الاستخبارات السعودية، وكان على نحو دوري يطلب أو يتلقى تعليمات منه[٢٤]. أكثر من ذلك، كان الاسم المستعار الذي تطلقه الـ «سي. آي. إيه.» على بن لادن هو «فاعل الخير»، لإقدام «الثري الخليجي» على إنفاق أمواله الخاصة في خدمة الأنشطة الجهادية في أفغانستان؛ فقد استخدم مهاراته وثروة أسرته في حقل البناء لتشييد عيادات طبية، وطرق، وثكنات لمصلحة المجاهدين الأفغان.

وفي الحقيقة، فإذا كان هناك من شهرة عالمية لابن لادن في الفترة تلك، فهي إنما كانت لقتاله الاتحاد السوفياتي، وليس الولايات المتحدة، بل هو كان حليفها في الحرب ضد «الشيوعية الملحدة». ويستذكر أفراد من الأسرة الملكية السعودية أنه في أثناء حقبة الجهاد الأفغاني كان بن لادن يتواصل معهم، وقد عبّر غير مرة عن امتنانه للتأييد الأمريكي الفعّال للمجاهدين[٢٥]. وليس في ذلك ما يبعث على الدهشة، فهو يأتي في سياق التحالف غير المقدّس الذي كان قائماً بين السياسة الخارجية الأمريكية والناشطين الإسلاميين السياسيين، يجمعهما تصور مشترك للخطر السوفياتي القائم. وبالرغم من الودّ المفقود بين الطرفين إلى حدّ بعيد، فإن الغزو السوفياتي لأفغانستان، مصحوباً بانتصار الثورة الإسلامية في إيران الشيعية، قرّبا ما بين الطرفين وجعلا العلاقة بين جماعات المجاهدين ذوي الأصول السنّية وأمريكا أكثر من وثيقة. وعليه، علّق كلاهما العمل بهواجسه وشكوكه القديمة، وركّزا بدلاً من ذلك على الهدف المشترك، وهو قتال الخطر الشيوعي الأكبر. ولكن ما إن انسحب الجيش السوفياتي مهزوماً من أفغانستان، وانهارت بعده الإمبراطورية السوفياتية، حتى طفت على السطح من جديد كل التوترات السابقة الكامنة بين الحركة الجهادية المزهوة بانتصارها والقوة العالمية العظمى الوحيدة المتبقية.

لم يظهر بن لادن، إلى ما بعد حرب الخليج (١٩٩٠ ـ ١٩٩١)، أية مواقف أو مشاعر قوية معادية للولايات المتحدة. وحين عاد من أفغانستان إلى السعودية سنة ١٩٨٩، جرى استقبال بن لادن كما الأبطال، وكان على علاقة جيّدة بالأسرة الحاكمة. وإلى فترة لاحقة، ظلّ بن لادن ممتشقاً سيف «الحرب المقدسة» ضد الماركسية، ومستهدفاً في الفترة تلك الحكومة الاشتراكية في جنوب اليمن. وبين

---

(٢٤) Al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad,» no. 3 (21 November 2001), and no. 10 (29 November 2008).

(٢٥) Wright, *The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/11*, p. 151.

عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠ لم يحدث تغيير رئيسي في المشهد العالمي. لكن بعض المحللين لاحظ أيضاً أن بن لادن شجّع آنذاك على مقاطعة المنتجات الأمريكية رداً على الدعم الأمريكي لإسرائيل[٢٦]. ومع ذلك، فهذا التطور، لو صحّ، لا يكفي لتصنيف بن لادن في الفترة تلك صوتاً قوياً معادياً لأمريكا، أو لينفي واقعة أنه كان يخوض قبل عام ١٩٩١ حربه ضد روسيا الشيوعية، وليس ضد أمريكا الرأسمالية.

المحفّز الذي سمح بالتحول اللاحق في خيارات بن لادن إنما كان، وبحسب رأيي، التدخل الأمريكي في الخليج والوجود العسكري الثابت للقوات الأمريكية على أراضي العربية السعودية، موطن بن لادن وحيث هبط الوحي السماوي، وهذا هو الأكثر أهمية. اعتبر بن لادن حرب الخليج وما أعقبها مؤامرة أمريكية لتأسيس قواعد ثابتة للقوات الأمريكية والهيمنة على البلدان الإسلامية ونهب مواردها النفطية. ولام بن لادن القادة السعوديين لتجاهلهم اقتراحه بتعبئة قوى المجاهدين لمواجهة جيش صدّام حسين، واعتمادهم بدلاً من ذلك على الأمريكيين لحماية نظامهم.

وبالرغم من أنه يستحيل الحديث عن تفسير أحادي لموقف بن لادن المستجدّ من أمريكا، إلا أنه يمكن قبول فرضية أن حرب الخليج وتداعياتها، وبخاصة تمركز القوات الأمريكية على الأرض السعودية، كانت البداية. ومع ذلك، وحتى تلك اللحظة، لم يترجم بن لادن عداءه إلى أفعال ملموسة، كتأسيسه المنظمة شبه العسكرية التي أصبحت «القاعدة» بعد ذلك. ولعل الشرارة الإضافية التي كان يحتاج إليها التحوّل ذاك هو احتجاز السلطات السعودية لجواز سفر بن لادن، في محاولة لتقييد حركته وضبطه، ولم يستعده إلا بعدما لجأ إلى علاقاته العائلية في المملكة. ترك بن لادن بعدها البلاد، ولم يعُد إليها بعد ذلك.

لم يكن هناك من وجهة حتمية تنتظر بن لادن بعد مغادرته السعودية. ذهب أولاً لفترة قصيرة إلى بيشاور، المدينة الباكستانية الغربية الحدودية، في آذار/ مارس ١٩٩٢، ثم إلى السودان حيث قضى أربع سنوات، إلى أن غادر إلى أفغانستان من جديد في أيار/ مايو ١٩٩٦. ووفق حديث الإرهاب السائد، فما إن ترك بن لادن السعودية إلى المنفى سنة ١٩٩٢ حتى بدأ بتفعيل «القاعدة

---

(٢٦) Peter L. Bergen, *Holy War, Inc.: Inside the Secret World of Osama bin Laden* (New York: Touchstone, 2001), pp. 81-82.

العسكرية» التي كان قد أنشأها سنة ١٩٨٨ قبل مغادرته أفغانستان. وبحسب ذلك الحديث، فهذا دليل على الترابط بين «قاعدة» بن لادن و«القاعدة الصلبة» لعبد الله عزّام ـ وهو تقاطع شكلي بيّنا خطأه[٢٧].

وكما قيل آنفاً، فـ «القاعدة الصلبة» لعزّام كانت مصطلحاً نظرياً أكثر مما كانت عملاً ميدانياً ملموساً. وعلى ذلك، يدور نقاش إضافي حول ما إذا كان بن لادن قد أسس تنظيمه الذي يندرج تحت اسم «القاعدة» أواخر عام ١٩٨٧ أو مطلع عام ١٩٨٨. ومع أنه ما من دليل قاطع في الموضوع، فمن المرجّح أن يكون بن لادن قد أسس في بيشاور سنة ١٩٨٨ مع حوالى اثني عشر رجلاً من المقرّبين إليه «القاعدة العسكرية»، بمعنى قاعدة للتدريب ـ كما سيذكر بن لادن نفسه لاحقاً ـ ومنها جاء اسم «القاعدة»[٢٨].

وأحد أسباب تأسيس بن لادن لقاعدة التدريب تلك هو شكوى بعض الشبان الأفغان العرب لابن لادن سنة ١٩٨٧ من صعوبة الوصول إلى «مكتب خدمات» عبد الله عزام. كان بن لادن يرسل الأموال من السعودية إلى عزام وغيره من القادة الأفغان، وعليه فقد قرر بعد الشكاوى تلك أن يكون له منشأته التدريبية الخاصة به. جعل بن لادن موقعها على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية، ودعا «تنظيم الجهاد» المصري إلى إدارتها. ووفق «الدكتور فضل»، الذي أمدّ بن لادن بالكوادر المطلوبة لتدريب المقاتلين، كان المعسكر محدوداً، واختصّ بالتركيز على اختيار نخبة المقاتلين في مواجهة السوفيات على الخطوط الأمامية. يقول «فضل» من سجنه في طرة، في مصر، في سلسلة أحاديث لجريدة **الحياة**، إن تنظيم الجهاد وفّر متطلبات إنشاء قاعدة بن لادن التدريبية الأولى. وحاول فضل أكثر من ذلك، وفق قوله: «توجيه بن لادن إلى الطريق الصحيح»، أي قتال العدو القريب. لكن بن لادن خيّب آمال فضل، وفضّل، وفق رواية فضل، تركيز الاهتمام، بعد الفراغ من الحرب الأفغانية، بالجهاد ضد الحكومة الاشتراكية في جنوب اليمن أكثر من أي شيء آخر[٢٩].

وبعد هذا كله، ليس غريباً بالتالي أن لا يتذكر غير قلة فقط من رفاق بن

(٢٧) Gunaratna, *Inside Al Qaeda: Global Network of Terror.*

(٢٨) Burke, *Al Qaeda: The True Story of Radical Islam*, pp. 2-10.

(٢٩) Mohammed Salah, «Al-Hayat in the Egyptian Tura Prison Speaks with the author of «Rationalizing Jihad in Egypt and the World»,» *Al-Hayat*, no. 1 of 6 (9 December 2007).

لادن أنهم كانوا في «القاعدة»، بل إن لا ذكر لها في «موسوعة الجهاد» الشاملة التي نشرها مكتب خدمات عزّام بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٣. كان مصطلح «القاعدة» في هذه الفترة أقرب أن يشير إلى «الأصوليين» منه إلى منظمة عملياتية قائمة، وكان المقصود بالأصوليين الجماعة المتمسكة بالمبادئ والأصول، لا التنظيم[٣٠].

لم تظهر بيشاور، المكان الذي احتضن ولادة «قاعدة» بن لادن سنة ١٩٨٨، ترحيباً شديداً به حين وصلها منفياً سنة ١٩٩٢. فلم يكن له فيها بنية تحتية تنظيمية، ولم يبق فيها من رفاق السلاح المقرّبين منه بعد انتهاء الجهاد الأفغاني غير القلة القليلة. وإلى ذلك، كانت باكستان، الحليف المقرّب من الأسرة الملكية السعودية، تواجه ضغوطاً شديدة من البلدان العربية، كما من الولايات المتحدة، لإعادة الأفغان العرب، وخصوصاً أن بعضهم كان يقاتل أنظمة الحكم في بلدانهم. ولأن بن لادن كان مصمماً، كما يُظن، على استثارة السلطات السعودية وخلق المتاعب لها، فقد اكتشف بسرعة أن باكستان ليست مكاناً ملائماً له، فغادرها من دون إبطاء إلى السودان، البلد الذي كان يحكمه تحالف إسلامي صديق.

رابعاً: انتقال بن لادن إلى السودان

مثّل السودان محطّة مهمة في رحلة بن لادن إلى «القاعدة» والجهاد الأممي. قضى بن لادن أربع سنوات في تلك البلاد العربية الأفريقية الفقيرة، واستخدم خبراته في حقل الإنشاءات ليشقّ الطرق ويختبر أشكالاً زراعية جديدة، ولينشئ معملاً للمواد الكيميائية في الخرطوم. ووسط ترحيب عام عبّر عنه حسن الترابي، العالم الأبرز في البلاد، الذي أطلق عليه لقب «المستثمر الإسلامي الكبير»، استثمر بن لادن في السودان عشرات الملايين من الدولارات، أنفقت لتمويل بناء الطرق ومشاريع أخرى[٣١].

أنشأ بن لادن طوال السنوات الأربع التي قضاها في السودان شبكة معقّدة تداخلت فيها الأعمال مع الأيديولوجيا ومع تطويع الناشطين. سارت الأعمال

---

(٣٠) *The Encyclopedia of Afghan Jihad*, a copy of which was acquired by Associated Press, 2 October 2001, and Burke, Ibid., pp. 3-4.

(٣١) القدس العربي، ٢٤/١١/٢٠٠١.

الاقتصادية والاستعدادات العسكرية معاً. فمعظم المديرين الذين وظّفهم في مشاريعه كانوا إما إسلاميين أيديولوجيين بامتياز، أو رفاق الجهاد في أفغانستان، أو مقاتلين منفيين وجدوا ملاذاً لهم في السودان. ورغم أن «القاعدة» كتنظيم عملياتي لم تكن قد ظهرت بعد، إلا أن الخطط اللازمة لذلك كانت قيد الإعداد.

كان السودان في النصف الأول من تسعينيات القرن الماضي موقعاً مركزياً للإسلاميين الراديكاليين، وللأفغان العرب العائدين من أفغانستان. وفيما كانت باكستان ترحّل الأفغان العرب إلى بلدانهم، والمجاهدون الأفغان يخوضون حرباً أهلية شرسة، برز السودان كمقر قيادة جديد للجهاد، مانحاً الملاذ والمادة الأيديولوجية والفقهية لعمل جيل جديد من المقاتلين السلفيين ـ الجهاديين المتنقلين. كان الترابي شخصياً خلف تحويل السودان من الحكم العسكري إلى الحكم الإسلامي الشمولي. واستقبل السودان تبعاً لذلك المجاهدين الجزائريين والمصريين، من أمثال الظواهري، الذين كانوا يقاتلون في المرحلة تلك أنظمة الحكم في بلدانهم، وتسبّبوا تبعاً لذلك بأزمة خطيرة للسودان مع بلدين عربييْن جاريْن، وبخاصة مصر.

وعلى سبيل المثال، فحين رفض بن لادن تمويل تنظيم الظواهري «الجهاد»، لشنّ هجمات داخل مصر، بادر جهاز الاستخبارات السودانية إلى تقديم التمويل المطلوب؛ ففي أواخر عام ١٩٩٢، أخبر الظواهري «فضل» أن السلطات السودانية أعطته ١٠٠,٠٠٠ دولار بشرط تنفيذه لعشر عمليات ضد النظام المصري[٣٢]. وحين بدأ بن لادن محاولات تواصل مع القادة السعوديين، حذّره «فضل»، بحسب قوله، من أن ذلك قد يغضب الحكومة السودانية، فردّ بن لادن بالقول إن السودانيين هم الذين شجعوه على أخذ هذه الخطوات[٣٣].

اعتاد اللاعبون الرسميون عند بعض المفاصل الحاسمة، في الثمانينيات والتسعينيات، وبعد ١١ أيلول/سبتمبر، استخدام لاعبين غير رسميين لتحقيق أغراضهم، من مثل المجاهدين الأفغان، والعرب الأفغان، وتنظيم الجهاد، والجماعة الإسلامية، والقاعدة، وسواهم. وقد سمح اللاعبون الأمميون أن يجري استخدامهم في إشعال الحروب نيابة عن اللاعبين الأصليين؛ فكان وجودهم على المحكّ، كما قدرتهم على شنّ الهجمات على الحكام المسلمين

---

(٣٢) Al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad,» no. 11 (30 November 2001)

(٣٣) Ibid., no. 10 (29 November 2001).

العلمانيين ومحاولة إزاحتهم كلياً[٣٤]. وفي هذا الإطار، كان بن لادن والظواهري أكثر من مجرد ضحايا للعبة الأمم: لقد كانوا مشتركين فاعلين وعن سابق معرفة وتصميم. وقد قاتلا من دون هوادة للتخلّص من وضعية اللاعب في خدمة اللاعب الرسمي الآخر، والانضمام بالتالي إلى النادي المميز والحصري للاعبين أو الفاعلين الرسميين.

رغم التوترات التي ظهرت في السودان بخصوص التمويل، وجد بن لادن الذي كان قد اقترب كثيراً من الشريحة المصرية للجهاد، نفسه محاطاً بقادة «تنظيم الجهاد» والجماعة الإسلامية الذين كانوا جاهزين لتقديم خدماتهم. كان بن لادن في أفغانستان يلجأ إلى عبد الله عزّام ليوازن به ثقل الظواهري والمقاتلين المصريين الآخرين؛ أما في السودان، فلا فرصة لاستعادة التوازن ذاك. وعليه، تألفت الحلقة الضيّقة المحيطة ببن لادن من مصريين بالكامل، جاؤوا من الجهاد الأفغاني، فعزّزوا عنده المنحى الفقهي والأيديولوجي المتطرف، فأضيف إلى شخصيته السلطوية ومواقفه المحافظة والمتشدّدة. هنا تحديداً تكمن جذور تزاوج الأفكار الذي حدث بين نزعة التطرّف المصري القطبي ونزعة المحافظة السعودية، وإلى الحدّ الأقصى؛ فكانت «القاعدة» ثمرة هذا التزاوج. أما دور السودان، فكان الحاضنة للولادة، وليستلحق ما فاته في أفغانستان.

إلى ذلك، وبينما كان لا يزال في السودان، بدا بن لادن ممزقاً بين المواجهة والمهادنة، ويعتمد الأسلوبين معاً، ويرسل إلى السلطات السعودية إشارات مهادنة ومصالحة وعودة إلى الديار. وحتى أواسط التسعينيات، كان يُسجّل لابن لادن قوله إنه ضد قتل المدنيين غير المسلحين، بمن فيهم الأمريكيين. وليس واضحاً من ثمة مدى تورط بن لادن، بينما كان في السودان، في عمليات نفّذت في النصف الأول من التسعينيات. ومن المفهوم أن الميل الطاغي لدى المعلّقين هو تحميل بن لادن مسؤولية كل هجوم حدث في الفترة تلك. والغريب أن البعض قد قبل من دون نقاش ادعاءات «القاعدة» ومبالغاتها بخصوص قدراتها الحربية حتى في الفترة المبكرة تلك. أما بعد أن بلغ الذروة في القوة والبأس، فقد صوّرت التعليقات تلك قدراته بالشاملة التي لا تقف عند حدّ. أما الواقع فمختلف، وهو في كل الأحوال أكثر تعقيداً بكثير.

---

(٣٤) Salah, «Al-Hayat in the Egyptian Tura Prison Speaks with the author of «Rationalizing Jihad in Egypt and the World»,» *Al-Hayat*, no. 4 of 6 (11 December 2007).

في النصف الأول من التسعينيات، كان بعض الجهاديين اللاجئين إلى السودان منخرطاً في محاربة حكوماتهم، ونفّذوا بالفعل هجمات عدة في بلدانهم. ورغم أن بن لادن قدّم فعلاً بعض الدعم المالي المحدود إلى أولئك، إلا أنه كان لا يزال ضد مقاتلة الحاكم المسلم، وضد إشعال حرب مع العدو القريب. ويفسّر هذا، جزئياً، لماذا لم يكن بن لادن على شاشات رادارات أجهزة الاستخبارات الغربية التي كانت تراقب طوال التسعينيات عمليات الجهاديين الأممية حول العالم. كان يُنظر إلى بن لادن باعتباره ممولاً للإرهابيين أكثر مما هو قائد عملياتي يخطّط للهجمات ويأمر بتنفيذها(٣٥).

وبحسب ملاحظات جايسون بيرك، الذي كتب دراسة بحثية مطولة عن «القاعدة»، فإما أن بن لادن لا علاقة له البتّة بالهجمات التي حدثت في النصف الأول من التسعينيات، أو هي في الحدّ الأدنى. وبينما يرتبط بن لادن على الأرجح بهجوم عدن في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٢ تحديداً، فإن معظم الهجمات في الفترة تلك تنسب غالباً إلى طارق الفضلي. ويؤكد بيرك أيضاً خطأ أمرين شاعا، وهما الربط بين بن لادن ومحاولة اغتيال الرئيس المصري [السابق] حسني مبارك سنة ١٩٩٥، وهجمات سنة ١٩٩٦ على السعودية. وكان الأمير تركي قد ألقى باللائمة على بن لادن في تفجير قاعدة تدريب للحرس الوطني في الرياض، التي اعتبرت أول «هجوم إرهابي» على العربية السعودية(٣٦).

في كل الأحوال، وعند نهاية عام ١٩٩٤ كان كل خيط يصل بين بن لادن وزعماء بلاده قد انقطع تماماً. فقد طالبه الملك فهد ومستشاروه بترك الجهاد، وحلّ شبكته المسلحة في السودان. وبحسب البعض، فربما كان للملك فهد تحديداً، المعروف بتأييده للقوانين العلمانية ولوجود القوات الأمريكية على أرض السعودية، دور حاسم في نقل بن لادن كلياً إلى الجهة المضادة للعائلة

---

(٣٥) Burke, *Al Qaeda: The True Story of Radical Islam*, p. 4.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٤٢ و١٥٤. ويصل لورنس رايت إلى خلاصة تشبه خلاصة بيرك: «الهجمات في عدن، والصومال، والرياض، والظهران، ربما أشعلتها كلمات بن لادن، لكنه لم يكن في وضع السيطرة على من نفّذها. ورغم أن رمزي يوسف تدرّب في معسكرات القاعدة، إلا أنه لم يكن على صلة بهجمات مركز التجارة العالمي لسنة ١٩٩٣. أخبر بن لادن عبد الباري عطوان أن القاعدة مسؤولة عن طرد القوات الأمريكية من مقديشو عام ١٩٩٣، وتفجير الحرس الوطني في الرياض عام ١٩٩٥، وتفجيرات الخبر عام ١٩٩٦، إلا أنه ليس من دليل على صحة هذه المزاعم». انظر: Wright, *The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/11*, pp. 208-212 and 246.

الملكية. وتبعاً لذلك، بدا بن لادن يصغي أكثر فأكثر إلى الحلقة الصغيرة المحيطة به، التي زوّدته بتقارير عن خطط أمريكية لتوسعة وجودها العسكري بعد الصومال إلى السودان وأقطار عربية أخرى.

تحوّلت مواقف بن لادن من أمريكا إلى عداء صارخ ومكشوف. وفي رسالته المعنونة «إلى العلماء الأجلاء في شبه الجزيرة العربية والعربية السعودية خصوصاً»، دعا بن لادن إلى النهوض ومقاومة العدو الذي غزا أرض الأمة، ودنّس شرفها، وأراق دماء أبنائها، واحتل مقدساتها». وأضاف: «إنها نكبة غير مسبوقة في تاريخ الأمة، ألا وهي غزو القوات الصليبية الأمريكية والغربية لشبه الجزيرة العربية وللعربية السعودية، موطن الكعبة المشرّفة وبيت الله الحرام... مهبط الوحي»[٣٧]. لقد حدث ذلك كله، أضاف بن لادن، «في زمن أنظمة «مرتدة» وبمشاركتها ورعايتها». ودعا بن لادن أخيراً إلى طرد القوات الأمريكية من أرض الحرمين الشريفين - مكة والمدينة - بغضّ النظر عن الوقت الذي يحتاج إليه ذلك أو كلفته. كانت القوة العالمية العظمى الوحيدة في حالة هجوم، وبلا ضوابط، وما من بلد مسلم بدا راغباً أو قادراً على مواجهتها. وحدها الطليعة الرائدة تستطيع أن تنهض بهذه المهمة، فترفع لواء المقاومة، وتدفع أمريكا إلى حرب طويلة خاسرة مع الأمة جمعاء.

خامساً: تطور رؤية بن لادن الاستراتيجية

طوّر بن لادن وحلقته الضيّقة رؤيا استراتيجية فحواها جرّ الولايات المتحدة إلى خوض الحرب، وفق مفردات بن لادن التي تركت تبعاتها على العالم الإسلامي الأوسع. لا تستطيع بالتاكيد نخبة طليعية قليلة العدد تحدّي القوة الأمريكية أو الفوز عليها في مواجهة مباشرة معها. لذلك فالطريق الوحيد إلى خلق التوازن في ملعب المواجهة ذاك هو جرّ الولايات المتحدة إلى حيث لا ترغب، أي دفعها إلى حرب شاملة ضد العالم الإسلامي. على هذا المستوى يمكن تقييم وقياس درجة نجاح مشروع بن لادن، أو فشله.

في نهاية عام ١٩٩٥ كان بن لادن قد دخل نقطة اللاعودة: الجهاد الأممي هو الأداة الوحيدة الفاعلة في صدّ الهجوم الأمريكي وإجباره على الخروج من

---

(٣٧) *Messages to the World: The Statements of Osama Bin Laden*, edited and introduced by Bruce Lawrence and translated by James Howarth (London; New York: Verso, 2005), pp. 15-16.

الأرض العربية والإسلامية أو الحرب على جبهات عدة. كان ذلك تحوّلاً جذرياً في مواقف بن لادن، ومن ذلك التاريخ فصاعداً وافق على قتل المدنيين بمن فيهم المسلمين. أصدر بن لادن وحلقته الضيّقة في هذه المرحلة فتويين أجازا الهجوم على القوات الأمريكية، وقتل الأبرياء عند الضرورة[٣٨]. دشّنت الفتويان مرحلة جديدة في رحلة بن لادن الجهادية التي اكتملت سنة ١٩٩٨ بتأسيسه «الجبهة الإسلامية العالمية» ـ الانطلاقة الرسمية لتنظيم «القاعدة».

وفي آذار/مارس ١٩٩٥، أقدم بن لادن على خطوة إضافية تمثّلت في إصداره بياناً علنياً يهاجم فيه بشدّة آل سعود، وقد وقّع بذلك على قطيعة نهائية مع السعودية. وبالعودة إلى آيات قرآنية وآراء الفقهاء، تقدّم بن لادن خطوة أخرى متهماً الملك بـ «الارتداد»، ومطالباً إياه بالتنحّي: «لقد جلبت لشعبنا نكبتين، التجديف على الله والبؤس، وأفضل نصيحة لك هي التنحّي»[٣٩].

كانت قطيعة بن لادن مع الأسرة الملكية في جوهرها إعلاناً للحرب. وعليه، سعت السلطات السعودية، التي اتهمت بن لادن بالهجوم على الحرس الوطني سنة ١٩٩٥، بكل ما تملك، إلى طرده من السودان وإقفال منبره الإعلامي هناك. كذلك جرت إشاعات عن محاولة لاغتياله. وإلى ذلك، مارست الولايات المتحدة وحلفاؤها ضغوطاً مكثفة على الخرطوم لطرد بن لادن وجيشه الصغير المكوّن من مقاتلين قدامى ومتطوعين جدد، كانوا قد يمّموا شطر السودان إما بغرض تلقي التدريب أو فراراً من الملاحقة في بلدانهم. وفي العام ١٩٩٦، لم يعُد في وسع السودان أن يتحمل أكثر الضغوط الدولية، خصوصاً بعد تداعيات محاولة اغتيال مبارك سنة ١٩٩٥ (التي اتهمت فيها مصر السودان بإيواء مدبّريها)، وإقدام الظواهري كذلك على الأمر بإعدام ابن أحد رفاقه اللاجئين إلى السودان بتهمة التجسس لصالح المخابرات المصرية. في إثر ذلك، وجّهت الحكومة السودانية إنذارها إلى الظواهري ومساعديه بمغادرة السودان، وجعلت بن لادن يعرف أنه لم يعُد مرحباً به في تلك البلاد.

وحين كان بن لادن يستقل الطائرة الصغيرة الروسية الصنع عائداً مع عائلته

---

(٣٨) Wright, Ibid., p. 175.

(٣٩) Usama bin Muhammad bin Laden, «An Open Letter to King Fahd on the Occasion of the Recent Cabinet Reshuffle,» August 1995, Center for Combatting Terrorism Center, West Point, AFGP-2002-000103-HT-NVTC, <http://www.ctc.usma.edu/aq/pdf/AFGP-2002-000103-Trans.pdf>, and *Messages to the World: The Statements of Osama Bin Laden*, p. 23.

إلى أفغانستان، كان المستقبل بالنسبة إليه يبدو بالتأكيد قاتماً. فهو، بعدما جرّد من جنسيته السعودية في ربيع ١٩٩٤ كان مفلساً تقريباً، لا يملك شيئاً، وقد ضاعت ملايين الدولارات التي كان قد استثمرها في السودان. ولم يجلب له استثماره في التنظيمات الجهادية القطرية، مثل تنظيم الجهاد للظواهري، والجماعة الإسلامية، والجماعة الجزائرية الإسلامية المقاتلة، غير الحنظل، فالعنف الزائد للجماعات تلك حوّل الرأي الإسلامي ضدها وغدت عبئاً لا مورداً. لم يكن بين يديه من شيء ملموس بعدما أضاع أربع سنوات من عمره، كما ثروته، في السودان. و«القاعدة» لم تكن قد وضعت قيد العمل بعد. وفيما لم يكن يملك غير أيديولوجيا ضبابية، غير واضحة، وغير مجرّبة، ومحاطاً بثلة صغيرة من الموالين، كانت حظوظ بن لادن في أدنى مستوياتها، بل إن وجوده وعائلته كانا معلّقين في الميزان.

لم يفقد بن لادن، مع ذلك، كل شيء. فمعارضة بن لادن، وفيما كان لا يزال في السودان، للأسرة السعودية الحاكمة، وفّرت له رصيداً سياسياً ثميناً في أوساط شرائح من الشباب السعودي وأبناء جيله من الغاضبين على النظام. لقد غدا رمزاً للمعارضة، داخل السعودية وخارجها، جاذباً إليه المزيد من الشعبية والاهتمام. وإلى ذلك، فقد أغنت سنوات السودان من ثقافته الدينية، وأكسبته مهارات خطابية بلاغية. نقاط القوة المتبقية هذه هي التي سيبنى عليها فور وصوله إلى أفغانستان سنة ١٩٩٦ وتكوينه لقيادته هناك. تلك كانت الرافعة التي صنعت موقعه كمقاوم للتحالف الأمريكي - السعودي في الشرق الأوسط، ومكّنته من تلقي أموال خليجية من غير مكان، ومن استقبال المتطوعين كذلك. فقد تقاطر شبان سعوديون ويمنيون إلى السودان أولاً، ومنه إلى أفغانستان، ليقسموا يمين الولاء، معلنين البيعة له.

سادساً: أسامة بن لادن في أفغانستان

وفي أفغانستان، بدءاً من أيار/مايو ١٩٩٦، باشر بن لادن حملة منظمة لتفعيل «القاعدة» وتحويلها إلى تنظيم أممي صلب، كنوع من المظلّة لطيف واسع من المنظمات الجهادية الإسلامية. لم يطل الأمر بالظواهري وجهاديين محليين آخرين كانوا قد أخرجوا من السودان حتى التحقوا ببن لادن في أفغانستان، وغدوا مع الوقت معتمدين، على نحو متزايد، على مساعداته المالية. سمحت رعاية بن لادن الشخصية ومهاراته التنظيمية أن ينتقي أكثر

المسؤولين والقيادات الميدانية كفاءة، حتى ولو لم يشاركوه جميعهم طرائقه واستراتيجيته بخصوص العدو البعيد. ويظلّ الظواهري بين هؤلاء حالة في حدّ ذاتها. فهو كان قد كرّس حياته لهدفه في قلب نظام الحكم العلماني في مصر، إلا أن الحاجة الشديدة إلى التمويل، وضعفه العسكري، دفعاه إلى الالتحاق بقافلة بن لادن الجهادية الأممية.

ووفق ما أخبرني به مقرّبون رافقوا الظواهري، فإن وضعه المالي اليائس أجبره على تبنّي أجندة بن لادن ودمج «تنظيم الجهاد» في «القاعدة». يقول أحد مؤسسي تنظيم الجهاد إن «في وسع الظواهري أن يبرّر اندماجه في «القاعدة» بالطريقة التي يريدها، إلا أنه استمر على الدوام مؤمناً بالأولوية التي يجب أن تعطى لمقاتلة العدو القريب. لقد انضم إلى «القاعدة» مجبراً وبداعي الضرورة واليأس، وليس بفعل الاقتناع أو حرية الاختيار». وفي أي حال، فان اندماج الجهاد وآخرين في الجهاد الأممي في النصف الثاني من التسعينيات يُعدّ دليلاً على الكفاءات الإدارية والقيادية لابن لادن، واستخدامه للمال والهيبة في إعادة بناء المشهد الجهادي. وعليه، فلا يصيبنا العجب حين نسمع من مساعدين عدة للظواهري انتقادهم لابن لادن واتهامهم له بالوصولية.

أسس بن لادن، بكثير من الطموح والاندفاع، هيكلية فاعلة مع قدرات عملية واسعة في صنع القرارات. كانت «القاعدة» أشبه بشركة، أصرّ بن لادن على أن يحتفظ فيها بالروح الجماعية الطوعية التي ميّزت الجهاد الأفغاني. تألفت «القاعدة» من حلقة داخلية هي «مجلس الشورى» الذي ضمّ على نحو رئيسي رفاق السلاح أنفسهم الذين قاتلوا معاً في أفغانستان. كانت لهم مواقف متشابهة، وجمعتهم أكثر من ذلك «عصبية» من نوع خاص قامت على الولاء القبلي. وعليه، فاستمرار «القاعدة» إنما استند في الحقيقة إلى الوحدة والتماسك بين أفراد الطليعة النخبوية تلك، وهو أمر لم يلفت نظر الباحثين الغربيين بالقدر الكافي. لقد كان أي انحلال للحلقة الداخلية للقاعدة كفيلاً على الأرجح بشلّ قدراتها العملياتية وقطع حبلها السرّي: «العصبية».

بين عامي ١٩٩٦ و١٩٩٨، استثمر بن لادن الكثير من الوقت والجهد في تطويع عُصب من المقاتلين الشباب ـ كانوا قد خرجوا للتوّ من حروب البوسنة، والشيشان، والجزائر، ومصر، والعراق، وسواها ـ وقصدوا أفغانستان إما للانضمام إلى منظمات مقاتلة، أو للتعرّف على مشروع بن لادن الجهادي

الأممي الجديد. وقد فتحت أفغانستان المدمّرة التي باتت تحت السيطرة الكلية لطالبان، ذراعيها لهؤلاء. لقد غدت أفغانستان بين أواخر التسعينيات و١١ أيلول/سبتمبر قبلة الجهاد العالمي، وكان بن لادن رمزه الرئيسي. افتتحت معسكرات التدريب في طول البلاد وعرضها لتلبية حاجات المتطوعين الشباب المتقاطرين إلى أفغانستان. وكان بن لادن وحلقته الداخلية حريصين على انتقاء أفضل العناصر الواعدة بين أولئك وضمّهم إلى التنظيم.

يتذكّر بعض المقاتلين الذين انخرطوا في تنظيم بن لادن أنه مارس دوراً شخصياً فاعلاً في اختيار العناصر الجديدة، وأنه كان عنيفاً في عملية الانتقاء تلك. وكان يفضّل على وجه الخصوص الشبّان القادمين من السعودية واليمن، في إشارة واضحة إلى أن هدفه ظلّ، ورغم دعاوى الجهاد الأممي، القبض على مقاليد السلطة في السعودية. وبحسب هؤلاء، فقد صرف بن لادن معهم الساعات الطوال مبشّراً بمبدأ أن لأمريكا مخطّطاتها الشيطانية تجاه عالم الإسلام، وأنها هي التي تؤمّن استمرار الأوضاع الظالمة في منطقة الشرق الأوسط. أمريكا هي الآن القوة الوحيدة التي تمنع قيام أنظمة حكم مستندة إلى الشريعة والخلافة، وتحول دون وحدة المسلمين. ولإعطاء المثال لمتطوعيه، أقام بن لادن بينهم، وعاش حياة بسيطة، متخلياً عن كل ميزة أو رفاه. وعليه، بات بن لادن لهؤلاء الشبّان الزعيم القبلي الذي يخصّهم أكثر من مجرد مدير الشركة الذي يديرهم. لقد أسر أبو عبد الله، كما كانوا يدعونه، قلوبهم؛ فوقّروه إلى الحدّ الأقصى، وكان معظمهم على استعداد للموت في سبيله.

في حدود العام ٢٠٠١، كان بن لادن قد نجح في بناء كادر مؤلف من حوالى ٣٠٠٠ ناشط ومسؤول، بالإضافة إلى إرساله مجموعات صغيرة للقتال في جبهات خارجية، مثل الشيشان. وبالرغم من وحداتها وعناصرها الميدانية، الحسنة التدريب، لم تسع «القاعدة» إلى امتلاك جيش بالمعنى التقليدي؛ إذ حالما تنهي العناصر تدريبها فهي تبقى مؤقتاً لبعض الوقت في أفغانستان، أو تغادر إلى بلدانها إذا كان ذلك مفيداً. كانت «القاعدة» أشبه بجيش صغير، خاص، ومتنقّل. كما لبّت طلبات المساعدة المالية من مجموعات مقاتلة عدة ذات أجندات جهادية محلية في باكستان، والشيشان، والبوسنة، والجزائر، ومصر. وسمح ذلك لابن لادن أن يوسّع من دائرة انتشاره، وأن يؤسس لعلاقات ناجحة، في باكستان تحديداً، وقد تبيّن لاحقاً أنها كانت حيوية، وبخاصة بعد طرد «القاعدة» من أفغانستان سنة ٢٠٠١. كذلك استخدم بن لادن جيشه الصغير

لخدمة مضيفيه، طالبان، موفراً لهم الخدمات اللوجستية والعملياتية خلال اللحظات الحرجة من حربهم الطويلة مع تحالف الشمال المعادي لهم.

كانت علاقة قاعدة بن لادن بطالبان على كثير من التعقيد والتفصيل، وأكثر بكثير مما يصوّره حديث الإرهاب المتداول. وتذهب هذه الروايات التقليدية إلى اعتبار أن الطرفين كانا على الدوام رفيقين حميمين مقرّبين جداً. والصورة هذه بعيدة إلى حدّ كبير عن الحقيقة. فمنذ البداية، أي من سنة ١٩٩٦ وإلى حين الخروج من أفغانستان سنة ٢٠٠١، اتسمت العلاقة بين الطرفين بقدر واضح من التوتر. فبخلاف بن لادن، لم يكن لطالبان اهتمام بالجهاد الأممي، وقد حذّروا غير مرة ضيوفهم العرب من مغبة استخدام أفغانستان كقاعدة انطلاق للهجمات ضد الولايات المتحدة وحلفائها. كان توجّه طالبان إلى الداخل، وكان شغلهم الشاغل كيفية تأمين الأرض وتسويق نظام حكمهم المحافظ. وبحسب مجاهدين مقرّبين، فإن الملا عمر، القائد الأعلى لطالبان، «أمر» بن لادن تكراراً بوقف مواجهاته مع أمريكا، لأنها ستهدد بقاء الإمارة الإسلامية الناشئة. وقيل إن عمر أخبر بن لادن أن طالبان ليست في وارد معاداة الولايات المتحدة لأن ذلك هو فوق طاقتها(٤٠).

وفي مذكّراته: **قصة الأفغان العرب: من دخول أفغانستان إلى الخروج منها مع طالبان**، يلقي أبو الوليد المصري، أحد المقرّبين الموثوقين من الملا عمر وبن لادن، الذي ينفي انتسابه رسمياً إلى «القاعدة»، الضوء على العلاقة المعقّدة بين طالبان والقاعدة، وبخاصة ازدراء بن لادن للملا عمر ولعهده في الإكرام والضيافة. وفي جملة ما يرويه، أن قادة بارزين في طالبان، من بينهم وزير الخارجية الملا وكيل أحمد متوكل، كانوا معادين لتمركز «القاعدة» في أفغانستان في ذروة قوتها في أواخر التسعينيات، وأنهم سعوا حثيثاً إلى التخلص من بن لادن والظواهري وطرد المقاتلين الأجانب(٤١).

ويستذكر أبو الوليد، بوجه خاص، أن فصيلاً من متشدّدي طالبان انتقد سلوك بن لادن القاسي. لقد رأوا أن بن لادن إنما كان يملي على طالبان

(٤٠) Salah, «Al-Hayat in the Egyptian Tura Prison Speaks with the author of «Rationalizing Jihad in Egypt and the World»,» *Al-Hayat*, nos. 1 and 2 of 6 (8 December 2007).

(٤١) المصدر نفسه (٢٩ حزيران/ يونيو ٢٠٠٥)؛ (١ و٦ تموز/ يوليو ٢٠٠٥)، و(٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٤).

سياساتها الخارجية، وأن خطابه الإعلامي المثير للجدل كان مكلفاً لطالبان، سياسياً ومالياً، بل إنهم أشاروا إلى ضرورة طرد جمهرة الأفغان العرب الذي باتوا ثقلاً محلياً ودولياً على طالبان. وعارض فصيل آخر من طالبان حتى وجوده على الأراضي الأفغانية، على قاعدة فكرة المؤامرة، وهي أن الأمريكيين قد أرسلوا بن لادن بهدف تدمير إمارة طالبان الإسلامية. لقد كان كلا الفصيلين مجمعين، بحسب أبي الوليد، على ضرورة التخلّص من بن لادن والظواهري ومن معهما من مقاتلين أجانب[٤٢].

لكن الملا عمر، بخلاف رغبات أكثرية مساعديه، وفّر الحماية لابن لادن، غير أنه أمره مرة ثانية بالتوقف عن إعطاء تصريحاته ومقابلاته الإعلامية النارية، وإيقاف أي تخطيط أو تنفيذ هجمات انطلاقاً من الأراضي الأفغانية. وبحسب أبي الوليد، الذي كان شاهداً على معظم الفصول المهمة للدراما الأفغانية، فإن قرار عمر بمنع طرد بن لادن، كان لاعتبارات عاطفية ونفعية أكثر مما هو نتيجة توافق على موقف أممي. ويبدو كذلك أنه كان يظن أن بن لادن سيطيع أوامر القائد الأعلى. كان الحاكم الطالباني لا يخفي امتنانه لتضحيات شريحة المجاهدين العرب أثناء الحرب الأفغانية، لكنه كان يأمل في أن يوفر بن لادن استثمارات في إنشاء الطرق وأعمال البناء في الإمارة الإسلامية التي مزّقتها الحرب، كما فعل سابقاً في السودان في النصف الأول من التسعينيات. وقد اعتاد عمر الطلب من مساعديه لقاء بن لادن وطلب نصائحه التقنية، كما دعمه المادي[٤٣].

ويتّهم كلاً من أبي الوليد وفضل بن لادن في توريط طالبان في صراعات إقليمية ودولية على عكس إرادتهم، وليجلب في المحصّلة الأخيرة الدمار النهائي للإمارة الإسلامية. وهما يريان أن طالبان قد هُزمت، وفُقدت أفغانستان، بسبب تصرّفات بن لادن الرعناء، التي بلغت ذروتها في هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر. مع ذلك، ورغم المعارضة الشرسة لأرفع قادة طالبان، نجح بن لادن في عبور حقل الألغام الأفغاني، ونفّذ مخطّطاته الخاصة. وفيما اعتمد على الإرادة الطيّبة لمضيفيه في طالبان، وبخاصة الملا عمر، أدى بن لادن ورفاقه دوره على أحسن وجه، فجرّهم معه إلى حرب مفتوحة ضد القوة الأعظم الوحيدة المتبقية في العالم.

---

(٤٢) المصدر نفسه (٦ تموز/ يوليو ٢٠٠٥).

(٤٣) المصدر نفسه.

يصف أبو الوليد في مذكّراته لقاءً رئيسياً «تاريخياً» حدث سنة ١٩٩٧ بين بن لادن والملا عمر، وكان هو فيه شاهداً، وتظهر فيه مهارات بن لادن القيادية وتصميمه المطلق على إطلاق الجهاد الأممي. «توسل» الملا عمر ضيفه السعودي لساعتين أن يتوقف عن التحدّث إلى الإعلام العالمي واستثارة العداء ضد السعودية وأمريكا. لكن بن لادن أصرّ على أنه يجب أن يُسمح له بالدعوة إلى تحرير الأماكن المقدسة، وهي العبارة التي تعني الجهاد الأممي ضد الغرب. وكان رأيه، كذلك، أن المسلمين حول العالم يجب أن يدعموا طالبان مالياً، وأن يستثمروا في الإمارة الإسلامية. ورغم عرض بن لادن هذا، ظلّ الملا عمر على معارضته. كذلك استمر بن لادن على موقفه. وفي نهاية الاجتماع، وقف الملا عمر، وقال لضيفه مباشرة: «أنت مجاهد، هذه بلادك، وفي وسعك أن تفعل ما شئت»(٤٤).

من المفيد التذكير أن بن لادن وصل إلى أفغانستان في أيار/ مايو ١٩٩٦، قبل أن تتمكّن طالبان من الاستيلاء على السلطة في خريف العام ذاك. ولم يكن له قبل ذلك أية علاقات مهمة بطالبان، وكان فقط يبحث عن ملاذ آمن. وقبل مضي عام واحد، كان أعلى قادة طالبان يوفر الحماية لابن لادن ضد الرغبة المعلنة من أرفع مساعديه، وليرسل إليه رسائل متناقضة حول ما يجب وما لا يجب عليه فعله في أفغانستان. ويغدو هذا الإنجاز مضاعفاً حين نعلم أن طالبان لم تكن لتشارك بن لادن اهتمامه بشنّ هجمات، لا على العدو البعيد، ولا على العدو القريب، وبخاصة السعودية التي كانت صديقة لحكم طالبان، وقدّمت لهم لبعض الوقت المساعدة. كان لطالبان وبن لادن إذاً جدولا أولويات مختلفين تماماً. ومع ذلك، فقد دفع بن لادن بأولوياته بقوة إلى الأمام، وصولاً في ما بعد إلى تدمير حكم طالبان.

لم يناور بن لادن مع طالبان والملا عمر فقط، وإنما ناور على نطاق أوسع مع قادة جهاديين محليين محنّكين من مثل الظواهري، وفضل، ومصطفى ست مريم نصّار المعروف أكثر بأبي مصعب السوري، وهو منظّر كبير في الحركة الجهادية، بل وعضو مجلس الشورى. ويكشف فضل، في المقابلات التي ذكرتها سابقاً، أن الأفراد الأرفع في الجهاد هم الذين أسسوا «القاعدة». وبحسب مجاهدين سابقين، فقد «زرع» فضل مسؤولين عدة من الجهاد في

---

(٤٤) المصدر نفسه (١٠ تموز/ يوليو ٢٠٠٥).

حلقة بن لادن الضيّقة، مثل أبي حفصة المصري، وأبي عبيدة البنشيري، على أمل التأثير في تفكير بن لادن وتصرّفاته(٤٥).

ولكن بن لادن، في النهاية، كان هو من يدير الأمور، آخذاً التنظيم في اتجاه راديكالي مختلف. لقد أرادت الشريحة المصرية، كما رأينا، توظيف «القاعدة» كسلاح إضافي في المعركة ضد نظام الحكم العلماني في مصر، وجذب بن لادن إلى جانبهم. لكن بن لادن فاجأ المتربّصين به بوضعهم أمام خيار حاد: الاتحاد مع «القاعدة» أو الانفصال.

بخلاف نظيرهم السعودي، الذي يملك موارد ومنضوين جدداً، واجه الظواهري ورجاله بعد طردهم من السودان سنة ١٩٩٦ مصيراً قاتماً. لقد خسروا الحرب مع النظام المصري. واعتقلت السلطات المصرية بمساعدة الـ «سي. آي. إيه.» وأجهزة الاستخبارات الغربية الكثير من قادة تنظيم الجهاد الميدانيين وأفراد الرتب الوسطى فيه. وغدا الظواهري ورجاله بالتالي أكثر اعتماداً على بن لادن في بقائهم. وبُعيد وصوله إلى أفغانستان سنة ١٩٩٦، سعى الظواهري إلى العثور على مصادر مالية بديلة، وعلى موارد أفضل للجهاد، ولكن من دون طائل. بل هو تعرّض للاعتقال سنة ١٩٩٦، في أثناء واحدة من محاولات العثور على تمويل في داغستان، الجمهورية الفدرالية الروسية شمال القوقاز. وتمكّن من الإفلات لأن السلطات لم تكتشف هويته الحقيقية، كما أن بن لادن بادر إلى إرسال رشاوى كبيرة إلى الشرطة. لم يكن هناك من خيار آخر للظواهري غير الانضمام إلى بن لادن، رغم أنه يقول في مذكّراته أن الغاية من الاندماج في «القاعدة» كانت توحيد الصفوف الإسلامية في مواجهة أعداء الإسلام(٤٦).

وبحسب فضل، اتخذ الظواهري قرار الارتباط بـ «القاعدة» منفرداً، ومن دون العودة إلى شورى الجهاد، متسبباً بالتالي بفصله من التنظيم مع مساعديه الأقربين الذين انضموا إليه(٤٧).

---

(٤٥) المصدر نفسه (٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧)، ومقابلة مع منتصر الزيات، في: **المصري اليوم**، ٢٠٠٧/١١/١٧.

(٤٦) «مذكرات هاني السباعي قائد سابق في الجهاد؛» الزيّات، **أيمن الظواهري كما عرفته**؛ الظواهري، **فرسان تحت راية النبي**، و Al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad,» no. 9 (28 November 2008).

(٤٧) «Al-Hayat Talks to «Dr. Fadl» in Tura Prison,» *al-Hayat* (8 December 2007).

وعلى الرغم من أنه كان زواج الضرورة لا الودّ، فقد سجّل اتحاد بن لادن ـ الظواهري بداية مرحلة جديدة عاصفة من حياة القاعدة والجهاد الأممي عموماً: اندماج الأفكار القطبية بالعصبية السعودية. تخلى الظواهري عن أي مظهر من مظاهر استقلاله، وسلّم القلب والروح كليهما لقضية بن لادن في الجهاد الأممي. فهو زوّد بن لادن بالحجج النظرية والأيديولوجية التي تبرر مهاجمة الغرب. كان تحوّل الرجل الذي صرف معظم عمره في القتال على جبهة الداخل، إلى القتال على جبهة مغايرة، إشارة إلى النفق الذي دخلت الحركة الجهادية فيه في النصف الثاني من التسعينيات ـ بعد الكارثة في مصر ـ وإشارة بالمقدار نفسه إلى نجاح بن لادن في الإفادة من ذلك النفق لخطف الحركة وتغيير اتجاهها. وكانت فرصة له لاستقطاب القادة الميدانيين الكفوئين والمجرّبين الذين قاتلوا أنظمة مصر والجزائر والعراق سحابة الثمانينيات والتسعينيات، والقوات السوفياتية أيضاً.

ومع ذلك، وخلافاً لحديث الإرهاب السائد، لم يلق بن لادن غير نجاح محدود في استقطاب الجهاديين المحليين، وتوسعة القاعدة الاجتماعية لتنظيمه الجديد بين المسلمين عموماً. وباستثناء الظواهري وحلقته الضيّقة داخل «تنظيم الجهاد»، لم يلتحق به غير عدد من القادة لا يتجاوز عدد أصابع اليدين الاثنتين، بينما أعرض عن الانضمام إلى «القاعدة» معظم قادة الجهاد المحليين ـ بمن فيهم أفراد الرتب الدنيا والعليا في الجهاد والجماعة الإسلامية، والتنظيم الإسلامي الأكبر في المنطقة، والجناح العسكري لـ «جبهة الخلاص الجزائرية» ـ خوفاً، وبحق، من أن الجهاد الأممي ربما يكون مخاطرة غير محسوبة قد تؤدي إلى تدمير الحركة الإسلامية. وعندما لاحظت الجماعة الإسلامية أن واحداً من كوادرها المتوسطة، رفعت أحمد طه (الياس أبو ياسر)، وأحد المتشدّدين فيها، كان حاضراً مناسبة إطلاق الجبهة الإسلامية العالمية، وأحد الموقّعين على بيانها، أجبرته على إصدار بيان ينفي فيه انتماءه إلى «القاعدة»، أو التحدّث باسم الجماعة الإسلامية، فقد أصدر طه بياناً نفى فيه أن تكون الجماعة الإسلامية عضواً مؤسساً في الجبهة الإسلامية العالمية، وقال بالحرف: «لسنا جزءاً من أية جبهة تواجه الأمريكيين»[٤٨].

وفي مذكّرات داخلية عدة موجّهة إلى أنصاره بعد انضمامه إلى «القاعدة»،

---

(٤٨) Salah, «Al-Hayat in the Egyptian Tura Prison Speaks with the author of «Rationalizing Jihad in Egypt and the World»,» *Al-Hayat* (28 December 1998).

برّر الظواهري مسألة الجهاد الأممي بالقول إن الحركة الجهادية كانت على مفترق طرق، وإنها فشلت في إضعاف الحكام المسلمين. ويضيف الظواهري، إن الأنظمة العلمانية قد كسبت المعركة لأن الجهاديين لم يحسنوا اكتشاف الطريق التي توصلهم إلى الرأي العام؛ لقد خسروا معركة الفوز بأفئدة المسلمين وعقولهم، وكانوا غير قادرين على توفير قاعدة اجتماعية عريضة وثابتة لهم. «وكان الحلّ»، يضيف، «جرّ الولايات المتحدة إلى حرب شاملة مع الأمة، علّ ذلك يدفع المسلمين إلى النهوض من سباتهم السياسي».

سابعاً: إنجازات أسامة بن لادن العملياتية والأيديولوجية في أفغانستان

منذ استهلالها لعملها، كانت استراتيجية «القاعدة» توريط الولايات المتحدة في مواجهة شاملة مع العالم الإسلامي، وتقديم نفسها باعتبارها طليعة الأمة، ورأس حربة مقاومتها المسلحة. وعليه، فالنجاح أو الفشل، كما قلنا سابقاً، يجب أن يقيّم على هذا المستوى الاستراتيجي. فإلى أية درجة كسبت قلوب المسلمين وعقولهم؟ هل دشّنت صدام حضارات بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي؟ وهل دفعت بالغرب إلى الإفلاس بعد إجباره الإنفاق على الحرب على الإرهاب؟

ما حققه بن لادن في أفغانستان بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠١ كان إنجازاً عملياتياً وأيديولوجياً منقطع النظير. لقد حوّل أفكاره إلى عمل ملموس؛ تنظيم عسكري تراتبي وعملياتي. وكانت وظيفة مجلس الشورى فيه (المجلس الحاكم) تأمين الشرعية الفقهية، والكفاءات التنظيمية، والخبرات القتالية. ورغم الشكوك من هيمنة الجهاديين المحليين على جهاد بن لادن الأممي، فقد نجح في أقل من أربع سنوات في استقطاب جيش صغير خاص من المقاتلين السعوديين واليمنيين، بالإضافة إلى شبّان آخرين من جنسيات أخرى. ويقدّر خالد شيخ محمد، الذي عرّف بمهندس هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، أن في كل معسكر للقاعدة في أفغانستان كان هناك ٧٠ بالمئة سعوديين، و٢٠ بالمئة يمنيين، و١٠ بالمئة من أمكنة أخرى(٤٩). بعبارة أخرى، لقد شكّل السعوديون واليمنيون العمود الفقري للقاعدة وقوتها الضاربة، وأقسموا البيعة لـ «أبي عبد الله»، وكانوا جاهزين للموت من أجله ولقضيته.

---

(٤٩) *The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States* (New York: W. W. Norton, 2004), p. 232.

قبْل بن لادن، لم يرد مصطلح «الجهاد الأممي» في أي معجم جهادي. فلثلاثة عقود بقيت الحركة الجهادية داخلية الرؤية، يتركّز خطابها وعملها في جبهة الداخل. ما من أيديولوجيين أو فقهاء بارزين تخصّصوا في الجهاد الأممي أو نظّروا لديالكتيكه. لقد كان بن لادن خلف ذلك كله. ورغم أن الإنجاز يبقى محدوداً ونخبوياً إلى حدّ بعيد، إلا أنه يجب أن ينظر إليه من زاوية المقاومة الشرسة التي واجهته من الداخل والخارج والشروط العالمية المحيطة. لقد تمكّن من فرض أجندته على جماعة جهادية مشتّتة وجرّ الجميع إلى حرب لا تزال تستعر نارها على مستوى العالم.

لم يكن التحوّل إلى الجهاد الأممي فعلاً آلياً، ولا نتاج خطاب بليغ فقط. فقد شقّت «القاعدة» طريقها من خلال هجمات وأعمال تفجير مشهدية قوية، وجلب لها ذلك مانحين جدداً، وكذلك متطوعين جدداً تحت رايتها. سعى بن لادن جاهداً إلى إنشاء جيل جديد من المجاهدين، تلهمه وتقوده عقيدة إسلامية طهرانية، كلانية، تلتزم النصّ حرفياً، وتدفع به إلى التجذّر ـ تجربة الحرب الأفغانية وصور اضطهاد الجماعات المسلمة في البوسنة، والشيشان، وأمكنة أخرى ـ ويكون جاهزاً للقتال باسم المسلمين المضطهدين في كل مكان، وضد كل الأعداء، الحقيقيين والوهميين. لقد كان جيلاً من الشبّان الفتيان، العفويين، الجموحين، والمتطرفين، آمنوا أنهم محاربون في سبيل الله، وأن لديهم إلزاماً مقدساً في أن يضعوا أرواحهم على خط الدفاع عن الأمة.

وحتى قبل الإعلان عن الانطلاقة الرسمية لـ «القاعدة» سنة ١٩٩٨، خطّط بن لادن وقادته لـ «عمليات استشهادية مدوّية» ضد «رأس الأفعى»، اللقب المتداول للولايات المتحدة، وكانت الفكرة إجبارها على الخروج من وكرها، واستثارة ردود فعلها العنيفة وغير العقلانية. ففي آب/ أغسطس ١٩٩٨، نفّذوا تفجيرين للسفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام، سقط فيهما ٢٩١ قتيلاً، وما يقارب الـ ٥٠٠٠ جريح. وبعدما ردّت إدارة كلينتون بقصف صاروخي على معسكر للقاعدة في أفغانستان، استخدم الظواهري هاتف بن لادن عبر السواتل ليخاطب صحافياً باكستانياً، فيقول له إنه وبن لادن بخير، وليضيف في ما يشبه الإنذار: «الآن فقط بدأت الحرب»(٥٠).

---

(٥٠) Andrew Higgins and Alan Cullison, «Strained Alliance: Al Qaeda's Sour Days in Afghanistan,» *Wall Street Journal*, 2/8/2002.

وفي تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠، وإنفاذاً لتهديد «القاعدة»، كان زورق يحمل على متنه انتحاريين يصطدم بالمدمرة البحرية الأمريكية (USS Cole)، التي كانت تتزوّد بالوقود في ميناء عدن، فيُقتل ١٧ بحاراً، ويجرح ٤٧ آخرين. وكان الهدف، وفق قول القائد العسكري للقاعدة أبي حفصة المصري بعد التفجير، إجبار الولايات المتحدة على ردّ مبالغ فيه، وجرّها إلى حرب شاملة مفتوحة على أرض الإسلام: «لقد نفذنا عملية «كول»، وأردنا للولايات المتحدة أن تردّ. وإذا ردّت، فهي ستغزو أفغانستان، وهذا ما نريده... وعندها سوف نبدأ الجهاد المقدّس ضد الأمريكيين، تماماً كما فعلنا مع السوفيات».

وفي كل الأحوال، فـ «كول» كانت مجرد تفصيل لا أكثر. ففي حدود عام ١٩٩٨، كان بن لادن قد انتهى إلى خلاصة مفادها أن الطريقة الوحيدة لقتل عدد كبير من الأمريكيين هو الضرب داخل الولايات المتحدة نفسها: وحدها مجزرة كبرى يُسال فيها الدم الأمريكي بغزارة تستطيع إجبار الولايات المتحدة على الخروج من بلاد المسلمين. وبات الأمر بعد ذلك في عهدة خالد شيخ محمد، المدير التنفيذي الأعلى لعمليات بن لادن الإرهابية، الذي بدأ عمله بعدما تلقى موافقة بن لادن النهائية على تصميم خارطة هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر. وقد حجب بن لادن طوال الوقت، كلياً، عن الظواهري ومجلس الشورى ـ ناهيك عن مضيفه الكريم الطيّب، الملا عُمر ـ سرّ الضربات المدمّرة التي كان يخطّط لها وتوقيتها. وهكذا نجحت «القاعدة» أخيراً في نقل الحرب إلى داخل الولايات المتحدة.

الفصل الثاني

الانشقاقات المتزايدة



نشأت «القاعدة»، كما رأينا، نتيجة تضافر تطوريّن اثنين ـ التبدّل في ميزان الحركة الجهادية المحلية في أواسط التسعينيات (وليس أواخر الثمانينيات، كما يزعم عدد من خبراء الإرهاب واختصاصيي الأمن)، وانعكاسات الجهاد الأفغاني. لقد بدأ الجهاد الأممي، ورأس حربته «القاعدة»، كما لو كان جهداً يائساً للحفاظ على سفينة توشك أن تغرق، وذلك من خلال تغيير اتجاهها، وليس وجهتها الأخيرة بالضرورة ـ بعيداً عن العدو القريب في هذه الحالة ونحو العدو البعيد. لا داعي إلى القول إن بن لادن كان القوة الفاعلة الرئيسية خلف صعود «القاعدة»، في شهادة على مهاراته القيادية والإدارية. وبعدما قلب الطاولة على الذين ظنوا أنفسهم أوصياء أيديولوجيين وفقهيين عليه، أوجد بن لادن تنظيمه الخاص على ركام حركة جهادية مهشّمة ضامّاً إلى شبكته أبرز رموزها، من مثل الظواهري وأبي حفصة المصري.

بدت «القاعدة» كطفرة، ونتاج انفجار حدث داخل حركة اجتماعية هامشية على شفير الانهيار. وحين قفز بن لادن ومجموعته إلى قلب المشهد الإسلامي في أوائل التسعينيات، كانت الحركة الجهادية قد استنفدت نفسها؛ لقد أخفق الجهاد. وكان قرار «القاعدة» عولمة الجهاد إشارة إلى المأزق الداخلي للحركة الجهادية أكثر منها إلى تماسكها الداخلي أو قوتها.

كان بإمكان بعض الباحثين في التسعينيات، ممن يجرون بحوثاً ميدانية على حركات اجتماعية، أن يلاحظوا بوضوح الانشقاقات الداخلية بين الجهاديين. فعلى سبيل المثال، حين وصلتُ إلى القاهرة في أواخر عام ١٩٩٨، كانت رحى معركة شرسة تدور بين معظم الجهاديين، الذين خسروا، بعد ست سنوات من الكفاح المسلح، حربهم ضد الحكام العرب والمسلمين، وضد مجموعة صغيرة من المدعوين عرباً أفغاناً، يقودهم بن لادن من جهة، والظواهري من جهة أخرى. وفيما أعلن الجهاديون المحليون وقف إطلاق نار من جانب واحد ـ إشارة إلى استسلامهم ـ وبدأوا بالتفكير في جهادهم الفاشل

والمكلف، كانت مجموعة صغيرة مصمّمة أخرى تختار الاحتفاظ بالسلاح والاستمرار في القتال. لقد أعلنت الحرب ضد القوة العالمية العظمى الوحيدة المتبقية، على أمل أن يحيي ذلك روح الجهاد بين قواعد الحركة، وينتزع الصدقية في أعين الأمة(١).

كانت «قاعدة» بن لادن إذاً على عداوة مع الأكثرية الساحقة من الجهاديين المحليين، الذين أجروا في مدخل الألفية الثالثة مراجعة فكرية وفقهية لاستخدام العنف لتحقيق سلطة سياسية. وفيما هم في معتقلاتهم، وضع أرفع منظّري الحركة تلك اللمسات الأخيرة على رؤاهم الفقهية والأيديولوجية الجديدة التي برّرت ونظّرت لنهاية الجهاد المسلح(٢). وقبل ١١ أيلول/ سبتمبر بسنوات، بدأت الحرب الأهلية الجهادية، وأخذت تنتشر بعد ذلك في طول العالم الإسلامي محدّدةً مستقبل الحركة بكاملها.

لم تكن مجرد مصادفة أن الطلقات الأولى في الحرب الأهلية تلك إنما أطلقت في مصر في أواخر التسعينيات، حيث بدأ الهجوم الجهادي أيضاً ضد العدو القريب. فمصر بسكانها الواحد والثمانين مليوناً، هي الدولة العربية الأكثر سكاناً، وكانت إلى وقت قريب مركز العالم الإسلامي الثقافي والفكري. ومصر هي أيضاً مكان ولادة الحركة الجهادية الحديثة، وتبقى إلى يومنا هذا أفضل مكان لمحاولة فهم تعقيداتها وتعيين الخطوط المكوّنة لها. فمؤسسو الحركة كانوا في معظمهم مصريين، وكذلك أصحاب النصوص المركزية فيها. وفي الحقيقة، فإن عقل الحركة الجهادية المعاصرة هو عقل مصري(٣).

---

(١) منتصر الزيّات، **أيمن الظواهري كما عرفته** (القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٢)؛ أيمن الظواهري، **فرسان تحت راية النبي**، سلسلة مقالات في الشرق الأوسط (كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١)؛ Diya Rashwan, «The Renunciation of Violence by Egyptian Jihadi Organizations,» in: Tore Bjorgo and John Horgan, eds., *Leaving Terrorism Behind: Individual and Collective Disengagements* (London: Routledge, 2009); Y. Feldner, Y. Carmon, and D. Lav, «The Al-Gama'a Al-Islamiyya Cessation of Violence: An Ideological Reversal,» *Middle East Research Institute*, no. 309 (21 December 2006), <http://www.memrijttm.org/content/en/report.htm?report=1802&param=IDTA>, and Fawaz A. Gerges, *The Far Enemy: Why Jihad Went Global?* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2009), chap. 4.

(٢) انظر على سبيل المثال: أسامة إبراهيم حافظ وعاصم عبد المجيد: **حرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين** (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤)، و**تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء** (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤).

(٣) من أجل مسح للآراء الأيديولوجية والفقهية للآباء المؤسسين للحركة، انظر: رفعت سيّد أحمد، **النبي المسلّح**، ٢ ج (لندن: دار رياض الريّس، ١٩٩١)، ج ١: **الرافضون**، وج ٢: **الثائرون**.

أولاً: مقابلة مع أحد قياديي القاعدة

قضيتُ قبل سنوات قليلة من ١١ أيلول/سبتمبر بضعة أشهر في مقابلة أفراد من رتب مختلفة في الحركة تلك، وتوثيق هذا اللقاء بهدف قراءة ما يجري. وكان هناك رجل اسمه كمال السعيد حبيب بدا بمعنى ما ممثلاً تماماً لهذا الجيل. وقد تعرّفت عليه بهذه الصفة. إنه واحد من بين أناس كثيرين يشغلهم موضوع مستقبل الإسلام الجهادي. وكان أحد القادة السابقين، مع الظواهري آنذاك، في الجهاد، وهو التنظيم شبه العسكري الذي أدى دوراً محورياً في اغتيال الرئيس المصري الأسبق أنور السادات سنة ١٩٨١. ويعتبر حبيب شخصية رئيسية من الجيل الأول للمسلمين الجهاديين، إذ كان قد زرع بذور الجهاد المسلح في بلاد الإسلام في السبعينيات. لذلك، إذا ما أريد تعيين نقطة البداية للحركة الجهادية وآفاقها المستقبلية، فمن الضروري محاولة فهم مواقف حبيب وجيله وأفكارهما حيال القضايا موضوع النقاش(٤).

تعلّم هؤلاء، تحت النار وفي الاعتقال، ماذا تعني محاولة أسلمة المجتمع بالقوة. وكانت الخلاصة دموية جداً؛ إعدامات وأحكام طويلة بالسجن (قضى حبيب عشر سنوات في سجن مصري) وهلاك عائلات. واليوم يعيد هؤلاء، «المحاربون من أجل الله»، كما أخبروني، تقييم طرائقهم القديمة، أي تفسيرهم المتهوّر المخطئ للجهاد. وهم قطعوا الآن عهداً جديداً يلتزمون فيه، لا العنف، بل الإقناع السياسي و«الدعوة»، أو التبشير الديني، باعتبارهم باتوا الآن أكبر سنّاً، وأكثر حكمة بالتالي. لقد قضيت بين آخر عام ١٩٩٨ ومطلع عام ١٩٩٩ ستة أشهر مع حبيب، وجهاديين آخرين، أوثّق معهم تحولات جيلهم، كما تفاصيل الطريق الجديد التي التزمت الحركة الجهادية السير عليه.

يعترف حبيب أنه وأقرانه قد ارتكبوا خطأ فادحاً. فبدل البدء بمحاولة نيل تأييد «القاعدة» من تحت، أصرّوا على انتزاع السلطة السياسية وفرض نظامهم الديني من فوق. وبدل اكتساب أفئدة الجماهير، أدت الطرائق التي استخدموها إلى بثّ الرعب في قلوب المصريين ـ القتل العشوائي للسياح، ولمواطنين عاديين ـ فتحوّلوا ضدهم. وعليه، سحب الرأي العام المصري الذي يخاف الله، والمسالم

---

(٤) مقابلات مع حبيب في القاهرة في أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨ وكانون الثاني/يناير وشباط/فبراير ١٩٩٩. انظر صورة حبيب، في: Fawaz A. Gerges, *Journey of the Jihadist: Inside Muslim Militancy* (Orlando, FL: Harcourt Press, 2007).

بطبيعته، كلّ شعرة ودّ أو تعاطف بقيت بينه وبين هؤلاء الثوريين. وقال لي حبيب في إحدى آخر لقاءاتنا: «لقد كنّا أغبياء، متهورين، غير ناضجين، ومدفوعين بحماسة الشباب. كان الوقت أول المساء، وكنّا في طريقنا إلى حضور لقاء سياسي ينظمه حزب إسلامي معتدل»؛ لقاء من النوع الذي لم يكن حبيب يحلم به قبل ٣٠ عاماً. وأضاف حبيب: «كانت لنا أحلام كبيرة، ولكن من دون موارد تقريباً، وكانت هناك هوة شاسعة بين الوسائل المتاحة والطموحات التي نملكها. وعليه، فقد فقدنا تدريجياً الإحساس بالتوازن بين الأهداف والوسائل، وسقطنا بالتالي في فخّ التصعيد العسكري مع السلطة. وكنّا لا شيء مقارنة بقوتها»[٥].

وفي رأيه، أن على كل حركة أن تمر بأطوار عدّة، والحركة الجهادية هي كسواها، وليست استثناء. يقول: «قطعنا شوطاً بعيداً منذ السبعينيات، وكانت رحلة مؤلمة ومكلفة. كان علينا أن نتعلم بالمحاولة والخطأ. كنّا محظوظين باعتبارنا الروّاد، إلا أنه لم يكن لنا شبكة دعم من رجال حكماء أو من مرشدين روحيين يوجّهون خطواتنا وسط حقول الألغام. قرأنا كتب ابن كثير، وإبن تيمية، وسيّد قطب، خارج تاريخها وسياقها، فأسقطنا مخاوفنا وتطلعاتنا وتفسيراتنا غير الناضجة على أفكارهم المعقّدة. وكانت النتيجة خطأً مرعباً في الحسابات»[٦].

وسألته: «ماذا لو كنتم نجحتم، هل كنتم جاهزين فعلاً لتشكيل حكومة إسلامية قابلة للحياة؟» أجاب: «الحمد لله أننا لم نربح، لأننا كنّا سنشكل حينها دولة أوتوقراطية مستبدّة من النوع القائم حالياً في العالم الإسلامي. لم نكن نملك الرؤية أو الإطار العقلاني حول ما هي الدولة، وكيف يجب أن تعمل، وكيف يجب أن تدار، خلا فكرة أنها يجب أن تعبّر عن المثال الإسلامي أو تكون قريبة منه. وبينما لا استطيع التكهّن أن دولتنا كانت ستغدو شمولية، فإننا لم نكن نملك في الحقيقة غير القليل من الإدراك لحجم التحدّيات التي كان يجب مواجهتها».

هزّني من الأعماق مدى الصدق في إجابة حبيب. كان يقول بطريقة ما إنه وجيله من الجهاديين المحليين كانوا مضللين، وإنهم كانوا أقرب إلى الطليعة النخبوية منهم إلى الحركة الجماهيرية. وهذا يناقض فرضيتهم المبدئية من أنهم يمثلون الإرادة الشعبية للأمة، وأن جهادهم المسلّح شرعي بالتالي.

---

(٥) مقابلة مع حبيب، القاهرة، شباط/ فبراير ١٩٩٩.

(٦) المصدر نفسه.

بين كل الجهاديين المقاتلين الذين قابلتهم على مرّ السنين يبقى حبيب حالة خاصة. فبعدما كان لأكثر من ثلث قرن عضواً باستمرار في مجالس الشورى الداخلية للحركة الإسلامية الراديكالية، يبدو الآن أحد أكثر أعضائها انفتاحاً وصراحة. وتظهر قصته كذلك التغيّرات المثيرة التي حدثت داخل الحركة الجهادية على امتداد عقود من السنوات. وبينما كان سابقاً أحد المنادين الشرسين إلى المقاومة المسلحة في وجه الحكّام المسلمين العلمانيين المؤيدين للغرب، يجاهد اليوم لترويض نفسه على العمل السياسي السلمي. وقد بادر إلى محاولة اشتقاق طريق جديدة لأولئك الذين نشأوا على القتل والقتل المضاد، فيما لا يزالون يحلمون بدولة تقوم على القرآن.

وتبدو رحلته الجهادية وقد أشرفت على نهايتها. وحبيب ليس الراديكالي الوحيد الذي تساءل عن مبرّر الطريق العنفي الذي اختطّوه في مواجهة أنظمة الحكم الإسلامية ذات التوجّه العلماني. فكثير من رفاقه بلغوا النتيجة عينها. وهو وآخرون مثله من جيله قادهم كفاحهم المسلح إلى الهلاك: الآلاف اختفوا، وهناك آلاف أكثر لا يزالون قابعين في زنزانات السجون. ويسأل حبيب أخيراً بكثير من الانفعال: «ماذا عسانا نقول لأسر الشهداء، وكيف نستطيع رعاية أبنائهم؟».

كانت تلك التسعينيات الحقبة التي كانت تعِد ببداية جديدة لحبيب وجيله. كان هناك إجماع داخل الحلقات الجهادية في المنطقة وخارجها بأن الجهاديين قد بلغوا نهاية الشوط، وأن حربهم ضد أنظمة الحكم العربية العلمانية قد باءت بالفشل. وبالأهمية نفسها، نلاحظ الآن أن القيادة المسمّاة تاريخية للحركة الجهادية (الجماعة الإسلامية أو الجماعة الإسلامية المصرية، وبنسبة أقل الجهاد الإسلامي في مصر) يجرون الآن مراجعات نقدية في الخطوط نفسها التي تحدّث عنها حبيب، معترفين علناً بالفشل، وناظرين بعين المراجعة والنقد إلى مفاهيمهم المقدسة القديمة التي كانت شرّعت لهم الثورة المسلحة[٧].

كان الجهاد الأممي، ومنذ انطلاقه في أواسط التسعينيات، كما ورد آنفاً، ظاهرة هامشية. صوّر بن لادن أفعاله باستمرار كفرصة أخيرة للدفاع عن الأمة الإسلامية، وملء الثغرة التي خلّفها الحكام المستبدون ورجال الدين المطواعين الذين تعاونوا مع أعداء الإسلام. وفي رسالة له إلى العلماء في السعودية في

(٧) Rashwan, «The Renunciation of Violence by Egyptian Jihadi Organizations».

أواسط التسعينيات، يسأل بن لادن بطريقة بليغة عمّا إذا كانوا جاهزين وراغبين في القيادة، يقول: «تواجه أمتنا الإسلامية تحدياً خطيراً جداً، وهي الآن عرضة للعدوان، فيما حكامها والكثير من علمائها قد تخلّوا عنها. فمن ذا الذي سوف يقودها ويوجهها؟»[٨].

ثانياً: إعلان أسامة بن لادن الحرب الدفاعية أو الجهاد الأممي

بعد سنة، في آب/أغسطس ١٩٩٦، أصدر بن لادن فتوى شرعية بإعلان الحرب الدفاعية، أو الجهاد، ضد الأمريكيين لاستمرار تواجدهم في أرض ولادة الإسلام، المملكة العربية السعودية، معتبراً نفسه ورفاقه الطليعة الأمامية المقاتلة. ويرى بن لادن، أنه «كما جرت هزيمة القوة العسكرية الملحدة الأعظم في العالم»، الاتحاد السوفياتي، «يجري اليوم بين قمم جبال أفغانستان ذاتها العمل على إزاحة الظلم الواقع على أمتنا على يدي التحالف اليهودي ـ الصليبي، وبخاصة بعد احتلال القدس وصمت السعودية»[٩].

قلّة فقط أدركت، في الماضي، كما اليوم، أن دعوة بن لادن إلى حمل السلاح ضد «التحالف اليهودي ـ الصليبي» إنما هي موجّهة في الأساس إلى السعوديين واليمنيين الذين لم يتأخروا في تلبية نداء الجهاد. لكن دعوة بن لادن إلى مواجهة الوجود المستمر والصريح للقوة العسكرية الأمريكية في السعودية جلبت السخط والاعتراض والانقسام داخل المملكة. فقد لقيت دعوة بن لادن الصدى المطلوب لدى علماء دين رئيسيين في المملكة الذين شرّعوا وأجازوا دعوته. ويمّم بنتيجة ذلك الكثير من المتطوعين شطر أفغانستان للتدرّب في معسكرات بن لادن والالتحاق بالطليعة. كان معظم المقاتلين، كما رأينا، من السعوديين واليمنيين. وذلك دليل آخر على السياق المحلي والوطني لكفاح بن لادن، وبخلاف الخطاب العلني على مستوى العالم. وإذا جردنا ذلك الخطاب من الطابع البلاغي والدرامي، يبقى أن دعوة بن لادن إنما هدفت إلى إثارة المعارضة في وجه آل سعود وزعزعة استقرار حكمهم. وبمعنى ما، كانت الدعوة إلى الجهاد الأممي ورقة تين بن لادن تخفي خلفها رغبته في الاستيلاء

(٨) *Messages to the World: The Statements of Osama Bin Laden*, edited and introduced by Bruce Lawrence and translated by James Howarth (London; New York: Verso, 2005), p. 17.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٧.

على السلطة في بلده. وليس من طريقة أفضل في تعبئة شعبه والمسلمين بعامة من الوعد بتحرير الأراضي المقدسة في السعودية وفلسطين. وقد وسّع من طموحه الوطني بمخاطبة مصالح فوق وطنية ـ تخصّ الأمة. وعبر التكيّف مع مقتضيات الخطاب الإسلامي، فقد أمل بن لادن في الحصول على المزيد من الشرعية التي يحتاج إليها لأجندته الوطنية.

وبالرغم من مفردات خطابه الجهادي الأممي العالي السقف، وعدم اعترافه بالكيانات ذات الأسس الوطنية، فقد كان بن لادن في حقيقة الأمر، كما الظواهري، ذا أفق ديني ـ وطني بامتياز. وكانت الطريقة الوحيدة المتاحة له لفرض التوازن في ملعب الصراع الذي بدأه مع آل سعود هو مطلب طرد القوات الأمريكية من المملكة، كما طرد المجاهدون السوفيات من أفغانستان. وحين اندحرت القوات السوفياتية من أفغانستان سنة ١٩٨٩، سقطت الحكومة العميلة التي تركوها خلفها كثمرة ناضجة كان يجب أن تسقط منذ زمن.

ومع ذلك، فقد استمر معظم المراقبين ما بعد ١١ أيلول/ سبتمبر («المحللون ذوو الخلفية الأمنية»، كما يُدعون غالباً) يضعون «القاعدة» في مربع ثقافي وديني خالص، ويهملون في المقابل الدوافع النفعية والسياسية/ الاستراتيجية. لقد أخذوا خطاب بن لادن بحرفيته، وتجاهلوا سياقه التاريخي ـ السياسي. ومن موقع النظر إليها كلحظة مفصلية غيّرت العالم، جرت قراءة هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر من خلال معان ثقافية ودينية مبالغ فيها وغير إلزامية؛ وكذلك بدمجهم «الإرهاب»، الذي هو أداة أممية، بـ «الإرهاب الإسلامي» حصراً، وباعتبارها اللحظة المُظهرة للطبيعة الحقيقية للصراع. وقاد الميل إلى «أدلجة» استخدام الإرهاب ـ أي خلق صلة بين سبب وجود الجماعات الإسلامية الراديكالية والتكتيكات التي استخدمتها ـ إلى تجاهل سياقات ودوافع أخرى معيّنة، وإلى الاجتزاء وسوء الفهم أيضاً. وبتعبير معلّق إسرائيلي معروف: «لا صلة إطلاقاً بين الدوافع ومفهوم الإرهاب السياسي. يخفق معظم المحللين في اكتشاف ذلك، وبالتالي يميلون إلى دراسة دوافع معيّنة كجوانب منطقية أو ضرورية للإرهاب. وهي ليست كذلك في الحقيقة. إنها في أقصى احتمالاتها ظاهرات عملية مرتبطة بالإرهاب، وفي الغالب، فهي ببساطة تضلل التحليل»[١٠].

---

(١٠) B. Ganor, *Defining Terrorism: Is One Man's Terrorist Another Man's Freedom Fighter?* (Washington, DC: International Policy Institute for Counter Terrorism, 1999), p. 6.

إذا كانت السياقات والدوافع التي تقف سياسياً خلف العنف «تضلل التحليل»، فما من حاجة بعد ذلك إلى فهم المنطق السوسيولوجي السياسي والاستراتيجي الذي يقف خلف أفعال «القاعدة» وجماعات إسلامية أخرى، ولن تكون أكثر من مضيعة للوقت. وبدلاً من اعتبار استخدام الإسلاميين المتطرفين للإرهاب كوسيلة شائعة في حرب غير متكافئة، صوّرهم أولئك المراقبون كمحاربين في حرب ثقافية ضد الغرب، وضد السرد الليبرالي العقلاني للتاريخ. لقد بات كل شيء يفسّر فقط كجزء من كراهية للغرب، غير عقلانية، وتقع خارج الزمن[11]. وعلى سبيل المثال، يُرجع دان غولد، المحلل والدبلوماسي الإسرائيلي، الجذور التاريخية للتكتيكات العنفية التي يستعملها الجهاديون المحليون والأمميون إلى «دافع أيديولوجي لذبح آلاف الناس البريئين»[12].

يتجاهل دان غولد وأمثاله من «المعلّقين والمحلّلين» أنه حتى عام ١٩٩٠ كان بن لادن جزءاً من تحالف تقوده الولايات المتحدة ضد «الشيوعية الملحدة». إنهم باختصار يفصلون بين العنف والسياسة، ويبالغون في التركيز على التكتيكات المستخدمة من جماعات من مثل «القاعدة» ـ كمحدّد وحيد يفسر القراءة السائدة، ويشرح الدوافع التي تقف خلف هذه التكتيكات[13]. لقد جرى تضخيم ذلك كله لمصلحة نظرة رجعية لا ترى في هذه التنظيمات أكثر من أنها مجموعة «مجرمين جهاديين»، أو عرب مجانين؛ أي يجري تقديم الإسلام نفسه الآن باعتباره «العدو»[14]. وفي النتيجة، يميل هؤلاء المحللون إلى أن يصيروا دعائيين مروّجين للحرب على الإرهاب، مستغرقين في تفسيرات استشراقية زائفة، على حساب الأسئلة الحقيقية من مثل: كيف نشأت القاعدة والجهاد الأممي؟ ولماذا حوّلوا أسلحتهم ضد الولايات المتحدة؟

---

(١١) انظر الأعمال النقدية لـ: Patrick Porter, *Military Orientalism: Eastern Wars through Western Eyes* (London: Hurst and Company, 2009); Tarak Barkawi, *Globalization and War* (New York: Rowman and Littlefield, 2006), pp. 153-155, and Jeremy Black, «Determinisms and Other Issues,» *Journal of Military History*, vol. 68 (2004), pp. 127-132.

(١٢) Dan Gold, *Hatred's Kingdom: How Saudi Arabia Supports the New Global Terrorism* (Washington, DC: Eagle Publishing, 2003), p. 6.

(١٣) Mahmood Mamdani, «The Politics of Naming: Genocide, Civil War, Insurgency,» *London Review of Books*, vol. 29, no. 5 (March 2007), pp. 5-8.

(١٤) G. M. Steinberg, «Israel's Right to Self-Defense,» *Wall Street Journal*, 23/2/2010, and Daniel Pipes, «Faisal Shahzad, Jihadi, Explains Terrorism,» *National Review Online* (25 June 2010).

يسود الأوساط السياسة الأمريكية، كما في الغرب، وإن بنسبة أقل، القليل من الاعتبار لحقيقة أن لا الإسلام، ولا نصوصه الدينية، يفيدان كثيراً في حل «لغز القاعدة». فابن لادن والظواهري إنما يفكران استراتيجياً بمفردات سياسية، ويخفيان طموحاتهما الحقيقية برداء ثقافي وديني. ويعترف الظواهري في عمليْه الأخيرين **فرسان تحت راية النبي** وتبرئة: **مقالة في تبرئة جماعة القلم والسيف مما يجلب الوهن والضعف**، الصادرين على التوالي سنتي ٢٠٠٠ و٢٠٠٨، بأن استراتيجية «القاعدة» قد صمّمت لكسب أفئدة المسلمين وعقولهم، وأن تصير «القاعدة» هي الطليعة القائدة للأمة. ومن أجل ذلك، فهو يرى أن على الحركة الإسلامية أن ترفع راية الحرية فوق المدن الثلاث الأكثر أهمية التي يحتلها الأجانب ـ مكة والمدينة في السعودية، والأقصى في القدس. لكن الجماهير الإسلامية لن تنهض إلا إذا تأمن لها قيادة تثق بها وأحسنت تحديد العدو. ويشدّد الظواهري خصوصاً على أن فلسطين هي المسألة التي تجمع عليها الأمة، وعلى الحركة الإسلامية أن تتلقف التحدّي وتقوم بواجبها.

شدّد بن لادن والظواهري، تكراراً، على أن طرد المحتلين الأمريكيين والإسرائيليين من مواقع الإسلام المقدسة يبقى في رأس الأولويات. فمنذ بداية رحلتهما الجهادية الأممية في أواسط التسعينيات، كانت تجري باستمرار الإحالة إلى أمريكا وإسرائيل في ما يسمّيه «التحالف اليهودي ـ المسيحي الذي يحتل الأرض الإسلامية المقدسة في فلسطين والسعودية». وعندما أطلق بن لادن «القاعدة» في شباط/فبراير ١٩٩٨، جعل الأولوية لدعوته المسلمين إلى «قتل الأمريكيين وحلفائهم ـ مدنيين وعسكريين ـ باعتباره واجباً فردياً ملزماً لكل مسلم في كل مكان، وبهدف تحرير المسجد الأقصى [القدس] والمسجد الحرام [مكة] من تدنيسهم»(١٥).

أخفق منتقدو بن لادن، كما مؤيدوه، بتناولهم خطابه الإنشائي باعتباره استراتيجيا، وعالجوا تكتيكاته الإرهابية بمصطلحات ثقافية قاطعة. أما في الواقع، فقد كانت «القاعدة» المركبة التي حملت مشروعه لخطف القرار داخل السعودية، كما للظواهري في تنظيم الجهاد في مصر. لكن تمكين الأمة واستعادة الخلافة الإسلامية يظلّان هدفين مثاليين يستحيل تحقيقهما، إلا بتحويلهما مطلباً أو شعاراً للتعبئة الأيديولوجية والدينية، اللذين سرعان

(١٥) *Messages to the World: The Statements of Osama Bin Laden*, pp. 33 and 61.

ما وجدا صداهما عند الآلاف من الشبّان السعوديين واليمنيين.

إلا أن ما يجب الاحتراس منه هنا هو الميل إلى التقليل أحياناً من أهمية ما جرى في ١١ أيلول/سبتمبر، ومن خطورة تداعياته، إذ ليس هناك غير أمثلة قليلة أخرى عن جماعات متمرّدة غير غربية ضربت المدن الكبرى بالطريقة التي فعلتها «القاعدة»، وسيبقى هذا العامل «العولمي» مهماً دائماً أياً تكن المبالغات التي تروّج حول القدرات غير المحدودة للجهاد الإسلامي. فقد حافظ الثوار حتى خلال الحرب الباردة على محلية نضالهم، وإن حاربوا أحياناً بالنيابة عن قوى عظمى. والأمر عينه يصحّ على حركات مناهضة الاستعمار. وحالة الجزائر هي مجرد استثناء، إذ إن الكثير من الأعمال الإرهابية التي حدثت على الأرض الفرنسية إنما كانت من صنع جناح يميني داخلي. وعليه، ربما كانت العولمة هي العامل الحاسم الجديد في هجمات نيويورك وواشنطن ـ وذلك من خلال الإحساس بالتعيين الشديد للمكان من جهة، وكثافة الترابط والتواصل من جهة ثانية.

يتوجب على المحللين، ومن دون حاجة إلى أدلجة الإرهاب، الانتباه إلى ما هو مميز ومختلف في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. وهذا يثير سؤالاً حاسماً حول حسابات بن لادن الاستراتيجية: فاستناداً إلى معطى دوافعه الإقليمية، يجب التساؤل عمّا دفع به إلى التفكير استراتيجياً بمهاجمة الولايات المتحدة والمخاطرة بتحمّل ضرباتها المضادة؟ لماذا ضرب ثانية القوات الأمريكية المتمركزة في السعودية على غرار عملية أبراج الخُبر؟ النقطة الاستراتيجية المحورية لابن لادن هنا هي أن وحده قتل عدد كبير من الأمريكيين على التراب الأمريكي كفيل بإجبار صنّاع السياسة الأمريكية على إعادة التفكير في تواجدهم فوق الأرض العربية. كان في وسع معظم الناس، وتبعاً للخسائر المتوقعة، ومن دون حاجة إلى أكثر من الحدّ الأدنى من المعرفة بطبيعة الولايات المتحدة، أن يتوقعوا ردّ فعلها العنيف حتى أقصى الحدود. وهذا ما حدث فعلاً. لقد أحيا بن لادن، بطريقة غير حكيمة، من اعتبار أمريكا لنفسها كقوة أخلاقية في العالم ـ شرطي العالم ـ واستحضر «حرباً على الإرهاب»، حقيقية، وليس مجرد خطاب.

ثالثاً: ردود الفعل على إطلاق نظرية «الجهاد الأممي»

لقد واجه بن لادن والظواهري في أواخر التسعينيات مقاومة عنيفة من معظم الجهاديين المحليين الذين أعلنوا هدنة من طرف واحد في حربهم ضد أنظمة الحكم في بلدانهم. رأى هؤلاء أن الدعوة إلى عولمة الجهاد هي

خطوة متهورة وانتحارية، ومقدمة لكارثة تنتظر الحركة الإسلامية[١٦].

وظهر من اللحظة تلك انشقاق واضح بين الجهاديين المحليين والأمميين الذين أمل كلٌ منهم، خلا قلة، بخطف الحركة الإسلامية إلى ضفته، وإلى عولمتها بالتالي. لم يستطع الظواهري، أمير تنظيم الجهاد، إقناع مجلس شورى تنظيمه وبعض أقرب أعوانه بالتوقيع على إطلاق «القاعدة». وقد حدث في الواقع تمرّد بين مسؤولي الجهاد ضد الظواهري، الذي أحدث اتحاده مع بن لادن كسراً في التنظيم، وجلب في النهاية تفكّكه ككيان مستقل. وبحسب «فضل» ورفاق له آخرون، لم يتمكّن الظواهري من إقناع غير حفنة صغيرة من عناصر المستوى المتوسط في التنظيم بالانضمام إلى قاعدة بن لادن، أما مجلس شورى التنظيم فكان معارضاً للخطوة، وقد أصدر بياناً طرد فيه الظواهري وجماعته من التنظيم[١٧].

لم يستقطب الجهاد الأممي سوى أقلية ضئيلة داخل العائلة الجهادية، ولم يمتلك قط جذوراً في المجتمعات الإسلامية. فهو لم يقم حوله على الإطلاق إجماع أو حتى توافق بين الجهاديين، الذين كانوا معارضين كلياً لاستراتيجية بن لادن وتكتيكه، رغم اشتراكهم في الموقف الأيديولوجي نفسه من العالم. وقد حدّت الانقسامات والتنافسات بين المجاهدين المحليين والأمميين منذ البدء من مدى قدرات «القاعدة». أما بعد ١١ أيلول/سبتمبر، كما سنرى، فقد خرجت الانقسامات والخلافات تلك إلى العلن وتحوّلت إلى نزاع مفتوح.

في هذه الدراما المستمرة، لم يكن التوفيق إلى جانب الجهاد الأممي. فهو لم يكن يملك، بخلاف الجهاد المحلي، شرعية قائمة يمكنه العودة إليها. وبعد ١١ أيلول/سبتمبر تفاقمت عزلة التيار الجهادي الأممي تلك إلى حدّها الأقصى، وغدا عرضة لمساءلة حادة طالت حتى أسسه الدينية. وجرى علناً اتهام بن لادن والظواهري بالأنانية والطموح المفرطين، كما جرى نصح الشبّان بتجنّب السقوط ضحايا لمخطّطات الرجلين.

---

(١٦) Gerges, *The Far Enemy: Why Jihad Went Global?*, chaps. 3-4.

(١٧) الظواهري، **فرسان تحت راية النبي**؛ «مذكرات هاني السباعي قائد سابق في الجهاد؛» مقدمة هاني السباعي، في: الزيّات، **أيمن الظواهري كما عرفته**؛ محمد صلاح، **وقائع سنوات الجهاد: رحلة الأفغان العرب** (القاهرة: خلود للنشر، ٢٠٠١)، و Ahmed Al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad,» no. 11 (30 November 2008).

يجب أن يوضع صعود وأفول الجهاد الأممي داخل السياق السياسي الجهادي والإسلامي عموماً. وعليه، يمكن فهم هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر باعتبارها محاولة لجرّ دواليب الحظ إلى صالح بن لادن والظواهري من خلال ادعاء نزع الغطاء عن الجهاد المحلي المهزوم والمتخاذل، وكسب الاحترام والصدقية في عيون الأمة. وكان المسلمون وليس الأمريكيين هم الهدف.

لقد وصف الجهاديون الذي قابلتهم بين عامي ١٩٩٨ و١٩٩٩ دعوة الظواهري إلى الالتحاق بـ «القاعدة» بالمتهوّرة والانتحارية. وبحسب مفردات مسؤول سابق في تنظيم الجهاد للظواهري في اليمن: «أنّى لنا مقاتلة أمريكا، القوة الأعظم في العالم، بعدما هُزمنا على أيدي الحكام المسلمين الطغاة؟ إن فتح جبهة ثانية ضد القوة الأعظم الوحيدة المتبقية في العالم وحلفائها الغربيين هو انتحار». لقد رأى الكثير ممن قابلتهم أن المعركة تلك خاسرة استراتيجياً، ورأوا كذلك أن أكلاف متابعة القتال لا توازيها أية منافع مرجّحة. والظواهري، كما قيل لي، قد اعترف ضمنياً بالحقيقة تلك، وذلك حين قرر سنة ١٩٩٥ تعليق الهجمات في مصر، ودعا أتباعه إلى الالتزام بهدنة، وتقييم الخطأ الذي حدث، ولماذا سقط حوالى الألف من عناصر الجهاد في قبضة السلطات. ويتساءل أعوان سابقون للظواهري، بكثير من النقد، كيف يستطيع الظواهري الالتفاف على ذلك، وإعلان الحرب على الغرب؟

أكثر من ذلك، هناك الآن تفكير جديد متزايد بين أفراد الصف الأول يقول: هل كان الجهاد ضد العدو القريب جائزاً وفق الشرع الإسلامي؟ وكم بلغت كلفته العالية على الأمة؟ ألم تكن هناك من وسائل أخرى غير عنفية لأسلمة المجتمع، كـ «الدعوة» مثلاً؟ ولا يخفى ما في هذه الأسئلة من حسابات نفعية وعقلانية تختلف جذرياً عن منهج جهاديي القاعدة الذين يقيسون الربح والخسارة بمعايير مطلقة.

وأشار رفاق سابقون آخرون للظواهري إلى أنه قضى العمر يخطط وينفّذ الهجمات للتخلص من حكومة مصر، وأن «القدس لن تتحرر»، كما كتب هو سنة ١٩٩٥ : «حتى يجري الانتصار في معركة مصر والجزائر وحتى تتحرر مصر»، إلا أن الكلمات نفسها باتت حجّة ضده بعد ذلك. لقد انتقد الجميع، وعلى المستويات الجهادية كافة. لقد أعربوا عن خوفهم من أن ما يسمّى بـ «الجبهة الإسلامية العالمية ضد اليهود والصليبيين» سوف تطلق العنان للقوة

الأمريكية ضد الجهاديين، وتهدّد وجود الحركة برمته، بعد الذي عانته للتوّ من ضربات السلطات المصرية[١٨].

في قلب النقاش الكبير الذي اندلع في أواخر التسعينيات، ارتسم السؤال حول الجدوى من إشعال الحرب ضد العدو البعيد والفخ الذي يمثّله الالتحاق بابن لادن. ما أزعج الجهاديين أكثر من سواه هو أن الظواهري التحق بجماعة بن لادن من دون تشاور مسبق. ولم يخفِ مسؤول الظواهري الرئيسي في اليمن، هاني السباعي، وهو يستذكر ما حدث في اجتماع طارئ، نقده التحول الجديد في التكتيكات، وهو حذّر من أن لابن لادن «ماضياً مظلماً» و«تاريخاً غير نظيف»، ولا يمكن بالتالي «الوثوق به»[١٩]. وأضاف، «قلة فقط يُحصون على الأصابع هم الذين أيدوا الخطوة». لم يستطع الظواهري إقناع الحاضرين أن استهداف أمريكا يمكن أن يبعث الحياة والقوة في قضيتهم، بل حذّر بعض الحاضرين من عواقبها الخطيرة[٢٠].

وأفاد مشارك آخر في ذلك الاجتماع الطارئ أن الظواهري هدد تكراراً بالاستقالة، واتهم أخاه محمداً بتبديد الأموال. ويتذكّر طارق أنور، رفيق الظواهري القديم المحنّك، أن كل واحد من الحاضرين كان متفقاً على أن التحالف مع «القاعدة» هو كارثة، ويضيف: «لقد توقعتُ أن يبدأ البعض بمقاتلة البعض الآخر، وشعرتُ أن التنظيم على وشك أن يتلاشى في ثوان»[٢١].

لم يستطع الظواهري تجنيد حتى رجاله. وفي النهاية، كان هناك ثمانية مسؤولين فقط هم من انضم من تنظيم الجهاد إلى «القاعدة». أما الباقون فبقوا على الحياد، أو انضمّوا أحياناً إلى الآلاف من الجهاديين الذين تخلّوا عن مهامهم النضالية[٢٢].

---

(١٨) Gerges, Ibid., chap. 4.

(١٩) Andrew Higgins and Allan Cullison, «Terrorist's Odyssey: Saga of Dr. Zawahiri Illuminates Roots of Al Qaeda Terror,» *Wall Street Journal*, 2/7/2002, and Shafi'i, «Zawahiri's Secret Papers,» part 2 (14 December 2002).

(٢٠) هاني السباعي، «المقدمة،» في: الزيّات، **أيمن الظواهري كما عرفته**، Shafi'i: «Zawahiri Expelled Two Jihadi Leaders,» and «Zawahiri's Secret Papers,» part 1 (13 December 2002).

(٢١) السباعي، المصدر نفسه؛ صلاح، **وقائع سنوات الجهاد: رحلة الأفغان العرب**، و Higgins and Cullison, Ibid.

(٢٢) السباعي، المصدر نفسه، ومقابلة مع حبيب في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩.

ومع ذلك، وبالرغم من الانشقاقات والانقسامات الداخلية، نجح بن لادن والظواهري، ليس فقط في جلب الحرب إلى الشواطئ الأمريكية، بل وفي توريط القوة الأعظم الوحيدة الباقية، لفترة قصيرة، في «جبهة حرب واسعة يصعب السيطرة عليها». وبعد أن تولى بن لادن، على وجه الخصوص، القيادة، قال مرشد سابق له: «لقد حوّل بن لادن ثأره الشخصي من أمريكا إلى مسألة حياة أو موت تخصّ الأمة»[٢٣]. وقد تشبّث بأفراد من مثل خالد شيخ محمد، الذي خطّط لقتل أكبر عدد من الأمريكيين، وهزّ أساس القوة الأعظم الوحيدة المتبقية. وبحسب شهادات مساعدين سابقين، فإن بن لادن تولى شخصياً قيادة التخطيط لعملية ١١ أيلول/ سبتمبر. وضغط مراراً على خالد شيخ محمد كي يسرع في تنفيذ الهجوم، وأن يتوخّى أقصى درجات السريّة. وحين أخبر بن لادن مجلس شورى القاعدة قبل ثلاثة أشهر أن «عملية كبرى» ضد أمريكا هي على الطريق، حذّروه بأن عليه أن يأخذ الإذن من مضيفه، الملا عمر. لكن بن لادن كان مصمّماً على ألّا يفعل ذلك. وفي الحقيقة، لم يجر إعلام الظواهري، ولا مجلس الشورى بتفاصيل التفجيرات أو توقيتها (علم الظواهري قبل ٢٤ ساعة فقط من تنفيذ العملية).

لقد صمّم بن لادن على معاقبة «محتلّي الأراضي المقدسة الإسلامية»، بغضّ النظر عن الأكلاف والارتدادات. وقد تجاهل المشكّكين بين الجهاديين المحليين، وفي حلقته الضيّقة من المجاهدين العرب، بمن فيهم أبي مصعب السوري، وعبد الرحمن الكندي، اللذين حاولا إقناعه بتجنب المواجهة مع أمريكا. وهزئ من أوامر طالبان بالامتناع عن استعمال البلاد كقاعدة لأعمال عدائية ضد الغرب. لقد كان رجلاً في مهمة، مهمة ستحوّل «القاعدة» إلى اسم يتردّد في كل بيت.

---

(٢٣) Al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad,» no. 2 (19 November 2008).

الفصل الثالث

النجاح والحسابات الخاطئة



خيّل لابن لادن في لحظة ما بعد ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، بطريقة غير محسوبة جيّداً، أن قوته باتت لا حدّ لها، وقد تجاوزت كل التوقعات. كان هدفه «إرهاب» الأمريكيين، وقتل المئات، وإجبارهم على إعادة التفكير في تواجدهم العسكري في العالم الإسلامي. لم يكن يتوقع أن يقتل أناس بهذا العدد، أو أن ينهار برجا مركز التجارة الدولي، مع أنه لم يذرف الدموع على أيٍّ منهما. ولعب الحظ أخيراً دوره في تأمين النجاح المدوّي للعملية.

ومع ذلك، فالهجوم هو من صنعه. لقد خطّط له خالد شيخ محمد، وتابعه حتى النهاية، لكن المسؤولية عنه وإجازته وتمويله تبقى كلها على عاتق بن لادن. باختصار، الهجوم يخصّ بن لادن.

سافر خالد شيخ محمد إلى أفغانستان في أواسط التسعينيات للقاء بن لادن وشريكه المقرّب المعروف بمحمد عاطف، للمرة الأولى. اعتبر خالد نفسه نوعاً من «المقاول الإرهابي» الذي يعرض على من يرغب خدماته وخبرته الجهادية الطويلة في الفيليبين ـ مع قدر من المبالغة. رأى خالد في «قاعدة» بن لادن فرصة عمل (بيزنس)، وحمل معه إليها مشروعاً جريئاً.

في لقائه مع بن لادن، كشف خالد عن اقتراح بتنفيذ عملية كبيرة تشترك فيها ١٠ طائرات تضرب المدن في ساحلي الولايات المتحدة، وتستهدف المباني الفدرالية ومحطات الطاقة النووية. ووصف خالد كيف أنه في الطائرة العاشرة، وبعد أن يقتل بيديه كل الذكور، يهبط ويلقي خطاباً يظهر فيه أن أمريكا تستحق ذلك. وكان رأيه أن عملية كهذه ستهزّ العالم، وأنه سيكون الرجل الأكثر شهرة على وجه الأرض[١].

لكن بن لادن الذي لا يجمعه غير القليل مع وسائل الإعلام لم يتفاعل أو

(١) *The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States* (New York: W. W. Norton, 2004), chap. 5.

يتحمّس كثيراً لهذا العرض المشوّق. لقد رأى أنه غير قابل للتطبيق، وكان قلقاً حول تأثيره في مستقبل تنظيمه. وتلقّى، إلى العرض الأول، عروضاً عدة تتضمّن اقتراحات بهجمات أخرى. أخبر بن لادن خالداً أنه ليس جاهزاً بعد لمثل هذه العملية الضخمة، وطلب من خالد في المقابل أن يبقى مع «القاعدة» في أفغانستان. اعتذر خالد بلطف عن تلبية دعوة بن لادن، وصمّم على المضي نحو جماعات جهادية أخرى في العالم.

كان لنجاح تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا فعله في دفع محمد عاطف في آب/أغسطس ١٩٩٨ إلى تشجيع بن لادن على إعادة التفكير في مقترح خالد. فالذي بدا فوق قدرته قبل سنتين ظهر بعد ذلك أنه ممكن، ولكن مع بعض التعديلات لجعله يخصّ بن لادن أكثر مما يخص خالداً. وبحسب مساعدين سابقين، فقد توصّل بن لادن في إثر تفجيري السفارتين، وردّ إدارة كلينتون بضرب مواقع «القاعدة»، إلى نقطة لا عودة فيها إلى الوراء، وأن الطريقة الوحيدة بالتالي لإجبار الولايات المتحدة على الانسحاب من بلاد الإسلام هي قتل عدد كبير من الأمريكيين من خلال ضربات تجري داخل الولايات المتحدة. وهكذا أبلغ بن لادن خالداً في ربيع ١٩٩٩ موافقة «القاعدة» على مقترحه[٢].

أولاً: التحضير لعملية ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١

وبعد سلسلة من اللقاءات بين عاطف وخالد في قندهار (ويلاحظ تغييب الظواهري عنها)، عدّل بن لادن في المخطّط الأصلي تاركاً فيه بصمته الشخصية. فقد اختصر الأهداف إلى أربعة: البنتاغون، والبيت الأبيض، ومركز التجارة العالمي، والكابيتول، وشطب من المخطّط البيان الإعلامي، كما في اقتراح خالد الأصلي؛ أي جعل خالداً العقل المدبّر للعملية، لكنه لم يترك له السيطرة الكاملة عليها.

تعمّق تورّط بن لادن الشخصي في المسألة بعد ربيع ١٩٩٩. ومنذ البدء احتفظ بن لادن وعاطف وحدهما بتفاصيل مخطّط خالد وتنفيذه. وقد اختار بن لادن الأشخاص الذين سيقودون الطائرات في الهجوم، حتى من دون استشارة خالد، الذي وجد نفسه أخيراً في وضع من ينفّذ أوامر بن لادن، إذ كان

---

(٢) المصدر نفسه.

ابن لادن يفضل للعملية الأشخاص الذين يدينون بالولاء الشخصي له فوق أي اعتبار آخر. لكن الجهاديين اليمنيين الذين اختارهم بن لادن في البدء لم يتمكّنوا من الحصول على تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة[٣].

ومن بين الأربعة الذين اختارهم في البدء كطيارين، تمكّن شخصان فقط يحملان جواز السفر السعودي، هما خالد المحضار، ونواف الحازمي، من حجز مكان لهما في العملية. طلب بن لادن من خالد أن يرسل هذين الشخصين إلى كاليفورنيا للتدرّب على الطيران. وبعد تدريب أوّلي في أفغانستان، وصل الرجلان في ١٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠ إلى لوس أنجلوس.

كانت فكرة بن لادن في البدء أن الطياريْن الباقييْن يجب أن يكونا من الأعضاء المنضوين إلى «القاعدة» الذين هم معه في أفغانستان، إلا أن مجيء مجموعة من الجهاديين من هامبورغ للتدرّب في أفغانستان بدّلت من تفكيره. فطلاقة أفراد المجموعة التي تضمّ محمد عطا، ورمزي بن الشيبة، ومروان الشحّي، وزياد الجرّاح، في اللغة الإنكليزية، ومعارفهم التقنية، وخبرتهم الطويلة بالعيش في الغرب، جعلهم أكثر ملاءمة للعملية.

بُعيد وصولهم إلى أفغانستان، التقى عاطف بأفراد المجموعة، وأبلغهم قرار بن لادن ضمّهم إلى المهمة. وبعد فترة قصيرة من التدريب التكتيكي في أفغانستان، اقترح عاطف عليهم العودة إلى ألمانيا والبدء بالتدرّب على الطيران. وعيّن بن لادن محمد عطا قائداً للعملية، ومرة ثانية من دون استشارة خالد الذي لم يكن قد التقى حتى الآن بالمتطوعين الجدد. وقد عاد بن لادن وأخبره بالأمر لاحقاً.

قبل عودته إلى ألمانيا في أوائل عام ٢٠٠٠، التقى عطا عدة مرات بابن لادن لبحث العملية، وبدأ بعد ذلك، مع مجموعته، التحضير لإنجاز المهمة. وجد عطا أن مدارس الطيران في ألمانيا وأوروبا غير مناسبة لتدريبهم، ولم يستسغ الوقت الطويل الذي تستغرقه برامجها وكلفتها الباهظة. وعليه، بدأ في آذار/ مارس ٢٠٠٠ البحث عن مدارس طيران في الولايات المتحدة، وتقدّم مع أفراد مجموعته بطلبات للحصول على الفيزا لدخول الولايات المتحدة[٤].

---

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

في هذا الوقت، كان المتطوعان الأولان، الحازمي والمحضار، اللذان لا يملكان ثقافة خلية هامبورغ، يكافحان في كاليفورنيا مع المهمة الصعبة التي أوكلت إليهما. وتوصلا في أيار/مايو ٢٠٠٠ إلى أن عجزهما عن تعلّم الإنكليزية (رغم الدروس الخصوصية الإضافية) يمنعهما من تحقيق أي تقدم في تدريبهما، فقد كانا غير ملائميْن ليصبحا طيّاريْن. وقد أشار أحد المدرّبين إلى أنهما لم يظهرا تقدماً في تدريبات الإقلاع والهبوط، وإنما في قيادة الطائرة بعد إقلاعها. وقد أدهشا مدرّبيهما حين سألا إذا كان بمقدورهما قيادة طائرات البوينغ. وفي ٩ حزيران/يونيو ٢٠٠٠ ترك المحضار الولايات المتحدة بعدما اقتنع أنه لا يملك المهارات الضرورية للطيران، لكنه عاد لاحقاً إلى مهمة «خاطف» كونه يتمتع بالقوة العضلية.

مع المغادرة المفاجئة للمحضار، أرسل بن لادن هاني حنجور إلى كاليفورنيا للقاء الحازمي. وصل حنجور إلى سان دييغو في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠ والتقى الحازمي، الذي كان يعمل في ذلك الوقت في محطة محروقات. وقد طُلب من الحازمي مرافقة حنجور من أجل التدرّب في أريزونا، مع القرار بأنه غير ملائم للتدرّب كطيّار. واختير بناء على ذلك كي يكون كزميله «خاطفاً جسدياً»، وليس طياراً. وبعدما أمكنه تجاوز عقبات عدة، أمكن لحنجور في آذار/مارس ٢٠٠١ أن ينهي تدريبه، وانتقل مع الحازمي إلى «فولز تشارش» في فرجينيا انتظاراً لتعليمات جديدة[٥].

وصلت خلية هامبورغ بكاملها إلى «الشاطئ الشرقي» في نهاية حزيران/يونيو ٢٠٠٠، وتمّ تسجيل هؤلاء المتطوعين بعد ذلك في مدارس طيران عدة في فلوريدا. وكي يتجنّبوا الملاحقة، اختاروا مدارس مختلفة. وبخلاف متطوعي بن لادن الأوائل، حققوا بسرعة تقدماً ممتازاً في التدرّب على الطيران. ففي منتصف آب/أغسطس أصبح في وسع عطا والشحّي أن يقوما بطيران فردي، ونجحا في اختبارات إجازة طيّار خاص. وفي منتصف كانون الأول/ديسمبر نالا إجازة طيّار تجاري، وبدآ بالتدرّب على الطيران بطائرات كبيرة على محاكيات الطيران. وحصل الجرّاح أيضاً على شهادة طيران تخوّله قيادة طائرات ذات محرّك واحد، وتقدّم للحصول على تدريب على طائرات أكبر على محاكيات الطيران.

---

(٥) المصدر نفسه.

بين كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠ وشباط/ فبراير ٢٠٠١ مُنح المتطوعون إجازات في أوروبا والشرق الأوسط، عادوا بعدها إلى الولايات المتحدة في ربيع عام ٢٠٠١، إذ توجّه كلّ من عطا والجرّاح وشحّي إلى فلوريدا، بينما توجّه الحازمي وحنجور إلى نيوجرسي، ومكثا هناك في انتظار «الخاطفين الجسديين»، الذين التقى بن لادن كلاً منهم على حِدَة في خلال صيف وخريف عام ٢٠٠٠، وانتقى منهم ثلاثة عشر رجلاً. لقد كانت غالبيتهم من السعوديين، وكان من بين هؤلاء: سطام السقامي، ووائل الشهري، ووليد الشهري، وعبد العزيز العمري، وأحمد الغامدي، وحمزة الغامدي، ومهند الشهري، وماجد موقد، وسعيد الغامدي، وأحمد الحزناوي، وأحمد النامي، وفايز بني حمّاد[٦].

أخضع بن لادن هؤلاء، قبل إرسالهم إلى الولايات المتحدة، لتدريبات مكثّفة، من ضمنها تعلم تكتيكات القتال الفردي، وحضروا محاضرات شخصية له، ثم أرسلوا إلى السعودية من أجل استصدار جوازات سفر جديدة والحصول على سمات دخول، على أن يعودوا بعدها إلى أفغانستان للخضوع لتدريب إضافي. وبين أواخر عام ٢٠٠٠ ومطلع عام ٢٠٠١، تلقوا تدريباً خاصاً من أبي تراب الأردني في مجمّع المطار في أفغانستان، وبعدها انتقلوا إلى باكستان، ثم دولة الإمارات العربية، ومن هناك إلى الولايات المتحدة. وفي حدود مطلع صيف ٢٠٠١، استقرّوا جميعاً في فلوريدا.

في خلال صيف ٢٠٠١، بدأ هؤلاء، الذين سيصبحون طيّارين، بالالتحاق بصفوف إضافية لتعلّم الطيران، ومنها طيران المراقبة عبر البلاد تحضيراً لعمليتهم المنتظرة. لم يكن موعد العملية قد تحدّد بعد، لكن عطا أدرك أن هذا الموعد يقترب بسرعة، بعد أن التقى عطا بالحازمي للمرة الأولى في خلال ذلك الصيف، إذ كانت كلّ من المجموعتين قبل ذلك تعمل باستقلال عن المجموعة الأخرى. وقد أصبح خالد صلة الوصل بين مجموعتي كاليفورنيا وأريزونا، بينما أصبح رمزي بن الشيبة صلة الوصل بين بن لادن ومجموعة هامبورغ. وانطلاقاً من تلك اللحظة أصبحت المجموعتان تحت قيادة عطا، أي مع «القاعدة»، إلا أن القليل من قادتهما كان على معرفة بتفاصيل ما يجري.

(٦) المصدر نفسه.

ثانياً: وضع اللمسات الأخيرة لعملية ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١

وفي ٨ تموز/يوليو سافر عطا إلى مدريد للقاء بن الشيبة والحصول على التفاصيل النهائية للعملية وتوقيتها. وقد شدّد بن الشيبة في لقائه مع عطا على لائحة الأهداف، وأبلغه أن بن لادن يريد تنفيذ الهجمات في أقصى سرعة ممكنة. سأل عطا إذا كان بالإمكان استهداف محطة نووية، فأجابه بن الشيبة أن الأهداف التي أجازها بن لادن هي وحدها المسموح استهدافها. وقد أخبر عطا ابن الشيبة أنه لم يقرر بعد موعد التنفيذ، لكنه سيعلمه في حال أخذ القرار بالسرعة القصوى. ومن المثير للدهشة أن بن لادن ضغط لتنفيذ الهجوم في ١٢ أيار/مايو ٢٠٠١، بعد سبعة أشهر من الهجوم على المدمرة كول، لكن خالداً أبلغه بوضوح أنهم لم يكونوا جاهزين بعد. وقد ضغط بن لادن بعد ذلك من أجل جعل الموعد في حزيران/ يونيو أو تموز/يوليو، أي في الموعد نفسه لزيارة شارون، رئيس وزراء إسرائيل، إلى جبل الهيكل في القدس. وطلب بن الشيبة من عطا ألا يخبر الخاطفين بتوقيت الهجوم إلا في الأيام الأخيرة[٧].

عاد عطا إلى الولايات المتحدة في ٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠١، وقضى بعد ذلك سحابة شهر آب/ أغسطس يضع اللمسات الأخيرة على العملية، وظلّ على تواصل مستمر مع بن الشيبة. وقد أمر جميع الطيّارين بإجراء تدقيق أخير بالأهداف الموضوعة. وفي ٤ آب/ أغسطس حاول عطا ضمّ محمد القحطاني، العنصر الأخير في خلية «الخاطفين الجسديين»، إلى المجموعة، لكن القحطاني لم يستطع الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. وفي حدود الأسبوع الثالث من آب/ أغسطس كان عطا قد توصل إلى تحديد ١١ أيلول/ سبتمبر موعداً للعملية المنتظرة، وجرى تأكيد الموعد مع بن الشيبة.

أبلغ بن الشيبة بن لادن بالموعد المقترح من دون إبطاء، وبعث برسالة إلى خالد يؤكد فيها الهجوم. وقد أعلم بن لادن عاطفاً فقط بالأمر، كما سرّب إلى مجلس الشورى وقيادة طالبان أن هجوماً ما صار وشيكاً. كما شدّد بن لادن مع زائريه على القضية التي باتت أمراً مهماً له. لكن الملا عمر كرّر تحذيره من مغبّة أي هجوم على الولايات المتحدة، وشجّعه في المقابل على

---

(٧) المصدر نفسه.

ضرب أعداء طالبان داخل أفغانستان. وقد رجاه قادة طالبان أن يأخذ تحذير الملا عمر على محمل الجدّ، إلا أن جوابه الحاسم للجميع كان: «سأنفّذ العملية ولو بنفسي».

أعطى بن لادن الضوء الأخضر لتنفيذ العملية في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. وبدأ عطا بتقسيم الرجال إلى مجموعات صغيرة للانتقال بهدف الالتقاء في نقاط الإقلاع: نيويورك، ودالاس، وبوسطن. من هذه النقاط سيبدأ هؤلاء بأضخم هجوم إرهابي ضد الأرض الأمريكية في تاريخها[٨].

كانت حسابات بن لادن التي خلص إليها تقول إن الولايات المتحدة هي نمر من ورق، وسوف تتجنّب إشعال حرب طويلة مكلفة. فالأمريكيون، كما كان يعتقد، باتوا غير راغبين في الحرب، وبتحمّل خسائر بشرية عالية. وهو لم يملّ من تكرار مثلي بيروت ومقديشو سنتي ١٩٨٣ و١٩٩٣، كيما يظهر أن الولايات المتحدة تفتقر الآن إلى الإرادة السياسية للقتال، بدليل الطريقة التي خرجت بها تحت جنح الظلام من بيروت ومقديشو. وبحسب شهادة من مساعدين سابقين مقرّبين منه، فقد كان يكرّر ما كان يقوله له بعض الذين يعودون من زياراتهم إلى الولايات المتحدة كسيّاح، ثم يروون له ما يرغب في سماعه من أن الأمريكيين قد فقدوا العقلية المقاتلة، وعليه فهجوم واحد أو هجومان كبيران كفيلان بكسر إرادتهم.

ومع غياب التفكير الجمعي الذي يتوجب وجوده في أثناء اتخاذ القرارات الكبرى، أهمل بن لادن تماماً الآراء المخالفة، ورأي أعضاء مجلس الشورى، على وجه الخصوص، الذين كانوا معارضين لأي هجوم على الولايات المتحدة لتجنّب إثارة ردّات فعل القوة الأعظم، وتهديد بقاء إمارة طالبان الإسلامية. لقد كانت الإمارة تلك ملاذ الناشطين الإسلاميين الوحيد، أمثالهم؛ فهي الوحيدة التي لا تطلب منهم الحصول على إذن مسبق بالدخول إلى أراضيها، فعلامَ لا نعطي الإمارة الوليدة الفرصة لنجاح حكومتها الإسلامية، ونقل نمطها الإسلامي إلى بلدان إسلامية أخرى؟

لكن ما من أحد استمع إلى رأي مجلس الشورى. فابن لادن، كما يقول مقرّب منه ويعرفه من الداخل أثناء الحرب الأفغانية والإقامة في السودان: «هو

---

(٨) المصدر نفسه.

رجل الاستعراضات ذات البطل الواحد، وعلى المرء معه من ثمة إما موافقته على رأيه أو إقفال فمه. أما مخالفة الرأي فأمر غير مسموح به»[٩]. ويعترف مقرّب رفيع المستوى من بن لادن والملا عمر بأن بن لادن قد أدار «القاعدة» بـ «طريقة فردية مطلقة». وهو ما جعل «قاعدة» بن لادن، وفق تعبير الناشط المصري المولد أبي الوليد المصري «أول تنظيم جهادي تابع للقطاع الخاص في التاريخ الإسلامي برمّته»[١٠]. لم يخبر بن لادن إلا حوالى عشرة أشخاص أو أكثر بقليل بأمر الهجوم، وهو بذلك قد ضيّق حتى الحدّ الأدنى من إمكانية المعارضة والنقاش. لقد أقفل أذنيه تماماً أمام أي اختلاف في الرأي. فإذا كان المجاهدون الأفغان قد نجحوا في إلحاق الهزيمة بأحد أكثر الجيوش قوة في العالم، ويُنشئون إمارة إسلامية، ففي وسعهم من جديد طرد الولايات المتحدة من أرض المسلمين.

لقد أهمل بن لادن عوامل عدة، وتبيّن بعد ذلك أنها كانت حاسمة على المدى البعيد. أولاً، لقد توفّر إجماع نسبي بين المسلمين حول المقاومة الأفغانية ضد الاحتلال السوفياتي. فالسوفيات غزوا البلد المسلم واحتلوه. أما «القاعدة»، على النقيض من ذلك، فقد قتلت حوالى ٣٠٠٠ مدني أمريكي في بلادهم، ومن دون أي فعل أو تصرّف من الولايات المتحدة يبرّر هذا النوع أو الحجم من الردّ. وإلى ذلك، فهو أقدم على ما أقدم عليه من دون التشاور مع طالبان أو الأمة. لقد حوّل بن لادن، وفق تعبير أحد أتباعه المقرّبين السابقين، ثأراً شخصياً إلى قضية تخصّ الأمة. وكانت النتيجة أن الأمة لم تنهض لتدافع عن ابنها المتفرّد في الرأي، وتركته غداة الهجمات يتحمّل وحده غضب الولايات المتحدة الشديد، ومعه مضيفوه الذين غيّبوا عن كل ما جرى.

لو كان بن لادن أكثر معرفة بالتاريخ الأمريكي، وبعلاقات الولايات المتحدة، لكان في وسعه أن يتوقع ردّ الولايات المتحدة العنيف والفوري على الهجوم. لقد كان لبنان والصومال آلة القياس الخاطئة لقياس درجة الردّ الأمريكي المتوقع. وفي كل الأحوال، فمن المشكوك فيه أن بن لادن كان يدرك، وهو يحرّض على الهجمات، خطورة العواقب التي ستترتب على ذلك.

---

(٩) Mohammed Salah, «Al-Hayat in the Egyptian Tura Prison Speaks with the author of «Rationalizing Jihad in Egypt and the World»,» *Al-Hayat*, no. 1 of 6 (9 December 2007).

(١٠) Leah Farrall, «Hotline to the Jihad,» *Australian*, 7/12/2009.

كان في حساب بن لادن، في أحسن الأحوال، أنه إذا تجرأت الولايات المتحدة وغزت أفغانستان، فإن بحراً من المتطوعين المسلمين سوف يهبّ لمقاومتها. لكن مراهنته على هبّة الأمة، وعلى نظرائه من الجهاديين يخفّون إلى نجدته، كان رهاناً خاسراً. وفي مذكّرة شخصية، يكتب الظواهري أن على الحركة الإسلامية (ويعني بها نفسه، وبن لادن، والآخرين) أن تناضل لكسب الثقة والصدقية لدى الأمة من خلال رفع راية الجهاد باسم الأمة. إلا أنه في الحالة هذه، لم تكن الأمة، ولا جمهرة الجهاديين المحليين مستعدتين للانضمام إلى معركة بن لادن الأممية. ورغم أنه يمكن اعتبار ١١ أيلول/ سبتمبر عملية فائقة النجاح من وجهة تقنية عملياتية، إلا أنها فشلت في تحقيق مخطّط بن لادن الأساسي. فبضربة واحدة انتهت الإمارة الإسلامية، وفقد الجهاديون ملاذهم الآمن، وهو ما قاد إلى فوضى عارمة داخل الحركة الإسلامية ككلّ.

حين غزا السوفيات كابول، تصاعدت دعوات الجهاد من كل مسجد في العالم الإسلامي الكبير، وتردّدت في كل زاوية من زواياه؛ فتدفق إلى أفغانستان عشرات آلاف المتطوعين، بمن فيهم الجهاديون، بهدف مقاومة الاحتلال الروسي، وقد جاؤوا جميعاً بمباركة السلطتين الدينية والسياسية في بلدانهم. أما حين أعلنت الولايات المتحدة الحرب على طالبان والقاعدة، فقد كان هناك صمت مطبق. صحيح أن المسلمين في كل مكان انتقدوا عدوانية الولايات المتحدة وتوكئها العنف أداةً، لكن القليل فقط هم من توقفوا عند الدعوة إلى الجهاد. ولم تصدر مرجعية دينية واحدة بياناً باسمها يضفي الشرعية على قتال القوات الأمريكية في أفغانستان. وقد بقي ردّ فعل غالبية المسلمين على عمليتي ١١ أيلول/سبتمبر، وإزالة حكم طالبان، في إطار الخطاب اللفظي المنتقد لتوسيع الحرب على الإرهاب، وبخاصة غزو العراق واحتلاله من طرف الولايات المتحدة.

ثالثاً: تداعيات عملية ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١

لم يتحوّل ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، كما كان يعتقد بن لادن، إلى معمودية نار للقاعدة تزيد من قوتها، ولا كانت تغييراً لقواعد اللعبة. لم تنشأ هبّة جماهيرية، ولا نهض نهر من المتطوعين ضد الحكام «المرتدّين» المؤيدين للغرب، مثلما حدث في الانتفاضة الشعبية الإسلامية في إيران في السبعينيات.

بعد ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، أمكن لابن لادن أن ينال شهرة واسعة، ولكن للأسباب الخطأ. فقد اختارت قنوات التلفاز الغربية التركيز على صور التصرّف التلقائي ليافعين وأطفال فلسطينيين في مخيّمات اللاجئين كانوا يحتفلون بالهجمات. ردّ فعل اللاجئين المزعج، ولكن الغريزي ذاك إنما كان شهادة ضد تراث أمريكا في الوطن العربي، وبخاصة مواقفها على الجبهة الفلسطينية ـ الإسرائيلية. ففي المنطقة اقتناع واسع أن الدعم الأمريكي اللامحدود لإسرائيل هو المسؤول المباشر عن استطالة محنة الفلسطينية، وأن هذا الدعم قد سمّم على الدوام العلاقات العربية ـ الأمريكية منذ نهاية الأربعينيات. ما حدث بعد هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر مباشرة من تصرّفات ابتهاج غريزية لفتيان فلسطينيين إنما كان الشعور للحظة أن على الأمريكيين أن يتذوّقوا أيضاً، كالفلسطينيين، المعاناة واليأس والصدمة، بل إن عرباً كثيرين كانوا وما زالوا مشكّكين في مسؤولية «القاعدة» عمّا حدث.

بتركيزه الانتقائي على سؤال: «لماذا يكرهوننا؟»، سعى الإعلام الغربي إلى طمس القصة المحورية والأكثر أهمية بكثير. فقد تعمّد عدم تغطية مشهد آلاف الشبان الإيرانيين وهم يضيئون الشموع على نيّة ضحايا ١١ أيلول/ سبتمبر، وكذلك موجه التعاطف العامة التي سادت العالم، ومن ضمنها البلدان الإسلامية. لقد عبّر مواطنون عرب عاديون ـ موظفون، وباعة فواكه، وسائقو تاكسي ممن تحادثت شخصياً معهم ومباشرة بعد الهجمات ـ عن تعاطفهم مع عائلات الضحايا. ولم يتردّد حتى المنتقدون بصوت عال لسياسة أمريكا الخارجية من الالتقاء على اعتبار الهجمات جريمة. فالإسلام يمنع صراحة قتل المدنيين، وبخاصة الاستهداف العشوائي للنساء، والأطفال، والعجزة. وفي الواقع، كان في وسع لحظة التعاطف تلك أن تتحول أيضاً إلى لحظة أو فرصة ظهرت لترميم علاقات أمريكا بالعالم المسلم. لكن ذلك لم يحدث.

وكان الأكثر صفعاً لحسابات بن لادن، مواقف إسلاميي التيارات الإسلامية الرئيسية، الذين ذكرنا بعضهم في ما سبق، من أمثال حسن الترابي، الرئيس السابق للجبهة الإسلامية الوطنية، ومؤتمر الشعب السوداني الآن، الذي سبق أن استضاف بن لادن من عام ١٩٩٢ إلى عام ١٩٩٦، والسيّد محمد حسين فضل الله، الأب الروحي لحزب الله الشيعي في لبنان، وسلمان العودة. وبالطبع، فضّل المفتي السابق للقاعدة، وكذلك يوسف القرضاوي، الداعية الإسلامي المحافظ المصري المولد والمقيم في قطر حالياً، بدلاً من تبنّيهما ما حدث

باعتباره «إرهاباً مباركاً»، كما أراد له بن لادن، إدانة ما حدث، واعتبرا الإسلام بريئاً منه.

شكّل تلاقي هذا التشكيل الأيديولوجي والفقهي المتنوّع على إدانة الهجمات شهادة على فشل الذي حدث لابن لادن في إقناع المسلمين، وبخاصة الناشطين السياسيين الدينيين الراديكاليين، أن استهداف المدنيين جائز شرعاً. وفيما لا يعني ذلك إلا القليل لعائلات الضحايا، إلا أنه شكّل تحدّياً فقهياً لابن لادن. لكن وسائل الإعلام الغربية، وكالعادة، لم تعط إلا اهتماماً محدوداً للنقاش العنيف الذي اندلع في العالم الإسلامي بعد ١١ أيلول/سبتمبر. بدلاً من ذلك كلّه، ركّز الإعلام الغربي كلياً تقريباً على أسئلة تاريخية استرجاعية من نوع: «لماذا يكرهوننا إلى هذا الحدّ؟ وأين المعتدلون المسلمون؟».

هناك عشرات آلاف الجهاديين المحليين المنتشرين في معظم بقاع العالم الإسلامي. فهل نجح بن لادن والظواهري في تعبئة هذا الجيش من الجهاديين المحليين إلى جانب شبكة «القاعدة»؟ ربما نجحا على مستوى أعداد صغيرة محدودة. أما لو أن أعداداً أكبر من الجهاديين اختاروا حقاً الانضمام إلى بن لادن، فإن الصراع الدائر حالياً كان سيغدو أخطر بكثير، وهو ما يقود إلى أصل السؤال حول ما إذا كانت «القاعدة» تمثّل حقاً أكثرية الجهاديين (وبدرجة أقل بكثير الأمة)، أو كما أسلفت مجرد شرائح هامشية منهم. فقد صمّم بن لادن والظواهري بعد عام ١٩٩٦ حملة طموحة للإمساك ببقايا الحركة الجهادية وتغيير وجهتها. وبديلاً للعجز عن توحيد الجماعات المتعارضة، ولوضع حدّ للتنافس الداخلي، اندفع الرجلان نحو مواجهة مع الولايات المتحدة على أمل أن يكون ذلك عامل استقطاب وتوحيد للقوى المتنافسة. فتوحيد الأمة يحتاج إلى عدو خارجي؛ عدو واضح ومحدد. وكان الهدف بالتالي خلق أزمة دولية رئيسية، واستثارة الغرب، وأمريكا خصوصاً، «ليخرجا من وكرهما» ويهاجما البلدان الإسلامية، كما قال سيف العدل القائد العسكري الرفيع في «القاعدة».

بعد الصدمة الأولية وفترة الدهشة والصمت لفترة، ظهر قادة الجماعة الجهادية ليدينوا علناً ما قام به بن لادن. وبعض هؤلاء كان أقرب إلى الأساطير في نظر المجاهدين. فقد رأى أبو الوليد المصري، الذي كان مقرّباً من بن لادن، ثم أصبح أول غير أفغاني يقسم يمين الولاء للملا عمر قائد طالبان، أن الهجمات كانت كارثة. كان أبو الوليد بين أوائل الأفغان العرب الذين انشقوا عن

ابن لادن، وجعل معارضته علنية، من خلال سلسلة مقالات نشرها في جريدة **الشرق الأوسط** العربية الصادرة في القاهرة بين عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥، وذلك تحت عنوان «قصة العرب الأفغان: من دخول أفغانستان إلى الخروج الأخير مع طالبان»[١١]. نعى المصري في مقالاته ما أسماه «القيادة الكارثية لابن لادن» واستهتاره بإرادة القوة لدى أمريكا. وكما كتب أبو الوليد بطريقة متبلّدة مقصودة، فإن المسائل بعد ١١ أيلول/سبتمبر «أخذت منحى معاكساً لما كان قد تخيّله بن لادن: فبدل أن تسقط أمريكا تحت ضرباته الثلاث المؤلمة، ردّت أمريكا فأسقطت طالبان والقاعدة معاً»[١٢].

ومع ذلك، فعناصر «القاعدة» هم أدرى من سواهم بابن لادن، ونكتشف ذلك من خلال أبي الوليد. فطريقة «أنت الأمير، إفعل ما يحلو لك!»، يقولون مخاطبين قائدهم، وفق ما ينقله أبو الوليد، هو الذي شجّع بن لادن على التهوّر، وتسبّب في انحلال التنظيم، وهما، يضيف أبو الوليد «سمتان لا تصلحان لمعركة وجود، تواجه فيها أعظم قوة في العالم، الولايات المتحدة». وعليه، فهو يعتقد أنه كان ضرورياً «تقدير الطبيعة الفعلية للمعركة وحجمها»، وتحضير المجاهدين وجماهير المسلمين «لمعركة ممتدة، طويلة المدى، وتحتاج إلى تضحيات كبيرة». وفي هذا السياق، فإن «١١ سبتمبر هو مجرد حلم بانتصار سهل تحقق»[١٣].

رابعاً: انحدار القاعدة

كان بن لادن، من خلال قمعه لأي نقاش داخل التنظيم، والحطّ من القيمة الحقيقية للعدو، يحيل سنوات «القاعدة» الأخيرة في أفغانستان إلى «مثل مأساوي لحركة إسلامية تديرها قيادة كارثية». فالرجل الذي تدفعه باستمرار رغبته في لفت الأنظار ـ «المفتون إلى الحدّ الأقصى» بوسائل الإعلام العالمية ـ كان «يقود تنظيمه إلى الهاوية، بل ويدفع ببلد بكامله إلى الهلاك، ومع ذلك استمروا يخضعون لإرادته وينفّذون أوامره إلى حدّ الانتحار»[١٤]. والذي كان

(١١) <http://www.aawsat.com/english/news.asp?section=3&id=627>.
من أجل النص العربي الكامل، انظر: **الشرق الأوسط** (كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٤).

(١٢) **الشرق الأوسط**: ٨/ ١٢/ ٢٠٠٤، و٢٩/ ٦/ ٢٠٠٥.

(١٣) **الشرق الأوسط**: ٩/ ١٢/ ٢٠٠٤، و١/ ٧/ ٢٠٠٥.

(١٤) المصدر نفسه.

يزيد من غضب أبي الوليد، هو أن بن لادن برأيه «لم يكن حتى يدرك حجم المعركة التي اختار أن يقاتل فيها، أو أجبر على القتال فيها». وعلى ذلك، فهو يستنتج أن بن لادن «كان ينقصه الوعي الصحيح، ولم يكن مؤهلاً للقيادة». وهو يستشهد بمثل عربي قديم ليصف حالة بن لادن، «من يعمل من غير وعي يخرّب أكثر مما يصلح، ومن يعدو سريعاً، ولكن على الطريق الخطأ، لا يصل أبداً إلى غايته». لقد أظهرت الكارثة في أفغانستان صدقية مبدأ رئيسي، بحسب أبي الوليد، وهو أن «السلطة الفردية المطلقة هي شكل يائس منحرف للقيادة، وطريقة بائدة في التنظيم لا توصل إلى شيء سوى الهزيمة». إن أسلوب بن لادن الاستبدادي في القيادة هو المسؤول عن إغراق الجهاديين ضد أمريكا في قتال كان، برأيه، «فوق القدرات الحالية لمجموع الحركة الإسلامية»(١٥).

لكن المسائل تذهب، في الحقيقة، إلى ما هو أعمق من ذلك. لقد أظهر ما حصل في أفغانستان الإفلاس الفكري للمشروع الجهادي، «فلربما عانت الحركة الجهادية الإخفاق الفكري والتنظيمي من قبل أن تبدأ معركتها مع أمريكا. والجهاد في النهاية مسألة واسعة وخطيرة بحيث يجب أن لا تترك للجماعات الجهادية وحدها. الجهاد هو أكثر من مجرد معركة حربية»(١٦).

وبحسب أبي الوليد، فقد أظهرت هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر الإخفاق الصريح لجهاد «القاعدة» الأممي، وشهادة على فشل بن لادن والظواهري. لكن نقده الحاد للقاعدة لا يتركّز فقط على تكتيكاتها، وإنما أيضاً على أيديولوجيتها وفلسفتها؛ فهو يجادل في الأساس الفقهي لمشروع الجهاد الكوني، ويثير التساؤلات حول مدى شرعيته والفائدة منه. وعليه، ووفق أحد أرفع قادة الأفغان العرب ذاك، كانت هناك أخطاء بنيوية في الخطاب، كما في سلوك الحركة الإسلامية ككلّ.

يجد تقييم أبو الوليد أصداء له عند آخرين، بمن فيهم «الجماعة الإسلامية» في مصر. وفي حين بلغ عدد أعضاء «القاعدة» في ذروة قوتها سنة ٢٠٠١ بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ مقاتل، كان عدد الناشطين في «الجماعة الإسلامية» في التسعينيات عشرات الآلاف. وبين كل الجهاديين، قدّم قادة «الجماعة الإسلامية»

---

(١٥) **الشرق الأوسط**: ٢٩/٦/٢٠٠٥، و١/٧/٢٠٠٥.

(١٦) **الشرق الأوسط**، ١/٧/٢٠٠٥.

(الذين كانوا الأكثر عرضة للسجن في مصر في الثمانينيات والتسعينيات، ولم يفرج عنهم إلا من فترة قصيرة) النقد الأكثر شمولية إلى جهاد بن لادن الأممي، وخلصوا إلى أن الجهاد المسلّح ضد العدو القريب، كما العدو البعيد، كان إخفاقاً بالكامل. وهم يذهبون في نقدهم الذاتي إلى أبعد مما بلغه حبيب وأبو الوليد؛ فقد نشرت الجماعة منذ عام ٢٠٠٢ حوالى ٢٥ رسالة حررها قادة كبار فيها، اثنان منها كانا لنقد أيديولوجية «القاعدة» وتكتيكها. وتبدو هذه النصوص في غاية الأهمية التاريخية، لأنها تلقي الضوء على تفكير التنظيم الجهادي الأضخم والأكثر تأثيراً في المنطقة. والأعمال هذه لم تجر ترجمتها إلى الإنكليزية، ولم تلق في الغرب بالتالي الاهتمام الذي تستحقه. الأول لمؤلفه عصام حسن دربالة، وقد خضع لمراجعة وموافقة كامل القيادة، وكان تحت عنوان **استراتيجية القاعدة: أخطاء ومخاطر**، والآخر لناجح عبد الله إبراهيم **الإسلام والتحديات في القرن الحادي والعشرين**، وكلاهما نشرا في **الشرق الأوسط**، الجريدة العربية اللندنية[١٧].

يبني دربالة، أحد أبرز قادة الجماعة الذي قضى جزءاً من حكم بالسجن المؤبد في مصر لدوره في اغتيال السادات سنة ١٩٨١، على النصوص الإسلامية الدينية ليظهر أن هجمات «القاعدة» تخالف الشرع الإسلامي الذي يحرّم قتل المدنيين مهما كان دينهم أو هويتهم. واللافت في عمل دربالة هي طريقته في مناقشة عبارات بن لادن والظواهري في تبرير جهادهما، ليبيّن عدم شرعية الجهاد ذاك. وعليه، فهو يتهمهما بمخالفة الشريعة نفسها، وإعلان الجهاد من خلال جعل آرائهما أعلى من آراء النبي (ﷺ)، ويخلص إلى ما يقرب من إطلاق صفة «المرتدّين» عليهما. ويخلص دربالة إلى أنه لا زال في وسع بن لادن والظواهري، مع ذلك، الحدّ من الخسائر إذا أوقفا جهادهما وأحصيا خسائرهما، وإلا فعليهما توقّع خاتمة تشبه خاتمة الجماعة الإسلامية

(١٧) انظر خصوصاً، الكتب الأربعة التي حررتها الجماعة الإسلامية وهي شديدة الانتشار في مصر والوطن العربي وعناوينها: **مبادرة وقف العنف؛ رؤية واقعية.. ونظرية شرعية؛ تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء؛** حرمة **الغلو في الدين وتكفير المسلمين، ونصائح وتوضيحات لتصحيح مفاهيم من المسلمين بتحمل مسؤولية المجتمع** (القاهرة: الجماعة الإسلامية، ٢٠٠٢). انظر أيضاً: عصام محمد دربالة، «استراتيجة القاعدة: أخطاء ومخاطر،» **الشرق الأوسط**، ٦ ـ ٩/ ٧/ ٢٠٠٣؛ مقابلة مع كرم زهدي، في: **المصوّر** (٢١ و٢٨ حزيران/ يونيو ٢٠٠٢)، و**الشرق الأوسط**، ١٥ ـ ١٦/ ٧/ ٢٠٠٣. انظر أيضاً النقاشات، في: Umar Ashour, «De-radicalization of Jihad?,» <http://www.terrorismanalysts.conr/pt/index.php?option=com_rokzine& view=article&id=39&Itemid=54>.

الجزائرية المسلحة، التي تحوّلت إلى جماعة إجرامية تمتهن القتل والجريمة باسم الإسلام، ولتلقى من ثمة هزيمتها في أواخر التسعينيات[١٨].

يؤكد دربالة، في تكرار لأفكار أبي الوليد، أن الجهاد يجب أن لا يعلن قبل تقييم متزن للأكلاف، والمنافع، والقدرات. يقول دربالة إن «على القاعدة أن تفهم أن الجهاد هو واحد فقط من بين واجبات المسلم المختلفة. الجهاد وسيلة، وليس هدفاً بحدّ ذاته». أما الجهاد من أجل الجهاد، كما تفعل «القاعدة»، فقد أدى إلى نتائج على عكس المشتهى ـ سقوط حكم طالبان وذبح آلاف الشباب المسلم. وبفعل تصرّفات «القاعدة» المجنونة والمتهورة، يضيف دربالة، بات وضع الأمة الآن أكثر سوءاً بكثير ممّا كانت عليه سابقاً[١٩].

يدين دربالة ورفاقه «القاعدة» لادعائها أن المصالح الأمريكية والإسلامية لا يمكن أن تلتقي، وأن «العداء عميق جداً والاصطدام بينهما حتمي». وهم يردّون بحالات ملموسة عدة في التسعينيات ساعدت فيها الولايات المتحدة في حل مشكلات دولية بطريقة أفاد منها المسلمون: فالمساعدة العسكرية والمالية الأمريكية في خلال الحرب الأفغانية كان أساسياً لقلب الميزان لصالح المجاهدين ضد المحتلين الروس؛ وفي عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ ساعدت الولايات المتحدة الكويت والسعودية لطرد القوات العراقية من الكويت؛ وفي العام ١٩٩٥ وضع التدخل الأمريكي العسكري الحدّ لمجازر الإبادة التي كانت تجري في حق مسلمي البوسنة على أيدي الصرب، وفي سنة ١٩٩٩ قادت الولايات المتحدة حملة الناتو العسكرية لإجبار صربيا على إنهاء احتلالها لكوسوفو[٢٠].

في وسع المصالح الأمريكية والإسلامية أن تتلاقى، وهذا يحدث. وقد أثبت التاريخ أن لا شيء حتمياً يوجب اصطدام حضارتي الإسلام والغرب، فالإسلام دين عالمي، وقد تكامل غير مرة عبر التاريخ مع الحضارات الأخرى. ويلوم هؤلاء بن لادن لإعلانه الحرب بين «دار الإيمان» و«دار الكفر»، مستنداً إلى قراءة خاطئة لقدرات الأمة. وبحسب هؤلاء، «يبقى

(١٨) عصام محمد دربالة، في: **الشرق الأوسط**: ٦ ـ ٩/٨/٢٠٠٣، و١٢/١/٢٠٠٤.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) المصدر نفسه، وناجي عبد الله إبراهيم، «الإسلام وتحديات القرن الحادي والعشرين،» **الشرق الأوسط**: ٢١/٦/٢٠٠٤، و٢٤/٦/٢٠٠٤.

السؤال، ما هي الأولويات؟ وأين هي القدرات التي تسمح بذلك؟». إن ما تفعله «القاعدة» هو إثارتها لحرب حضارات من دون أن تمتلك القدرة على خوض كفاح على مستوى العالم، ناهيك عن شرعيته[٢١]. وعليه، فإذا كانت قد نجحت في شيء، ففي صنع الأعداء، بدل اتّباع طريق الرسول الذي قدّم غير مثال ووصية في ذلك. يدعو قادة «الجماعة»، على نقيض «القاعدة»، إلى تعاقد من نوع ما مع الغرب يقوم على الاحترام المتبادل والتعايش السلمي معاً[٢٢]. ويكتب دربالة: «يزعم البعض أن هناك الآن حرباً صليبية ضد الإسلام تقودها الولايات المتحدة. ومع ذلك، فإن أكثرية المسلمين ترفض منطق الحروب الصليبية». ثم يضيف: «ربما تكون هناك دوافع دينية تؤثر في السياسة الأمريكية حيال الشعوب الإسلامية، لكنها ليست حرباً صليبية»؛ وتبقى بالأحرى «المصالح هي الدين الرسمي لأمريكا، وهذه المصالح هي التي تحدد علاقاتها الخارجية»[٢٣].

خامساً: ردود الفعل على تدهور أوضاع القاعدة

مع الاعتراف بالإخفاق، يكتب مؤلف البيان الثاني للجماعة، ناجح عبد الله إبراهيم، المحكوم أيضاً بالسجن مدى الحياة على خلفية اغتيال السادات، والمفرج عنه بعد ١١ أيلول/سبتمبر، أن على المسلمين أن يتحرّروا من الخرافات التي روّج لها لعقود المتطرفون (كما كان هو شخصياً). وبحسب إبراهيم، فإن الهجمات وتردّداتها قللت من قدرة المسلمين على مواجهة الحقيقة، لكنها حتّمت على المسلمين من جهة ثانية اتخاذ القرارات الصعبة التي يحتاجون إليها إذا أرادوا التعايش مع الغرب وباقي البشرية. فلم يعُد في وسع المسلمين تأجيل الإصلاحات في عالم يتسارع فيه التواصل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ما يجعلهم متأخرين أكثر فأكثر، فـ «الجمود حيث نحن يعني الانتحار»[٢٤]. وبحسب نص إبراهيم، فالتجديد في الفكر الإسلامي سيثري ثقافة الشباب المسلم، ويجعله أقل قابلية للانخداع بنظريات التآمر، من مثل ما دار حول ١١ أيلول/سبتمبر، فـ «نظريات المؤامرة تعيق من تقدم العقل العربي

---

(٢١) المصدران نفسهما على التوالي.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) دربالة، المصدر نفسه.

(٢٤) إبراهيم، المصدر نفسه.

والمسلم، وتقيّد قابليته على حلّ المشكلات عقلانياً». وبدل أن ينظر العرب إلى العلاقات الدولية من منطق مصالح الدول وعلاقات القوة، دُفع العرب مع الأسف لينظروا إليها من خلال عدسة نظريات المؤامرة التي تضع الغرب كبش محرقة «لكل مآسينا وتهمل التركيز على أخطائنا الاستراتيجية»[٢٥]. هذه الأخطاء «لا الغرب»، يكتب إبراهيم، هي الأسباب الحقيقية وراء تدهور أحوال الأمة، ومسؤولية القوميين والإسلاميين متساوية في الاتّجار بفكرة المؤامرة ودفع الشباب المسلم إلى الضلال[٢٦].

قدّم كلّ من إبراهيم، ودربالة، وآخرون، تجاربهم الخاصة في القتال ضد الحكم المصري ليظهروا مخاطر الانخراط في الجهاد من دون تقدير الشروط القائمة في البلد، كما في الخارج. وبسبب من ذلك، فالجهاد لم يخفق فقط في تحقيق أهدافه، بل خسر، وهذا أكثر أهمية، الدعم الشعبي. لقد نسوا أن «الكفاح المسلح أو الجهاد لم يكن يوماً هدفاً في ذاته، والإسلام لم يشرّع أبداً القتال من أجل القتال أو الجهاد من أجل الجهاد. «الجهاد في الإسلام هو أحد الواجبات أو الخيار الأخير بعد أن تسدّ سبل الخيارات الأخرى، كالصلح، أو المصالحات، التي عقدها الرسول محمد (ﷺ) في أثناء حياته». والجهاديون حين يلغون «الصلح» كخيار استراتيجي، فهم ـ بمن فيهم أصحاب هذا الكلام ـ إنما يرتكبون أخطاء قاتلة تهدد الوجود الفعلي لحركتهم[٢٧]. وحتى حين كان بن لادن يدعو إلى الورع والإيمان، فقد كان واجباً عليه أن يصغي إلى شورى تنظيمه الخاص، وأن يتفهم معارضيه. وقد سقط في النهاية ضحية غروره وتعنّته. وبنتيجة افتقارها إلى البعد الواقعي، والعقلاني، وإلى جوهر مبادئ الإسلام، تسبّبت «القاعدة» بسقوط حكمين إسلاميين؛ في كابول وبغداد. وعليه، لا يرى إبراهيم غير اختلاف لا يكاد يذكر بين «قاعدة» بن لادن ودكتاتورية صدّام حسين: وفي النتائج، دمّر الأول تنظيمه، فيما دمّر الثاني الدولة العراقية[٢٨].

والتعايش بين الأديان ليس تكتيكاً في الإسلام، بل هو هدف

(٢٥) المصدر نفسه.
(٢٦) المصدر نفسه.
(٢٧) **الشرق الأوسط**، ٢٣ ـ ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٤، و٢٧/ ٦/ ٢٠٠٤.
(٢٨) **الشرق الأوسط**، ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٤.

استراتيجي، وبخاصة حين يهاجر المسلمون إلى بلاد أجنبية. وبرأي إبراهيم، فالعنصر الذي يجعل جريمة منفّذي اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر الانتحارية غير إسلامية قطعاً هي أن حكومة الولايات المتحدة كانت قد اعتبرت منفّذيها ضيوفاً. وعليه، يأتي الهجوم ليمثّل خيانة للواجب الأخلاقي الأكثر إلزاماً، وهو الواجب الذي نمارسه يومياً في المحال، والمقاهي، وفي منازلنا، على امتداد الوطن العربي. ولو قرأ المفجّرون السنّة النبوية (مصدر التشريع الثاني في الإسلام بعد القرآن)، لاحترموا التعايش السلمي المشترك، ولما كانوا أقدموا على ما أقدموا عليه[٢٩].

ومن زنزانته، يتهم كرم زهدي، أمير الجماعة، في سلسلة مقالات في **المصوّر** و**الشرق الأوسط**، «القاعدة» في دفع المسلمين قسراً إلى مواجهة لا يرغبون فيها، ولا هم قادرون عليها. ويضيف زهدي: «لقد غدا بن لادن مهجوساً بقتل الأمريكيين، والمسيحيين، والصليبيين من دون تمييز». ويذهب زهدي أبعد من ذلك، فيقول إن الرئيس السادات، الذي اغتاله زهدي ورفاقه، هو «شهيد»، وهو اعتراف نادر بالمسؤولية الجرمية والأخلاقية عن قتله[٣٠]. ما هو البديل؟، يسأل أمير الجماعة من سجنه. الجواب هو أن الجهاد يجب أن يعلن ضد المحتل الأجنبي فقط، والقادة الشرعيون وحدهم هم من يحق لهم الدعوة إلى الجهاد[٣١].

ومن المفيد التذكير أن نقد الجماعة لهجمات ١١ أيلول/سبتمبر يبقى الأكثر أهمية، لأن شرعية قادتها وصدقيتهم ليست موضع نقاش، حتى داخل «القاعدة». والقادة من مثل زهدي، ودربالة، وإبراهيم، وأسامة حافظ، وعاصم عبد الماجد، وآخرين، ممن وقّعوا على الوثيقتين اللتين اقتبست منهما، كانوا في الحقيقة الآباء المؤسسين لجناح رئيسي في الحركة الجهادية. وقد نشروا، عندما كانوا طلاباً في جامعة أسيوط في السبعينيات، أحد أول البيانات الذي دعا إلى الجهاد العنفي، وذلك تحت عنوان «فصول في طبيعة

---

(٢٩) **الشرق الأوسط**، ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٤.

(٣٠) «الشرق الأوسط تتحدّث إلى قائد التنظيم الجهادي الإسلامي داخل السجن،» **الشرق الأوسط**، ١٥ ـ ١٦/ ٧/ ٢٠٠٣. انظر سلسلة مقابلات مع كرم زهدي في المجلة المؤيدة للحكومة: **المصوّر** (٢١ حزيران/يونيو ٢٠٠٢)، و(٢٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٢)، و Paul Schemm, «Egypt Lets the World Know That the Gamaa Islamiya is out of the Terrorism Business,» *Cairo Times* (27 June 2002).

(٣١) **المصوّر** (٨ آب/أغسطس ٢٠٠٣)، و**الشرق الأوسط**، ١٥-١٦/ ٧/ ٢٠٠٣.

العمل السياسي الإسلامي»[٣٢]، وقد دفعوا ثمنه من الحلو والمرّ، وأودعوا السجون لعقود. وهم، ككمال حبيب وأبو الوليد، دعاة جهادية معاصرة. ويرقى نقدهم لجهاد «القاعدة» الأممي، كما لتمردهم المسلح الذي أسيء توجيهه، إلى مستوى اعتراف الجماعة الجهادية المعاصرة بأسرها. وتكمن أهميته في إعادة التذكير بالأساس الأخلاقي للجهاد، وقبول الحكم الشرعي السائد، وهو تحوّل جذري في عقيدة الجهاد المحلي، وهو يؤشر إلى بداية انتفاضة عامة ضد منطق «القاعدة».

تردّد صدى نقد «الجماعة» لهجمات ١١ أيلول/سبتمبر واعتبارها خطأ فادحاً لدى معظم الشخصيات الإسلامية والجهادية الأساسية. في مذكّراته المنشورة في جريدة **الحياة** المعروفة، يقدّم هاني السباعي، وهو رفيق سابق للظواهري يعيش في المنفى في المملكة المتحدة (حكم عليه بالإعدام في مصر) نقداً آخر قاسياً لهجمات ١١ أيلول/سبتمبر، معتبراً إياها خطأً جسيماً. وهو يرى أنه منذ ولادتها في التسعينيات أسفرت حركة الجهاد الأممي الذي انخرطت فيه «القاعدة» عن نتائج كارثية طالت الحركة الإسلامية والأمة ككلّ. وعليه، يدعو السباعي القرار بنقل أولوية العمليات ومهاجمة الولايات المتحدة بالقرار غير الحكيم، الذي لا يبرره تحليل عقلاني، ولا يستند إلى شورى أو نص[٣٣].

وفيما شددّت «الجماعة» في نقدها على الجانبين الأخلاقي والمعنوي، استند معظم النقد الإسلامي إلى اعتبارات نفعية وذرائعية. ويقترب أسامة رشدي، الذي كان مسؤولاً إعلامياً في الجماعة، وعضواً رفيعاً في مجلس الشورى فيها، من درجة خلط الأخلاقي بالسياسي، فيبيّن في سلسلة مقابلات له مع الإعلام العربي أن تبرير «القاعدة» لهجماتها على الولايات المتحدة بمفردات دينية هو زعم لا أساس له في الإسلام في الحقيقة. فالإسلام لا يبيح قتل المدنيين أو انتهاك المحرّمات الشرعية والأخلاقية، لما في ذلك من تهديد للانسجام والتعايش الدوليين[٣٤]. ويعترف رشدي أن نقد السياسة الخارجية

---

(٣٢) «فصول من عهد العمل السياسي الإسلامي،» في: رفعت سيّد أحمد، **النبي المسلّح**، ٢ ج (لندن: كتب رياض الريّس، ١٩٩١)، ج ١: **الرافضون**، ص ١٦٥ ـ ١٧٨.

(٣٣) «مذكرات هاني السباعي قائد سابق في الجهاد،» **الحياة**، ١ ـ ٤/ ٩/ ٢٠٠٢.

(٣٤) «أسامة رشدي، المسؤول الإعلامي السابق وعضو شورى الجماعة الإسلامية: خطاب بن لادن مثير ومليء بالتعابير التي لا يفهمها إلا المسلمون،» **الشرق الأوسط**، ٢٥/ ١/ ٢٠٠٥.

الأمريكية أمر سهل، ومع ذلك فنقد أمريكا ليس سبباً أو حجة شرعية لمهاجمتها: «هل تبرر الغايات الوسائل في هذا الصراع، أو على الوسائل أن تكون شرعية كما الغايات؟». ويختم رشدي بأن أعظم المخاطر التي تواجه الحركة الجهادية هي من صنعها، ونتيجة مباشرة لما أوقعه فيها بن لادن، وليس في «القاعدة» فقط[٣٥].

وحتى قبل أن ينجلي غبار هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، كان النزاع الداخلي بدأ يلقي بظله الثقيل على «القاعدة». فالأمة لم تستجب بالطريقة التي توقّعها بن لادن، وحتى الجماعات الجهادية المشابهة اتهمته بالبدعة والخيانة. وانتقل اللوم العارض أو العفوي لابن لادن والظواهري ليكوّن موجة عارمة من النقد الحاد والدقيق. ومع ذلك، وببساطة، لم يستمع إلى ذلك معظم من هم في الغرب والولايات المتحدة، وفضّلوا عليه شنّ «حرب كونية على الإرهاب»؛ حربٌ أطالت، ويا للمفارقة، من نهج بن لادن، ولمّ تقصّر منه. لقد استخدم الرئيس بوش وإدارته هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ذريعة لإحداث تغيير رئيسي في الشرق الأوسط. وكان جزء من الذريعة تلك يستلزم، كما يبدو، إطالة عمر التهديد المنسوب إلى «القاعدة».

---

(٣٥) المصدر نفسه.

الفصل الرابع

الانحدار والأفول



بعد طرد بن لادن وأنصاره من ملاذهم الآمن في أفغانستان، مع طالبان، أصيبت «القاعدة» في الصميم؛ فقيادتها إما اعتقلت أو مطاردة. وتفرّق عناصرها عشوائياً في بلدان عدة، لم تكن في غالبها مرحبّة بهم، بل تنافست أجهزة الأمن في البلدان تلك في اعتقال عناصر «القاعدة» التائبين وترويضهم، مقدّمة شهادات حسن السلوك والتعاون مع الأمريكيين ضد «التنظيم الإرهابي».

كان اصطياد مسؤولي «القاعدة» وناشطيها الأساسيين قائماً على قدم وساق في كل مكان تقريباً، من اليمن إلى سورية، ومن الإمارات العربية إلى باكستان. فإيران، على سبيل المثال، أوقفت أو طردت المئات من عناصر «القاعدة» الذين فرّوا إليها، ومن بينهم أبرز قادتها العسكريين وأفراد من أسرة بن لادن. وقامت اليمن بإعادة تأهيل المئات من الجهاديين السابقين، ووضعتهم على نحو جماعي في السجون. وقد طار علي عبد الله صالح إلى واشنطن عارضاً دعمه، بل سامحاً لطائرة أمريكية من دون طيار بقتل أبي علي الحارثي، زعيم «القاعدة» في اليمن مع خمسة من مرافقيه في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٢ فيما كانوا في سيارة على طريق صحراوي خارج العاصمة صنعاء[1].

منذ دخول أوباما إلى البيت الأبيض تعرّضت العلاقات الأمريكية ـ الباكستانية إلى تدهور مستمر، بلغ ذروته مع قيام وحدة عسكرية أمريكية بقتل بن لادن في عملية خاصة أمر بها أوباما، وذلك في مجمّع في أبوتاباد قرب العاصمة إسلام أباد. ورغم الدور المزدوج الذي أدته باكستان حيال «القاعدة» في أفغانستان ـ بين دعمها لهم ومطاردتهم ـ فقد كان للمعلومات الثمينة التي قدمتها إلى الولايات

---

(١) فؤاد حسين، **الزرقاوي... الجيل الثاني للقاعدة** (بيروت: دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥)؛ Mohammad A. Shafi, «Seifal-Adl: Al-Qa'ida's Ghost,» *Alsharq Alawsat*, 1/6/2005; «Lawmaker: Yemen Holding 104 People Suspected of Terror Ties,» Associated Press (23 September 2002); Tony Karon, «Nine Years After 9/11: Is Al-Qaeda's Threat Overrated?,» *Time* (11 September 2010), and Robert F. Worth, «Is Yemen the Next Afghanistan,» *New York Times*, 6/7/2010.

المتحدة بعد ١١ أيلول/ سبتمبر الفضل في اعتقال أكثر من ٤٠٠ قيادي وناشط من «القاعدة»، من بينهم خالد شيخ محمد، وأبو زبيدة الذي كان يعتبره البعض الرجل الثالث من حيث الأهمية في «القاعدة»[٢]. وإلى ما بعد سنتين من هجمات أيلول/ سبتمبر، كانت هناك دلائل كافية تشير إلى أن بن لادن والظواهري كانا مطاردين، يمضيان من مكان جبلي إلى آخر على الحدود ما بين باكستان وأفغانستان، طلباً لأمنهما ولتجنب اصطيادهما. وتقول سلطات الاستخبارات الغربية أنه كان لها غير مرة معلومات موثوقة عن حركة بن لادن، إلا أنها لم تكن معلومات راهنة ليجري التصرّف العسكري أو الاستخباراتي في ضوئها. غير أن بن لادن اختفى بعدها عن شاشات الاستخبارات والمعلومات، ولم يترك أثراً خلفه، إلى أن اعتقل ساعي بريده في بداية آب/ أغسطس ٢٠١٠[٣].

بين عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٣ كانت هناك نافذة مفتوحة: فـ «القاعدة» في حالة عدم توازن، كما كان هناك تعاطف على مستوى عالمي ورغبة في التعاون مع الولايات المتحدة. كانت الفترة ما بين ١١ أيلول/ سبتمبر و٢٠٠٣ تاريخ غزو العراق واحتلاله، غنية بالاحتمالات والفرص بخصوص الحملة ضد بن لادن وأعوانه؛ ففي غياب أي تأييد إسلامي شعبي لهم، ومع وجود ملاذات آمنة قليلة، كان الحبل يضيق بالتدريج على رقابهم. وفي هذا الجو من الهرب والاختباء، كانت «القاعدة» بقوة أمام مصير قاتم. وبدل أن تبادر الولايات المتحدة إلى البناء على هذا النجاح، وتشكيل تحالف أممي واسع، يضمّ المجتمعات الإسلامية على وجه الخصوص، لمطاردة واعتقال بقايا «القاعدة»، كانت إدارة بوش تنقل وجهة معركتها إلى مكان آخر.

كان قرار بوش غزو العراق واحتلاله سنة ٢٠٠٣ نعمة من السماء هبطت على «القاعدة»، الأمر الذي سمح لها بإعادة تجميع نفسها تنظيمياً وعسكرياً، والتحول إلى لامركزية واسعة في اتخاذ القرارات. لقد أتاح استمرار «الحرب على الإرهاب» بقاء «القاعدة» على قيد الحياة. ولولا الحرب على العراق، لكانت المعركة مع بن لادن ورجاله أقصر زمناً، وأقل كلفة، وأفضل نتائج.

---

(٢) «402 Al Qaeda Suspects Arrested, Pakistan Says,» Associated Press (10 September 2002), and Kamran Khan and Dana Priest, «Pakistan Pressures Al Qaeda: Military Operation Results in Alert and Arrests,» *Washington Post*, 6/8/2004.

(٣) «Intelligence Good but Not Actionable on Bin Laden,» United Press International (14 September 2010).

فاحتلال أمريكا للعراق، الواقع في قلب العالم الإسلامي، أشعل، بالتأكيد، غضب ملايين العرب والمسلمين، الذين تحوّلوا من اللامبالاة في موضوع بن لادن إلى الغضب الشديد في موضوع العراق. لقد غدا العراق انطلاقة الدعوة إلى الجهاد ضد أمريكا، المحتل الأجنبي، مع «التحالف» الذي يصطف معها.

وبعيداً جداً عن أي مظهر من مظاهر الترحيب بالغزو الأمريكي والغربي، نظر الرأي العام المسلم إلى احتلال العراق باعتباره جزءاً من الإرث الاستعماري، الذي لم يجر تناسيه أو غفرانه بعد. ورغم كل العوائق اللوجستية والعملياتية، نهض إلى العراق مئات آلاف من الشباب المسلم بهدف محاربة المحتلين الأجانب. وقد التقيت في أثناء رحلاتي إلى المنطقة بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٦ مئات الشبّان من ليبيا والمغرب والجزائر واليمن ولبنان والأردن وأمكنة أخرى، وقد أبلغني الكثير منهم أنهم يحاولون من دون كلل الوصول إلى العراق والانضمام إلى الجهاد هناك. وفي حين إن معظمهم ليسوا أعضاء في «القاعدة»، فقد لاحظت أنهم منكشفون على خطابها في الدفاع عن الأمة ضد المحتلين الأجانب. وبالفعل أمكن للآلاف من هؤلاء أن يصل إلى العراق، رغم الضغوط الكبيرة التي مارستها الولايات المتحدة على جيران العراق لإحكام إقفال حدودهم.

أولاً: انحدار القاعدة

وهكذا انتقلنا من اصطدام محدود مع تنظيم كان في حال من التفكّك والتساقط إلى حالة حرب كبرى مع العالم المسلم، كما أمل بن لادن والظواهري تماماً. قدّمت الحرب على العراق فرصة ذهبية إلى «القاعدة» لإعادة استقطاب الشباب، وإعادة انتزاع الصدقية في أعين المسلمين باعتبارها الطليعة الأمامية المقاتلة للأمة. ومن المفارقة أن الرئيس بوش في خطابه أمام الكونغرس بعد تسعة أيام من ١١ أيلول/سبتمبر قد شرّح على نحو صحيح عزلة «القاعدة» ومأزقها، حين قال: «لقد نفّذ الإرهابيون شكلاً من التطرف الإسلامي رفضه علماء المسلمين والأكثرية الساحقة من رجال الدين المسلمين. . . الإرهابيون هم أسرى معتقداتهم الخاصة، وهم يحاولون تبعاً لذلك خطف الإسلام نفسه»[٤].

ومع ذلك، تخلّى فريق بوش للأمن القومي عن تشخيصه هو لـ «القاعدة»،

---

(٤) انظر: «Transcript of President Bush's Address,» CNN (20 September 2001), <http://articles.cnn.com/2001-09-20/us/gen.bush.transcrip1_jointsession-national-anthem-citizens?_s=PM:US>.

وانتقل ليعتبرها خصماً استراتيجياً خطيراً أكثر من كونها مجرد جماعة «هامشية» عابرة ـ وسامحاً لها أن تكون الخصم للولايات المتحدة. بعد نجاح الغزو والاحتلال تحوّلت الولايات المتحدة إلى قوة احتلال في العراق، واستخدمت «القاعدة» هذه المساحة التي أتيحت لها لإدخال مقاتلين إلى العراق وإشهار خطابها من جديد من خلال التركيز على العراق. وفي خلال بضعة أشهر أمكن لأبي مصعب الزرقاوي، الأردني المولد الذي كان قد انشق عن بن لادن والظواهري لأسباب تتصل بالاستراتيجيا والتكتيك، أن يؤسس في العراق مع ثلاثين من أتباعه تنظيماً دموياً هو «التوحيد والجهاد» على نمط «القاعدة» نفسها. وبلغ عديد «التوحيد والجهاد» في ذروة قوته بين ٢٠٠٤ و٢٠٠٦ بضعة آلاف، وفاق «القاعدة» عدداً وقوة، وكذلك فاقها وحشية؛ فقد امتلك خزّاناً من الانتحاريين هو الأضخم في التاريخ، وأرسلهم يميناً ويساراً وبلا كبير تمييز. وبدا هدفه قتل أكبر عدد ممكن من العراقيين، وبخاصة من الشيعة، ولم يفته إشعال فتنة طائفية ضروس بين السنّة والشيعة، وكان له اليد الطولى في إذكاء نارها.

في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤ أعلن الزرقاوي رسمياً تغيير اسم تنظيمه ليصير «القاعدة في بلاد الرافدين»، وأعلن ولاءه لابن لادن. وبعد شهرين، ردّ بن لادن التحية بأحسن منها، فأعلن في شريط فيديو بُثّ من قناة «الجزيرة»، تعيينه الزرقاوي نائباً له وتسميته «أمير القاعدة في العراق»، مادحاً «عملياته المذهلة» ضد الأمريكيين[٥].

غير أن العلاقة بين بن لادن والزرقاوي كانت أكثر تعقيداً بكثير؛ فقد كان لكلٍّ منهما أجندته الخاصة وأهدافه الشخصية. وبحسب شهادات رفاق كانوا مقرّبين جداً منهما منذ بدء علاقتهما في أواخر التسعينيات، جعل بن لادن والظواهري الزرقاوي الشاب على بعض المسافة منهما. وانتقد الزرقاوي بدوره كبار السن في التنظيم بأنهم لا يظهرون ما يكفي من الشراسة مع العدو. ويقال إن بن لادن قد عارض في البدء الاندماج بين «القاعدة» والتوحيد والجهاد للزرقاوي بسبب من عنفه ومذهبيته الزائدة؛ وعلى قاعدة أن النزاع الجماعي بين السنّة والشيعة سوف يحرف تركيز المواجهة عن العدو البعيد[٦].

---

(٥) «Al Zarqawi Group Vows Allegiance to Bin Laden,» Associated Press (17 October 2004), and Dan Murphy, «In Iraq: A Clear-Cut Bin Laden-Zarqawi Alliance,» *Christian Science Monitor*, 31/12/2004.

(٦) حسين، **الزرقاوي... الجيل الثاني للقاعدة**، و Shafi, «Seifal-Adl: Al-Qa'ida's Ghost».

في نهاية ٢٠٠٤ وضع بن لادن تحفظاته جانباً، واندمج مع الزرقاوي، الذي بدا وهجه يفوق بن لادن نفسه. قاد الزرقاوي الخط الأمامي لـ «القاعدة» في العراق، والتحق به آلاف الشباب الذين لبّوا نداءه. كان بن لادن في الفترة تلك متخفياً في باكستان، وبات أكثر عزلة وأكثر هامشية كذلك، فيما كان المفجّرون الانتحاريون للزرقاوي يتصدّرون واجهة الأخبار العالمية. ومع ذلك، ارتشف بن لادن غروره، فالاتحاد مع الزرقاوي يقدّم له «فرصة ذهبية فريدة» لتوسيع حدود المواجهة مع الولايات المتحدة ولإقناع زملائه الجهاديين والمسلمين عموماً أن تنظيمه لا زال حيّاً وفاعلاً، بالرغم من كل الانتكاسات التي أصابته في أفغانستان وباكستان والسعودية واليمن وسواها من الأمكنة الأخرى[٧].

لكن رهان بن لادن على الزرقاوي كان مكلفاً. فقد استهدف الزرقاوي على نحو خطير المدنيين العراقيين، بمن فيهم النساء والأطفال، ونظّم مجازر جماعية ضد الشيعة. وبالرغم من الطلبات الخطية المتكررة من قادة رفيعي المستوى في «القاعدة» باستهداف الأمريكيين فقط، فقد أرسل موجات متلاحقة من الانتحاريين ضد الشيعة. كان الزرقاوي يخوض حرباً جهادية مدمّرة لإشعال قتال داخلي يجعل الهيكل يسقط على رؤوس الجميع. ما من شيء كان يستطيع الوقوف في طريقه ـ لا بن لادن، ولا الظواهري، ولا العرب السنّة، وقد وجد عند شريحة صغيرة منهم الحماية والدعم. وحين رفض زعماء العشائر السنّة أساليبه ومحاولته فرض حكم شبيه بحكم طالبان مع جيرانه، بدأ يضرب على نحو وحشي، ومن دون تمييز، مستهدفاً تكراراً السياسيين السنّة الذين تجرأوا وشاركوا في النظام السياسي الناشئ. وفي حدود ٢٠٠٥، وبسبب من مئات التفجيرات، وأعمال الخطف، وقطع الرؤوس، كانت الأكثرية الساحقة من العراقيين، ومن الرأي العام المسلم، قد غدت ضد «القاعدة» في العراق، و«القاعدة المركز»، سواء بسواء.

حاول المرشد الروحي للزرقاوي، الأيديولوجي الجهادي السلفي أبو محمد المقدسي الذي رعى الزرقاوي في أثناء سجنه في التسعينيات، أن ينهاه علناً عن قتل المدنيين، ولكن من دون جدوى. فقد أوضح المقدسي في مقابلات صحافية عدة أن العنف الذي يستهدف المدنيين هو عمل خاطئ. وقد

(٧) Laura Jordan and Katherine Shrader, «Bin Laden Enlisting Al-Zarqawi for Attacks,» Associated Press (1 April 2005).

أضرّت الأساليب المتطرفة تلك بمصالح الأمة، وشوّهت من صورة الإسلام. وذكّر المقدسي مريده السابق أن ما يسمّى بالعمليات الاستشهادية يجب عدم تنفيذها إلا تحت شروط استثنائية ودقيقة جداً. وحذّره من استعداء العراقيين من خلال إضاعة بوصلة الصراع في العراق، ومن أن العراقيين أدرى بما هو أحسن لبلادهم(٨).

كذلك، حذّر الظواهري، في رسالة له إلى الزرقاوي وقعت في أيدي الأمريكيين في تموز/يوليو ٢٠٠٥، حليفه من المبالغة في العنف، الذي يجعل الجماهير المسلمة تنأى عنه وتتحول ضد «القاعدة». يقول الظواهري في رسالته: «يجب أن لا تُخدع بمديح بضعة شبّان متحمّسين ووصفهم لك بـ «شيخ الجزّارين»»(٩). ويضيف الظواهري، إن أقوى سلاح يمتلكه المجاهدون هو نيلهم دعم الجماهير المسلمة في العراق والبلدان المجاورة. ومن دون ذلك، تنتهي «القاعدة»؛ لذلك «علينا طلب ذلك الدعم بمقدار ما نستطيع، وعلينا العمل الدؤوب لزيادته»(١٠).

شدد كلٌ من المقدسي والظواهري للزرقاوي أن مهاجمة الشيعة هو عمل سلبي معيق لتحقيق الهدف الرئيسي، وهو طرد المحتلين الأمريكيين من البلاد الإسلامية. وفيما يسجّل الظواهري صحة أن شيعة إيران قد تعاونوا مع الغزاة الأمريكيين، وأن طائفة الشيعة «الرافضة» تشكل خطراً على الإسلام السلفي، إلا أن العامل المذهبي هذا يبقى ثانوياً من حيث أهميته قياساً بقتال العدو البعيد. لقد بات للكثيرين ممن كانوا يتعاطفون مع قضية الجهاد في العراق تحفظات خطيرة على إراقة الدماء في مواجهات مذهبية. وهكذا، فعلى «القاعدة» في العراق أن تتجنّب أي عمل لا تستسيغه أو تجيزه جماهير المسلمين»(١١).

---

(٨) حسين، المصدر نفسه؛ مروان شحادة، «خلاف الزرقاوي والمقدسي،» **الحياة**، ٥/٧/٢٠٠٥، ومهاري الزيدي، «أبو محمد المقدسي: الأب الروحي للزرقاوي،» **الشرق الأوسط**، ٢٦/٧/٢٠٠٥.

(٩) Office of the Director of National Intelligence (ODNI) News Release, no. 2-05, <http://www.fas.org/irp/news/2005/10/dnil01105.html>.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) يواجه الظواهري الزرقاوي بسلسلة من الأسئلة التي تظهر الخطر المتأتي من مهاجمة الشيعة: «هل فتح جبهة أخرى الآن، إضافة إلى الجبهة ضد الأمريكيين والحكومة قرار صائب؟ أم هل الحرب مع الشيعة ترفع الحاجز من أمام الأمريكيين بحرف الجهاد وجعله ضد الشيعة، فيما يستمر الأمريكيون بإدارة الأمور من بعيد؟ وإذا كانت الهجمات ضرورية ضد زعماء الشيعة لوضع حد لمخططاتهم، فما ذنب الشيعة العاديين ولماذا استهدافهم؟ ألا يترك ذلك الباب مفتوحاً لأفكار خاطئة عندهم حتى لو كانت مخالفة =

ويضيف: «نحن في معركة، ونصف هذه المعركة يجري في ميدان الإعلام. ولأننا في معركة الإعلام فنحن في سباق على الفوز بأفئدة الأمة وعقولها»[١٢].

لكن الزرقاوي كان بعيداً عن كل تصحيح. فقد أحاط نفسه، حسب المقدسي، بمتطرفين حبوه بـ «الولاء الكامل» ونفذوا أوامره من دون نقاش. وبدل توسيع قاعدته الاجتماعية بين العراقيين، بات الزرقاوي غريباً عن أقرب أهم حلفائه، المتمردين السنّة، الذين تحولوا ضد «القاعدة». فقد انضم قادة متمرّدون عدة من السنّة إلى ما سمّي «مجالس الصحوة»، برعاية الولايات المتحدة، وقاموا بطرد رجال الزرقاوي من مناطقهم. وحين أسقطت طائرة حربية أمريكية قذيفتين تزن الواحدة ٥٠٠ رطلاً على منزل كان يجتمع فيه الزرقاوي بمساعديه وقتلتهم، كانت «القاعدة» في العراق تلفظ أنفاسها الأخيرة.

بلغت تردّدات مقتل الزرقاوي وتفكك تنظيمه مناطق أبعد من العراق. فقد خسر بن لادن والظواهري حليفاً متحمساً، وخسرا أية فرصة بمكان لهما داخل الرأي العام المسلم. فسلوك الزرقاوي في الذبح الجماعي للمدنيين خلق موقفاً عاماً صارخاً ضد «القاعدة»؛ ولم يكن بمقدور بن لادن ادعاء النأي بنفسه عن الزرقاوي، الذي قام هو بتكريسه أميراً نائباً عنه في العراق، والذي امتدح أعماله كـ «عمليات مذهلة» ضد أعداء الإسلام. كان الزرقاوي في نظر المسلمين مسؤول بن لادن في العراق. وعليه، اضطر بن لادن، وللمرة الأولى على الإطلاق، أن يعتذر علناً ـ عن التصرفات التي ارتكبها رجاله في العراق، وسأل الناس صراحة عفوهم وغفرانهم. لكن ذلك لم يكن ليعني شيئاً تقريباً، ناهيك عن أنه جاء متأخراً. فقد أظهرت استطلاعات الرأي والمسوحات تراجعاً حاداً في مواقف المسلمين، وتشكيكاً عالياً تجاه «القاعدة» (انظر نتائج الاستطلاعات في ما يلي).

وهكذا، ذهبت فظاعات الزرقاوي، من مفجّرين انتحاريين، وأعمال

= لدعوتنا للإسلام ومخاطبتهم ودعوتهم إلى الحقيقة؟ وهل في وسع المجاهدين قتل كل شيعة العراق؟ هل تجرأت أية دولة إسلامية في التاريخ أن تفعل ذلك؟ أليس جهل الشيعة العاديين سبباً لأن نغفر لهم، فلا نستهدفهم؟ ثم ماذا نخسر إذا لم نقتلهم؟ وهل ينسى إخواننا أننا لدينا أكثر من ١٠٠ معتقل في السجون الإيرانية، معظمهم مطلوبون في بلدهم؟ ثم إذا كان من باب الضرورة أحياناً قتل شيعة، فلماذا نعلن ذلك على الملأ ونحرّض الإيرانيين علينا؟ وهل ينسى الإخوان أن كلينا، نحن والإيرانيين، لأننا مستهدفون من الأمريكيين، علينا أن نضع خلافاتنا جانباً؟

(١٢) المصدر نفسه.

خطف، وقطع رؤوس، بالتوقعات المتفائلة لابن لادن والظواهري في العراق. فقد أملا في أن تكون العراق الرافعة التي ستنشر دعوتهما إلى الجهاد، وتترك آثارها في القريب والبعيد. ففي رسالة الظواهري إلى الزرقاوي لسنة ٢٠٠٥، يلخّص الظواهري استراتيجية «القاعدة» لإقامة حكومة إسلامية في العراق تكون حجر الزاوية للمنطقة برمّتها؛ يقول:

«كان رأيي دائماً أن نصر الإسلام لن يتحقق حتى تقوم حكومة إسلامية على خطى النبيّ (ﷺ) في قلب العالم الإسلامي، وتخصيصاً في المشرق، ومصر، والبلدان المجاورة في شبه الجزيرة والعراق؛ ومع ذلك فالمركز سوف يكون في المشرق ومصر»(١٣).

وينصح الظواهري أن على الزرقاوي أن يضع استراتيجيا تدريجية تنتهي إلى إعادة حكم الخلافة القديمة:

«أولاً، طرد الأمريكيين من العراق.

ثانياً، تأسيس سلطة إسلامية أو إمارة على أية أرض يجري تحريرها وتوسعتها داخل المناطق السنيّة.

ثالثاً، توسيع موجة الجهاد لتطال جيران العراق العلمانيين.

وأخيراً، مواجهة إسرائيل لأن إسرائيل ما أنشئت إلا لتمنع قيام الكيان الإسلامي»(١٤).

لكن الزرقاوي لم ينفّذ إلا أجندته العنفية الخاصة، باستقلال عن كهلة «القاعدة». وخلافاً للمتداول في الغرب، فقد كان للفروع المحلية للتنظيمات الإرهابية شخصيتها الخاصة وأجنداتها الخاصة. و«القاعدة» في العراق مثال على ذلك. فطرائق عملها كانت كارثية للقاعدة في بلاد ما بين النهرين، كما للقاعدة الأم. والقبائل السنّية التي أتخمت بالنزعات المذهبية اختارت العمل مع القوات الأمريكية، فقتلت أو طردت المئات من مقاتلي «القاعدة» من مناطقها، وبخاصة من محافظة الأنبار.

وبالرغم من أن «الطفرة» الأمريكية في ٢٠٠٦/٢٠٠٧ قد آتت ثمارها في

---

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) المصدر نفسه.

تعزيز الأمن في العراق، إلا أنه كان لإرهاب «القاعدة» نفسها يدٌ في النتيجة تلك. فقد أفادت الطفرة من التبرّم العام من «القاعدة»، والانتفاضة المسلحة من العرب السنّة الذين كانوا قد قدموا لعناصر «القاعدة» في ما مضى الملاذ والمتطوعين. وهم في وسعهم أن يفعلوا ذلك مرة ثانية. والموجة الراهنة من هجمات «القاعدة» ليست بعيدة عن عدم الرضا السائد لدى العرب السنّة الذين كانوا وعدوا بدمجهم في أجهزة الدولة. لقد قيل لحوالى ١٠٠,٠٠٠ عنصر من «مجالس الصحوة» أنهم سيعطون وظائف في الأجهزة الإدارية والأمنية العراقية. لكن ذلك لم يحصل.

خسرت «القاعدة» في العراق غير معركة ومنطقة؛ هي خسرت فرصة الاندماج مع الجماعة السنّية المضطهدة التي غضّت النظر في البدء عن وجودها، كما خسرت فرصة التسلل انطلاقاً من العراق إلى البلدان العربية المجاورة. لو أظهر الزرقاوي ورجاله ضبطاً للنفس واحترموا الثقافة والتقليد المحليين، لكان في وسع «القاعدة» أن تصبح جناحاً شرعياً للانتفاضة السنّية في غالبها.

وخسارة الفرص هو في صلب تراث «القاعدة». فبعيداً عن اعتبارها حركة اجتماعية مؤسسية متماسكة، بدت «القاعدة» تجمعاً غير موحّد لجماعات وشلل صغيرة ظلت تحت القيادة الفردية لأصحابها. والزرقاوي كان «القاعدة»، وليس الاستثناء. فقد حطّ من قيمة مجلس الكبار والأرفع منه، وضحّى بمستقبل الدولة الإسلامية في العراق على مذبح تعصبه. لقد أصبح بن لادن والظواهري تحت رحمة سلوك أتباع الزرقاوي في العراق و«فتح الإسلام» الفلسطينية في لبنان؛ أناس لهم أجندتهم الخاصة. وعجزُ «القاعدة» عن منعهم من مهاجمة العدو القريب هدد وجود مشروع الجهاد الأممي برمّته.

منذ سنة ٢٠٠٦ مال ميزان القوى عن كفة جهاد «القاعدة» الأممي والجهاد المحلي إلى كفة الراديكاليين السابقين التائبين من أمثال «فضل»؛ أولئك الإسلاميين الذين يكافحون الآن، في ظروف صعبة، ليتكيفوا مع التغييرات الاجتماعية والسياسية التي طرأت تدريجياً على مجتمعاتهم. وكالعادة، لا يرى الأمريكيون هذه الأكثرية الجديدة، مكتفين بـ «القاعدة»، رغم أنها ليست غير أقلية صغيرة.

وإلى ذلك، تواجه القيادة الجديدة لـ «القاعدة» في البلدان الإسلامية نقصاً في العناصر الكفوءة؛ ففي السعودية، والعراق، ولبنان، والأردن،

وإندونيسيا، وسواها، تأتي معظم المعلومات عن «القاعدة» لا من أجهزة المراقبة والاستخبارات بل من أقارب وأصدقاء، وذلك دليل على المشهد السياسي والاجتماعي المتبدل، وعلى ازدياد درجة الإدراك السياسي الواقعي. فوجود «القاعدة» بات، لمسلمين كثيرين، مصدراً محتملاً لعدم الاستقرار وعدم الأمان، فيما بن لادن والظواهري لا يقدمان غير الدم والدموع حلاً للتحديات الاجتماعية والسياسية المتزايدة.

تظهر استطلاعات الرأي المنفّذة في العالم الإسلامي منذ ٢٠٠٧ قلق عدد كبير من المواطنين حيال مسألتي الإرهاب وصورة الإسلام في الخارج. ولا تخفي غالبية متزايدة من المسلمين تقييمها السلبي للقاعدة، بل هي لا تعارض في اتخاذ الخطوات الضرورية لتقييد أنشطتها في مجتمعاتهم. بين ٢٠٠١ و٢٠٠٧ نفّذ معهد غالوب عشرات آلاف المقابلات، وجهاً لوجه، ولساعات طوال، مع مواطني أو ساكني حوالى ٣٥ بلداً ذي أكثرية مسلمة. وقد أظهرت استطلاعات الرأي أن ٩٣ بالمئة من المستفتين قد أدانوا أعمال «القاعدة»، خلافاً للسائد في الغرب بأنها تحظى بدعم واسع في العالم الإسلامي، وأدانوا تحديداً من منطلقات دينية وإنسانية، قتل المدنيين غير المقاتلين[(١٥)]. وبحسب مسح للرأي العام أجري بين أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ومطلع كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ نفّذته مجموعة «غد بلا إرهاب»، وهي جمعية خيرية تعنى بفهم أسباب تأييد أو معارضة الناس للإرهاب، فإن أقل من واحد من بين عشرة سعوديين كان له موقف إيجابي من «القاعدة»، وأن ٨٨ بالمئة أيدوا إجراءات السلطات السعودية ضد ناشطي «القاعدة»[(١٦)].

وأظهر استطلاع للرأي أجرته المجموعة عينها في باكستان في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨، أن التأييد لـ «القاعدة» وطالبان وبن لادن والمجموعات الإسلامية المسلحة قد هبط بنسبة النصف منذ آب/أغسطس السابق. ففي آب/أغسطس ٢٠٠٧ كان ٣٣ بالمئة من الباكستانيين مؤيدين للقاعدة، و٣٨ بالمئة مؤيدين لطالبان. وفي كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ هبط تأييد «القاعدة» إلى ١٨

(١٥) John Esposito and Dalia Mogahed, *Who Speaks for Islam?: What Do a Billion Muslims Really Think?* (New York: Gallup Press, 2008).

(١٦) «Results of a New Nationwide Public Opinion Survey of Saudi Arabia,» Terror Free Tomorrow (Center for Public Opinion) (December 2007), <http://www.terrorfreetomorrow. org/upimagestft/TFT%20Saudi%20Arabia%20Survey.pdf>.

بالمئة، وطالبان إلى ١٩ بالمئة. وحين سئلوا عمّا إذا كانوا سيصوّتون للقاعدة أو لطالبان، لم يجب بـ «نعم» إلا واحد بالمئة (١ بالمئة) وثلاثة بالمئة (٣ بالمئة) على التوالي من الباكستانيين المستفتين[١٧].

وبالرغم من الحرب في المناطق الباكستانية القبلية وعودة طالبان، فإن معظم الباكستانيين العاديين قالوا إنهم لا يثقون لا بطالبان ولا بـ «القاعدة». وعليه، فباكستان، بخلاف التقارير الرائجة في الغرب، ليست في خطر داهم من طالبان أو القاعدة. لقد أظهر الباكسانيون حسّاً واقعياً عادياً يفوق كثيراً مما لدى «خبراء» الإرهاب في الغرب. وفي سنة ٢٠٠٩ أظهر استطلاع «بيو» (PEW) (Global Attitudes Survey on Pakistani Public Opinion)) أن ٩ بالمئة فقط من الذين استطلع رأيهم كان لديهم موقف إيجابي من «القاعدة». والنتيجة تلك تمثّل تراجعاً رئيسياً في مؤيدي «القاعدة» عمّا كان عليه سنة ٢٠٠٨ حين كان ٢٥ بالمئة. ووجد الاستطلاع أيضاً أن ٧٩ بالمئة من المستفتين كانوا قلقين حيال التطرف في بلادهم[١٨].

وتكشف استطلاعات «بيو» سنة ٢٠٠٧ تراجعاً جوهرياً في نسبة الذين يعتقدون أن التفجيرات الانتحارية وأشكال العنف الأخرى ضد أهداف مدنية مبرّرة بحجة الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه. وقد أفصحت أكثريات واسعة عن اعتقادها أن تلك الهجمات غير مقبولة[١٩]. ويبدو التحوّل في الأردن مثيراً، إذ إن نسبة المستفتين التي ترى الآن أن الهجمات الانتحارية هي غالباً مبرّرة تبلغ ٢٩ بالمئة، بينما كانت ٥٧ بالمئة في أيار/مايو ٢٠٠٥. وفي إندونيسيا، البلد الأكبر في العالم من حيث أكثرية سكانه المسلمة، وافق ٧٤ بالمئة من المستفتين على أن الهجمات الإرهابية «غير مبررة»؛ وهو تراجع رئيسي عن تأييد كان قد بلغ ٤١ بالمئة في آذار/مارس ٢٠٠٤؛ وفي باكستان تبلغ النسبة

---

(١٧) «Results of a New Nationwide Public Opinion Survey of Pakistan before the February 18th Elections,» Terror Free Tomorrow (Center for Public Opinion) (January 2008), <http://www.terrorfreetomorrow.org/upimagestft/TFT%20 Pakistan%20Poll%20Report.pdf>.

(١٨) «Pakistani Public Opinion: Growing Concerns about Extremism, Continuing Discontent with U.S.,» Pew Research Center, Pew Global Attitudes Project (13 August 2008), <http://pewglobal.org/reports/pdf/265.pdf>.

(١٩) «Global Opinion Trends, 2002-2007: A Rising Tide Lifts Mood in Developing World,» Pew Research Center, Pew Global Attitudes Project (24 July 2007), <http://pewglobal.org/reports/pdf/257.pdf>.

٨٦ بالمئة، وفي بنغلادش ٨١ بالمئة، وفي إيران ٨٠ بالمئة[٢٠].

وقد بيّنت استطلاعات «بيو» للعام ٢٠٠٩ استمرار الاتجاه التصاعدي في نسبة المستفتين التي رأت أن التفجيرات الانتحارية «هي غير مبرّرة أو نادراً ما تكون كذلك». والنسبة في إندونيسيا التي انتهت إلى الإجابة نفسها هي ٨٥ بالمئة، وفي باكستان ٩٠ بالمئة، وفي الأردن ٨٢ بالمئة، وفي الأراضي الفلسطينية المحتلة ٣١ بالمئة[٢١]. والأقلية التي أجابت في الأراضي الفلسطينية أن الهجمات مبرّرة في ظل ظروف معينة إنما كانت تعني الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، وليس جهاد «القاعدة» الأممي.

ويمكن مقارنة هذه النسب بدراسة راهنة أظهرت أن ٤٦ بالمئة من الأمريكيين يرون أن «القصف وأعمال الهجوم المقصودة التي تستهدف المدنيين» هي «غير مبرّرة»، بينما رأى ٢٤ بالمئة منهم أن تلك الهجمات هي «غالباً أو أحياناً مبررة»[٢٢].

وهبطت، أيضاً، الثقة بـ «القاعدة» في معظم البلدان الإسلامية اليوم. وقد أظهر استطلاع للرأي في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧ أجري في السعودية أن مواطني بن لادن «قد تحوّلوا بنسبة كبيرة عنه وغدوا ضده، وضد تنظيمه، وضد المتطوعين السعوديين في العراق، وضد الإرهاب بعامة»[٢٣]. وفي المنطقة الشمالية الغربية من باكستان، حيث لـ «القاعدة» موطئ قدم، كانت نسبة مؤيدي بن لادن ٧٠ بالمئة في آب/ أغسطس ٢٠٠٧، لتهبط إلى ٤ بالمئة فقط في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨، وهو هبوط مثير في فترة قصيرة[٢٤]. وفي استطلاعات «بيو» في الأراضي الفلسطينية كانت الثقة بابن لادن تبلغ ٧٢ بالمئة سنة ٢٠٠٣، لتهبط إلى ٥٢ بالمئة سنة ٢٠٠٩. والأمر عينه في الأردن، إذ هبطت الثقة بابن لادن من

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) «Support for Suicide Bombings,» Key Indicators Database, Pew Research Center, Pew Global Attitudes Project, <http://pewglobal.org/database/?indicator=19&survey=10&response=Rarely/never%20justified&mode=table>.

(٢٢) «Public Opinion in Iran and America on Key International Issues,» Program on International Public Attitudes (PIPA) (December 2006), <http://www.worldpublicopinion.org/pipa/pdf/jan07/Iran.Jan07_quaire.pdf>.

(٢٣) «Results of a New Nationwide Public Opinion Survey of Saudi Arabia».

(٢٤) «Results of a New Nationwide Public Opinion Survey of Pakistan before the February 18th Elections».

٥٦ بالمئة سنة ٢٠٠٣ إلى ٢٨ بالمئة سنة ٢٠٠٩، وفي تركيا هبطت نسبة الثقة من ١٥ بالمئة سنة ٢٠٠٣ إلى ٢ بالمئة سنة ٢٠٠٩[٢٥].

ثانياً: أفول القاعدة

المسوحات والاستطلاعات تلك، ورغم ما تحتويه، لا تعكس مع ذلك عمق المأزق والعزلة اللذين يحيطان بـ «القاعدة». لقد غدت «القاعدة» في الحقيقة غير شعبية بالكامل، إلى درجة أن البعض يصل إلى حدّ اتهام بن لادن بأنه عميل أمريكي. فقد رأت الأكثرية أن أنشطة «القاعدة» لتأجيج الصراع المذهبي جلبت ارتداداً إلى التعصّب في المجتمعات الإسلامية. وكما أظهر كل استطلاع تقريباً، فإن الأمن بات يقع بدرجة مرتفعة جداً في رأس أولويات المسلمين، وهي إشارة إلى الأثر الذي تركه عنف القاعدة في مواقف الرأي العام.

كان للنقد الفقهي للتنظيم، مع تورطه في هجمات عشوائية ضد المدنيين، أثر مدمّر في قدرات «القاعدة» العملياتية. وقد رسمت شهادات الجهاديين من ملاذات القاعدة في المناطق القبلية الباكستانية صورة تنظيم يعيش حالة كاملة من الفوضى. وأفاد هؤلاء المتطوعون أنهم كانوا يدفعون ثمن عتادهم وأسلحتهم، ثم يتلقون تدريباً مشوّشاً غير منتظم، وبعد ذلك يجري تناسيهم وإهمالهم[٢٦].

ومع ذلك، فهذه الصورة الموحشة لـ «خلية» القاعدة المركزية في جبهة الحدود الباكستانية تبدو مقبولة قياساً بصورتها في أمكنة أخرى. فقد أخبرني الجهاديون والإسلاميون السابقون في مصر، وفلسطين، والأردن، ولبنان، والسعودية، والخليج العربي، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإسبانيا، أن هجمات القاعدة على المدنيين، وبخاصة في العالم الإسلامي، مع الضرر الفادح الذي جلبته تلك الهجمات، دفعت بالقاعدة إلى موقع هامشي جداً في المجتمعات الإسلامية. والفضاء الاجتماعي والسياسي الذي منح يوماً ما الملاذ للقاعدة وشبيهاتها تقلّص حتى الحدّ الأدنى، حتى مع الملاحقة السنّية لمثل هذه

---

(٢٥) «Confidence in Osama Bin Laden,» Key Indicators Database, Pew Research Center, Pew Global Attitudes Project, <http://pewglobal.org/database/?indicator=20&group=6&esponse=Confidence>.

(٢٦) Ian Black and Richard Norton-Taylor, «Al-Qaeda Faces Recruitment Crisis, Anti-terrorism Experts Say,» *Guardian*, 11/9/2009, and «Terrorism: Al-Qaida under Pressure,» *Guardian*, 11/9/2009.

الجماعات في بعض البلدان، بما فيها السعودية، والعراق، والأردن، ولبنان، التي باتت مصدراً لأكثر المعلومات التي تقدّم إلى الاستخبارات المحلية حول ناشطي القاعدة.

وعانت الفروع المحلية لـ «القاعدة» في هذه البلدان، وفي أمكنة أخرى، نكسات عسكرية، فانكمشت حتى درجة التلاشي. وعلى سبيل المثال، فالتأييد الشعبي الواسع سمح للحكومة اللبنانية أن تنهي «فتح الإسلام»، التي تنتسب إلى عقيدة القاعدة التي كانت على مقدار من التأثير في مخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين في شمال لبنان، مع كلفة بلغت المئات من القتلى. وبحسب تقرير استخباراتي حديث، فإن ٧٠ بالمئة من المعلومات حول مشتبهي «القاعدة» في السعودية تأتي من أقارب، وأصدقاء، وجيران، وليس من أجهزة الأمن والمراقبة[٢٧]. وعلى الأرجح، فقد كانت خسارة بن لادن للسعودية أمراً مؤلماً له، وكان وعد بجعل آخر موقعة له في موطنه وأرض ميلاد الإسلام.

وفي الجزائر، معقل الإسلاميين المقاتلين منذ أوائل التسعينيات، أدى الرأي العام في الفترة الأخيرة دوراً حاسماً في مناهضة المتطرفين المنتسبين إلى أيديولوجيا القاعدة ونمط عملياتها وتكتيكاتها، الذين نفذوا في المغرب والصحراء هجمات انتحارية واسعة واغتيالات عدة. ففي أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦ أجاز الظواهري رسمياً تأسيس «القاعدة في بلاد المغرب» من اجتماع بقايا تنظيمين جهاديين جزائريين عنفيين ـ «الجماعة السلفية للدعوة والقتال» و«الجماعة الإسلامية المسلحة». لكن عمليات القتل العشوائي لتنظيم القاعدة

---

(٢٧) Robert Lacey, *Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists, Terrorists, and the Struggle for Saudi Arabia* (New York: Viking, 2009); Rachel Bronson, *Thicker Than Oil: Americas Uneasy Partnership with Saudi Arabia* (Oxford: Oxford University Press, 2008); «Saudi Arabia Tackles Terrorism,» *Economist* (17 July 2008), <http://www.economist.com/specialreports/displaystory.cfim?story_id=11701258>; Caryle Murphy, «Saudi Arabia Announces Arrest of 110 Al Qaeda Suspects,» *Christian Science Monitor*, 24/3/2010, <http://www.csmonitor.com/World/Middle-East/2010/0324/saudi-arab.announces-arrest-of-110-Al-Qaeda-suspects>; «Saudi Arabia Arrests 701: Qaeda-Linked Militants Plotting «Oil Attacks»,» Fox News, <http://foxnews.com/story/0,2933,371267,00.html>; «Saudi Arabia Arrests 172 in Anti-terror Sweep,» MSNBC (28 April 2007), <http://www.msnbc.msn.com/id/18349238/>; Christopher Boucek, «Saudi Arabia's «Soft» Counterterrorism Strategy: Prevention, Rehabilitation, and Aftercare,» Carnegie Endowment for International Peace (September 2008), <http://www.carnegieendowment.org/publications/index.cfm?fa=view&id=22155&prog=zgp&proj=zme>, and Black and Richard Norton-Taylor, «Al-Qaeda Faces Recruitment Crisis, Anti-terrorism Experts Say».

الوليد ذاك خلق حالة عامة من العداء حياله من الجزائريين ومواطني بلدان شمال أفريقيا عموماً، وأدى إلى انشقاقات بين مسؤوليه؛ ففي مقابلة له مع جريدة قطرية، عبّر أبو تراب الجزائري، وهو من قادة القاعدة في شمال العراق، عن غضبه حيال عمليات «تنظيم القاعدة في بلاد المغرب» في بلده، قال: «أشعلت الهجمات في الجزائر جدلاً حامياً هنا في العراق. بالله عليهم، لو يخبروني أنهم يخططون لإيذاء الرئيس الجزائري وعائلته، فسأقول لهم «فليباركَكم الله»، ولكن أن تقع تفجيرات في الشوارع، ويسيل الدم إلى الركب، وأن نقتل الجنود الذين لا تسمح لهم رواتبهم بالأكل حتى في مطاعم الدرجة الثالثة، ثم ندعو ذلك جهاداً؟ والله، إنها لحماقة تامة!»[٢٨].

والتأييد لـ «القاعدة» خبا في إندونيسيا أيضاً، مع تفكك «الجماعة الإسلامية»، وهي فرع غير متماسك قريب من القاعدة. ما أوردناه يدعم كله الخلاصة التي توصل إليها «التقييم الاستخباري القومي» الأمريكي للعام ٢٠٠٦ في موضوع «اتجاهات في الإرهاب العالمي: مضامين تخص الولايات المتحدة»، حيث يلاحظ أن «التيار الإسلامي التقليدي الرئيسي ينهض الآن باعتباره أقوى الأسلحة في الحرب على الإرهاب»[٢٩].

تفيد دروس التاريخ أن التنظيمات التي افتقدت لمدة طويلة التأييد الشعبي سرعان ما جرى التخلي عنها لاحقاً حتى لو استمرت بالعمل. وتاريخ إرهاب اليسار المتطرف في أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية حالة جديرة بالدرس. فمنظمات نيو ـ ماركسية تضم مجموعات صغيرة من الطبقة المتوسطة ـ مثل «فصيل الجيش الأحمر» في ألمانيا، و«الألوية الحمراء» في إيطاليا، و«العمل المباشر» في فرنسا، وسواها ـ أخفقت كلها في اكتساب تأييد أكثرية المواطنين التي كانت تأمل في تعبئتهم إلى جانبها. وفشل بالمثل التمرّد الإسلامي ضد النظامين المصري والجزائري في الثمانينيات والتسعينيات، لأن الرأي العام ضاق

(٢٨) في ١٢ شباط/ فبراير ٢٠٠٨، نشرت جريدة **العرب** القطرية مقابلة مع أبي تراب الجزائري، أحد قادة القاعدة في شمال العراق، جَرَت المقابلة وفق ترتيبات القاعدة حيث لا اتصالات ولا تسجيل ولا تجهيزات في المكان. انظر: <http://www.memri.org/report/en/0/0/0/0/0/0/2593, and <http://www.aliraqi.org/forums/showthread.php?t= 84183>.

(٢٩) «Declassified Key Judgments from «Trends in Global Terrorism: Implications for the United States,» ODNI (April 2006), <http://www.dni.gov/press_releases/Declassified_NIE_Key-judgments.pdf>.

ذرعاً بالعنف وعدم الاستقرار اللذين تسبّب بهما المسلحون الإسلاميون. ويعترف الظواهري في مذكّراته بذلك؛ ولعله السبب الذي جعله ينصح أتباعه العمل باستمرار على كسب أفئدة وعقول المسلمين. وبحسب الظواهري، فإن أحد الدروس المهمة التي تعلّمها في حياته النضالية الطويلة هو أن لا أمل بإقامة دولة القرآن من دون التأييد الجماهيري لهذا المطلب، ومن دونه سيكون سهلاً لأي «حاكم علماني مستبدّ» أن يدفع الإسلاميين إلى الظل والنسيان. والقاعدة لم تخسر أفئدة وعقول المسلمين العاديين فحسب، بل هي خسرت أيضاً تأييد أصحاب التأثير الأكبر في الناس. فقد قامت ثورة ثقافية داخل الإسلام على أيدي فقهاء إسلاميين مهمين، وقادة من المجتمع المدني، وحتى مجاهدين سابقين، شدّدوا جميعهم على أولوية الأساس الأخلاقي والمعنوي لمؤسسة الجهاد.

إلى ذلك، تواجه «القاعدة» تمرّداً داخلياً. فبعض القادة السابقين المهمين في القاعدة يلومون بن لادن مباشرة للمأزق الذي أدخل العالم الإسلامي فيه، وهم دعوا صراحة إلى عزله. فسلمان العودة، الداعية والعالم السعودي المرموق، والمرشد الروحي لابن لادن، لم يتردّد في لومه وتوبيخه علانية، على موقعه الإلكتروني[٣٠]، كما في تعليقاته على تلفزيون «MBC». يقول العودة: «ما هو عدد الناس الذين أجبروا على ترك منازلهم، وكم من الدم أريق، باسم القاعدة؟»[٣١] لم يكن ممكناً معرفة رد فعل تلميذه السابق، ولكن الإدانة السريعة من أنصار بن لادن لكلام العودة لا تترك مجالاً للشك في مدى الحنق الذي أصابه. ولا يُفهم أهمية كلام العودة كاملاً إلا في ضوء فهمنا للموقع الذي يشغله ـ وباعتباره داعية سلفياً نافذاً، وله جمهور مريدين واسع في العربية السعودية. وكان النظام السعودي قد سجن العودة في التسعينيات، مع أربعة قادة دينيين آخرين، لانتقادهم علاقة المملكة بالولايات المتحدة، وبخاصة مرابطة القوات الأمريكية في المملكة بعد حرب الخليج للعام ١٩٩١. وقد دافع بن لادن خلال التسعينيات عن العودة والعلماء الآخرين المعتقلين، وزكّاهم بوصفهم رفاق الدرب السلفيين الذين يشاركهم المبادئ الدينية الدقيقة والمواقف عينها. وفي إعلان الجهاد الذي أذاعه في العام ١٩٩٦ أورد بن لادن اعتقال

---

(٣٠) <http://islamtoday.com/>, and Fawaz A. Gerges, «His Mentor Turns on Bin Laden,» *International Herald Tribune*, 21/9/2007>.

(٣١) Gerges, Ibid.

السلطات السعودية للعودة «بناء لنصيحة من أمريكا» حجة أخرى في وجه الولايات المتحدة[٣٢].

شدّد نقد عودة، وأكثر من أي نقد آخر، على الإخفاق الأخلاقي لـ «القاعدة»، وبسبب من توقيته على وجه الخصوص. فلومه العلني لابن لادن يرمز، من وجهة فقهية، إلى رفض القاعدة من طرف بعض أهم الأسماء التي كانت أطلقت الصحوة الإسلامية. يقول العودة مخاطباً بن لادن، «أنت أخ أسامة مسؤول عن انتشار الفكر التكفيري وإدخال ثقافة المفجّرين الانتحاريين التي تسببت بحمّام من الدم والمعاناة وجلبت الدمار لجماعات وأسر إسلامية بكاملها»[٣٣]. «فهل الإسلام بنادق وحروب فقط؟ هل غدت وسائلك هي نفسها الأهداف؟»[٣٤].

لم تخضع شرعية بن لادن من قبل إلى مثل هذا التشكيك المباشر على الإطلاق، ولا إلى هذا اللوم العنيف، ومن عالم سلفي كبير لا يجادل مسلم في صدقيته كفقيه راديكالي وكمدافع متشدد عن حقوق المسلمين حول العالم. وكيما يزيد الجرح إيلاماً، يمتدح العودة تلك «القلوب الشجاعة» و«العقول الجريئة» التي انشقت عن القاعدة وابتعدت بأنفسها عن إرهابها. ويقول: «إن عدداً من إخوانك في مصر والجزائر وسواهما، أمكن لهم أن يروا نهاية الطريق الذي اندفعت فيه أيديولوجيا القاعدة. وهم يدركون الآن مدى التدمير والخطورة فيها»[٣٥].

وكيما يحدّ من الخسائر، استشعر بن لادن أن لا مفرّ من الاعتذار للمسلمين عن السلوك الدموي لأصحابه في العراق والأردن والسعودية. ففي شريط فيديو بث من قناة «الجزيرة» في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٧، يعترف بن لادن أن رفاقاً له في الجهاد في العراق وأمكنة أخرى قد «أرتكبوا أخطاءً»[٣٦]. وعليه، فقد اضطر إلى أن يضع سلطته وصدقيته على نحو شخصي في الميزان. وفي لحظة نادرة من النقد الذاتي، ينصح بن لادن «نفسه، والمسلمين عموماً،

(٣٢) *Messages to the World: The Statements of Osama Bin Laden*, edited and introduced by Bruce Lawrence; translated by James Howarth (London; New York: Verso, 2005), p. 26.

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) المصدر نفسه.

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) Fawaz A. Gerges, «Osama Bin Laden's Growing Anxiety,» *Christian Science Monitor*, 26/10/2007.

والإخوة في القاعدة في كل مكان أن يتجنبوا الغلو»، وأن يضعوا مصالح الأمة فوق مصالح القبيلة، أو الحزب، أو الكيان، ومن ضمنهم الانقسام الشيعي/ السنّي. أكثر من ذلك، يلوم بن لادن علانية إخوانه في العراق بسبب «تعصبهم» (وبمعنى التعصب للجماعة أو القبيلة وإلغاء الآخرين)[٣٧].

لم يحدث من قبل أبداً أن كان بن لادن بهذا التصميم على نشر غسيل «القاعدة» الوسخ. في الماضي، كان بن لادن والظواهري يناشدان أفراداً بعينهم، وبطريقة شخصية، كالزرقاوي، لمنع اندلاع العنف المذهبي[٣٨].

بإعلان بن لادن تلك الوقائع المزعجة له على رؤوس الأشهاد، فهو إنما كان يعترف بعجزه المتزايد عن السيطرة على الفروع المحلية لـ «القاعدة»، التي تبيّن أنها كانت الأكثر إساءة إلى القاعدة. لم يظهر قادة القاعدة أية سلطة حقيقية لهم على أتباعهم والهواة الجدد في الفروع البعيدة الذين كانوا يدينون بالولاء للقاعدة شكلاً فيما كانوا يتصرفون باستقلال كلي عنها.

الأسف العلني والصريح الذي ضمّنه بن لادن لرسالته «إلى شعب العراق» حيال سلوك أنصاره، إنما يعكس على نحو جلي أزمة القاعدة في العراق وفي أمكنة أخرى[٣٩]. وفي تشديده على الوحدة فوق كل الانقسامات والتناقضات القائمة، يناشد بن لادن القبائل السنّية والمجموعات السنّية الأخرى المسلحة أن يستعيدوا «تقاليدهم» في مقاومة الاحتلال الأجنبي، تماماً كما قاوموا المستعمرين البريطانيين في القرن الأخير. وهو يدعوهم إلى وقف قتال عناصر القاعدة والاتحاد ضد العدو الحقيقي؛ التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة[٤٠]. ويعود بن لادن حتى إلى أقوال الرسول (ﷺ) في محاولة منه لإيصال رسالته في الوحدة والتسامح إلى موطنه:

«قال الرسول، عليه السلام، لا أحد كامل. كلّنا نرتكب أخطاء، ويجب

---

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) «Letter to al-Zarqawi from al-Zawahri,» MSNBC (11 October 2005), <http://www.msnbc.msn.com/id/9666242/>.

(٣٩) أحمد رحيم، «بن لادن يعترف بارتكاب الأخطاء،» **الحياة**، ٢/ ١٢/ ٢٠٠٧، و«Bin Laden: Message to the People of Iraq,» Nefa Foundation (22 October 2007), <http://www.nefafoundation.org/miscellaneous/nefabiuladenl007.pdf>.

(٤٠) المصدر نفسه.

طلب الغفران على الأخطاء تلك. البشر يرتكبون الأخطاء، والأخطاء تقود دائماً إلى الصراع والنزاع. وبما أننا اعترفنا بأننا وقعنا في الأخطاء. . . فعلينا محاولة إصلاح تلك الأخطاء»[٤١].

رغم اعترافه بالأخطاء لم يتمكّن زعيم المجاهدين من ثني مجالس الصحوة السنّية عن مواقفها. وهم ليسوا مستعدين، بعدما طردوا عناصر القاعدة من مناطقهم وكلفهم ذلك ما كلفهم، السماح للعناصر تلك بالعودة.

والسنّة لم يكونوا وحدهم في رفضهم لتكتيكات القاعدة في بلاد ما بين النهرين. فقد أظهر استطلاع رأي أجرته «ABC News/BBC/NHK» أن ١٠٠ بالمئة من هؤلاء الذين استفتوا في العراق ـ سنّة وشيعة ـ عبّروا عن رفضهم لهجمات القاعدة على المدنيين واعتبروها «غير مقبولة»؛ و٩٨ بالمئة رفضوا محاولات المسلحين السيطرة على مناطق تنطلق منها عملياتهم؛ و٩٧ بالمئة رفضوا محاولاتهم استقدام عناصر أجنبية للقتال في العراق[٤٢].

وعليه، كان على مسؤولي القاعدة الآخرين أن يفعلوا ما لم يستطع بن لادن في النهاية أن يفعله؛ فقد اعترف أبو تراب الجزائري، مسؤول القاعدة في شمال العراق، أن مجموعته تعاني مشكلة سوء علاقات عامة خطيرة، لأنها «اختُرقت من أناس أضرّوا بسمعتها». وأضاف، فقط ثلث المقاتلين الذين يدعون أنفسهم أعضاء في القاعدة في العراق يمكن الوثوق بهم»[٤٣].

ومشاكل «القاعدة» تتجاوز العراق، والسعودية، والجزائر. ففي ٢٠٠٧ بادر فضل إلى نشر سلسلة مقالات في جريدتين عربيتين رئيسيتين انتقد فيها بن لادن والظواهري (ذكرناهما غير مرة). قال فضل في واحدة من ملاحظاته: «ارتكبت القاعدة هجمات ٩/١١، فخسرت بعدها توازنها، وقادتها الكفوئين، وتأثيرها». ويضيف: «١١ سبتمبر كانت إخفاقاً»[٤٤]. تصدّرت انتقادات ومراجعات فضل التفصيلية لابن لادن دوائر الأخبار لفترة أسبوعين، وبعثت نقاشاً مثيراً بين

---

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) BBC News, ABC News, and NHK, «Iraq Poll September 2007,» (September 2007), <http://news.bbc.co.uk/2/shared/bsp/hi/pdfs/10_09_07_iraqpoll.pdf>.

(٤٣) في ١٢ شباط/فبراير ٢٠٠٨، نشرت جريدة **العرب** القطرية مقابلة مع أبي تراب الجزائري، أحد قادة القاعدة في شمال العراق.

(٤٤) «الحياة في سجن طرّة المصري تحاور مؤلف وثيقة «ترشيد الجهاد»،» **الحياة**، ١٣/١٢/٢٠٠٧.

مجاهدين قدامى وحاليين. وقد وافق غالب الذين اشتركوا في النقاش فضلاً في مواقفه النقدية(٤٥).

وما العنوان الذي أعطي لسلسلة المقالات «عقلنة الجهاد» غير إشارة إلى عمق المراجعة الفقهية والدينية التي أخذت طريقها إلى العلن حيال جهاد القاعدة الأممي، أيديولوجية وتكتيكاً. أطلق فضل علناً على بن لادن والظواهري لقب «النبيين المدّعيين» و«اللاأخلاقيين إلى الحدّ الأقصى»، واتهمهما بأنهما يفتقران إلى الصدقية، وعملاء، وكذبة، ومستبدّين. وعلى الأرجح فإن فضلاً، الذي قضى سنوات في العمل السري مع بن لادن والظواهري في أفغانستان وباكستان سحابة الثمانينيات والتسعينيات، يعرف جيّداً عمّا يتكلم. ومع ذلك، ففي وسع فضل، الذي لا يزال سجيناً في مصر، أن يجيب عن كل تشكيك في صدقيته بالإحالة إلى النصوص الدينية نفسها، ناهيك عن واقعة سجنه الطويل. ويلفت إلى أن معظم مسؤولي الظواهري أو رفاقه السابقين، المعتقلين أو المنفيين حالياً، قد وقّعوا على نقد فضل لـ «القاعدة»، ما يشير إلى تدهور إضافي في سلطة بن لادن والظواهري وشرعيتهما. وفضل ليس مجرد صوت آخر يكرر الخطاب نفسه في نقد القاعدة. ورغم أن فضل، الذي كان قد صكّ «دليل القاعدة إلى الجهاد»، قد احتفظ بنقده الأقسى للظواهري رفيقه السابق، فهو يتهم بن لادن بالأمّيّ دينياً، و«القاعدة» بالصدَفة الفارغة التي تفتقر إلى دعم القاعدة الشعبية والولاية الدينية الشرعية(٤٦).

بالإضافة إلى تشكيكه في الطابع الأخلاقي لحليفيه السابقين، شنّ فضل هجوماً على أيديولوجية وتكتيكات الجهاد الأممي، ودعا المفتي السابق للجهاد المسلح الشباب المسلم إلى أن يتعلموا دينهم، وأن يحذروا «الأنبياء الأدعياء،» وأن يبتعدوا عن الإرهاب(٤٧). هشّم نقد فضل من صورة بن لادن والظواهري الجاذبة، وأنزلهما من برجهما الأخلاقي العالي.

ولفضل في أوساط الجهاديين سمعة تقارب الأسطورة. فهو مؤلف البيانين الجهاديين المركزيين ـ **الجامع في طلب العلم الشريف**، وركن **الإعداد للجهاد**

---

(٤٥) «ترشيد الجهاد في مصر والعالم،» **المصري اليوم**، ١٨/ ١١/ ٢٠٠٧، و٢/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) المصدر نفسه.

في طريق الله ـ وهو يعود باستمرار إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ليدعّم رأيه بالحجة الدينية. وهو على الأرجح صاحب النقد الأكثر شمولية للجهاد الأممي وللذين مارسوه.

في آذار/ مارس ٢٠٠٨ نشر الظواهري رداً على فضل في قناة «السحاب الإسلامية» ـ بشكل «رسالة» أسماها «تبرئة الذمة»؛ ففي رسالته التي بلغت حوالى المئتي صفحة يتهم الظواهري مرشده السابق أنه في خدمة استخبارات الولايات المتحدة، وأنه خائن للقضية. وبدا الرد مصمّماً ليذهب النقاش بعيداً عن تشكيك فضل الفقهي والشرعي. فاتهم مرشده السابق أنه كتب ما كتب بـ «روحية وزير للداخلية» يخدم الصليبيين، والصهاينة، والحكام العرب المستبدّين بمحاولته تيئيس المجاهدين وإخراجهم من أرض المعركة[(٤٨)].

وكما بن لادن من قبل، يعترف الظواهري بارتكاب المجاهدين للأخطاء، يقول: «أنا لا أتجاهل قتل الناس الأبرياء، ولا أزعم أن الجهاد خال من الأخطاء. لقد ارتكب قادة المسلمين الأخطاء حتى في عهد النبي، لكن الجهاد استمر...»[(٤٩)]. ومع ذلك، يعود الظواهري سريعاً إلى تأكيد أن «لا شيء سوف يقف في طريق موجة جديدة من الصحوة الجهادية التي ستهزّ أركان العالم الإسلامي»[(٥٠)]. وبخلاف كل مزاعم الهزيمة، فإن الحركة الجهادية سائرة إلى النصر. وهو يضع هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، كما المعارك في العراق، وأفغانستان، والصومال، كأمثلة على التصاعد الناجح في الحرب على أمريكا. وكل ما فعله نقد فضل، بحسب قول الظواهري لقرائه، هو الكشف عن ضعفه.

في نهاية ٢٠٠٨، يكمل فضل نشر بقية نقده، وهذه المرة تحت عنوان «الكشف»، يردّ فيه على ردّ الظواهري. كذلك خرج في عدة مقابلات صحافية مع

---

(٤٨) Ayman Al-Zawahiri, «Exoneration: A Treatise Exonerating the Community of the Pen and the Sword from the Debilitating Accusation of Fatigue and Weakness,» NEFA Foundation (2 March 2008), <http://www.nefafoundation.org/miscellaneous/FeaturedDocs/Zawahiri_Exoneration_ ciaosc.pdf>, and Zawahiri's Initial Reaction in a Video to Fadl's Statement, «Advice of One Concerned,» (5 July 2007), and Ian Black, «Violence Won't Work: How Author of «Jihadists' Bible» Stirred Up a Storm,» *Guardian*, 27/7/2007, <http://www.guardian.co.uk/world/2007/jul/27/alqaida.egypt>.

(٤٩) Al-Zawahiri, Ibid.

(٥٠) المصدر نفسه.

مؤسسات إعلامية عربية رفيعة[٥١]. إضافة إلى رمي بن لادن والظواهري بسلسلة من الاتهامات، يرفع فضل من سقف نقده ليقول: إن الجهاد الأممي كان مجرد عربة قادها بن لادن الطموح فوق العادة والجاهل ليعاقب الولايات المتحدة لتمركز قواتها في السعودية؛ أما هجرة الظواهري إلى الجهاد الأممي فكان كلياً بدافع البقاء في دائرة الضوء بعدما دمّر تنظيم الجهاد بسبب من تهوره وقصر نظره؛ وأن بن لادن قد أدار «القاعدة» كمزرعة شخصية له ولم يسمح بأية معارضة؛ وأن «القاعدة» إنما كانت تزرع في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر بذور نهايتها؛ وأن القاعدة، بحسب تقديره، قد انتهت كتنظيم متماسك وفاعل، وأن القاعدة أخيراً هي بلاد المجاهل من الناحية الشرعية، إذ لا بن لادن ولا الظواهري يملكان المعرفة الفقهية لتفسير النصوص الدينية، ولا هما يعتمدان في المقابل على علماء معروفين لمساعدتهما في فهم أصول مؤسسة الجهاد وقواعدها.

وبعض ما كشف عنه فضل في الردود المتبادلة أنه هو الذي كتب معظم بيانات الظواهري ومقالاته، بما فيها كتبه المعروفة على نطاق واسع. كذلك هو يستعيد حادثة وقعت في السودان مطلع التسعينيات حين استشاره بن لادن في مسألة دينية، فنصحه فضل أن يعود إلى نصّ معيّن، فأجابه بن لادن بحسب قوله: «أنا لا أعود إلى كتاب أبداً».

ولعل الخلاصة الأكثر إدانة التي يصل إليها فضل، هي أن العنف الذي تحركه دوافع سياسية، أكان ضد العدو القريب أو العدو البعيد، هو سلوك سلبي ويقود إلى نتائج عكسية. وكما في كل الثورات، انتهى الجهاد بالتهامه لأبنائه. كذلك هو يصرف الوقت الطويل في تحذير الشباب المسلم من الوقوع في أحابيل ما يسمّيه «شيوخ الإنترنت» الذين يزوّرون ويتلاعبون بالنصوص الدينية لدفع الشباب إلى الالتحاق بالنزال.

ومن أجل حصر الأضرار التي تسبب بها فضل، أجبر الظواهري على افتتاح موقع له على الإنترنت ليجيب عن الاستفسارات حول سلوك القاعدة ومستقبلها. وبدا من أسئلة آلاف الأشخاص أنه حتى المؤيدين بينهم غير راضين عن أسلوب قتل المدنيين المنسوب إلى القاعدة، ويطلبون تأكيدات أن بن لادن والظواهري لم

---

(٥١) Ahmed al-Khatib, «Second Revisions of Tanzim al-Jihad: Sayyid Fadl, Mufti al-Jihad, Responds to Zawahiri's «Exoneration»: Al-Qa'ida's Second-in-Command is a «Hypocrite»,» no. 12 (1 December 2008).

يخلّ بالأصول الشرعية، وبخاصة استهداف المدنيين غير المسلحين إلا في الظروف الاستثنائية القصوى. اختار الظواهري أن يجيب عن سؤال يقول: «اعذرني سيّد ظواهري، من هو هذا الذي يقتل المدنيين في بغداد والمغرب والجزائر ببركتك السامية؟ هل تعتبر قتل النساء والأطفال جهاداً؟» أجاب الظواهري: «لم نقتل أبرياء، لقد حاربنا في الحقيقة أولئك الذين يقتلون المدنيين. من قتل الأبرياء هم الأمريكيون، واليهود، والروس، والفرنسيون، وعملاؤهم. لو كان في نيتنا قتل الأبرياء لقتلنا الآلاف منهم في الأسواق المكتظة، إننا فقط نجابه ونستهدف أعداء المسلمين، وربما يسقط في غضون ذلك أبرياء»[٥٢].

ولمعرفته بالأثر المدمّر الذي يتركه خسارة تنظيمه للرأي العام الإسلامي، حاول الظواهري أخيراً أن ينأى بـ «القاعدة» عن إراقة الدم البريء. وفي بيان وزّع في الذكرى التاسعة لهجمات ١١ أيلول/سبتمبر، حضّ الظواهري المسلمين على ممارسة الجهاد، ولكن مع تجنب القتل العشوائي. قال الظواهري في رسالة صوتية: «لسنا معنيين بأية عملية تنفذها جماعة جهادية، ولا تظهر اهتماماً بسلامة المسلمين»، وذلك في محاولة واضحة منه للاستجابة للناقدين وتغيير صورة القاعدة في عيون المسلمين[٥٣].

وبعيداً عن النقد المتصاعد من المعارضة الإسلامية للقاعدة وأخواتها المأزومات، تمدد تشكيك المسلمين العاديين ليصل إلى كل الجماعات الجهادية المشابهة. لقد بلغت تلك أفقاً نظرياً مقفلاً. وإذ عجزت تلك الجماعات عن بعث الحياة في قضيتها المتآكلة، فقد بات أقصى ما يمكن أن تفعله هو الأمل بأن يقوم شاب مسلم متشدد يعيش في الغرب بالحصول على مواد متفجرة والقيام بهجوم في البلد الذي يقطنه، من نوع محاولة التفجير الفاشلة ليوم عيد الميلاد، أو محاولة التفجير الفاشلة في التايمز سكوير في نيويورك. هذا هو المدى الذي تستطيع القاعدة أن تبلغه الآن.

---

(٥٢) «The Open Meeting with Shaykh Ayman al-Zawahiri,» NEFA Foundation (2 April 2008), <http://www.nefafoundation.org/miscellaneous/FeaturedDocs/nefazawahiri0408.pdf>; «Selected Questions and Answers from Dr. Ayman al-Zawahiri,» NEFA Foundation (6 May 2008), <http://www.nefafoundation.org/miscellaneous/FeaturedDocs/nefazawahiri0508.pdf>, and «Selected Questions and Answers from Dr. Ayman al-Zawahiri,» NEFA Foundation (30 May 2008), <http://www.nefafoundation.org/miscellaneous/FeaturedDocs/nefazawahiri0508-2.pdf>.

(٥٣) «الظواهري: الذكرى التاسعة لهجمات ١١ سبتمبر،» **القدس العربي**، ٩/ ٩/ ٢٠١٠.

هي ذي النهاية لطريق طويل. فبدءاً من أواخر السبعينيات، بدأت الموجة الجهادية الأولى باستهداف العدو القريب، فخاضت حرباً طويلة مكلفة في مصر والجزائر. وأمكن للأنظمة السياسية العربية المؤيدة للغرب هزيمة المقاتلين الإسلاميين، وقتلهم، واعتقالهم، ونفي معظمهم. وفي سعي يائس إلى القبض على الرأي العام الإسلامي، نقل الجيل الثاني من الإسلاميين المقاتلين (المدعوين الأفغان العرب) المعركة، من حيث انتهى الجيل الأول، نحو قتال العدو البعيد (الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين). وفي حدود سنة ٢٠٠٣ كانت تلك المعركة قد بلغت مأزقها أيضاً. ومن باب المفارقة، أن يحدث الغزو الأمريكي للعراق في اللحظة التي كانت الهجمات على العدو البعيد قد تضاءلت، فبلغت حدّها الأدنى. عندها هبطت النعمة على القاعدة، فأعادت عملياتها نسف الخطوط الفاصلة بين العدو القريب والعدو البعيد. ورغم ذلك أدرك الرأي العام المسلم مع الوقت أن العمليات تلك قد قتلت من المسلمين أكثر مما قتلت من الغربيين. ورغم نفيها العلني، لم تميّز القاعدة في عملياتها بين تلك التي تستهدف المسلمين وسواها التي تستهدف الغربيين. ورغم الخدمة المباشرة التي قدمها الاحتلال الأمريكي للقاعدة، إلا أن أزمتها كانت أكثر عمقاً من أن تحلّ بهذا الصعود الظرفي، فدخلت من اللحظة تلك طور ازورار الرأي العام المسلم والعلماء عنها، فتسارع انشقاقها وتفكّكها. وبخلاف التبريرات والنقاشات الفقهية والشرعية التي رافقت التحول من موجة الجهاد الأولى إلى الموجة الثانية، لم يقدّم بن لادن، ولا خليفته من ثمة، ولا آلتهما الترويجية، أي جهد نظري أو فقهي رسمي لتبرير التغيير الجذري الأخير في الاستراتيجيا. لقد غدا الجهاد الأممي، سبب وجود القاعدة، حرباً أهلية وليس قضيةً وهدفاً.

الفصل الخامس

الإرث الثقيل والتداعيات



هناك ما يكفي من الأدلة للافتراض أن عوامل عدة تراكمت، فأسهمت في إضعاف «القاعدة»، وأهمها الانشقاقات، وأزمة القيادة من الداخل، والانتكاسات العسكرية، والنقد الفقهي القاسي من علماء متشدّدين معروفين، بالإضافة إلى تدهور التأييد الشعبي لدى المسلمين. وليس ذلك بالأمر المفاجئ أو غير المتوقع. فقد رأينا أن تشكيلة جهاد القاعدة الكوني أو الأممي لم تتح لها أية قاعدة قبول شعبي واسع بين العرب والمسلمين، فمعظم المسلمين لا ينتسبون إلى خطابها وخطّها الأيديولوجي ولم ينضووا في صفوفها. تدهور التأييد الشعبي في العالم الإسلامي وفقدان الشرعية الفقهية ينعكسان مباشرة عدداً أقل من المنتسبين الكفوئين وملاذات آمنة أقل. وتطور الوضع، كما سأوضح في هذا الفصل، فغدا واضحاً أن المسلمين العاديين هم مصدر المعلومات حول مشتبهي القاعدة؛ تطور متصل مباشرة بتدهور درجة الاحتضان الشعبي للقاعدة.

يحتاج الأمر إلى بعض الوقت كي يظهر تأثير هذه العوامل في وضعية «القاعدة»، وليس باستطاعة أي كان تحديد تواريخ بعينها. ولكن إذا كان التاريخ دليلاً، يمكن الافتراض أن موت الحركات الثورية يبدأ مع التخلّي الشعبي عنها، فحين تتفسخ القاعدة الاجتماعية تحت الحركات الاجتماعية، يبدأ على نحو بطيء، ولكن مستمر، اهتزاز ثم سقوط الحركات تلك.

كذلك، يجب ألا ننسى أن «القاعدة» التي لم تكفها الهزيمة العسكرية، عادت فخسرت بعد ذلك مؤسسها وزعيمها. وكما رأينا، فقد ضمّت القاعدة في ذروة قوتها في أواخر التسعينيات بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ مقاتل. أما اليوم فتدنى عدد أفرادها إلى حوالى ٣٠٠، وربما أقل من ذلك. وبحسب مدير سابق لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، ووزير الدفاع الحالي، ليون بانيتا، هناك ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ مقاتل من «القاعدة» في أفغانستان[١]. ومع ذلك فالنقاشات

(١) Richard Esposito, Matthew Cole and Brian Ross, «President Obama's Secret: Only 100 Al Qaeda Now in Afghanistan,» ABC News (2 December 2009), <http://abcnews.go.com/Blotter/ =

الداخلية بين المسؤولين الأمريكيين ذهبت إلى أنه عملياً لا عناصر لـ «القاعدة» في أفغانستان. يورد بوب وودوارد في كتابه **حروب أوباما** دقائق اللقاء بين نائب الرئيس جو بايدن والجنرال ماكيرنان، قائد القوات الأمريكية في أفغانستان والقوة الدولية المساعدة (إيساف)، التي جرت خلال زيارة بايدن إلى تلك البلاد. سأل بايدن ماكيرنان عن وجود العرب في أفغانستان، فأجاب: «لم نر في الواقع عرباً هنا منذ سنتين». ثم سأل بايدن جنود الخطوط الأمامية عن القاعدة، السبب الرئيسي لوجود القوات الأمريكية في تلك البلاد، فكانت أجوبتهم عموماً: «لا أعرف»[٢].

أولاً: مجموعات القاعدة المحلية

وجدت المجموعات المحلية التي تنتمي أيديولوجياً وتكتيكياً إلى القاعدة في باكستان واليمن والعراق والمغرب والصومال، وفي أمكنة أخرى، مع أن هذه المجموعات هي من حيث القدرات والموارد محلية لا أممية. ومعظم ضحاياها بالتالي مدنيون مسلمون. والصلات المادية بين هذه الفروع المحلية والقاعدة هي متقطعة وظرفية في أحسن الأحوال.

وحدها «القاعدة في شبه الجزيرة العربية» (المعروفة بالفرع اليمني «أكاب») أظهرت تصميماً على تنفيذ هجمات داخل أمريكا. فبالإضافة إلى عملية «متفجرة الحبر» الفاشلة، نجحت «أكاب» في تجنيد وتسليح متطوع أمريكي متطرف ـ قنبلة عيد الميلاد الانتحارية التي سبق وذكرناها ـ التي أتاحت لابن لادن أن يدّعي المسؤولية عن تلك العملية الفاشلة. كذلك اتهم مسؤولون في إدارة أوباما «طالبان باكستان» بدمج قواتهم مع القاعدة ـ التي تخفي ربما بعض مسؤوليها الرفيعين ـ وبتوفير التسهيلات والتوجيه، وربما التمويل لعملية السيارة المتفجرة الفاشلة في ساحة **التايمز**[٣].

تعطي الفروع المحلية القاعدة المركز الأهم، ورغم أن ليس لها غير سلطة

= president-obamas-secret-100-al-qaeda-now-afghanistan/story?id=9227861 >, and Joshua Partlow, «In Afghanistan, Taliban Surpasses al-Qaeda,» *Washington Post*, 11/11/2009, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2009/11/10/AR2009111019644.html>.

(٢) Bob Woodward, *Obama's Wars: The Inside Story* (New York: Simon Schuster, 2010), p. 71.

(٣) Joseph Berger, «Pakistani Taliban Behind Times Sq. Plot, Holder Says,» *New York Times*, 10/5/2010.

ضئيلة عليهم، فهي تملك من الإمكانية والوصول والقدرات، ما يمكّنها من إثارة حرب أممية خارج الحدود. ومع ذلك، فالفروع تلك احتياط استراتيجي، وأداة علاقات عامة فعالة تزيد من قوة «القاعدة»، وترسّخ فكرة وجودها، وتعطي انطباعاً بانتمائها إلى جهاد القاعدة الأممي.

في حالة اليمن والصومال، و«القاعدة في بلاد المغرب العربي» (أكيم)، تبدو هذه الفروع المحلية وكأنها أعطت التنظيم رمقاً جديداً للحياة. ومع أن الرمق ذاك مؤقت وظرفي إلى أقصى حدّ، إلا أنه كاف ليحتفي به الإعلام الغربي أيّما احتفاء. ولا يعوز «القاعدة» تقديم كل ما هو ضروري من مبالغات من أجل ترسيخ صورتها الإرهابية على النحو الذي تتلقفه وتردّده أحاديث الإرهاب. وإلى ذلك، فهذه التنظيمات المحلية ليست امتداداً للقاعدة المركزية. ربما يشتركان في الرؤية الأيديولوجية، وفي الخطاب المتشابه، وأحياناً في التخطيط لهجمات على أهداف غربية، ولكنها تبقى تنظيمات محلية جداً مكرّسة لقلب الحكام العرب والمسلمين «المرتدّين»، وليس للأعداء الخارجيين. قد يحاول هؤلاء لو تمكّنوا القتال على الجبهتين معاً، لكنهم عاجزون؛ وحين يفعلون ذلك فهم يستحضرون على أنفسهم من أنواع الضغوط الخارجية والمحلية ما لا قِبَل لهم بتحمّلها، وبما يضع وجودهم موضع الخطر.

١ ـ مجموعة «أكاب» اليمنية

يتراوح عدد عناصر «أكاب» بين ٥٠ و٣٠٠، جلّهم من الناشطين اليمنيين، أي العدد نفسه الموجود في باكستان مع الفارق أنهم أصغر سناً، وأفتى عمراً، وتنقصهم بالتالي الكفاءات القتالية الميدانية التي لزملائهم في القاعدة المركزية. معظم هؤلاء عناصر يافعة من دون خبرات قتالية. ويتبيّن من مقابلاتي في سنتي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ مع أكثر من عشرة من هؤلاء أنهم في الغالب أنصاف متعلمين، محرومون؛ وتنقصهم معارف وخبرات الجيل الذي سبقهم والذي حارب في أفغانستان.

تبدو أكاب «أقرب» إلى مجموعة هامشية، ضبابية، ومن دون أنصار. ومع ذلك، فقد غدا هذا الفرع اليمني، بقيادة ناصر الوحيشي، ذي التجربة العملياتية والإدارية، والسكرتير الشخصي السابق لابن لادن، والمسؤول العسكري، قاسم الريّامي، أكثر تنظيماً وتماسكاً. ولا شك في أن تمردهم الحالي، أو القريب من رمق الحياة، كما أسميته، يستمد شرعيته من الظروف الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية البالغة السوء في هذا البلد العربي النائي، كما من المشكلات المعقّدة لجاره السعودي. نشأت «أكاب» في الحقيقة من اندماج الفرعين السعودي واليمني سنة ٢٠٠٩. وكان المحرك المباشر وصول بضع عشرات من السعوديين الهاربين من السعودية، وبعضهم من ذوي التجربة القتالية السابقة في العراق وأفغانستان، وقد قدّم هؤلاء خبراتهم للتنظيم (في تصنيع المتفجرات والدعاية على سبيل المثال)، كما في مجال تحديد الأهداف والمبادرة.

ومن بين أولئك، يعتقد أن السعودي إبراهيم حسن العسيري، الذي درس الكيمياء في جامعة الملك سعود، هو الخبير التقني وصانع المتفجرات. ويعتقد مسؤولو الاستخبارات الأمريكية أنه هو مصمم متفجرات الطرود البريدية في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٠، كما متفجرات «الثياب الداخلية». ويعتقد أيضاً أن العسيري، وهو ابن ضابط سعودي، قد نشأ في الرياض، ويشتبه أنه المخطّط للمحاولة الفاشلة لاغتيال الأمير محمد بن نايف، أحد كبار ضباط مكافحة الإرهاب السعوديين، التي قتل فيها شقيقه[٤]. وحالة العسيري نموذجية، فهو لم يحارب في أفغانستان أو العراق، وحصل على مهاراته التقنية بعد انضمامه إلى «أكاب»، إلا أنها تبرهن على حقيقة أنه في وسع خبير واحد أن يكون صانعاً لقوة مضاعفة في التنظيم. وهو بذلك جلب القاعدة بقوة إلى دائرة الضوء، وهزّ عميقاً فريق أوباما للأمن القومي.

نالت «أكاب» نصيبها العالي من الشهرة السيئة كذلك، بسبب من أنور العولقي، الطالب اليمني ـ الأمريكي الذي أصاب الكثير من التغطية الإعلامية لقدرته الواضحة على التأثير في الشباب المسلم المقيم في المجتمعات الغربية، كما في حالتي بطل متفجرة عيد الميلاد، والمايجور في البحرية الأمريكية الذي أصاب ١٣ من زملائه في قاعدة فورت هود، في تكساس. ورغم هذه التغطية الإعلامية الغربية الواسعة، فالعولقي غير معروف في بلده والبلدان المجاورة، وقد دفعت شهرته المبالغ بها في أمريكا إدارة أوباما إلى أن تضعه في نيسان/ أبريل ٢٠١٠ هدفاً مشروعاً للاغتيال. وهو لا يملك أية حيثية اجتماعية داخل اليمن أو خارجه.

وبالرغم من الحملة المركّزة التي تقوم بها السلطات اليمنية والجيش

---

(٤) Scott Shane and Robert F. Worth, «Earlier Flight May Have Been Dry Run for Plotters,» *New York Times*, 1/11/2010.

الأمريكي لتدمير «أكاب»، فالنتائج غير حاسمة حتى الآن. فبدءاً من حزيران/ يونيو ٢٠١٠ نفّذت «أكاب» هجمات عدة على منشآت أمنية في جنوب اليمن، وقتلت أكثر من ١٠٠ فرد من القوى الأمنية وجرحت غيرهم. وقد أظهرت في أحد تلك الهجمات في ١٩ حزيران/ يونيو ٢٠١٠ قدرات تخطيطية وعملياتية متقدمة من خلال تنفيذ عدة عمليات منسقة في وقت واحد في مدينة عدن في الجنوب، حيث جرت مهاجمة مراكز استخباراتية وأمنية معاً، وجرى تحرير سجناء، وقتل فيها ١١ شخصاً. كما هاجمت موقعين للشرطة في زنجبار قتل فيهما ثلاثة ضباط(٥).

تمثّل الهجمات على عناصر الأمن والرسميين الحكوميين تطوراً جديداً في عمليات القاعدة. فبعد غارة جوية أمريكية في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٩ قتلت مدنيين وأطفالاً يمنيين، انضم ناشطون من القاعدة إلى تظاهرة احتجاج بثّت حيّة على قناة «الجزيرة» الفضائية، وخاطب فيها مسؤول من القاعدة يحمل بندقية كلاشينكوف ضباط الأمن اليمنيين قائلاً لهم: «أيها الجنود، يجب أن تعلموا أننا لا نريد مقاتلتكم، ما من مشكلة بينكم وبيننا، المشكلة هي بيننا وبين أمريكا وعملائها. فحاذروا أن تقفوا في صف أمريكا»(٦).

بدا للوهلة الأولى أن «أكاب» قد تعلّمت الدرس من ماضي «القاعدة»، فتجنّبت الوقوع في فخ الهجوم على العدو القريب. فمنذ تأسيس »أكاب«، سعى الوحيشي والرايمي إلى التقرّب من الناس، وبخاصة من القبائل التي قدّمت الملاذ والحماية، عن طريق مجلة على الإنترنت، وفيديوات مصوّرة، ومقابلات مع الصحافة المحلية. وقد شجعا عناصر القاعدة على الزواج من نساء من القبائل، وعلى العمل على تسوية النزاعات بينها. وفي مطلع ٢٠٠٧، نشر

---

(٥) «القاعدة تعلن المسؤولية عن هجمات اليمن،» الجزيرة نت، ٢٣/ ٧/ ٢٠١٠؛ «القاعدة تعلن مسؤوليتها عن هجوم على مقر للمخابرات بجنوب اليمن،» رأي الإخبارية (١٢ تموز/ يوليو ٢٠١٠)، <http://raynews.net/index.php?action=showNewsQid=3784>; «Al-Qaeda Claims Yemen Attack that Killed Six Soldiers,» AFP (12 August 2010); Hammoud Mounassar, «Three Policemen Killed in Yemen «Qaeda»,» AFP (17 July 2010), and «Gunmen in Yemen Attack Two Southern Yemen Security Offices,» BBC (17July 2010).

(٦) «Al-Qaeda Leaders Make Yemen Speech,» Al Jazeera English (22 December 2009), <http://english.aljazeera.net/news/middleeast/2009/12/2009122273913988616.html>, and Scott Shane, Mark Mazzetti and Robert F. Worth, «Secret Assault on Terrorism Widens on Two Continents,» *New York Times*, 14/8/2010.

الظواهري تسجيلاً صوتياً وجّهه إلى «أشراف ووجهاء قبائل اليمن»، حثّهم فيه على التشبّه بقبائل الباشتون والبلوش الأفغانية والمبادرة إلى «دعم إخوانكم المجاهدين»[7]. لقد تعلّمت القاعدة من العراق درساً بالغ القسوة، وهو أن الحصول على الدعم الشعبي من المسلمين، وبخاصة بين القبائل، أمر حيوي جداً من أجل البقاء.

لكن اللحظة تلك لم تدُم. فعلى نقيض سياساتهم السابقة، أعلنت أكاب حرباً شاملة ضد حكومة «الطاغية» علي عبد الله صالح وقواته «التي أرهبت المسلمين، وساعدت الصليبيين ضد بلادنا، وباتوا الخط الأمامي للجيش الأمريكي في اليمن»[8]. وفي رسالة صوتية في آب/ أغسطس ٢٠١٠ هددت «أكاب» بقلب نظام حكم العربية السعودية لـ «مشاركتها في الحملة الصليبية للولايات المتحدة الأمريكية على الإسلام»، ودعت القوات المسلحة السعودية إلى مهاجمة إسرائيل[9]. وعليه، غدت سياسة فرع «القاعدة» إثارة حملة من العمليات الفدائية ضد ضباط الجيش اليمني من نوع «أضرب واهرب»، بعدما كان تعهد سابقاً بعدم التعرّض لهم. وفي شريط مسجل أعلن الرايمي القائد العسكري للقاعدة عن نيّته إنشاء «جيش عدن أبين الإسلامي»، بهدف قلب نظام صالح [السابق]، وهو مطلب معقّد، ولم يكن من السهل تحقيقه، لكنه يكشف عن التكيتكات الجديدة للقاعدة[10].

وبمعزل عن التبريرات التي تعطيها «القاعدة»، إلا أن أسلوبها الدموي أحال اليمنيين ضدها. فقتل الجنود اليمنيين لن يقرّب القاعدة من الناس، كما أنه لن يمنحها قوة إضافية. وفي اللحظة التي سيكون فيها وجود القاعدة مكلفاً

---

(٧) أيمن الظواهري، «من كابول إلى مقاديشو،» شريط صوتي نُشرَ في ٢٢ شباط/ فبراير ٢٠٠٩؛ Charles Levinson and Margaret Cocker, «Al Qaeda's Deep Tribal Ties Make Yemen a Terror Hub,» *Wall Street Journal*, 22/1/2010, < http://online.wsj.com/article/SB10001424052748704320ID4575015493304S19542.html >, and Shane, Mazzetti and Worth, Ibid.

(٨) «شبكة القاعدة في اليمن تفتح باباً لإطلاق العمليات،» التغيير (اليمن) (٣ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٠)، < http//www.al-tagheer.com/news21816.html >.

(٩) «Saudi Al-Qaeda Urges Killing of Christians,» *Middle East Observatory* (12 August 2010), < http://www.meobservatory.com/docpub/Saudi-Al-Qaeda-UrgesKilling-Of-Chnsnans.shtml >, and «Saudi Al-Qaeda Urges Killing of Christians,» RTTNews.com (11 August 2010).

(١٠) «قائد القاعدة المسلحة في اليمن يعلن عن نيته تشكيل جيش،» **القدس العربي**، ١٣/ ١٠/ ٢٠١٠، و Shuaib M. Al-Mosawa, «AQAP Announces Formation of Aden-Abyan Army,» *Yemen Observer* (14 October 2010), < http://www.yobserver.com/front-page/10019895.html >.

لمضيفيهم من زعماء القبائل، فستغدو غير مرحب بها بينهم. وهناك غير دليل على التوتر المتزايد في محافظة «شبوة» بين القاعدة ورجال القبائل. وقد أجبر مقاتلو القاعدة على إخلاء قرى عدة واللجوء إلى الجبال بعدما بات السكان المحليون قلقين من وجود مسلحي القاعدة بينهم، وما يجلبه ذلك من لفت للانتباه ومخاطر بالتالي[١١].

ومع ذلك، فالجرأة المتزايدة والفاعلية التي تميّزت بهما أخيراً أنشطة فرع القاعدة اليمني، وصلة ذلك بمشكلات البلاد ـ من تعميق للأزمة الاجتماعية والسياسية، والخروج على القانون، وتخلّف مؤسسات الدولة ـ هي أمور يجب التوقف عندها. فـ «أكاب» لا تملّ من المناورات ومحاولة الإفادة من صلاتها القبلية في الجنوب لانتزاع موطئ قدم لها في ثنايا الحركة الانفصالية هناك. وتقترب هذه الاستراتيجيا من لحظتها الحاسمة في بلد تعصف به الانتفاضات الاجتماعية والثورية الساعية بقوة إلى قلب نظام حكم علي صالح، الذي عولج في مستشفى عسكري سعودي إثر محاولة جرت لاغتياله في ٣ حزيران/يونيو ٢٠١١، والانتقال إلى نظام حكم أكثر تمثيلاً. وقد انتزعت الحركة الانفصالية عن الشمال موطئ قدم لها في الجنوب بفعل التأييد الشعبي الذي تلقاه بين السكان المحليين، في محاولة منها لفك الوحدة التي فرضها الشمال بالقوة مطلع التسعينيات. ويقف الآن زعماء جهاديون كثر، من أمثال خالد عبد النبي الذي كان حليفاً لصالح في حربه على الاشتراكيين الجنوبيين سنة ١٩٩٤، ضده الآن ويدعم بقوة القوى الانفصالية في الجنوب. ورغم أن هدف عبد النبي هو إقامة حكم في الجنوب مستند إلى الشريعة، إلا أنه لا يمانع في التحالف حتى مع الشيطان لإطاحة علي، أو الشيطان الأكبر. ورغم أوامر إلقاء القبض عليه، فهو يدمن التنقل المستمر وسط حراسة كثيفة[١٢].

حاول فرع «القاعدة» اليمني إقحام نفسه في الصراعات اليمنية الداخلية المتفاقمة ـ وبخاصة في الجنوب، في محافظة شبوة، ومحافظتي أبين

---

(١١) Ghaith Abdul-Ahad, «Shabwa: Blood Feuds and Hospitality in al-Qaida's Yemen Outpost,» *Guardian*, 23/8/2010, and Shane, Mazzetti and Worth, «Secret Assault on Terrorism Widens on Two Continents».

(١٢) «جيش عدن ـ أبين، حقيقة أم خرافة؟ خالد عبد النبي: لا وجود لجيش عدن أبين،» الميدان نت (٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠)، <http://news.al-maydan.net/articles-action-show-id-828.htm>.

المجاورتين، وإلى الجنوب من العاصمة صنعاء، ومحافظة مأرب ـ ولفرض نفسه كرأس حربة للمعارضة وللمقاومة المسلحة ضد الحكومة المركزية في صنعاء غير ذات الشعبية في الجنوب. ومنذ آب/أغسطس ٢٠١٠ تقاتل قوات الحكومة المعارضة وعناصر القاعدة لاستعادة السيطرة على مدينة لودر في محافظة أبين، وسقط جرّاء ذلك عشرات القتلى من الطرفين، كما أجبر الآلاف على ترك منازلهم[١٣]. ومن الصعوبة بمكان التحقق وسط البيانات والاتهامات المتبادلة بين الطرفين ما إذا كانت الحكومة تقاتل الانفصاليين، أم الجهاديين، أو الاثنين معاً، رغم نفي الانفصاليين مشاركة مقاتلين جهاديين. ومن المرجّح، وفق تقارير يمنية من أبين، أن الانفصاليين والجهاديين، ورغم خلافاتهما الأيديولوجية، يتعاونان على نحو غير مباشر، ويتبادلان التسهيلات في عملياتهما ضد قوات الأمن[١٤].

واليمن دولة هشّة، ومؤسساتها ربما تكون قد بلغت نقطة النهاية. فبالإضافة إلى التمرّد الانفصالي الجنوبي، هناك تمرد آخر للحوثيين في الشمال يخبو ثم يشتعل منذ سنة ٢٠٠٤، وقد قتل فيه الآلاف، وهجّر مئات الآلاف من منازلهم[١٥]. والهيمنة التامة في المنطقة هي للإقطاع القبلي، وبعضه مدعوم من السلطات نفسها. وللتمرد الاجتماعي والسياسي الأسباب نفسها، كما في الجنوب: الظروف الاقتصادية البائسة، والبطالة العالية، والفقر المدقع، وتراجع عائدات النفط، والفساد المستشري، والنقص الحاد في إمدادات المياه، والإدارة البيروقراطية غير الكفوءة، والنظام السياسي المقفل. وقد وجدت القاعدة، في الجنوب على وجه الخصوص، الأرض الخصبة، بسبب العدد الكبير من الشبّان بين السكان العاطلين عن العمل الذين يتملّكهم الغضب من

---

(١٣) «القاعدة في اليمن تهدد بحرب عصابات في جنوب اليمن،» يمن ناشن نت (١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠)، <http://www.yemennation.net/news3611.html>، و«القاعدة في اليمن تهدد بحرب عصابات في لودر والمودية في جنوب اليمن،» الجزيرة نت، ٢٠/ ١٠/ ٢٠١٠.

(١٤) خالد الأحمدي، «اليمن: أبين بين صخرة القاعدة والحركات الانفصالية،» **القدس العربي**، ١٧/ ١٠/ ٢٠١٠.

(١٥) بعد ست سنوات من القتال، فشلت الحكومة اليمنية في وضع حدّ للتمرد الحوثي، الذي يحتج على التهميش السياسي والاجتماعي والديني. حكومة صالح كانت ترفض هذا المبرّر وتقول إنها محاولة لقلب الحكم الجمهوري واستعادة الإمامة في اليمن التي كانت في العقيدة والممارسة زيدية، وانتهت سنة ١٩٦٠. أكثر من ذلك، يصوّر المسؤولون اليمنيون التمرّد الحوثي كما لو كان امتداداً لجهود إيران الشيعية في بسط تأثيرها في قلب الجزيرة العربية. بالتأكيد ما من حلّ عسكري للتمرّد الحوثي والحكومة تعترف بذلك والبديل هو الحوار الوطني الواسع.

تنكر الحكومة المستمر لوعودها لهم. وفي مقابلاتي معهم منذ سنة ٢٠٠٧، أخبرني عدد من هؤلاء الشبان أنهم دُفعوا إلى القاعدة بسبب خطابها الجريء والمتميّز، وبسبب كذلك الفشل الكامل للنظام الأوتوقراطي القائم الذي تركهم في حياتهم الصحراوية الخاوية.

ما من إحصاء في وسعه أن يشير إلى مدى البؤس الاجتماعي والاقتصادي الذي ترزح تحته اليمن. فنسبة البطالة من عدد السكان البالغ ٢٣ مليوناً تقارب ٤٠ بالمئة. وثلث السكان يعانون سوء التغذية، فيما ٥٠ بالمئة تقريباً يعيشون تحت خط الفقر. ورغم أنها الدولة الأكثر فقراً في الوطن العربي، إلا أنها الأعلى في المنطقة من حيث معدلات الولادة، لتبلغ ٣,٧ بالمئة. ويعني هذا أن ٦٠ بالمئة من السكان الآن هم تحت سن العشرين. وفيما عدد السكان يتزايد على نحو سريع جداً، تتراجع موارد البلاد وربما بسرعة أكبر أيضاً. وفي السنوات القليلة القادمة لن يكون في قدرة الإنتاج النفطي اليمني، مورد البلاد الرئيسي، أكثر من تلبية حاجات الاستهلاك المحلي.

ورغم عروض المساعدة من البلدان النفطية المجاورة، ومن المجتمع الدولي، لم يتحقق في الواقع إلا القليل على الجبهتين الاجتماعية والاقتصادية. لم ينفّذ من المساعدات أو المنح الموعودة لليمن أكثر من ١٠ بالمئة منها، نظراً إلى ضعف البنى التحتية وتملّص المانحين، ما ترك الظروف المعيشية لأكثرية اليمنيين في أسوأ أحوالها.

وبنتيجة ذلك كله، فشلت حكومة صالح في تلبية احتياجات الرعاية الاجتماعية والاقتصادية وتوفير السلع والخدمات للناس ـ التي كانت بعض مبررات قيام حكمه ـ وأدى ذلك إلى تآكل رصيدها القبلي. وبعد ثلاثة عقود من الحكم، انهارت حتى درجة خطيرة قدرة النظام على تطويع خصومه أو رعاية حلفائه. وتظهر مراسلات الخارجية الأمريكية المسرّبة على موقع ويكيليكس كيف استخدم صالح موارد البلاد القليلة المتبقية وأوضاعها المتدهورة بالتالي كفزّاعة لإجبار الأمريكيين على تقديم المزيد من المساعدات إليه. ففي مقابلة مع جون برنن في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٩، ضغط صالح على المبعوث الأمريكي ليقدّم «أفعالاً لا أقوالاً»، وليساعد اليمن في الخروج من أزمتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وينقل السفير الأمريكي ستيفان ساش الذي حضر اللقاء مع برنن عن صالح قوله للمبعوث الأمريكي، في إشارة إلى مستويات الفقر والأمية العالية وتسرّب

المسلحين: «إن لم تساعدوا، فهذا البلد سوف يكون أسوأ من الصومال»[١٦].

ومع مؤسسات اليمن المتهالكة، يغدو الوضع في البلاد قابلاً لكل الاحتمالات. والموجة الديمقراطية التي ضربت الوطن العربي في العام ٢٠١١ تنذر بالوصول إلى نظام حكم صالح. لكن الأسوأ هو أن حكم صالح ليس على المحك وحده، بل إن بقاء الدولة اليمنية برمّتها هو على المحكّ أيضاً. فبعد الضغوطات المتصاعدة، يحاول صالح يائساً التخلي عن الرغبة في الاستمرار في الحكم لمدى الحياة أو توريث السلطة لابنه في محاولة للبقاء في الحكم حتى انتخابات ٢٠١٣، فغدا شعاره الجديد «لا تمديد، لا توريث، ولا عودة بالساعة إلى الوراء»، ولكن من دون جدوى كما يبدو، فالضغوطات تدفع بنظام حكمه إلى مصير لا يختلف كثيراً عن مصير نظام مبارك في مصر.

لا يعني هذا السيناريو المظلم أن اليمن كدولة هي على طريق التفكك، كما الصومال، وأنها مهددة بالسقوط في أيدي «القاعدة». فعلى الرغم من بحر المشاكل القائمة، يستطيع الزائر القادم إلى اليمن ملاحظة أن الدولة لا تزال هي التي تسيّر الشأن اليومي للمواطنين العاديين؛ في الوظائف، والرواتب، والصحة، والتعليم، والرعاية. ورغم تناقص واردات الدولة، فهي لا تزال تقدّم، مع بعض التأخير، الوظائف والمكافآت إلى كثير من القبائل التي تشد من عضد الدولة وسلطتها[١٧]. ولا شك في أن تقديمات السعودية النقدية أو الرعائية تسمح ببقاء قبائل عدة نافذة جزءاً من النظام القائم، وتضمن بالتالي عدم حصول القاعدة على موطئ قدم لها بينهم. لكن المشكلة المقابلة التي تثيرها التقديمات السعودية المباشرة إلى القبائل هي أنها تضعف من مكانة الحكومة المركزية وسلطتها[١٨].

---

(١٦) «Brennan Saleh Meeting September 6, 2009,» US Department of State, Secret/Noforn SANAA 01549, NSC for APDNSA John Brennan and Denise Moraga, DEPT for NEA/ARP, AMA Macdonald, Wikileaks.

انظر أيضاً: Scott Shane, «Yemen Helps U.S. Fight Al Qaeda, on Its Own,» *New York Times*, 3/12/2010.

(١٧) Steven C. Caton, «Yemen: Not on the Verge of Collapse,» *Foreign Policy* (11 August 2010).

(١٨) مثال من الدرجة الأولى جاء في آب/ أغسطس ٢٠١٠، حين أفادت جريدة **حديث المدينة** أن ولي العهد السعودي سلطان بن عبد العزيز كان يهدد «بوقف المال الذي يدفع من السعودية إلى القبائل اليمنية لدواع أمنية». وهدّد في المقابل بتوجيه المال إلى الحوثيين، لأنهم الطرف الأقوى، ولأنهم لا يوفرون ملجأ للقاعدة. انظر: Mohammad Bin Sallam, «Government and Houthi Delegations Return to Sanaa,» *Yemen Times*, 2/9/2010, <http://www.yementimes.com/defaultdet.aspx?Sub_10=34694>.

إذا لم يتنحّ صالح، فستدخل اليمن بالتأكيد مرحلة الحرب الأهلية الشاملة، وهو السيناريو الأكثر ملاءمة لأهداف «أكاب». وفيما كان علي يشفى من جراحه، كانت حدّة المواجهات مع خصومه القبليين تزداد في العاصمة كما في بعض المحافظات. لقد أفادت «أكاب» حتى الآن أحسن إفادة من تصاعد وتيرة العنف وانتشاره، وبخاصة إلى مناطق الجنوب. وإذا عاد صالح إلى اليمن، كما يصرّ مساعدوه، فإن سيناريو مظلماً هو على الأبواب.

مع ذلك، ومرة أخرى، يجب عدم تبسيط تحديات الحالة اليمنية، أو تصويرها كقاعدة جديدة لـ «القاعدة» وللجهاد الأممي بالتالي. ورغم خطورة هجمات «أكاب» ـ كما رأينا في هجماتها على جنود الحكومة اليمنية ـ فإن فشل «متفجرة الثياب الداخلية» و«متفجرات الطرود البريدية» يلقيان بظلال الشك على قدراتها الحقيقية في تحدي السلطات اليمنية، وفي تشكيلها لمصدر قلق رئيسي للغرب. فقد ظهر بوضوح أنها لا تملك الوسائل المادية والبشرية، أو المتابعة لشنّ حملة جهادية أممية، ولا هي تملك الموارد أو الأموال الكافية لتمويل تحالف تقيمه مع القبائل اليمنية أو لإنشاء شبكة من البنية التحتية للرعاية الاجتماعية.

و«أكاب»، في الحقيقة، هي التي تعتمد على قبائل معارضة معيّنة لجهة ضيافتها وتوفير الحماية لعناصرها. والسلوك القبلي حيال القاعدة لا تحكمه الأيديولوجيا، بل الأسباب والشروط البراغماتية والمحلية. ففي حدود نهاية ٢٠١٠، توصلت قبيلة العوقلي نفسها، مع قبائل أخرى أكثر قوة، إلى صفقة مع الحكومة لطرد ناشطي «أكاب» من مناطقها. وعليه، باتت «أكاب» أكثر عزلة في مواجهتها السلطات اليمنية، كما القوى الغربية، وعرضة تبعاً لذلك لأن تكون أكثر ضعفاً لجهة إمكانياتها وقدراتها. وبحسب الرئيس أوباما، ففرع «القاعدة» في بلاد اليمن هو الذي أمر النيجيري المسؤول عن متفجرة عيد الميلاد، و«درّبه، وجهّزه بالمتفجرات لمهاجمة الولايات المتحدة». بنتيجة ذلك، وفي ما يشبه الصفقة، بعث أوباما برسالة إلى صالح حملها إليه الجنرال باتريوس، الذي غدا قائد المنطقة المركزية في الولايات المتحدة، تعهّد فيها بمضاعفة مبلغ السبعين مليون دولار الذي تلقاه صالح سنة ٢٠٠٩ مقابل مكافحة اليمن للإرهاب، ناهيك عن برامج المكافحة التي تديرها الـ «سي. آي. إيه.» مباشرة في اليمن، ومنها الضربات الجوية بطائرات من دون طيّار[١٩].

---

(١٩) «Obama Blames al-Qaeda for Christmas Day Jet «Bomb»,» BBC News (2 January 2010), =

وبالرغم من رفض الرئيس اليمني، بحسب السفير الأمريكي (كما ورد في تسريبات ويكليكس)، عرض باتريوس بإرسال مستشارين أمريكيين في مكافحة الإرهاب ينضمّون إلى القوات اليمنية المكلفة بالمهمة، إلا أنه لم يكن ضد ضرب الإرهابيين من بعيد، من خلال تحليق وعمل الطائرات الأمريكية بلا طيّار على كامل الأرض اليمنية بدل القصف بالصواريخ من البوارج، «ولكن بعيداً عن الأنظار»، والسماح بالتالي بالتعامل مع أهداف «أكاب» حين تصبح المعلومات الاستخباراتية متوفرة[٢٠].

وبالفعل، رصدت الإدارة الأمريكية في الميزانية المالية لسنة ٢٠١٠ مبلغ ١٥٥ مليون دولار، بالإضافة إلى ٢٥٠ مليون دولار زيادة في الدعم الأمني، بديلاً لمبلغ الـ ٤,٦ مليون دولار لا غير الذي كان في ميزانية سنة ٢٠٠٦[٢١]. وباتت اليمن تتلقى من المساعدات ما يوازي المساعدات التي تقدّم إلى باكستان، في إشارة واضحة، وفق مايك مولين، قائد الأركان المشتركة الأمريكي، إلى أن الولايات المتحدة تأخذ تهديدات أكاب «بمنتهى الجدّية»[٢٢]، بل إن محللي الـ «سي. آي. إيه.» يعتبرون أن تهديدات القاعدة/اليمن هي الآن أكثر خطورة من القاعدة/باكستان[٢٣]. كما أن إدارة أوباما كانت قد زادت، وقبل عملية عيد الميلاد الإرهابية الفاشلة، من وتيرة عملياتها في اليمن، ثم نفّذت بعد ذلك على نحو منهجي ٤ هجمات بالصواريخ وضربات

<http://news.bbc.co.uk/1/hi/8437496.stm/>; Mohamed Sudam, «Yemen President Tackles = Boosting Security with U.S.,» Reuters (2 January 2010), <http://www.reuters.com/article/idustre60116k20100102>, and Roger Runningen, «Obama Counter-terror Aide Confers with Yemen's Saleh on Fighting Al-Qaeda,» Bloomberg (20 September 2010), <http://www.bloomberg.com/news/2010-09-20/obama-counterterror-aide-confers-with-yemens-saleh-on-fighting-al-qaeda.html>.

(٢٠) «General Petraeus' Meeting with Saleh on Security Assistance, AQAP Strikes,» US Department of State, Secret/Nofornsanaa000004, Wikileaks, and Shane, «Yemen Helps U.S. Fight Al Qaeda, on Its Own».

(٢١) Ben Wedeman, «Is Yemen Crying «al Qaeda»?,» CNN (8 November 2010), and Phil Stuart, «The United States Has the Resources and Allies Needed to Combat al Qaeda,» Reuters (9 November 2010).

(٢٢) Kimberly Dozier, «Mullen Says Al-Qaeda Threat from Yemen is Serious,» Associated Press (21 November 2010).

(٢٣) Greg Miller and Peter Finn, «CIA Sees Increased Threat from al-Qaeda in Yemen,» *Washington Post*, 24/8/2010; Adam Entous and Siobhan Gorman, «U.S. Weighs Expanded Strikes in Yemen,» *Wall Street Journal*, 25/8/2010, and Shane, Mazzetti and Worth, «Secret Assault on Terrorism Widens on Two Continents».

جوية على معاقل القاعدة في جبال اليمن وبين صحاريه، فقتلت العشرات من المدنيين مقابل قلة فقط من مشتبهي «القاعدة»[٢٤].

هناك الكثير من الشكوك المحيطة بحقيقة فاعلية الهجمات الأمريكية تلك. ففي كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩، وعلى سبيل المثال، أطلقت مدمّرة أمريكية من على شاطئ عدن صاروخَي كروز على ما قيل، بحسب منظمة العفو الدولية، إنه معسكر تدريب للقاعدة في محافظة أبين الجنوبية. أشار التقرير الأول للحكومة اليمنية عن الحادث إلى أن قواتها الجوية قتلت «حوالى ٣٤» مقاتلاً من القاعدة في الموقع ذاك، وأن آخرين أسروا في عملية أرضية منسقة. وفي اليوم التالي اتصل أوباما بصالح ليشكره على تعاونه وليبلغه استمرار الدعم الأمريكي، ثم أرسل الجنرال باتريوس إلى اليمن ليقدم شخصياً إلى صالح رزمة من أنواع المساعدة الأمنية في مكافحة الإرهاب.

في الاجتماع مع باتريوس، الذي مرّ ذكره، وبعدما امتدح ضربات كانون الأول/ديسمبر، أشار صالح وفق برقيات الخارجية الأمريكية المسرّبة إلى أن «أخطاء وقعت» وأدت إلى مقتل مدنيين. وردّ صالح ذلك إلى أن قصف صواريخ الكروز «ليس دقيقاً جداً»، ورحّب في المقابل بنشر طائرات تدار بدقة بدلاً من ذلك. وبما أنه جرى الإعلان أنها ضربات يمنية، فإن هاجس صالح الأساسي يبقى تجنّب ردّات الفعل اللاحقة داخل البلاد، لذا أبلغ باتريوس: «سنستمر بالقول إن القنابل هي قنابلنا نحن، لا أنتم»[٢٥].

لكن الصحافة اليمنية أظهرت سريعاً أن الهجمات تلك كانت أمريكية في الواقع، وتلا ذلك تجمّع يمني غاضب احتجاجاً على الهجمات. وانضمت القاعدة إلى التجمّع الشعبي ذاك، وحاولت استثمار الغضب القائم. وفي الموضوع نفسه، أفادت لجنة تحقيق برلمانية يمنية أن الضربات أدت إلى مقتل ٤١ مدنياً على الأقل من عائلة حيدرا في خيام لبدو قرب ما يعتقد أنه مخيّم للقاعدة. وقد قتل ثلاثة آخرون وجرح سواهم بعد بضعة أيام حين داسوا على مخلّفات من ذخائر غير منفجرة من الصاروخ. وبحسب تحقيقات منظمة العفو الدولية، فقد جهّز الصاروخ بقنابل عنقودية التي تنتشر بشكل قنابل أو ألغام

(٢٤) Miller and Finn, Ibid, and Shane, Mazzetti and Worth, Ibid.

(٢٥) «General Petraeus' Meeting with Saleh on Security Assistance, AQAP Strikes».

صغيرة لا ينفجر بعضها إلا بعد حين، ولتزيد من الخسائر المادية. وقد أدانت منظمات حقوق الإنسان استخدام هذا النوع من الذخائر(٢٦).

وبحسب اللجنة البرلمانية اليمنية، فقد أدّت هجمات كانون الأول/ ديسمبر إلى مقتل ١٤ من مقاتلي القاعدة، لكنها أثارت في المقابل موجة غضب شعبية ضد نظام صالح وحلفائه الأمريكيين، ومنحت القاعدة مادة ثمينة للدعاية. وللمزيد من إضعاف سلطة صالح، أطلق صاروخ كروز على تجمّع مشتبه به للقاعدة في محافظة مأرب، شرقي صنعاء، في ١٠ أيار/مايو ٢٠١٠، فقتل بنتيجة القصف نائب الحاكم المحلي جابر الشبواني و٤ من حراسه. وللمفارقة، كان الشبواني قد كلف بمهمة إقناع عناصر القاعدة هناك بإلقاء أسلحتهم. ووجدت منظمة العفو الدولية هناك أيضاً آثار قنابل عنقودية استخدمت في الهجوم. وفي كل الأحوال، فقد أشعل مقتل الشبواني، وهو شيخ من قبيلة عبيدة القوية، تمرداً إضافياً ضد نظام حكم صالح، فهاجم أفراد من القبيلة، ومن بينهم والد جابر الشيخ علي الشبواني، أنابيب النفط القريبة وقطعوا إمداداتها، وكذلك قطعوا خطوط نقل الكهرباء التي تصل محطة إنتاج قريبة بالعاصمة، وتسبّبوا بظلام في العاصمة استمر لساعات عدّة(٢٧).

وافق صالح، الذي كان غاضباً، بحسب وصف الأمريكيين، على تحكيم القبائل في ما جرى، ودفع فدية الدم إلى عائلة الشبواني والقبيلة، وبهدف تجنّب حمام دم بين الطرفين. وبحسب مسؤولين يمنيين تحدّثت معهم، فإن مقتل الشبواني بعث برسالة سلبية عن وضعية نظام صالح؛ فقد حطّ من شرعية حكومته الضعيفة أمام القبائل والرأي العام عموماً. لكن صالحاً لم يطلب بالنتيجة طرد القوات الأمريكية من اليمن، ووقف قصف الطائرات الموجّهة عن بعد، لأنه كان في أمسّ الحاجة إلى مساعدة الولايات المتحدة، طالما هي لا تؤثر في بقاء نظامه.

تصوّر البرقيات الدبلوماسية المسرّبة أن صالحاً عمل جاهداً على تصعيد الحرب ضد «أكاب» وأعدائه الداخليين، وعلى اقتطاع المزيد من الدعم المالي

---

(٢٦) Shane, Mazzetti and Worth, Ibid., and Abdul-Ahad, «Shabwa: Blood Feuds and Hospitality in al-Qaida's Yemen Outpost».

(٢٧) «مقتل نائب حاكم مأرب في غارة جوية أمريكية عن طريق الخطأ،» الرياض دوت كوم (٢٦ أيار/ مايو ٢٠١٠)، <http://www.alriyad.com/2010/05/26/article529112.html>.

والمادي من الولايات المتحدة، ولكن وفق ترتيبه الخاص، أي بفرض قيود على العمليات الأمريكية في بلده. وعلى سبيل المثال، ففي أثناء اجتماعه ببرنن، طلب صالح تكراراً المزيد من الأموال والتجهيزات لمحاربة «أكاب» والتمرد الحوثي في الشمال في آن معاً. قال صالح لبرنن، في واحدة من برقيات السفير الأمريكي المسرّبة: «هذه الحرب التي نخوضها [ضد الحوثيين] هي باسم الولايات المتحدة. . . فالحوثيون أعداؤكم أيضاً»، عارضاً فيديوات مصوّرة للحوثيين يهتفون «الموت لأمريكا». ويضيف أن إخفاق أمريكا في اعتبار الحوثيين إرهابيين ينال من الصداقة والتعاون بين البلدين. لكن السفير الأمريكي يشير في برقيته إلى أن الحوثيين لم يهاجموا في أثناء القتال مع القوات الحكومية منذ سنة ٢٠٠٤ مصالح أمريكية[٢٨].

أذكت الغارة الأمريكية ومقتل الشبواني وحراسه الأربعة أسوأ توقعات صالح حول المخاطر الكامنة في التكتيكات العسكرية الأمريكية من جانب واحد. وكيما يستبق النقد الداخلي، أخبر وزير الخارجية اليمني أبو بكر القربي، جريدة **الحياة** المملوكة من السعودية، وبينما كانت الولايات المتحدة تنفّذ كالعادة غاراتها في اليمن، أن اليمن طلب توقف تلك الغارات في كانون الأول/ ديسمبر لأن «الحكومة اليمنية كانت متأكدة من أنها لم تصل إلى أية نتيجة». وأضاف القربي أن محاربة القاعدة هي من مسؤولية قوات الأمن اليمنية، وأن الحكومة لن تسلّم العولقي إلى الولايات المتحدة فيما لو ألقت القبض عليه[٢٩].

في خريف ٢٠١٠ أكدت تقارير عدة أن الفريق الأمني للرئيس أوباما دعا إلى تصعيد العمليات في اليمن، بما فيها استخدام الطائرات بلا طيار، وبحسب ما قاله مسؤول أمني رفيع لـ **واشنطن بوست**: «نحن مصمّمون على استخدام كل ما هو متاح لنا». ووصف الخطط الموضوعة بأنها «تصعيد قوي لبضعة أشهر»[٣٠]. ويقول مسؤول أمريكي في مكافحة الإرهاب لـ **وول ستريت جورنال** إن قوات العمليات الخاصة والـ «سي. آي. إيه.» هي في صدد إقامة

(٢٨) «Brennan Saleh Meeting September 6, 2009,» and Shane, «Yemen Helps U.S. Fight Al Qaeda, on Its Own».

(٢٩) **الحياة**، ٣٠/ ٩/ ٢٠١٠، و Mohammed Jamjoom, «Yemen: U.S. has Carried Out Airstrikes in Yemen,» (30 September 2010).

(٣٠) Miller and Finn, «CIA Sees Increased Threat from al-Qaeda in Yemen».

مراكز ونشر طائرات بلا طيار وجنود في اليمن وجيبوتي وكينيا وإثيوبيا في محاولة لتصعيد العمليات ضد «أكاب» و«حركة الشباب» الصومالية[(٣١)].

أكثر من ذلك، فإن متفجرة طائرة الشحن في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٠ أضافت حالة من الطوارئ على مراجعة إدارة أوباما لخيارات التوسع العسكري، بما فيها وضع نخب متخصّصة في الاغتيالات بتصرّف الـ «سي. آي. إيه.»[(٣٢)]. وتنقل الـ **وول ستريت جورنال** عن مسؤولين لم تسمّهم أن التأييد يتزايد داخل الإدارة لنقل إدارة العمليات إلى الـ «سي. آي. إيه.»، الخطوة التي ستسمح للوكالة بضرب أهداف مشتبه بها في اليمن بقوة وسرعة أكبر، ومن دون طلب موافقة حكومة صالح. وعلى ذلك، فالبيت الأبيض في صدد إضافة طائرات بلا طيار إلى عتاده في اليمن، في تكرار لحملة الوكالة في باكستان[(٣٣)]. وهذا التصعيد المفترض يكمل عمل فرق الوحدات الخاصة الموجودة الآن في اليمن بالفعل، وقد أدت دوراً متوسعاً في البلاد، ومن ضمنه أنشطة قتل أفراد القاعدة، مثل العسيري والعولقي[(٣٤)].

تحتوي الاستراتيجيا الأمريكية على عمليات وعناصر لا تعترف بتعقيدات الوضع في اليمن، أو بالمخاطر التي ينطوي عليها التوسع في التورط العسكري الأمريكي هناك. وأية ردّة فعل أمريكية عنيفة سوف تعقّد المسائل أمام الحكومة اليمنية بدل تسهيلها. كما أن أنشطة «أكاب» المستمرة في مهاجمة الولايات المتحدة من اليمن إنما تهدف إلى جرّ الولايات المتحدة إلى التدخل العسكري في اليمن. ومثل هذا السيناريو سوف يؤجج المشاعر المعادية لأمريكا هناك، ويوفّر للقاعدة منتسبين جدداً ودعماً شعبياً. وقد حذّر صالح مفاوضيه الأمريكيين من أن تعميق التدخل الأمريكي في اليمن يمكن أن يسفر عن خسائر مكلفة. وفي لقائه مع مستشار أوباما لمكافحة الإرهاب، برنن، ناشد صالح عدم استخدام الأراضي اليمنية في هجمات الولايات المتحدة على «أكاب». وقد قال، بحسب برقية للسفير الأمريكي هناك: «ربما يقود ذلك إلى هجمات لـ «أكاب» على سفارة الولايات المتحدة أو على أهداف غربية

---

(٣١) Entous and Gorman, «U.S. Weighs Expanded Strikes in Yemen».

(٣٢) Julian E. Barnes and Adam Entous, «Yemen Covert Role Pushed: Failed Bomb Heightens Talk of Putting Elite U.S. Squadsin CIA Hands,» (1 November 2010).

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) المصدر نفسه.

أخرى، وسيفتح الباب على الإرهاب، وعليه، فأنا لست مسؤولاً»[٣٥].

منذ التسعينيات أظهرت اليمن أنها أرض خصبة للجهاديين. وقد لعب صالح على هذا الوتر، فاستخدمهم لزعزعة الأوضاع الداخلية لخصومه، بمن فيهم الاشتراكيين والانفصاليين في الجنوب. وكما يبدو، فقد وافق الجهاديون بعد ١١ أيلول/سبتمبر ضمناً على صفقة عرضها صالح، وتقوم على منع عملياتهم داخل اليمن، وترك الأمور غير محدّدة في ما خصّ الهجمات خارج اليمن.

لكن صفقة التعايش هذه انهارت نتيجة للتصادم بين متغيّرات لاحقة عدة، منها:

أ ـ عجز إدارة صالح (أو عدم رغبتها) في توفير فرص عمل وخدمات وعدت بها جهاديين قادة سابقين مثل خالد عبد النبي.

ب ـ تدهور الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية والسياسية في اليمن وتزايد التمرّدات المسلحة ضد الحكومة.

ج ـ اندماج الفرعين السعودي واليمني من القاعدة في «أكاب».

وبالرغم من استمرار التهديدات التي تمثّلها «أكاب»، إلا أنها لا تنطوي في الواقع على مخاطر جدّية تطال وجود الحكومة اليمنية أو المصالح الغربية الأمنية الحيوية. فهناك إجماع بين الباحثين الذين درسوا الحالة اليمنية، مثل شايلا واير، من المتحف اللندني سابقاً، وشايلا كرابيكو من الجامعة الأمريكية في القاهرة؛ ونورا كولتون من جامعة شرق لندن؛ ومارتا ماندي من مدرسة لندن للاقتصاد؛ وستيف كايتون من جامعة هارفارد، أن «القاعدة» هي بين أقل المشكلات اليمنية خطراً. ويقترح الباحثون أولئك أنه بدل رصد المبالغ والموارد الطائلة لمقاتلة كيان بات بلا أسنان أو أظافر حقيقية، يجب الاستثمار عوضاً عن ذلك في بناء المؤسسات، والاقتصاد السياسي، والحكم الرشيد، بوصفها علاجات أكثر جدوى للتطرّف.

إن إحياء خطر «القاعدة» يتوقف إلى حدّ كبير على الطريقة التي سيتصرّف بها صالح في التنازل عن السلطة أو مواجهة شعبه، كما فعل نظيره القذافي من

---

(٣٥) «Brennan Saleh Meeting September 6, 2009».

قبل. فالمواجهات المسلحة، والحرب الأهلية بالتالي، سيكونان الأرض الخصبة التي تبحث عنها القاعدة لتعزيز موقعها كطليعة المقاومة المسلحة لنظام صالح.

يؤكد المحللون الأمريكيون الاختصاصيون في مكافحة الإرهاب أن «أكاب» تتعاون الآن على نحو وثيق مع حلفاء في باكستان والصومال في التخطيط لهجمات ضد المصالح الغربية. لكن هؤلاء لا يقدمون دليلاً ملموساً على فرضيتهم غير التكهنات والتقييمات من الخارج. والمؤامرات القليلة التي حاكتها «أكاب» مثل الهجوم على المسؤول السعودي عن مكافحة الإرهاب، ومتفجرة الثياب الداخلية، ومتفجرة طائرة الشحن، تحمل جميعها البصمة الشخصية للعسيري: صانع المتفجرات الرئيسي في الجماعة. وفي الواقع، فإن المسؤولين أنفسهم الذين يدّعون أن هناك صلات وعلاقات بين «أكاب» و«حركة الشباب» في الصومال، إنما يبرّرون دعواهم بالاعتقاد أن «مسار الأمور» يذهب في الاتجاه ذاك، فيما من الصعب «قياس ذلك على نحو دقيق»[٣٦]. والصومال حقل مناسب للمقارنة والقياس؛ فهي لأكثر من عقدين من الزمن أرض بلا حكومة فاعلة أو اقتصاد، وأمراء الحرب يستمرون في التقاتل على الهيمنة. ومن هذا الباب، فإن الخطر الحقيقي إنما يبدأ حين تتمكّن «حركة الشباب» الصومالية من السيطرة على البلاد وتأسيس حكم شبيه بذاك الذي كان لطالبان. لكن تلك حالة أخرى لا يمكن مقارنة اليمن بها على الإطلاق، إلا إذا انزلقت البلاد إلى حرب أهلية مفتوحة، وما من شيء يشير الآن إلى ذلك قط.

أما عن الصلات المفترضة بين القاعدة المركزية وفروعها، فهي من الصعوبة بمكان حالياً، وليس ضرورياً أن يكون المرء اختصاصياً في الجماعات الجهادية لاكتشاف ذلك. فلم يكن بن لادن، ولا الظواهري الآن، في وضع يسمح لهما بتنسيق التكتيكات والهجمات النوعية. وهما لم يؤديا على الأرجح أي دور في التخطيط للهجمات الإرهابية؛ لقد تحوّلا واقعياً إلى داعين ومنظّرين أيديولوجيين للجهاد الأممي لا أكثر. وتؤكد الخلاصة تلك الطبيعة «التبشيرية» للمخطّطات التي عُثر عليها في مجمّع بن لادن في باكستان. وبحسب ليون بانيتا، مدير الـ «سي. آي. إيه.»، فإن مسؤولي القاعدة القلائل الذين بقوا على قيد الحياة كان يشاركون بن لادن المخابئ السرية، وانهيار المعنويات، ولطالما طالبوه بالخروج إلى العلن. وعليه، فمن من الطبيعي الاستنتاج أنه إذا كان

(٣٦) Entous and Gorman, «U.S. Weighs Expanded Strikes in Yemen».

ابن لادن والظواهري عاجزيْن عن التنسيق والتخطيط مع مساعديهما الأقربين، فهما عاجزان عن ذلك بالتأكيد مع حلفائهما الأبعدين.

وبمعزل عن مدى الخطورة التي قد تصبح عليها «أكام»، فهي ستبقى وإلى الحد الأقصى مشكلة يمنية، ويجب مقاربتها من الداخل. لذلك يتوجب على اليمن نفسه أخذ زمام المبادرة في توعية الرأي العام وتربيته، بما في ذلك القبائل، على رؤية المخاطر التي تنطوي عليها «القاعدة». وليس هناك، لحسن الحظ، غير القليل جداً من التعاطف مع القاعدة؛ والقبائل القليلة التي تؤمّن لها الملاذ إنما تفعل ذلك من باب أعراف الضيافة القبلية التقليدية، وليس لأسباب أيديولوجية، أو من باب إظهار المعارضة لنظام حكم صالح. وإذا أحسن إدماج تلك القبائل ومكافأتها، فهي لن تتردّد في إعادة مقاتلي القاعدة مرة ثانية إلى بطون الجبال.

لكن تحقيق ذلك على الأرض ليس سهلاً كما قوله بالكلام، وهو يحتاج تحديداً إلى دعم المجتمع الدولي. ومع أن رسميي الولايات المتحدة يقدمون بعض الخدمات العرضية لتطور البلاد الاجتماعي الاقتصادي والسياسي، فهم يتصرّفون كما لو أن مواجهة القاعدة هي مسألة مكافحة الإرهاب فحسب. فقد أعلن البيت الأبيض في حزيران/يونيو ٢٠١٠ أنه سيضاعف ثلاث مرات مساعداته الإنسانية لليمن لتبلغ ٤٢,٥ مليون دولار، وهو مبلغ يبدو تافهاً إذا قورن بحاجات البلاد الملحّة أو بالمبالغ التي ترصدها الولايات المتحدة للعمليات الأمنية في مكافحة الإرهاب في اليمن التي تبلغ نحواً من ٢٥٠ مليون دولار. وهناك، كما قلت سابقاً، أدلة كافية للاعتقاد بأن إدارة أوباما وضعت الـ «سي. آي. إيه.» ووحدات العمليات الخاصة قيد العمل في اليمن. ويلاحظ الزائرون إلى السفارة الأمريكية في صنعاء أنها تغصّ على نحو متصاعد بالجنود وعملاء الاستخبارات؛ مقاتلي الظلّ، كما يقال(٣٧).

لقد غدت اليمن حقل تجارب لخطط برنن الذي يقول إن على أمريكا استخدام «المبضع» بدلاً من «مطرقة» بوش. وبحسب **النيويورك تايمز**، فقد تحولت الـ «سي. آي. إيه.» في عهد أوباما إلى مؤسسة شبه عسكرية، فيما يتحول البنتاغون بالتدريج كيما يشبه الـ «سي. آي. إيه.». ففي الشرق الأوسط،

(٣٧) Shane, Mazzetti and Worth, «Secret Assault on Terrorism Widens on Two Continents».

وأمكنة أخرى، توسّع «القوات الخاصة» من عملياتها، مع رقابة من الكونغرس هي في الحدّ الأدنى. وما يقلق مسؤولين رفيعين سابقين في الـ «سي. آي. إيه.» ووزارة الدفاع هو أن ذلك يجري، كما يقولون، «من دون قواعد واضحة»[٣٨].

وفي ما هو أبعد من المسائل القانونية المثارة، فإن الاعتماد المبالغ فيه على عمليات أحادية في مكافحة الإرهاب يفاقم من إشكالية الوجود الأمريكي الأمني في اليمن وسواها. وفي حين إن العمليات الأحادية تلك ربما تقتل مقاتلين من «أكاب»، إلا أنها تزيد من عزلة الولايات المتحدة لدى الرأي العام المسلم، ما يفتح الباب لدخول الجماعات المتطرفة. وفي هذا الصدد، يحذّر إدموند هال، السفير الأمريكي إلى اليمن بين ٢٠٠١ و٢٠٠٤، من أن السياسة الأمريكية هناك يجب أن لا تكثر من الركون إلى القوة في تعاملها مع القاعدة. ويصرّح: «أنا قلق من أن مكافحة الإرهاب يجري تعريفه كاستخبارات وبرنامج عسكري. وإذا ما أردنا النجاح على المدى البعيد، علينا بمقاربة أوسع تؤكد أيضاً العناصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية»[٣٩]. وبحسب باربرا باودين، سفيرة الولايات المتحدة في اليمن بين ١٩٩٧ و٢٠١١ وهي عارفة ماهرة بالبلاد، فإن هجمات الطائرات بلا طيار الجارية «تجلب من الضرر أضعاف ما تجلبه من المنفعة»[٤٠]. ونختم بجملة لافتة للعولقي على الإنترنت، حيث يقول: «إذا كان جورج دبليو بوش سيُذكر لدفعه أمريكا إلى فخ افغانستان، فالرئيس أوباما، كما يبدو، يريد أن يُذكر باعتباره الرئيس الذي أدخل أمريكا في فخ اليمن»[٤١].

وفي رسالة واضحة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بالتوقف عن توسيع مدى عملياتها في اليمن، وقّع في كانون الثاني/يناير ٢٠١٠ حوالى ٢٠٠ عالم معروف في اليمن بياناً تعهدوا فيه بقيادة الجهاد ضد أية قوة أجنبية تحتل البلاد[٤٢]. ومعظم

---

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) المصدر نفسه.

(٤٠) «Analysis: Yemen Gives Wounded al Qaeda a Chance to Regroup,» Reuters (27 May 2011).

(٤١) أنور العولقي، «رسائل إلى الشعب الأمريكي،» الجبهة الإسلامية العالمية الإعلامية (٢٥ نيسان/أبريل ٢٠١٠).

(٤٢) «Yemeni Scholars Threaten to Declare Jihad against Any Foreign Military Intervention,» NabaNews.Net (14 January 2010), <http://www.nabanews.net/2009123437.html>, and Scott Peterson, «In Yemen, 158 Clerics Vow Jihad if US Military Intervention Broadens,» *Christian Science Monitor*, 14/1/2010.

التقارير الحديثة من اليمن تشير إلى أن التعاون العسكري مع الولايات المتحدة قد أحال المزيد من اليمنيين ضد نظام حكم صالح[٤٣]. ويبدو اليمنيون اليوم الأعلى صوتاً بين العرب في إظهار مشاعر العداء للولايات المتحدة. وكل سياسة تتجاهل هذا السياق المحلي والظروف الاجتماعية فهي إنما تخدم القاعدة.

هذا هو واقع الحال تماماً. فحديث الإرهاب لا ينفك يصوّر اليمن من منظار ضيّق، كجبهة قتال مفتوحة، وعلى نحو ما جرى في أفغانستان، وباكستان، والصومال. كلّ شيء هناك يجري تصويره كامتداد لجهاد بن لادن الأممي ضد الغرب. لقد جرى تبسيط العالمي وتعميمه وتقديمه على المحلي، أما الفروقات والتباينات فشطبت. حديث الإرهاب هو موديل من مقاس واحد يصلح لكل الأحجام وكل الحالات، وينتهي برفع القاعدة إلى مستوى القوى العالمية العظمى. لقد خطّطت «أكاب» فعلاً لهجمات على أهداف غربية، لكن ذلك لا يجعلها امتداداً للقاعدة المركز. وهي، أكثر من ذلك، متورطة الآن في مواجهة مع السلطات اليمنية، وهي مواجهة تبدو أكبر من قدرات تنظيم صغير، وبخاصة إذا ترك علي صالح السلطة. وسيكون ذلك بداية نهاية «أكاب».

٢ ـ مجموعة العولقي

وأخيراً العولقي، الذي بات الشخصية التآمرية الأولى في نظر الاستخبارات الأمريكية والبريطانية. ففي نيسان/ أبريل ٢٠١٠ جعلته إدارة أوباما، كما قلت آنفاً، هدفاً مشروعاً للاغتيال، رغم حقيقة أنه مواطن أمريكي. وينطوي هذا التهديد على الجدّية الكاملة. فبعد ثلاثة أيام من الغارة الأمريكية التي قتلت بن لادن، أطلقت طائرة من دون طيّار هجمة صاروخية على زاوية بعيدة من اليمن. وكان الهدف العولقي. وبحسب المسؤولين الأمريكيين، لم تقتل الغارة الأولى المعلن عنها للقوات الأمريكية في البلاد لحوالى سنة، الهدف العولقي، بل قتلت أفراداً من «أكاب»[٤٤]. وكما أعلن جوناثان إيفانز، رئيس جهاز «إم. آي. ٥» للأمن الداخلي في الاستخبارات البريطانية في حديث نادر، فالعولقي هو العدو العلني رقم واحد للغرب، إذ قال: «التورط العملياتي للداعية الذي يتخذ من اليمن قاعدة له، العولقي، مع القاعدة، هو أمر مقلق لنا نظراً إلى العدد

(٤٣) خالد عبد الله، «غارات الدرون تؤجج عدم الثقة بين الحكومة وأمريكا،» **القدس العربي**، ٢٨/ ١٠/ ٢٠١٠.

(٤٤) Mark Mazzetti, «Drone Strike in Yemen Was Aimed at Awlaki,» *New York Times*, 6/5/2011.

الكبير من أتباعه في الغرب، بما في ذلك بريطانيا»(٤٥). وهكذا يجري على نحو متزايد تقييم العولقي من طرف مسؤولي الاستخبارات الغربية كتهديد لا يقل خطراً عن بن لادن والظواهري. وعليه، لم يرد في الخطاب العلني الأول لجون سيورز، رئيس جهاز الاستخبارات البريطاني «إم. آي. ٦» من اسم لأي قائد مجاهد خلا العولقي، الذي وصفه سيورز بالقول: «أقرأ، كل يوم، تقارير استخباراتية تصف تخطيط الإرهابيين المصمّمين على إرهاب وقتل الناس في هذه البلاد... ومن مكانه البعيد في اليمن يستمر العولقي في إذاعة الدعاية والتوجيهات الإرهابية في لغة إنكليزية متقنة عبر الإنترنت»(٤٦).

اتهم العولقي بمؤامرات إرهابية عدة في الولايات المتحدة وبريطانيا، لكن العولقي ليس بن لادن. فهو لا يملك غير قلة من الأتباع في اليمن وفي العالمين العربي والإسلامي، ورسالته تتجه خصيصاً إلى قلة من الشباب، ولم تؤثر في جمهور المسلمين الذين يعيشون في الغرب. والذي جعل الشباب ذاك يتجه إلى العولقي هو الغضب الذي يعتريهم جرّاء المواجهات والاستلاب الذي يعيشونه في المجتمعات الغربية. لقد ملأ العولقي فراغاً أيديولوجياً لدى أولئك الذين يشعرون بأن هويتهم الإسلامية هي في خطر.

إن أية عملية قتل للعولقي ستحيله شهيداً للأمة، وستقيم قيامة الرأي العام المسلم ضد الولايات المتحدة. والإجراء الأقل كلفة، حتى بمنظار مصالح الولايات المتحدة، هو إقناع القبيلة التي تأويه وتحميه، العوالقة في الجنوب، بتسليمه إلى السلطات، فتتوقف دعايته. وحين سألت **الغارديان** سلطان فريد بابكر، زعيم قبيلة العوالقة، لماذا تحمي القبيلة رجلاً مطلوباً للعدالة في الغرب، كان جواب بابكر البسيط والمقنع: «هذا العالِم لم يرتكب أية جناية في المجتمع... أكثر من ذلك، السلطات اليمنية لم تطلب منا تسليمه لها. وحين تفعل ذلك، نفكّر في الموضوع»(٤٧).

وبابكر حليف قوي للحكومة اليمنية، والصفقة بينهما ربما تكون محتملة، حيث يُمنح العولقي فيها حق الدفاع عن النفس ويُجعل له ترتيب ما داخل اليمن

---

(٤٥) Philip Johnston, «Anwar al Awlaki: The New Osama bin Laden?,» *Daily Telegraph*, 17/9/2010.

(٤٦) موجودة في: Ravi Somaiya, «Tracking the News on Air Cargo Explosives,» *New York Times*, 30/10/2010.

(٤٧) Abdul-Ahad, «Shabwa: Blood Feuds and Hospitality in al-Qaida's Yemen Outpost».

وفق اعتبارات قبلية تقليدية. وربما تكون ذلك فرصة العولقي الأفضل على الإطلاق، إذ إنه بعد فشل عملية متفجرات طائرة الشحن في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٠ أصبح متهماً رسمياً من الحكومة اليمنية بالتحريض على قتل الأجانب والانتماء إلى تنظيم مسلح، وهناك خطط للحكم عليه غيابياً[٤٨].

وفي الواقع، تبدو الحكومة اليمنية مصمّمة على جلب العولقي إلى القضاء، رغم أن ذلك مرتبط بصراع القوة الجاري. فالعولقي، لصالح، هو نقطة صالحة لصفقة تفاوض يرغب فيها مع القوى الغربية. والنقطة تلك لا تفوت «أكاب»، التي نشرت على الإنترنت بياناً حذّرت فيه قبائل العولقي من مغبّة التعاون مع الحكومة. يقول البيان: «من يرغب في أن يقف [مع الغرب والحكومة الحالية] ويطيع أوامرهما، فهو إنما يعصي الله، ويجب أن يخشى عقاب الله»[٤٩].

وكانت قوات الأمن الحكومية، قبل عملية طائرة الشحن، قد فتشت بالتعاون مع رجال القبائل منطقة صعيد الجبلية في شبوة بحثاً عن عناصر القاعدة؛ وقد شارك رجال قبيلة العولقي في الحملة تلك. وقد وقّع حاكم شبوة وقبيلة العولقي اتفاقاً يقضي بـ «طرد عناصر القاعدة من مناطقهم، وأن يشتركوا في عمليات الجيش المعنية بذلك»[٥٠]. وإلى ذلك، وفي إشارة واضحة من الحكومة إلى الرغبة في ملاحقة القاعدة والتعاون مع القبائل في ذلك، أدى توسط زعماء القبائل إلى تسليم حوالى عشرة من عناصر القاعدة ومسؤوليها لأنفسهم إلى السلطات اليمنية في محافظة «أبين»[٥١]. وبعد عملية طائرة الشحن، سلّم المزيد من مقاتلي القاعدة أنفسهم إلى السلطات اليمنية بتوسط زعماء القبائل أيضاً[٥٢]. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٠ سعى تحالف قبلي بقيادة قبيلة الدخيل، إحدى أكبر قبيلتين في اليمن، إلى الانضمام إلى السلطات

---

(٤٨) Mohammed Jamjoom, «Official: Yemen Plans to Prosecute al-Awlaki,» CNN (2 November 2010).

(٤٩) Mohammed Ghobari, «Yemen al Qaeda Warned Tribe against Helping Government,» Reuters (3 November 2010).

(٥٠) «Yemen in al Qaeda Manhunt as Preacher Appears in Tape,» Reuters (24 October 2010), and «Yemen Hunts al-Qa'ida in Shabwa,» Al Jazeera.net (24 October 2010).

(٥١) «استسلام ١٥ من مقاتلي القاعدة في جنوب اليمن،» **القدس العربي**، ٢٦/ ١٠/ ٢٠١٠، و«الزعيم المحلي لتنظيم القاعدة يسلّم نفسه للسلطات،» **القدس العربي**، ٢٨/ ١٠/ ٢٠١٠.

(٥٢) «استسلام ١٤ ناشط من القاعدة في اليمن،» الجزيرة نت، ١/ ١١/ ٢٠١٠.

في مقاتلة عناصر القاعدة، «المنحرفون الذين شوّهوا سمعة القبائل والدولة في اليمن»(٥٣).

لقد أخذت القبائل على عاتقها تضييق الخناق على «القاعدة» في اليمن. وكل استراتيجيا لا تأخذ ذلك بعين الاعتبار مآلها في الغالب الفشل. وقد تلجأ القبائل، من أجل استفزاز الحكومة، إلى توفير الملاذ والأمان لعناصر «أكاب»، لكن ذلك لا يتضمن أي دعم حقيقي، فديدن القبائل تاريخياً هو الوقوف مع الجانب الذي يؤمن مصالحها. وعليه، فعلى حكومة ما بعد صالح أن تنشئ تحالفاً وطنياً واسعاً يضم المعارضة، إلى القبائل، ويحظى بدعم الدول الخليجية المجاورة، وبخاصة السعودية، والمجتمع الدولي، بما فيه الولايات المتحدة وبريطانيا.

ورغم أن الأزمة الخانقة التي تمر بها اليمن حالياً هي لصالح العولقي و«القاعدة»، إلا أنه ما من قرابة أيديولوجية بينهما وبين القبائل. وعلى التحالف الواسع المعارض لصالح، الذي يضم قوميين وإسلاميين، أن يتفاوض مع القبائل مباشرة بهدف إقناعها بالتوقف عن توفير الملاذ والأمان للعولقي و«أكاب». لم يعُد صالح، الذي سيترك الحكم في النهاية، قادراً على تحقيق أي إصلاح يرتجى، بل بات هو العقبة أمام التغيير الإيجابي في البلد العربي الأكثر فقراً. ووفق مقابلاتي مع إصلاحيين وناشطين من اليمن، وحدها حكومة الوحدة الوطنية من دون صالح تصلح لبدء مقاربة أزمة البلاد الاجتماعية البنيوية العميقة، ولمقاربة موضوع القاعدة كذلك؛ وما من طريق غير ذاك للخروج من نفق الأزمة الحالية.

وبالرغم من التعقيدات والفوضى الحاليين، فالإجراءات الصحيحة الطويلة المدى تستطيع ـ على عكس إجراءات مكافحة الإرهاب القصير المدى الراهنة ـ نقل حياة الشعب اليمني إلى مستوى أعلى لن يكون فيه مكان للقاعدة والعولقي وأمثالهما. ولتجنّب التفرّد الأمريكي المتفاقم، دعت السلطات اليمنية إلى مساعدة دولية في معركتها ضد «القاعدة» (وشكت من أن الولايات المتحدة لا تشرك هؤلاء في معلوماتها الاستخباراتية)(٥٤). لا تستطيع حكومة صالح أن تفعل

---

(٥٣) **القدس العربي**، ٨/ ١١/ ٢٠١٠.

(٥٤) خالد حمادي، «صنعاء تشتكي أن حلفاءها لا يشركونها في المعلومات الاستخباراتية،» **القدس العربي**، ٢/ ١١/ ٢٠١٠.

أكثر مما فعلت، فهي تفتقر إلى الإرادة السياسية، وإلى الإمكانات المناسبة لفعل أكثر من ذلك. ووجودها برمّته هو الآن على المحك. ولن يتردّد صالح إذا تمكّن، وكما فعل سابقاً، في محاولة الإفادة من وجود القاعدة للمناورة وابتزاز الأمريكيين بهدف إطالة عمر نظام حكمه.

في أواخر أيار/مايو ٢٠١١، وقبل بضعة أيام من محاولة اغتياله، كان صالح لا يزال يناور للتملص من خطة «مجلس التعاون الخليجي» من أجل انتقال سلمي للسلطة يتنازل بموجبها طوعاً عن الحكم، وتحول دون محاكمته، إلى رئيس انتقالي يباشر سلسلة إجراءات تخرج البلاد من أزمتها الراهنة. وكان خطابه بإزاء الخطة لا يزال هو نفسه، المناورة والمماطلة، ثم تحذير «الأصدقاء» الأمريكيين والأوروبيين من أن خروجه من السلطة يعني تشريع الباب كاملاً أمام القاعدة وأنشطتها. ومن جملة ما قاله صالح في بيان من التلفزيون إلى القوات المسلحة: «وإلى الأمريكيين والأوروبيين أقول إن القاعدة قادمة وستحكم السيطرة على البلاد». وأضاف: «سيكون المستقبل أكثر سوءاً من الحاضر»[٥٥].

يركّز حديث الإرهاب على ما هو آني ومباشر مدفوعاً بالتخمين والتقييم، وفيهما مخاطرة كبيرة. وعليه، يجب أن يُنسب إلى «القاعدة» كل هجوم يحصل، وكل مخطط إرهابي يكتشف، ويجب أن تُضفى على «القاعدة» المركز قدرات كلية خارقة تجعلها قادرة على الوصول إلى كل مكان على الكوكب. وفيما التقارير الاستخباراتية نفسها تضع أمام السياسيين مختصر تقييمها الذي يقول إن القاعدة باتت مفكّكة، وفي حالة فوضى، ولم تعُد تنطوي على قدرات عسكرية عملياتية، يستمر السياسيون الأمريكيون في العزف على وتر التهديد الاستراتيجي الذي تمثّله القاعدة. واحتمال التعرض لحادث إرهابي جديد، مهما يكن صغيراً، يمنع القادة الأمريكيين، بمن فيهم الرئيس أوباما، من وضع الأمريكيين في الصورة الحقيقية لمستوى التهديد الذي بات عليه وضع القاعدة الحالي. وهكذا، وبعد عقد كامل من هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، لا تزال ردود الأفعال المبالغ فيها هي السمة الغالبة على حرب الولايات المتحدة على الإرهاب.

---

(٥٥) Ahmed Al-Haj, «Yemeni Leader Says He'll Leave, Warns of al-Qaida,» Associated Press (21 May 2011).

ثانياً: التباين في وجهات النظر حيال الإرهاب

ويبقى هناك تباين بين الإجماع في جماعة الاستخبارات وطاقم السياسة الخارجية، الذي يستمر مصرّاً على اعتبار الإرهاب العدو رقم واحد. ففي العام ٢٠٠٨، على سبيل المثال، أقرّت الاستراتيجيا الدفاعية القومية التي أجازها وزير الدفاع روبرت غايتس، وهي أنه حتى لو كسبت الولايات المتحدة حربي العراق وأفغانستان، فذلك لن ينهي حرب أمريكا الطويلة ضد التطرف المسلح. وبدل أن ينتظر المراقب من الوزير غايتس تقييماً لـ «الجهاد الأممي» يكون أقل أيديولوجية، وأكثر تدقيقاً وتحليلاً للمتغيّرات الجيوبوليتيكية التي تراكمت لسنوات، ولحقيقة وضعية القاعدة ومستوى التهديد الذي تمثّله، نراه يستحضر، أكثر من ذلك، مقولات سلفه دونالد رامسفيلد التي ساوت بين الحرب الحالية على الإرهاب والحرب السابقة على الشيوعية السوفياتية والنازية الألمانية.

وبعد شهرين من إعلان الوزيرة كلينتون أن «القاعدة» لا تزال تمثل تهديداً استراتيجياً قوياً لأمن الولايات المتحدة القومي ـ وهو ما بدأتُ به هذا الكتاب ـ أعلن ليون بانيتا الرئيس السابق لـ «سي. آي. إيه.» أن تنظيم القاعدة منهك، وهو في حالة من التفكّك. يقول بانيتا: «يظهر بوضوح من التقارير الاستخباراتية التي نملكها أنهم [القاعدة] يمرون بأوقات عصيبة، وباتوا يفتقدون أي نوع من القيادة والسيطرة، وأنهم يفرّون مذعورين»(٥٦). يصوّر بانيتا تنظيماً محصوراً في بقعة ضيّقة على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية، بلا قائد، ولا يملك الإمكانيات لتنسيق الهجمات في الخارج. ومن بين كل المسؤولين الذين استمروا في تأجيج فكرة الحرب على الإرهاب، يبدو بانيتا الأقرب إلى الاعتراف بأن القاعدة لم تعُد تملك من القوة ما يشكّل تهديداً استراتيجياً(٥٧). والمواد المصادرة بنتيجة الغارة على مجمّع بن لادن في أفغانستان تصّور القاعدة تنظيماً مقعداً من دون أية قدرات عملياتية لتنسيق هجمات خارج قاعدته الجغرافية الضيّقة على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية.

لكن بانيتا لا يستطيع بالتأكيد التخلي عن حديث الإرهاب كلياً. لذلك هو يضيف أنه فيما قيادة «القاعدة» ومواردها تتلاشى على نحو متزايد، فهي ستستمر على الأرجح في البحث عن وسائل للضرب ثانية داخل الولايات المتحدة،

---

(٥٦) *Washington Post*, 18/3/2010.

(٥٧) المصدر نفسه.

مستخدمة أفراداً ليس لديهم سجلات جرمية، ولا معروفين بصلات إرهابية. وهو بذلك يجعل الأمور في حجمها الطبيعي[٥٨]. وتقارير الخارجية حول الإرهاب للعام ٢٠٠٩ تماثل استنتاجات بانيتا، إذ تخلص إلى أنه على الرغم من أن مركز القاعدة في باكستان قد عانى «انتكاسات رئيسية»، إلا أنه بدا مشتركاً على نحو «فعّال» في مخطّطات عملياتية عدة ضد الولايات المتحدة، ويستمر في محاولة استقطاب أفراد من أوروبا الغربية وشمال أمريكا[٥٩].

إن الحالات التي وثّقها بانيتا وتقارير وزارة الخارجية هي تلك التي سبق أن ذكرتها في تواريخها المحددة ـ متفجرة عيد الميلاد الفاشلة، ومتفجرة الثياب الداخلية، ومحاولة طائرة الشحن. تستحق هذه الحالات أن نتوقف عندها ببعض التحليل لاكتشاف الطبيعة المتغيّرة للجهاد الأممي.

نشأت مجموعة بن لادن في أواخر التسعينيات في سياق خاص، وفي بنية تراتبية شديدة المركزية. أما الآن، فقد تحولت إلى ملصق كوني أيديولوجي غير محدد يستند إلى زعمين مترابطين: **الأول** أن الغرب، والولايات المتحدة وبريطانيا خصوصاً، ترفع راية الحرب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين، وتمنع استعادة المسلمين للخلافة الإسلامية؛ **والثاني** أن الواجب الشخصي لكل مسلم هو الانضمام إلى الجهاد ضد أعداء الإسلام والمبادرة إلى تأسيس نظام الحكم القائم على القرآن.

ولا يزال البعض يعتقد ذلك، لأن أيديولوجيا «القاعدة» تجيز قتل أعداء الإسلام، بمن فيهم المدنيين، ويتكيفون بسهولة مع الاتجاهات والخلفيات ومفاهيم شعور الضحية المختلفة. وبنتيجة تصاعد التوترات والكراهية داخل المجتمعات الغربية، يجري الآن استقطاب المتطوعين المجهزين ليكونوا إرهابيين من القاعدة إلى القمة، في الغالب، بعدما كان التجنيد سابقاً بشكل عكسي، وسنرى أمثلة عدة على ذلك.

تشير الحالات الراهنة لموضوع البحث، كيف تجاوزت «القاعدة» في استقطابها لعناصرها المجهزة عمليات الفوارق الطبقية والتعليمية والمكانية.

---

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) «Office of the Coordinator for Counterterrorism: Chapter 1: Strategic Assessments,» Country Reports on Terrorism 2009 (US Department of State) (August 2010), <http://www.state.gov/s/ct/rls/crt/2009/140882.htm>.

ففيصل شهزاد، مفجّر محاولة تايمز سكوير، هو عضو متجذّر في الطبقة الوسطى يحمل درجة ماجستير في إدارة الأعمال، ويبدو مندمجاً كلياً في الحياة الأمريكية؛ ونجيب الله زازي الذي وجد مذنباً في نيويورك في شباط/فبراير ٢٠١٠ بتهمة التخطيط لعمليات تفجير عدة، هو مهاجر أفغاني، مقيم في الولايات المتحدة على نحو شرعي، وسائق عربة في محيط مطار دنفر؛ وعبد المطلب، النيجيري وصاحب متفجرة الثياب الداخلية، هو مهندس خريج جامعة لندن؛ والمايجور نضال مالك حسن من قاعدة فورت هود؛ وخمسة مسلمين أمريكيين من نورث فرجينيا؛ والطبيب الأردني همّام البلاوي تقني معلومات أصبح مفجراً انتحارياً قتل سبعة عملاء لـ «سي. آي. إيه.» في قاعدة للوكالة في محافظة خوست؛ ومفجّر ستوكهولم الانتحاري؛ وتيمور عبد الوهاب العبدلي الذي فجر نفسه في السويد، درس في بريطانيا، وكان سعيداً في زواجه، وله ثلاثة أطفال.

لدى معظم هؤلاء الأفراد قاسم مشترك وهو: أخذهم لأنفسهم الى الحد الأقصى من التطرف - أغضبهم أمر ما رغم أنهم كانوا مندمجين كلياً في الحياة في الغرب. وعلى الأرجح فقد يكون لديهم داخلياً نوع من الموقف الديني - السياسي وهو الذي برر لهم دفع المسائل إلى حيث انتهوا بها - إجازة للقتل.

أفاد شهزاد مستجوبيه، بعد محاولة تايمز سكوير، أنه تصرف انطلاقاً من غضبه بسبب عمليات قصف طائرات الـ «سي. آي. إيه.» بلا طيّار في باكستان، وبخاصة تلك التي حدثت حين كان في زيارة لبلده باكستان[٦٠]. أما د. البلاوي فقد كان، بحسب أسرته، غاضباً بسبب حرب إسرائيل على غزة سنة ٢٠٠٨، ودفعه ذلك إلى التسلّح[٦١]. والمايجور حسن، من فورت هود، هو معالج نفسي في الجيش الأمريكي، انتقد علناً الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق[٦٢].

(٦٠) Greg Miller and Jerry Markon, «Radicalization of Times Square Suspect Was Gradual, Investigators Say,» *Washington Post*, 7/5/2010, and «Times Square Suspect Was Upset Over Drone Attacks, Source Says,» FOX News.com (5 May 2010).

(٦١) «The Radicalization of Dr. Al-Balawi,» My Direct Democracy (13 January 2010), <http://mydd.com/users/mainstreet/posts/the-radicalization-of-dr-al-balawi>, and Juan Cole's Informed Comment Blog, <http://www.juancole.com>.

(٦٢) «Profile: Major Nidal Malik Hasan,» BBC News (12 November 2009), <http://news.bbc.co.uk/1/hi/8345944.stmj>, and Bill Roggio, «US Army Major behind Fort Hood Murders Expressed Sympathy for IslamicTerrorists,» *The Long War Journal* (5 November 2009), <http://www.longwarjournal.org/archives/2009/11/muslim_ army_major_be.php#ixzz0kjGxnsWI>.

لقد قادت الحرب عينها على باكستان وأفغانستان خمسة مسلمين أمريكيين من نورث فرجينيا إلى ميادين المعارك الباكستانية[٦٣]. وفي آذار/ مارس أدين باكستاني أمريكي يدعى دافيد هادلي بالمساعدة في تنفيذ الهجمات الإرهابية في مومباي سنة ٢٠٠٨[٦٤].

اتجه هؤلاء إلى مرشدين دينيين من القاعدة، مثل العولقي، طلباً للنصح والفتوى. هم بادروا إلى الاتصال. فشهزاد، على سبيل المثال، أخبر مستجوبيه أنه هو الذي اتصل بجماعات متطرفة في باكستان للحصول على تقنيات صنع متفجرة، وعلى الفتوى الدينية أيضاً، على الأرجح. وحين أقرّ بجريمته في قاعة محكمة المقاطعة في مانهاتن، أخبر القاضية ميريام غولدمان سيدربوم أنه كان «ينتقم» للحرب في أفغانستان، وللتدخل الأمريكي في باكستان والعراق واليمن والصومال؛ قال: «أنا جزء من الردّ على إرهاب الولايات المتحدة للشعوب الإسلامية والأمم الإسلامية»[٦٥].

ولما ضغطت القاضية سيدربوم أكثر بسؤاله: لماذا استهدف مدنيين إذا كان هدفه الانتقام من القوات الأمريكية، أجاب: «الطائرات بلا طيار التي تضرب في أفغانستان والعراق لا ترى الأطفال؛ هي لا ترى أحداً. هي تقتل النساء والأطفال، هي تقتل كل إنسان. إنها حرب، وفي الحرب هي تقتل الناس. هي تقتل المسلمين»[٦٦].

شهزاد هو نموذج لأفراد تطوعوا من تحت إلى فوق، ومع ذلك فحين يركّز المسؤولون الأمريكيون وخبراء الإرهاب حصرياً على صلة شهزاد بطالبان باكستان، فهم يهملون كيف أن الحرب على الإرهاب تغذّي التطرف الداخلي في المجتمعات الغربية. ومن بين مئات التقارير الإعلامية عن شهزاد، فقط مقالة في **النيويورك تايمز** كان عنوانها «مقاتلة الإرهاب، خلق إرهابيين» حاولت رسم

---

(٦٣) Jeremy Markon, Pamela Constable and Shaiq Hussein, «Va. Suspects in Pakistan Say Mission Was Jihad Not Terrorism,» *Washington Post*, 5/1/2010, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2010/01/04/AR2010010400800.html>.

(٦٤) Mark Mazzetti, Sabrina Tavernise and Jack Healy, «Suspect is Said to Admit to Role in Plot,» *New York Times*, 5/5/2010.

(٦٥) Scott Shane, «Fighting Terrorism, Creating Terrorists,» *New York Times*, 4/7/2010, and Tom Hays, «Guilty Plea in Failed N. Y. Car Bombing,» Associated Press (22 June 2010).

(٦٦) Larry Neumeister and Tom Hays, «Faisal Shahzad, Times Square Car Bomber, Details His Chilling Plot,» Associated Press (22 June 2010).

صلة بين محاولة التفجير والحرب على الإرهاب. وبحسب الصحيفة: «حالة بعد أخرى، يضع الإرهابيون التورط الأمريكي العسكري في العالم الإسلامي بوصفه حرب الولايات المتحدة ضد الإسلام»[٦٧]. لقد وجدت المحاكم الأمريكية مشتبهين عدة نشأوا في الغرب مذنبين ـ وقد قابلت شخصياً عدداً من محاميهم ـ ذكروا جميعهم «الاعتداء» و«الاحتلال» الأمريكيين لبلاد المسلمين في العراق وأفغانستان مبرّراً لأفعالهم؛ لقد بدوا على الغالب مدفوعين بروح الانتقام من «الحرب على الإرهاب» أكثر من كونهم مدفوعين باعتبارات دينية أو أيديولوجية ـ ومنها شعورهم قبل أي شيء آخر بالتضامن مع إخوانهم المسلمين المعتدى عليهم. قال شهزاد، فيما كان جالساً بين محاميه والادعاء في المحكمة الفدرالية، في تجاوز غير اعتيادي للدفوع القانونية في القضية: «عليكم معرفة من أين أتيت... أنا اعتبر نفسي جندياً في الإسلام»[٦٨]. وقال بعد أربعة أشهر من الواقعة تلك والحكم عليه بالسجن المؤبد، إن المسلمين إنما يدافعون عن شعبهم وأرضهم. فإذا كان ذلك إرهاباً «فسنستمر في إرهابكم». وعندما دعته القاضية إلى التفكير في أعماله، و«ما إذا كان القرآن يسمح بقتل المدنيين»، أجاب شهزاد، «القرآن أعطانا الحق بالدفاع عن أنفسنا، وهذا ما أفعله»[٦٩].

وشهزاد ليس حالة متفرّدة. فنجيب الله زازي الذي وجد مذنباً لزرعه متفجرة في مترو نيويورك، هو مثال أيضاً على التطوع من تحت إلى فوق. وكما شهزاد، أخبر زازي المحكمة، أنه قرر في آب/أغسطس ٢٠٠٨ الذهاب مع زملاء له إلى باكستان للانضمام إلى طالبان في قتالها ضد الاحتلال الأمريكي لأفغانستان. هو ذهب إليهم، وليس العكس. وفيما هو في باكستان جرى إقناعه من ناشطي القاعدة بأن يعود إلى أمريكا، وأن يكون مفجّراً انتحارياً[٧٠]. وأخبر المحكمة: «سوف أضحي بنفسي لجذب الانتباه إلى ما تفعله الولايات المتحدة بالمدنيين في أفغانستان من خلال التضحية بروحي لإنقاذ أرواحهم»[٧١].

---

(٦٧) Shane, Ibid.

(٦٨) Neumeister and Hays, Ibid.

(٦٩) Basil Ktaz, «Defiant Times Square Bomber Gets Life in Prison,» Reuters (5 October 2010), and Deborah Feyerick, «Times Square Bomb Plotter Sentenced to Life in Prison,» CNN (5 October 2010).

(٧٠) A. G. Sulzberger and William K. Rashbaum, «Guilty Plea Made in Plot to Bomb New York Subway,» *New York Times*, 22/2/2010.

(٧١) المصدر نفسه.

ركّز المسؤولون وخبراء الإرهاب حصرياً على مخطّطات القاعدة التي صمّمها صالح الصومالي، ورشيد رؤوف، وعدنان الشكري جمعة، قائد المجموعة والمواطن الأمريكي، الذين كانوا قادة في برنامج «الناشطين الخارجيين» للقاعدة. وبحسب العميل جاك كلونن عن هؤلاء: «لقد جرى إعادة تكوينهم. كان هناك طاقم جديد من الشبّان. كانوا فتياناً، ومعبئين»[٧٢] لم يقل كلونن وسواه شيئاً عن الدوافع، من مثل ما شرح زازي في رحلته إلى باكستان. قبل ذلك، لم يكن للقاعدة وصول أو سيطرة على زازي. هو اختار إرادياً الذهاب إلى باكستان للحرب مع طالبان ضد القوات الغربية في أفغانستان، ووقع هناك في شرك عدنان الشكري جمعة الذي أعاده إلى الولايات المتحدة ليقوم بعملية انتحارية فيها.

وعلى نحو مشابه، سافر الرجال الخمسة من فرجينيا إلى باكستان: عبد المطلب سافر إلى اليمن، واتصل هناك بفرع القاعدة والعولقي. كانت هناك بضع إشارات تحذير. فقد أبلغت عائلات الرجال الخمسة، ووالدة عبد المطلب، عن التشدد الذي بات عليه الرجال[٧٣]. المايجور حسن طلب بشكل غير مباشر أن يعالج طبياً قبل أن يقتل رفاقه[٧٤].

كذلك، أصبح الباكستاني الأصل المشتبه بمخطط تفجير نظام مترو واشنطن في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠ تحت نظر الـ «إف. بي. آي.» لأنه سأل، بحسب سجلات المحكمة التي نشرت، أناساً عدة عن طريقة مقاتلة القوات الأمريكية في أفغانستان وباكستان[٧٥]. فاروق أحمد، ٣٤ سنة، مواطن أمريكي اختار الذهاب إلى بلده الأصل والقتال هناك. لم تجنّده القاعدة وطالبان. لقد استدرج بواسطة رسالة إلكترونية من عميل للـ «إف. بي. آي.» للقاء في نيسان/أبريل ٢٠١٠ في صالة فندق قرب مطار واشنطن دالاس، ووقع في الفخ.

---

(٧٢) Pierre Thomas, «NYC Subway Plot; Dangerous New Phase in Threat by Al Qaeda,» ABC (23 February 2010).

(٧٣) Eric Schmitt and Eric Lipton, «Officials Point to Suspect's Claim of al Qaeda Ties in Yemen,» *New York Times*, 26/12/2009, <http://www.nytimes.com/2009/12/27/us/27terror.html?_r=1>.

(٧٤) Michael Velardo, «Nidal Malik Hasan: His Own Patient?,» Detroit Substance Abuse Examiner (6 November 2009), <http://www.examiner.com/x-8358Detroit-Substance-Abuse-Examiner~y2009m11d6-Nidal-Malik-Hasan-Hisown-patient>.

(٧٥) Spencer S. Hsu, «Suspect in D.C. Metro Bomb Plot Sought to Fight U.S. Troops Overseas, Records Say,» *Washington Post*, 28/10/2010.

ولسبعة أشهر ظلّ أحمد يخبر عملاء الـ «إف. بي. آي.» الذين ظنهم إرهابيين أنه مستعد للاستشهاد في معركة، وأنه يريد «قتل ما يمكن قتله من العناصر العسكرية»، بحسب الشهادة التي أدلى بها(٧٦).

أحمد هو مثال آخر على التشدد الصاعد من تحت إلى فوق. وتبيّن معه أنه من الصعب تحديد نهائي للدوافع، فإن الصفحات الاثنتي عشرة لإفادات أحمد تحت القَسَم، تشير بوضوح إلى أن أحمد، المهندس مع شهادة بكالوريوس من سيتي كوليج في نيويورك، أصبح متشدداً بنتيجة تطورات الحرب في أفغانستان ـ باكستان. كان هدفه الأخير، بحسب إفادته، السفر «إلى أفغانستان ليحارب وليقتل أمريكيين»(٧٧). ولأنه لا يملك الطريقة أو أي اتصال بطالبان أو القاعدة، حاول أحمد وزميل له متهم أيضاً، وبحسب إفادة الـ «إف. بي. آي»، الاتصال بجماعة إرهابية لمساعدتهما على السفر إلى أفغانستان وباكستان(٧٨). وقام المحققون بفبركة خطة إرهابية زائفة لتوريط أحمد، وقد وقع فيها ـ وكانت تلك فخ الـ «إف. بي. آي.» الأخير، واندفع بعد ذلك على نحو غير محترف في تفاصيل عملية زائفة(٧٩). وتظهر تسجيلات الوكالة أنه كان جزءاً رئيسياً في المخطّط، حيث أمّن المراقبة والمعلومات، وأبدى رأيه في كيفية إيقاع أكبر قدر ممكن من الإصابات(٨٠).

وتقدم حالة روزونار شودري، الطالب الجامعي، مثالاً آخر. فبحسب الوثائق التي نشرت في **الغارديان** البريطانية، فقد حاول شودري، الطالب الجيّد

(٧٦) David Morgan, «Man Arrested in DC Plot Trained for Afghanistan,» Reuters (28 October 2008), and «FBI Learned of Subway Terror Suspect in January,» Associated Press (28 October 2010).

(٧٧) Evan Perez, «Trip Plan Sparked FBI's Terror Sting,» *Wall Street Journal*, 29/10/2010.

(٧٨) المصدر نفسه.

(٧٩) بحسب الـ **وول ستريت جورنال**، الخيوط جزء من جهود في وزارة العدل للإيقاع بالإرهابيين. أحياناً ينالون أحكاماً مخففة، لكن القضاة باتوا أخيراً يصدرون أحكاماً مطوّلة بالسجن. وبعض الحالات تلك استدعت النقد من محامي الدفاع لأنها توريط للمتهمين. مثلاً في ٢٠٠٦ أوقف الـ «إف. بي. آي.» ٧ أفراد من مجموعة دينية في حي من ميامي ليبرتي سيتي، واتهمتهم بالتخطيط للهجوم على سيرز تاور في شيكاغو وأبنية فدرالية أخرى. لكن محامي الدفاع أثبت أن القصة في معظمها كانت مجرد بلاغ كاذب، واعترف القضاة بالخطأ، لكن المحاكمة أعيدت ثلاث مرّات وبرّئ اثنان من المتهمين. لقد أصبح الخوف من الإرهاب سبباً لانتهاك القواعد القانونية لمثل هكذا حالات، «واحتمال اتهام أبرياء»، كما في حالة أردني أدين بالسجن ٢٤ عاماً في قضية مشابهة في دالاس وراءها بلاغ مشكوك في حياديته.

(٨٠) Hsu, «Suspect in D.C. Metro Bomb Plot Sought to Fight U.S. Troops Overseas, Records Say».

في كينغز كوليدج، اغتيال ستيفان تيمس، الوزير البريطاني السابق بطعنه مرتين في المعدة، لأنه يحمّله شخصياً مغبّة تصويته لصالح الحرب على العراق. وبعدما انتزعت المدية من يده، أخبر شودري المحققين أن ما فعله هو «الانتقام لشعب العراق»(٨١).

وبالمثل، يصف أصدقاء المفجّر الانتحاري في السويد تيمور العبدلي، ٢٨ عاماً، كإنسان مستمتع بلعب كرة السلة والحفلات، إلا أنه غدا غاضباً جداً في السنوات القليلة الأخيرة. ويقول قادر باكش، رئيس مركز لوتن الإسلامي، حيث كان عبدلي تعوّد الصلاة لفترة من الزمن، إن المفجّر كان يعتقد أن ليس من حق الحكومات الغربية التدخل عسكرياً في العراق وأفغانستان، وأنه دعا الآخرين إلى أن «يتولّوا المسألة بأنفسهم» لأن المساجد ليست حرة في نقل هذه الدعوة(٨٢). اختفى العبدلي من منزله قبل ثلاثة أسابيع من تنفيذ العملية، ومن دون أن يترك تفسيراً لزوجته وأطفاله الثلاثة. ويعتقد المسؤولون البريطانيون ومسؤولو الاستخبارات أن ما من إشارة أو دليل يشيران إلى أنه كان يتلقى توجيهات من أي مسؤول في القاعدة، وأنه ربما صمم كل شيء شخصياً(٨٣).

تثير ظاهرة تصاعد التشدد من تحت إلى فوق جملة أسئلة جدّية حول ما إذا كانت القاعدة قد «أعادت تكوين نفسها»، وإن باتت تملك «طاقماً جديداً من الأفراد»، بحسب ما يزعمه حديث الإرهاب؛ أو أنها أصبحت فقط معتمدة على بضعة رجال ونساء مسلمين غاضبين ومخدوعين. وبرأيي، إذا كان هناك من معنى يحمله التطويع من تحت إلى فوق، فهي الإشارة إلى الأزمة البنيوية التي تحياها القاعدة. هي واحدة من النتائج العرضية التي ترتبت عن الحرب على الإرهاب، أكثر من كونها إشارة إلى إعادة «تكيّف» القاعدة و«مرونتها» المستجدّة.

---

(٨١) Jonathan Githens-Mazer, «Radicalisation via You Tube'? It's Not So Simple: There Are Real Lessons to Take from the Roshonara Choudhry Case-But We're in Danger of Missing Them,» (4 November 2010), and Michael Seamark, «This Gross Insult,» *Daily Mail*, 4/11/2010.

(٨٢) Gordon Rayner, Andy Bloxham and Laura Roberts, «Stockholm Bomber Was Thrown out of Luton Mosque for Trying to Recruit Extremists,» *Telegraph*, 13/12/2010.

(٨٣) Julian Borger and Richard Norton-Taylor, «Sweden Suicide Bomber's British Connections under Investigation,» *Guardian*, 12/12/2010.

التطوع والتشدّد من تحت إلى فوق هي ظاهرة هامشية لم تساعد القاعدة في تخطي مأزقها الاستراتيجي العملياتي، ولم تساعدها في النفاذ من أزمة شرعيتها. بعد محاولة تفجير عيد الميلاد، نشر بن لادن تسجيلاً صوتياً ادّعى فيه المسؤولية، ووعد بهجمات أخرى، في محاولة لاستعراض عضلات تنظيمه الضعيف وموارده المتهالكة(٨٤). كان أهم ما في التسجيل ليس موضوع العملية الفاشلة، بل تقصّد بن لادن الإعلان أنه لا يزال ـ حتى تلك اللحظة ـ على قيد الحياة، وأن في مقدوره تحريك عناصره، والاعتماد على شبكة تتولى تنفيذ عمليات القاعدة، وقتل أكبر عدد ممكن من الأمريكيين المدنيين.

أسهم عبد المطلب، وزازي، وشهزاد، والعبدلي في إبقاء «القاعدة» تحت الأضواء، وأعطوا انطباعاً مغلوطاً حول استمراريتها وقوتها. وكثير من الضياع هذا مردّه إلى النقص في التعريف وعدم التمييز بين القاعدة المركز وفروع محلية عدة مستقلة، ورفاق رحّالة، ومتعهدي جهاد جوّالين. وانطلاقاً من الوقائع كما هي، فإن لغز التطرف الناشئ من مسلمين يعيشون في البلدان الغربية يمكن حلّه فقط من خلال الفحّص النقدي للأدلة الموجودة والسياقات الاجتماعية المتغيّرة للمقاتلين، وليس بأخذهم رزمة واحدة.

لا يعترف حديث الإرهاب بمثل هذا التمييز. وعلى سبيل المثال، تذهب أحدث استراتيجيا للأمن القومي للولايات المتحدة، كما التقرير السنوي لوزارة الخارجية، بجعل كل أصناف الإرهاب المحلي المنشأ في سلة واحدة، وباعتباره تهديداً. وفي تعليقه على الاستراتيجيا الجديدة، يعلّق جون برنن، مستشار أوباما الرئيسي للأمن القومي، أن القاعدة تطوّع الآن أفراداً ذوي خبرة بسيطة، وتستخدم تقنيات هجمات غير متقدمة نسبياً، وتحثّ أناساً يعيشون في الولايات المتحدة على القيام بهجمات كهذه. ويضيف: «هم يسعون وراء جنود ربما يمكنهم التسلل إلى دفاعاتنا». ويخلص برنن إلى أنه: «كما أن عدونا يعمل على تكييف وتطوير أساليبه، علينا بالمثل العمل باستمرار على تكييف وتطوير أساليب عملنا»(٨٥). وكما استراتيجية الأمن القومي، يقدّم تقرير وزارة الخارجية عن الإرهاب صورة قاتمة عن التطرف المحلي النشأة، ملاحظاً ازدياد عدد حالات

---

(٨٤) Eric Schmitt and Scott Shane, «Christmas Bombing Try is Hailed by Bin Laden,» *New York Times*, 24/1/2010, <http://www.nytimes.com/2010/01/25/world/25binladen.html>.

(٨٥) Pam Benson, «Homegrown Terrorist Threat to Be Part of National Security Strategy,» CNN (26 May 2010).

الأمريكيين الذين أصبحوا متورطين في أنشطة تنظيمات إرهابية أجنبية[٨٦].

وبالمثل كذلك، يحاول بعض المعلقين والمحللين المتخصّصين بالإرهاب البرهنة على أن القاعدة لا تزال تمثّل تهديداً قوياً للأمن الوطني الأمريكي، كما كانت صباح ١١ أيلول/ سبتمبر. ومن قبيل البرهان على ذلك، هم يقدمون التطور المتسارع في الإرهاب المحلي المنشأ في الولايات المتحدة، الذي سوف يسم برأيهم شريحة الراديكاليين الأمريكيين في مناحي الحياة كافة. وفي هذا الصدد، يؤكد بروس هوفمان وبيتر برغن، في تقرير تقييمي حول التهديد الإرهابي، أن القاعدة اليوم أكثر تعقيداً وأكثر تنوعاً مما كانت عليه في أي وقت في السنوات التسع السابقة، وهي تمتلك بالتالي القدرة على قتل عشرات، أو حتى مئات، الأمريكيين في عملية واحدة. وما هو أكثر خطراً في رأيهما، هو تزايد الدور البارز في التخطيط والتنفيذ الذي بات يضطلع به مواطنون أمريكيون، أو مقيمون، في قيادة القاعدة وحليفاتها، والعدد المتزايد من الناس الذين ينضمون إلى هذه الجماعات[٨٧].

يؤكد هوفمان وبرغن ما أسمياه «أمركة» قيادة القاعدة[٨٨]. وهو ما يفتتح صفحة جديدة من «الحرب على الإرهاب»: «لقد أصبحت جبهة الحرب الجديدة في شوارع بريدجبورت، ودنفر، ومينيابوليس، والمجتمعات الأخرى الأكبر أو الأصغر عبر أمريكا»[٨٩]. ولإبقائهم متيقظين كلياً لظهور هذا الوجه الجديد من الإرهاب، يدعو هوفمان وبرغن الخمسين ألف وكالة أمريكية للسلامة العامة ـ المجمّع الصناعي الأمني القومي ـ إلى استحداث تدريب على الانخراط في برنامج الاشتراك في المعلومات، الذي يمكن أن يكون في مستوى التحديات «التي تتجاهلها أمريكا في الأساس»[٩٠].

بعد قراءة تقرير هوفمان وبرغن يتملك المرء الشعور أن أمريكا تواجه جيشاً

---

(٨٦) «Office of the Coordinator for Counterterrorism: Chapter 1: Strategic Assessments».

(٨٧) Peter Bergen and Bruce Hoffman, «Assessing the Terrorist Threat: A Report by the Bipartisan Policy Center's National Security Preparedness Group,» Bipartisan Policy Center (10 September 2010), pp. 14-17, <http://bipartisanpolicy.org/sites/default/files/NSPG%20Final%20 Threat%20Assessment.pdf>.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٣١ ـ ٣٢.

ضخماً من اليافعين الإرهابيين المحليي النشأة الذين «جامعهم الوحيد، كما يبدو، الكراهية المستجدة لوطنهم أو بلدهم الجديد، أي درجة عالية من الخطر الذي يأخذ غير شكل، والحمية الدينية التي تبرر العنف»[٩١]. لكن الحقيقة هي أن هذه المقاربة لا تتضمن أي ذكر للخلفيات التاريخية والسوسيولوجية للمتطوعين، أو أي سياق أو حسّ بالنسبية. وإلى ذلك، ففي ثنايا نص هوفمان وبرغن اعتراف لا يظهر إلا تلميحاً، وهو أن عدد المواطنين أو المقيمين الأمريكيين الذي يغدون متشدّدين يبقى «متدنياً إلى الحد الأقصى». ومع ذلك، فهؤلاء الناس، وغالبهم شبان عاطفيون، يقلقون، كما يبدو، الجمهورية.

التطوع للعمليات من تحت إلى فوق تطور لا علاقة له بالقاعدة المركز، وإنما بالتداعيات الجانبية لتصاعد الحرب على الإرهاب في الشرق الأوسط الكبير. لقد قابلت عدداً من المشتبه بهم المحليي المنشأ الذين وُجدوا مذنبين في محاكم أمريكية، وقد ذكر معظمهم، إن لم نقل كلهم، الحرب على العراق وأفغانستان وباكستان كسبب رئيسي خلف تشدّدهم أو تطرفهم؛ لقد عملوا بالفعل ضد حرب الولايات المتحدة على الإرهاب التي يرونها حملة صليبية ضد الإسلام والمسلمين، لكن السياسة لا السلاح كانت الدافع الأساسي لهجرتهم نحو التطرف. قال العديد منهم إنهم قد أخذوا بحرارة اللحظة، فاختاروا أن يحاربوا، وفي الغالب على الإنترنت، ضد الولايات المتحدة. وقد بدا معظمهم بمثابة طلاب خريجين متشدّدين، يتقنون النظريات، ولكنهم يجهلون العواقب، وهي غالباً أحكام طويلة بالسجن في معتقلات شديدة الإحكام. وفي حالات عدة، تفوّهوا بعبارات حمقاء، وأقحموا أنفسهم في مخطّطات أو مؤامرات كانوا يجهلون عواقبها.

ومع ذلك، فقد كان هناك حقاً عمليات محلية المنشأ ربما قتلت أمريكيين، وهو تطور خطير يجب إخضاعه للفحص الدقيق. ومن أجل فهم ظاهرة هجرة الشباب المسلم في الغرب من الاعتدال إلى التطرف يجب الخروج من الشرنقة الضيّقة التي حصر خبراء الإرهاب أنفسهم فيها. هي ظاهرة برسم الدرس، وليست مجرد موقف كراهية من مواطنين زملاء أو مقيمين، أو «تطرف على الإنترنت». إن الاكتفاء بإيراد القصص وإشاعة الخوف لن يزيد من فهمنا للظاهرة. وفي المقابل، على المجتمعات الإسلامية أخذ زمام المبادرة ـ والبعض

(٩١) المصدر نفسه، ص ٣١.

فعل ذلك فعلاً ـ بتأسيس عمل منهجي يتولى شرح الغربة الشديدة التي يحياها الكثير من أبنائهم الشباب، مع صعوبة المهمة بالتأكيد لأن هؤلاء لا يخبرون عائلاتهم بما يمرّون به[٩٢].

أحد هؤلاء الشباب محمد أسامة محمد، أمريكي من أصل صومالي يبلغ عمره ١٩ سنة. جرت إدانة محمد بتهمة التخطيط لتنفيذ تفجير سيارة في شجرة ميلاد أوريغون في أثناء احتفال في بورتلاند ـ وهي حالة تستحق البحث. وفي عبارة على شريط مسجّل بحضور عملاء سريين للـ «إف. بي. آي.»، ذكر محمد باختصار والديه، وقال إنهما حاولا نقله إلى طريق مختلف في حياته. فبحسب نسخة من التسجيل لدى الوكالة، يقول محمد: «إلى والديّ اللذين أعاداني من الجهاد في سبيل قضية الله، أقول لهما، والله لو أنتم تحالفتم مع العدو، فإن الله جلّ جلاله سوف يسألكم عن ذلك يوم الحساب، ولا شيء يستطيع أن يعيدني إلى الوراء»[٩٣]. ومن الطرائف ما أفاد به تقرير للأسوشيتد برس، من أن شخصاً ما قريباً لمحمد هو الذي أبلغ الـ «إف. بي. آي.»، وهو نهج بات مستخدماً حيال التطرف المحلي المنشأ[٩٤].

وفي إفادة من ٣٨ صفحة، تصف الوكالة محمداً كشخص عالي التصميم وجاد جداً. ومع اتهامه باستخدام أسلحة دمار جماعي التي تحمل في حال إدانته احتمال الحكم عليه بالسجن المؤبد، كان جواب محمد أنه غير مذنب. وبحسب آرثر باليزان، عميل الوكالة الخاص في أوريغون: «لقد كان تهديداً حقيقياً، وكل تحقيقاتنا تشير إلى أن محمداً كان على وشك القيام بهجوم من الحجم الكبير جداً»[٩٥].

إلا أن محامي محمد، ومسلمين محليين، يثيرون تساؤلات حول ما إذا

---

(٩٢) وفق دراسة جادّة عن «الإرهاب والأمن الداخلي» لـ «ترايانغل سنتر»، فإن ٤٨ من أصل ١٢٠ حالة جاءت من الجالية المسلمة الأمريكية. وأفاد البحث أن البلاغات التي ساعدت السلطات جاءت ليس فقط من المسلمين الأمريكيين، بل إن الجالية عبّرت عن قلقها واعتراضها على مناخ التشدّد الجديد. انظر: Charles Kurzman, «Muslim American Terrorism Since 9/11: An Accounting,» Triangle Center on Terrorism and Home Land Security, Duke/UNC/RTI (2 February 2011), p. 6, <http://sanford.duke.edu/centers/tcths/about/documents/Kurzman_Muslim-Amencan_Terrorism_Since_911_An_Accounting.pdf>.

(٩٣) Bob Drogin and April Choi, «Teen Held in Alleged Portland Plot,» *Los Angeles Times*, 28/11/2010.

(٩٤) المصدر نفسه.

(٩٥) المصدر نفسه.

كان عملاء الـ «إف. بي. آي.» الذين تنكّروا كشركاء قد أدوا عملهم على نحو صحيح. ويتساءل محامي الدفاع ستيف سادي ما إذا كان العملاء قد «هيّأوا» محمداً لمحاولة تنفيذ الهجوم الإرهابي(٩٦). وبحسب سادي وستيفن واكس، محاميا الدفاع: «فإن المعلومات المسرّبة من الحكومة تثير تساؤلات عدة، وقلقاً من أن يكون للحكومة وأجهزتها يد في فبركة الجرائم»(٩٧).

يجيب المحامي العام إريك هولدر على ذلك بالقول: «أنا واثق من أنه ما من فخ هنا... كانت هناك فرص عدة أعطيت للمتهم، وكان بإمكانه أن يتراجع، أن يأخذ طريقاً آخر، لكنه اختار عند كل خطوة أن يستمر قدُماً. لكن مسؤولين محليين آخرين لا يتوقفون عند ذلك، بل يمتدحون وزارة العدل والـ «إف. بي. آي.» على طريقة إدارتهما للمسألة»(٩٨). ومع ذلك، فإن امتياز خان، رئيس المركز الإسلامي في بورتلاند ومسجد الصابر، حيث كان يصلّي محمد، قال إن أناساً عديدين في المسجد يتساءلون كيف أن منفّذي القانون ساعدوا على تنسيق مخطط عملية إرهابية بهذه التفاصيل. ويضيف خان إلى الـ **نيويورك تايمز**: «هم يسألون لماذا السماح في الأصل باللجوء إلى هذه الحيلة؟ أليضعوا الجماعة على حافة الاتهام؟»(٩٩).

وبمعزل عمّا إذا كان الـ «إف. بي. آي.» قد نصبت فعلاً فخاً لمحمد ـ العملية الأخيرة في سلسلة عمليات تنكّر فيها عملاء المكتب في زي إرهابيين ليجهضوا عمليات إرهابية محتملة ـ فهو في جملة من صيّروا أنفسهم متطرفين، أي من تحت إلى فوق، وليس كباقي ناشطي القاعدة من فوق إلى تحت. خلا الخطاب الأيديولوجي أو الإثارة لا تملك قاعدة بن لادن غير القليل جداً في حالة محمد ومن يشبهه من الأفراد المتطرفين المحليي النشأة. أصدقاء محمد يدعونه «مو»، وأحدهم يتذكّره كزميل دراسة. وهو كان يشرب البيرة ويتابع فريقه الرياضي المحلي المفضل (Portland Trail Plazers) في كل مكان ويحب

(٩٦) Hal Bernton, «Was FBI Grooming Portland Suspect for Terror?,» *Seattle Times*, 30/11/2010.

(٩٧) Marisol Bello, «Experts Predict More Terror Plots in the U.S.,» Associated Press (29 November 2010).

(٩٨) Bernton, Ibid.

(٩٩) Eric Schmitt and Charlie Savage, «In U.S. Sting Operations, Questions of Entrapment,» *New York Times*, 29/11/2010, <http://www.nytimes.com/2010/11/30/us/politics/30fbi.html>.

الموسيقى. ويضيف صديقه: «كان يتسوّق مساء الجمعة مع أصدقاء. هذا جنون. ما من أحد توقّع ذلك. والبعض يعتقد أنه فخ نصب له»(١٠٠).

ويضيف البعض أن والديّ محمّد قد انفصلا صيف ٢٠٠٩. وهو التاريخ نفسه الذي تقول الـ «إف. بي. آي.» إن محمداً بدأ فيه إرسال رسائل إلكترونية إلى مشتبه به في باكستان يعتقد المكتب أنه يتولى التطويع لصالح القاعدة، وهو تحت مراقبتهم. ومثل معظم متطرفي تحت ـ فوق، فقد بادر محمد إلى الاتصال بالإرهابيين. وبحسب وثيقة الـ «إف. بي. آي.» فقد حاول محمد لأسابيع في سنة ٢٠٠٩، ومن دون جدوى التواصل مع الشخص المشتبه به المسمّى عبد الهادي الذي أخذ عنوانه من زميل دراسة قديم في جامعة أوريغون ويعيش اليوم في باكستان. لكن محمداً كان يخلط تكراراً عنوان الـ «هوت مايل» مع كلمة السرّ، فكانت الرسائل تعود إليه.

في هذه اللحظة تدخّل عميل الـ «إف. بي. آي.» السرّي، وردّ على محمد متظاهراً أنه عبد الهادي، وأعطاه عنواناً جديداً تحت مراقبة المكتب. وفي النتيجة، التقى عملاء الـ «إف بي. آي.» محمداً سبع مرّات، وأمنوا له المكوّنات التي سيصنع منها المتفجرة، وعلّموه كيفية صنعها. ثم أعطاه العملاء مبلغ ٢٧٠٠ دولار أمريكي كي يستأجر شقة يخفي فيها كل ما كان بين يديه، و١١٠ دولارات ليدفع ثمن المكوّنات. وفي ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠ توجه محمد وعميلان سرّيان إلى نقطة بعيدة على الساحل الغربي لـ «كورفاليس» لاختبار المتفجرة اليدوية الصنع. وبعد ذلك جرى اعتقال محمد فيما كان مع عميل سري يقود سيارة «فان» بيضاء إلى قلب بورتلاند، وهي تحمل ستة غالونات من المتفجرات والأسلاك وباقي القطع الضرورية للتفجير. وتقول السلطات إنها تركت الخطة تتقدم حتى النهاية بهدف الحصول على دليل حسي يسمح باتهام المشتبه به(١٠١).

وفيما لا تزال الدوافع الحقيقية التي تقف خلف تطرف محمد غير معروفة، غير أنه لا الأيديولوجيا، ولا التنشئة، كافيين، كما يبدو، لتفسير اللحظة التي

---

(١٠٠) Bob Drogin and April Choi, «Mixed Portrait of Oregon Terrorism Suspect,» *Los Angeles Times*, 29/11/2010.

(١٠١) المصدر نفسه؛ Drogin and Choi, «Teen Held in Alleged Portland Plot,» and Schmitt and Savage, «In U.S. Sting Operations, Questions of Entrapment».

انتقل فيها محمد إلى ضفّة التطرف. وبحسب أقارب لمحمد وأصدقاء له، فهو يتحدّر من أسرة تقدمية، ومن وجهاء الجالية الصومالية الصغيرة في بورتلاند، ولم يظهروا يوماً أراءً متطرفة. ويقول مجاهد الناصر إنه تابع صفوفاً في المرحلة المتوسطة في بورتلاند مع محمد، وإنه لا يعتقد أن صديقه يمكن أن يكون قد تورّط في مخططه من دون تشجيع الـ «إف. بي. آي». ويضيف الناصر: «إذا تحدّثت إلى أي كان لفترة كافية، فسينتهي إلى أنه بحاجة إلى أن يفعل شيئاً. هذا ما فعلته الـ «إف. بي. آي.» معه»(١٠٢).

مع ذلك، يمكن القول إن محمداً قد انضم إلى حفنة صغيرة من المسلمين الراديكاليين المحليي النشأة في الغرب، بما فيه أمريكا، وهم من باكستان، وأفغانستان، والصومال على وجه الخصوص، الذين خطّطوا لتنفيذ هجمات ضد البلدان التي نشأوا فيها. وهناك أدلة متزايدة على أن الحروب في البلدان تلك قد أوجدت دوافع كافية لتعبئة أبناء الطبقة الوسطى المدينية هناك، كما لدى قلة من الشباب المسلم الذي يعيش في الغرب. لقد ضربت الموجات المرتدة لحروب أفغانستان وباكستان والصومال، الشواطئ الأمريكية، وهي ستستمر على الأرجح ما استمر غليان النزاعات في البلدان تلك(١٠٣).

ومن قبيل المؤكد أنه ربما نجحت أو قد تنجح واحدة من خطط الهجمات تلك على نحو ما. وطالما أن القاعدة لا تزال ممسكة بخيال الأمريكيين والغربيين، فإن عملية هجوم ناجحة واحدة تكفي لتأجيج المخاوف العامة، وزيادة الضغط على زعمائهم لتصعيد درجة العسكرة، والبدء بدورة هجمات قاتلة جديدة تستحضر بدورها موجات عنف مرتدّة. وما دام إشعال الحروب

---

(١٠٢) Tim Fought, «Ore. Terror Suspect Pleads Not Guilty,» Associated Press (29 November 2010).

(١٠٣) وبالمثل، فبعد أقل من ثلاثة أسابيع من اعتقال محمد، اعتقل عملاء الـ «إف. بي. آي.» مشتبه بالتيمور - الذي وصف بأنه أمريكي في الحادية عشرة من العمر اعتنق الإسلام - بالاشتباه بالتخطيط لتفجير نقطة استيعاب عسكرية في كايتونزفيل، ماريلاند. وبحسب سجّلات المحكمة، فإن المشتبه به، الذي قيل إنه أنطونيو مارتينيز أو محمد حسين، نشر على موقعه على الفايسبوك كيف «أن حكم الاستبداد سينتهي»، ويدعو إلى العنف لوقف اضطهاد المسلمين. وقد تواصل مع عملاء الـ «إف. بي. آي.» قائلاً إنه يريد الذهاب إلى باكستان أو أفغانستان ويلتحق بصفوف المجاهدين. تظهر حالة مارتينيز مرّة أخرى أن الحرب في باكستان وأفغانستان تجعل الشباب المسلم المحلّي المنشأة متطرفاً. انظر: Justin Fenton, «Arrest Madein Plot to Blowup Baltimore-area Military Recruiting Center,» *Baltimore Sun* (8 December 2010), and «Authorities in Maryland Arrest Man in Alleged Bomb Plot,» CNN (8 December 2010), and Michael Langan, ««Facebook Sting» Nets US Muslim in Car Bomb Case,» AFP (8 December 2010).

مستمراً في البلاد الإسلامية، فسيكون هناك على الأرجح مقاومة مسلحة ودعوات إلى الانتقام. وستستمر القاعدة بالتالي، وكذلك الفصائل والأفراد الذين يشبهونها، مثل طالبان باكستان والعولقي، في الإفادة من وجود القوات الغربية لاستثارة الشباب المسلم، ودفعه إلى امتشاق السلاح ضد الغزاة الأجانب.

ورغم ذلك، وإذا أخذنا مستوى التعبئة الأيديولوجية العالي، وعدد الحروب التي تدور رحاها في منطقة الشرق الأوسط الكبير، ففي وسعنا القول إن عدد الخطط الإرهابية هو في الواقع أقل بكثير مما قد يُتوقع. وتبقى ظاهرة التطرف المحلي النشأة محدودة، ويجب أن نتذكر ذلك دائماً. وتؤدي التقارير المضخمة إلى خوف غير ضروري.

هناك أدلة مؤكدة على أن القاعدة وشبيهاتها تستمر في التخطيط لهجمات إرهابية ضد أوروبا. ففي أوروبا تحتفظ القاعدة بالفعل ببعض الجاذبية بين عدد محدود من الشبّان المسلمين المعزولين والمغرّر بهم. وعلى سبيل المثال، فبعد شهر من إظهار وزير الداخلية الألماني توماس دو مازييه علناً شكوكه في صدقية التحذير الأمريكي للإرهاب حول احتمال هجمات إرهابية من نمط هجوم مومباي على أهداف أوروبية، يقول إنه كان هناك سبب للقلق من هجوم إرهابي محتمل في ألمانيا، وجرى بالتالي رفع درجة الاستعداد لمواجهة الإرهاب. ولكن، بالرغم من الإنذار، استمرت الحياة اليومية لـ ٨٢ مليون مواطن ألماني كالمعتاد. وبحسب الصحيفة الألمانية **دي فيلت**: «هناك حالات يبدو الهدوء فيها واجباً مدنياً من دون أن يعني ذلك اللامبالاة». وتضيف الصحيفة: «الهدوء ليس إشارة إلى اللامبالاة، بل إلى القوة في استمرار الحياة وفق نمطها الطبيعي في الظروف الخطرة»[١٠٤].

ومن الواضح أن القلق ينتاب الحكومات الغربية من أن الشبكات المتطرفة باتت تعتمد على شبان مسلمين متطرفين، وتفعل الكثير لتطويع أفراد من هؤلاء راغبين في تنفيذ هجمات في المدن، من مثل تفجيرات مدريد سنة ٢٠٠٤، ولندن سنة ٢٠٠٥. وفيما يستطيع المسؤولون الأوروبيون تعيين أعداد مواطنيهم الذين تدرّبوا في باكستان وأمكنة أخرى، يبقى من الصعب معرفة العدد

(١٠٤) Stephan Pauly and Michael Slackman, «Device at Namibian Airport Was a Security Test,» *New York Times*, 19/11/2010; «Germany Reconsiders Terror Risk,» BBC (17 November 2010), and «In Germany, Evidence Emerges of Attack Plans,» CNN (17 November 2010).

الحقيقي، لأن هؤلاء قلة قليلة، ولا يمكن إحصاؤهم بدقة. ومع ذلك، فإن الميل إلى التطرف لدى المواطنين الأوروبيين أو المقيمين هو بحق رسالة إنذار يجب التوقف عندها في العالمين الإسلامي وغير الإسلامي[١٠٥].

وبنتيجة مقابلاتي الشخصية مع ناشطين شبّان في فرنسا، وإسبانيا، وبريطانيا، وإيطاليا، انتابني شعور واضح بأن هؤلاء ليسوا متابعين لأحدث تطورات الأوضاع في أفغانستان وباكستان، وبخاصة لخسارة القاعدة تأييد الرأي العام، ولعمق أزمتي الشرعية والسلطة التي باتت تعانيهما. كذلك تبدو عباراتهم التي تمجّد بن لادن والظواهري كـ «مدافعين عن الأمة» جامدة خارج الزمان والمكان الحاليين. ويبقى أن ذلك قابل لأن يتغيّر، على الأرجح، حين تضعف في الوقت عينه جاذبية القاعدة في أرض العرب، كما في سائر أجزاء الشرق الأوسط الكبير.

ثالثاً: تراجع دور القاعدة

١ ـ جدل حول تقييم ما تمثله القاعدة وحليفاتها

وفي كل الأحوال، فهناك الآن إشارات مشجعة على أن التأييد لأيديولوجية «القاعدة» في الجهاد الأممي بين الشبّان المسلمين في أوروبا هو إلى تراجع. ورغم أن رسالة العولقي لا تزال يتردّد صداها بين قلة من الشبان المتطرفين، فإن هناك، بحسب روبرت واين رايت، مدير «اليوروبول» «تراجعاً رئيسياً» في عدد الهجمات الإسلامية[١٠٦]. وقد أبلغ بيتر كلارك، الرئيس السابق لفرع مكافحة الإرهاب في شرطة لندن الكبرى، مؤتمراً نظمته مدرسة القانون في جامعة نيويورك في فلورنسا

(١٠٥) «Muslims in Europe: A Report on 11 EU Cities,» Open Society Institute (December 2009), <http://www.soros.org/initiatives/home/articles-publications/publications/muslims-europe-20091215>; Pew Global Attitudes Project, «Muslims in Europe: Economic Worries Top Concerns About Religious and Cultural Identity,» Pew Research Center (July 2006), <http://pewglobal.org/reports/display.php?ReportID=254>; Gallup Center for Muslim Studies, «Muslims in Berlin, London, and Paris,» Gallup (2007), <http://www.gallup.com/consulting/worldpoll/26410/gallup-center-muslim-studies.aspx>; Scott Atran, *Talking to the Enemy: Faith, Brotherhood, and the (Un) Making of Terrorists* (New York: Harper Collins, 2010); «Islamist Threat to Germany is Growing Say Police,» Reuters (5 September 2010); Kathy Gannon, «Pakistan: Dozens of Europeans in Terror Training,» Associated Press (3 October 2010), and Peter Finn and Greg Miller, «E.U. Cites Nationals Training in Terror,» *Washington Post*, 30/9/2010.

(١٠٦) Shahzad, «Terrorists Appear to Be Planning a Big Attack».

في أواخر أيار/ مايو ٢٠٠٨ أن الإدانات المتعاقبة للمخطّطات الإرهابية باستخدام الإجراءات القانونية العادية، قادت إلى «نقاش بنّاء داخل الجماعات الإسلامية» في المملكة المتحدة التي كانت متشكّكة حيال هذا الموضوع من قبل. ويضيف: «لم تعُد الناس تنفي وجود مخطّطات متطرفة، لأنه بات بوسعهم أن يروا ذلك بأم العين في المحاكم باستخدام الإجراءات القانونية المعترف بها»[١٠٧].

تحدّث في المؤتمر نفسه أرماندو سباتارو، نائب المدّعي العام الرئيسي لميلانو، فقال إن خطر الإرهاب لا يمكن أن يستمر، لأن أكثرية المهاجرين «لم تتقبل أفكار الإرهابيين»[١٠٨]. لقد غدا صنّاع الرأي والعلماء المسلمون الأبرز في أوروبا وشمال أمريكا أكثر صراحة في التساؤل والتشكيك في شرعية أيديولوجيا الجهاد الأممي والأساليب التي يتّبعها.

على سبيل المثال، وفي فتوى خطية، يرفض أحد أبرز العلماء المسلمين في العالم اليوم، وهو الباكستاني محمد طاهر القادري المقيم في كندا، ومن الأساس، الأدلة والتبريرات الفقهية لأيديولوجيا القاعدة في الجهاد الأممي. ففي فتواه عن الإرهاب، التي نشرتها منظمته العالمية ذات النفوذ «منهاج القرآن» التي تتخذ من لاهور مقراً، ولها مكاتب في غير مدينة أوروبية، يرفض قادري تقسيم العالم بين «دار إسلام» و«دار حرب»، ويقول إن ليس من أساس لمثل هذه القسمة، وإن لا فرق بين المعسكرين. ويضيف الشيخ القادري إن مثل هذا التقسيم المغلوط والمصطنع، إنما اصطنع وأسيء استعماله ليبرر باسم الله أعمالاً غير إسلامية. وعليه، ففتوى القادري تدين الإرهاب علناً وصراحة، وتظهر الأعمال الإرهابية بوصفها انحرافاً عن الإسلام[١٠٩].

ورغم ذلك، يستمر في الولايات المتحدة وأوروبا التقييم الأكثر سوءاً

---

(١٠٧) Stephen Fidler, «Down but Dangerous: How al-Qaeda Has Been Pushed on to the Defensive,» *Financial Times*, 9/6/2008, <http://us.ft.com/ftgateway/superpage.ft?news_id=fto060920081527543985>.

(١٠٨) المصدر نفسه.

(١٠٩) انظر الفتوى التي أصدرها الشيخ الواسع النفوذ، محمد طاهر القادري، في: Muhammad Tahir-ul-Qadri, «Fatwa on Terrorism and Suicide Bombings,» *Minhaj-ul-quran International* (2 March 2010), <http://www.fatwaonterrorism.com/?page_id=24>, and Carla Power, «Can a Fatwa Against Terrorism Stop Extremists?,» *Time* (12 March 2010), <http://www.time.com/time/world/article/0,8599,1969662,00.html>.

حيال هذا التهديد. يستند التقييم الأسوأ ذاك على ثلاث خلاصات موجودة برأيه، وهي: أن قوة القاعدة تستمر كما هي على الحدود القبلية بين أفغانستان وباكستان، وأن فرع القاعدة في اليمن قد أعيد تنشيطه، وأن الإرهاب المحلي النشأة هو تهديد جديد خطير لأمن الولايات المتحدة والبلدان الغربية. يعترف أصحاب هذا التقييم بأن القاعدة قد فقدت كثيراً من الناشطين الكفوئين، وأن الذين حلّوا مكانهم هم شبّان يفتقرون إلى التدريب العالي والخبرة الكافية، لكنهم لا يتوقفون كثيراً عند فكرة أن القاعدة تواجه أزمة لجهة التطوع والتمويل والشرعية. كذلك، ومع أهمية غياب بن لادن، إلا أن الظواهري، والعدل، والعولقي، لا يزالون أحياء، وهم يديرون شبكة من المفجّرين الانتحاريين المحتملين على مستوى العالم؛ أما متى يحدث ذلك ويحاولون قتل آلاف الأمريكيين، فهي مسألة وقت[١١٠].

وبعدما أدعت «أكاب» المسؤولية عن محاولتي تفجير طائرتي الشحن الأمريكيتين، وهددت بتمزيق العدو ألف قطعة، أطلق بن فانسكي خبير الإرهاب والرئيس التنفيذي للمركز الدولي، وهو تجمّع معلوماتي تموّله الولايات المتحدة، بهدف نشر الخوف، خطاباً تضمّن مستوى عالياً من التحذير، قال: «أكاب تنظيم متمرس، شديد التصميم، ومعقّد. وسوف يستمر في الضرب داخل الولايات المتحدة بطرائق جديدة مستنبطة، وهي مسألة وقت فقط إلى أن تنجح واحدة من هجماته، فيسقط آلاف الأمريكيين قتلى، ويحدث تخريب اقتصادي كبير»[١١١].

إلى ذلك، لا يزال السياسيون الأمريكيون وخبراء الإرهاب يشيرون إلى المناطق القبلية على الحدود الأفغانية، حيث يعتقد أن بن لادن كان قد جعل فيها قيادته، باعتبارها «أرض القاعدة» ونقطة الجذب فيها. وفي خلال زيارته إلى كوالالمبور، ماليزيا، في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠، أبلغ وزير الدفاع الأمريكي غايتس المراسلين أنه فيما تتحّصن القاعدة في المنطقة الجبلية القبلية على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية، فهي تستمر في «إصدار التوجيهات، ورسم

(١١٠) قال الرئيس أوباما مخاطباً القوات الأمريكية في أفغانستان في آذار/ مارس ٢٠١٠: «Al-Qa'ida was Still Using the Region to Plan Terrorist Strikes against the U. S. and Its Allies,» *Washington Post*, 29/3/2010, and «Al Qaeda Vows to «Bleed Enemy to Death»,» AFP (21 November 2010).

(١١١) «Al Qaeda Vows to «Bleed Enemy to Death»».

الأولويات، وفي منح الشرعية لفروع القاعدة الأخرى التي تنشأ في أمكنة أخرى، بما فيها شبه الجزيرة العربية، واليمن خصوصاً، وفي شمال أفريقيا، والمغرب»[١١٢].

وبحسب بعض المحللين، يمكن تقسيم المقاتلين الذين يعملون من الحزام القبلي الباكستاني، والمعروف بـ «فاتا» (FATA) (المناطق الفدرالية الإدارية القبلية)، إلى أربع مجموعات رئيسية: طالبان باكستان، وطالبان أفغان، ومقاتلو القاعدة وآسيا الوسطى العرب، وطالبان البنجاب. ورغم أن طالبان باكستان وطالبان البنجاب هما تنظيمان مستقلان عن القاعدة، إلا أنهما أقاما علاقات وثيقة بالجهاد الأممي لابن لادن. ويمكن أن تكون القاعدة المركز، وفق هؤلاء، قد فقدت جزءاً من بنيتها وقوتها في منطقة «فاتا»، إلا أن تنظيمات جديدة تسترشد الآن بأيديولوجيتها، وهي التي ملأت الفراغ ذاك. ويؤكد التقييم الأسوأ هذا أن القاعدة مستمرة في إدارة خلاياها وفروعها حول العالم، وأن قادتها لا يحتاجون إلى أكثر من هاتف خليوي (أو رسول) ليأمروا أتباعهم ويختاروا أهدافهم[١١٣].

كانت فكرة أصحاب هذا التقييم في خلال إدارة بوش أن الحرب الطويلة المستمرة على القاعدة سوف تكون في رأس الأولويات العسكرية الأمريكية للعقود القادمة. لا تهديد آخر يضاهي التهديد ذاك. والأمر عينه ينسحب على فريق الأمن القومي للرئيس أوباما. فقد جعل هؤلاء خلفاء بن لادن، بحسب تعبير الوزيرة كلينتون، أولوية استراتيجية تتقدم على الخطر النووي الذي تمثله كوريا الشمالية أو إيران المدجّجة بالسلاح.

وفي السياق نفسه، ينشر بروس ريدلي، الذي عيّن ليقود مراجعة استراتيجية (AfPak) (التعامل مع أفغانستان وباكستان) في إدارة أوباما للعام ٢٠٠٩، وهو مسؤول سابق في الـ «سي. آي. إيه.»، ويعمل حالياً لمؤسسة بروكينغز، وجهة نظر متشائمة بخصوص الخطر الذي تمثله القاعدة وحليفاتها في أفغانستان وباكستان. وفي الداخل، بحسب تقارير لرسميين في الأمن

---

(١١٢) Dan De Luce, «Bin Laden «Hiding in Afghan-Pakistani Border Area»,» AFP (9 November 2010).

(١١٣) Bruce Hoffman, «The Myth of Grass-Roots Terrorism,» *Foreign Affairs* (July-August 2008).

القومي، فإن ريدل لا يني يسوّق لوصفيته المعنونة «بحثاً عن القاعدة». وهو كان أخبر أوباما أن كتابه هذا يقدم الأجوبة التي تساعد على فهم ونقاش موضوعات القاعدة وحلفائها المتطرفين في باكستان وأفغانستان[١١٤]. هو إذاً بيان دفاع عن حرب ضد الإرهاب التي يُراد لها أن تكون طويلة.

كتب **بحثاً عن القاعدة** في السنة الأخيرة من إدارة بوش، وهو يقدّم صورة تحذيرية عن القاعدة، مع أنه يتوجب عليه أن يضيف الفصل الأخير الذي لم يكتب بعد، في الوقت الذي يستمر فيه إرث بن لادن وخلفائه الآن وفي المستقبل موضوعاً لتكهنات محمومة في كتب أخرى ستلي (التي بدأ حبر بعضها يسيل غزيراً منذ مقتل بن لادن). يرى ريدل أن تنظيم بن لادن الجهادي الأممي هو خطر في حالة توسع مستمرة ضد المصالح الأمريكية والغربية على مستوى العالم. وبدل أن تجري هزيمة القاعدة سنة ٢٠٠١، جاءت الحرب في العراق والاضطراب الداخلي الاجتماعي والسياسي في باكستان ليمدّا في عمر القاعدة التي غدت، ولو عبر أشكالها الجديدة وحلفائها وعلاقاتها المتبادلة بطالبان، أكثر خطراً، وأكثر وباء، ممّا كانت عليه قبل عقد مضى. ويوصي ريدل باستراتيجيا أمريكية كبرى لهزيمة القاعدة؛ استراتيجيا يجب أن تكون أكثر طموحاً وشمولية مما هو قائم حالياً، ويحتاج إنجازها إلى سنوات، أو حتى إلى عقود قادمة[١١٥].

حين دخل أوباما إلى البيت الأبيض، كما بيّنتُ في مطلع الكتاب هذا، أشار بوضوح إلى أنه مصمم على تغيير اللغة والخطاب اللذين ميّزا النقاش في السياسة المتّبعة حيال القاعدة والإرهاب عموماً خلال سنوات بوش. ووفق تصريحه لبوب وودوارد: «لقد قلت، ومذ كنت سيناتوراً، وحين كنت مرشحاً رئاسياً، وكرئيس الآن، إنه بإمكاننا استيعاب أي هجوم إرهابي. . . هذه بلادنا التي نعيش فيها، قوية، وذات إمكانيات، وفي وسع شعبنا أن يتأقلم مع الخطر»[١١٦].

لكن تفكير أوباما المبدأي لم يستمر طويلاً. فقد حذّره ريدل وخبراء الإرهاب الآخرون من أن القاعدة هي الآن خطرة كما كانت في الصباح الذي

---

(١١٤) Woodward, *Obama's Wars: The Inside Story*, pp. 88-89.

(١١٥) Riedel, *The Search for Al Qaeda*.

(١١٦) Woodward, Ibid.

سبق ١١ أيلول/سبتمبر، وربما أكثر. وكما أعاد وودوارد بناء الحديث الذي جرى في آذار/مارس ٢٠٠٩ على الطائرة الرئاسية الأمريكية، قام ريدل بتذكير الرئيس بأنه سبق وأخبره في خلال حملته أن «القاعدة» تستمر خطرة جداً. وتضيف المحادثة قوله: «بعد مراجعتي للاستخبارات، يتبيّن أنه ربما قد قللت من درجة الخطر. ورغم أن توصيتي الأولى هي استنفار مدني ـ عسكري متكامل مضاد للإرهاب في أفغانستان، إلا أن عليكم أنتم، السيد الرئيس، التركيز على الخطر الحقيقي المركزي ـ باكستان»[١١٧]. وفي تكرار لتقييم ريدل المتشائم، يرى بيتر لافوي، أعلى مسؤولي ملف باكستان في مكتب الاستخبارات القومي (DNI)، أنه بالرغم من أن القاعدة قد حوصرت وهزمت، لكنها لم تنته. لقد أصابتها غارات الطائرات من دون طيّار في باكستان بأضرار جسيمة، إلا أنها أصبحت بسبب من الضعف التي هي عليه أكثر اعتماداً على دعم الجماعات المتطرفة المحلية. وهو ينتهي إلى خلاصة: «لقد أصبحت عالة على طالبان، وأية قوة لطالبان سوف تتحوّل قوة للقاعدة»، وكل انتصار لطالبان سيعيد القوة إلى مفاصل القاعدة[١١٨].

يجمع تحليل ريدل ولافوي «القاعدة» إلى طالبان من دون كبير تمييز، ويضفيان مصداقية على الاتجاه ذاك داخل الأوساط العسكرية التي ترى التدخل العسكري الأمريكي في باكستان استراتيجيا إلزامية لا مناص منها. وتكشف مقابلات وودوارد المطوّلة مع رسميي إدارة أوباما أن الرئيس محاصر بجنرالاته، وهم يضغطون من أجل تصعيد الدعم والتدخل العسكري على المسرح الأفغاني ـ الباكستاني.

ويبدو جو بايدن المعارض الوحيد في إدارة أوباما في موضوع «القاعدة» وطالبان. وكانت وجهة نظره أن القاعدة وطالبان ليسا الأمر نفسه، وأنه ما من داع إلى التصعيد في الحرب الدائرة في أفغانستان. وقد اقترح بايدن بدلاً من ذلك عملاً عسكرياً محدوداً ومحدداً يستهدف بن لادن وأعوانه في باكستان. وبحسب تفاصيل الحديث الذي دار بين مسؤولي إدارة أوباما، فقد سفّه بايدن الزعم القائل إن القاعدة وطالبان هم شديدا التوأمة، وأن نجاح الواحدة منهما يعني نجاح الثانية. قال بايدن، بحسب وودوارد: «لا، هما مختلفتان تماماً. . .

---

(١١٧) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(١١٨) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

نحن نتوهم أنه إذا عادت القاعدة إلى أفغانستان حيث لم تكن، فسيكون مرحّباً بها من طالبان. هل هذا افتراض صحيح؟ لا نملك ما يؤكد استنتاجاً كهذا»[١١٩]. وكما بايدن، يعتقد ريتشارد هولبروك، مبعوث أوباما فيما بعد إلى أفغانستان وباكستان، بأنه حتى لو استولت طالبان من جديد على مناطق واسعة من أفغانستان، فسوف لن تسمح للقاعدة بأن تعود هي الأخرى. ويعلّق هولبروك بعد الاجتماع: «ربما تكون تلك الرؤية العقلية الأكثر أهمية خلال السنة»[١٢٠]. وفي ردّ على بايدن وهولبروك، يقول بانيتا في اجتماع لمجلس الأمن القومي: «إنهما يحاولان الفصل بين جماعتين شديدتي الترابط»[١٢١].

وكما أعتقد، فقد خسر بايدن الجولة. وانتصر مرة ثانية حديث الإرهاب الذي يساوي بين القاعدة وطالبان. وفي النتيجة تبدو الولايات المتحدة متورطة في تصعيد الحرب، لا على القاعدة فحسب، بل أيضاً على طالبان. لقد أمدّت القاعدة من دون شك تنظيمات مقاتلة أخرى عاملة في باكستان بالقوة، وقد طبّقت طالبان أسلوب القاعدة في العمليات الانتحارية، وهي تشاركها، كما يبدو، موقفها الأيديولوجي بإزاء العالم. وكما يلاحظ الصحافي الباكستاني المخضرم أحمد رشيد، فإن إنتاج أحزمة الانتحاريين قد أصبحت صناعة رائجة في منطقة الباشتون القبلية، ومثل أية صناعة يدوية أخرى: «فالصاعق يصنع في بيت، والحزام في بيت ثان، وثالث لكرات المتفجرات، وهكذا، ثم تجمع كلها، وتقوم طالبان بدفع ثمنها»[١٢٢].

طالبان الباكستانية، على وجه الخصوص، قوة نشأت في المناطق القبلية الفقيرة (فاتا) التي كانت عانت البؤس والظلم، بالإضافة إلى الإدارة الفوضوية الفاشلة والموروثة من البريطانيين، لكنها أخذت كذلك من القاعدة أساليبها وجوانب من أيديولوجية جهادها الأممي[١٢٣]، إلا أن هناك ما يميّزها من طالبان

---

(١١٩) المصدر نفسه، ص ١٦٧.

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(١٢١) المصدر نفسه، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ و٢٠٢.

(١٢٢) Ahmed Rashid, «Jihadi Suicide Bombers: The New Wave,» *New York Review of Books* (12 June 2008).

(١٢٣) John Mueller, «How Dangerous Are the Taliban?,» *Foreign Affairs* (15 April 2009), <http://www.foreignaffairs.com/articles/64932/john-mueller/how-dangerous-are-the-taliban>; Ahmed Rashid, «A Deal with the Taliban?,» *New York Review of Books* (25 February 2010), <http://www.nybooks.com/articles/archives/2010/feb/25/a-deal-with-the-taliban/>; Greg Bruno, «Interview: The al-Qaeda- =

أفغانستان أيضاً. فممارسة التفجير العشوائي ضد أهداف مدنية، وبخاصة المعابد الشيعية والصوفية في المدن الباكستانية، التي تنفذها في الغالب جماعات مذهبية من البنجاب، كلها ممارسات تخصّ طالبان باكستان. وقد انضمت إليها عناصر من تنظيمات مذهبية، مثل «عسكر جهنجوي» و«سبح الصحابة» الباكستانيتين، لتشنّ من ثمة حملة تفجيرات إرهابية في باكستان استهدفت في المبدأ الجيش والشرطة، ومن ثمة المدنيين وعلى نحو متزايد. في المقابل، يندر تسجيل هجمات عشوائية من طالبان أفغانستان ضد المدنيين. كما يمكن تسجيل تطويع طالبان باكستان لشبّان من أجل هجمات انتحارية، فيما هذا الأسلوب غير معروف عموماً في أفغانستان[١٢٤].

ومن أجل تنفيذ هدفها المعلن في إسقاط الحكومة الباكستانية، شنّت طالبان باكستان مع حليفاتها الباكستانية والأجنبية حرباً شاملة ضد الحكومة. وقد سجّل في سنة ٢٠٠٩ ما لا يقل عن ثمانية وسبعين هجوماً انتحارياً في المدن الباكستانية الرئيسية، واستهدفت في حالات عدة منشآت حساسة تابعة للجيش والاستخبارات، مثل القيادة العسكرية في رولبندي، وجامعاً تصلي فيه عائلات العسكريين، ومكاتب الاستخبارات الباكستانية في ثلاث مدن، تاركة بنتيجتها آلاف القتلى ودماراً كبيراً[١٢٥]. في العام ذاك، زاد عدد الباكستانيين القتلى بنتيجة هجمات طالبان على عدد المدنيين القتلى في أفغانستان[١٢٦].

= Tallban Nexus,» Council on Foreign Relations (25 November 2009), <http://www.cfr.org/publication/20838/alqaedataliban_ nexus.html>, and Carlotta Gall and Sabrina Tavemise, «Pakistani Taliban Are Said to Expand Alliances,» (6 May 2010).

لدراسة أوفى عن طالبان باكستان، انظر: Hassan Abbas, «A Profile of Tehrik-i-Taliban Pakistan,» *CTC Sentinel*, vol. 1, no. 2 (January 2008), <http://www.ctc.usma.edu/sentinel/CTCSentinel-Vol1Iss2.pdf>.

(١٢٤) «Afghan Suicide Bombing,» Jane's Terrorism and Security Monitor (8 May 2009), and «Suicide Attacks in Afghanistan, 2001-2007,» Jabul UNAMA (9 September 2007); Germy Lanch, «Suicide Terrorism in Pakistan, IPCS Special Report,» Institute of Piece and Conflict Studies (New Delhi) (September 2009), and «AG's Personal Communication with Security Analyst Claudio Franco,» (2009).

(١٢٥) «Pakistan Security Report 2009,» Pakistan Institute for Piece Studies (January 2010).

(١٢٦) Dexter Filkins, «09 Deadliest Year for Afghans, U.N. Says,» *New York Times*, 13/1/2010, <http://www.nytimes.com/2010/01/14/world/asia/14kabul.html>; Jane Perlez, «U.S. Urges Action in Pakistan after Failed Bombing,» *New York Times*, 8/5/2010; «Pakistan Security Report 2009,» Afghanistan Annual Report on Protection of Civilians in Armed Conflict (2009), and United Nations Assistance Mission in Afghanistan (January 2010), <http://unama.unmissions.org/Portals/UNAMA/human%20rights/Protection%20of%20Civilian%202009%20report%20English.pdf/>.

ردّت الحكومة الباكستانية بحملة مطاردة ضارية ضد طالبان الباكستانية، وشنّت حملة غير مسبوقة ضد مواقعها وأنصارها في منطقة «فاتا» ومنطقة «وادي سوات» المحاذيتين للمحافظة الشمالية الحدودية (التي تسمّى الآن خيبر ـ باختونكاوا)، أسفرت عن تهجير حوالى ثلاثة ملايين شخص، ودمّرت الكثير مما تبقى من تلك المنطقة القبلية[(١٢٧)]. واجهت طالبان باكستان في آن معاً الآلة الضاربة للجيش والشرطة الباكستانيين، وكذلك الرأي العام الذي غدا على نحو متزايد معادياً لها[(١٢٨)]. ورغم ذلك، تحتفظ طالبان باكستان بقدر من القوة، التي تظهر في الهجمات الانتحارية التي تشنّها هنا أو هناك من باكستان. ومواقع طالبان باكستان الرئيسية اليوم هي في أوركزاي وكورام في منطقة شمال وزيرستان، حيث لم يشنّ الجيش الباكستاني هجمات رئيسية.

وكما زملاؤهم المقاتلون الجهاديون العرب، في العراق خصوصاً، ينفّذ مقاتلو طالبان باكستان هجمات انتحارية على نطاق واسع. وكما في العراق أيضاً، قادهم ذلك إلى عزلة قاسية لدى السكان بسبب ممارساتهم القاسية والعشوائية[(١٢٩)]. لقد بات الناس في باكستان غاضبين جداً، وفق تعبير المخرج السينمائي وناشط حقوق الإنسان الباكستاني بينا سروار[(١٣٠)].

---

(١٢٧) كانت هناك حملات عسكرية بدءاً من سنة ٢٠٠٣ دمّرت ما تبقى من بنى تحتية: معظم التدمير تسببت به القيادة التقليدية التي طردتها طالبان. انظر: Patrick Seale, «Pakistan's Cruel Stalemate,» Agence Global (5 April 2010), <http://www.middle-east-online.com/english/opinion/?id=38246>; Jane Perlez and Pir Zubair Shah, «Pakistan Regains Control of Remote Area, for Now,» *New York Times*, 8/3/2009, <http://www.nytimes.com/2009/03/09/world/asia/09bajaur.html>, and «Asia Report Number 178: Pakistan: Countering Militancy in FATA,» International Crisis Group (21 October 2009), <http://www.crisisgroup.org/en/regions/asia/south-asia/pakistan/178-pakistan-counteringmilitancy-in-fata.aspx>.

(١٢٨) Perlez, Ibid.

(١٢٩) «Pakistan Public Opinion Turning against Taliban,» MSNBC (11 June 2009), <http://www.msnbc.msn.com/id/31267869/>; Husain Haqqani, «How Pakistan Is Countering the Taliban,» *Wall Street Journal*, 30/4/2009, <http://online.wsj.com/article/SB124096805456666593.html>; «Pakistani Public Opinion on the Swat Conflict, Afghanistan, and the US,» Program on International Policy Attitudes (PIPA) (1 July 2009), <http://www.worldpublicopinion.org/pipa/pdf/jul09/WPO_Pakistan-Tul09_rpt.pdf>; «Few Traditional Leaders Were Left in South Waziristan and Swat Was Ruled Mainly by Wealthy Landlords,» and Jane Perlez and Pir Zubair Shah, «Taliban Exploit Class Rifts in Pakistan,» *New York Times*, 16/4/2009, <http://www.nytirnes.com/2009/04/17/world/asia/17pstan.html>.

(١٣٠) «Pakistan, Its Journalists and the Stories the West Forgets,» a Panel Discussion at Brunei Gallery, SOAS (School of Oriental and African Studies) (London) (13 October 2010).

وبنتيجة هذا العداء بين السكان، فشلت طالبان باكستان في نشر أفكارها وأنشطتها الجهادية خارج قواعدها الحدودية القبلية. واليوم لم تعُد طالبان باكستان تمثل تهديداً جدّياً لبقاء الدولة الباكستانية[١٣١].

على العكس من ذلك، بات الإسلاميون المقاتلون في جنوب البنجاب، الذين يدعون أكثر فأكثر «طالبان بنجاب» يمثلون تهديداً للدولة يفوق ذاك الذي تمثله طالبان على الحدود. والمسؤولون الباكستانيون الأمنيون في النهاية قلقون من التعاون الوثيق الذي بات قائماً بين طالبان في شمال وزيرستان وطالبان بنجاب، الذي سيمنح الأخيرة مجال عمل واسعاً[١٣٢]. كانت مشكلة طالبان باكستان الكبرى أنها لم تأخذ بعين الاعتبار اللاعبين الآخرين الأساسيين في المنطقة، وليس مفاجئاً بالتالي أن تحوّلت إلى الهدف الوحيد الآن للحملة الحكومية بخلاف جماعات طالبان الأخرى.

ربما بدا النصر على المدى القصير صعباً على السلطات الباكستانية، لاحتفاظ جماعات طالبان بالقدرة على تنفيذ الهجمات، إلا أن توازن القوة يميل على المدى البعيد إلى صالح الحكومة، وبخاصة مع فشل المقاتلين في إنشاء تحالفات مع الجماعات الراديكالية الأكثر قوة داخل البلاد، مثل «عسكر طيبة»، رغم أن جماعة فرعية من «عسكر طيبة» كانت قد انضمت إلى طالبان باكستان[١٣٣]. حتى العلاقة بين طالبان باكستان والطالبان الأفغان بات يشوبها التوتر، وقد حاول الملا عمر تكراراً إقامة علاقات عمل وديّة مع طالبان باكستان في عهد بيت الله محسود، ولكن من دون كبير نجاح. كان رأي الملا عمر أن على فروع طالبان كافة جعل أفغانستان أولوية لها، وسعى لذلك إلى عقد هدنة ناجحة لفترة ما بين طالبان باكستان والجيش الباكستاني. إلا أن الضغط الأمريكي وغارات الطائرات بلا طيار قوّضت الهدنة تلك. ورغم الطلبات المتكرّرة من السلطات الباكستانية، فلا تزال طالبان أفغانستان تتردّد في إدانة طالبان باكستان رسمياً. كذلك هناك تفاهم مبدأي لتشكيل تحالف بين طالبان أفغانستان، والحزب إسلامي، وعسكر طيبة، يركّز على القتال في

---

(١٣١) Perlez, «U.S. Urges Action in Pakistan after Failed Bombing».

(١٣٢) Hassan Abbas, «Defining the Punjabi Taliban,» *CTC Sentinel*, vol. 2, no. 4 (April 2009), <http://www.ctc.usma.edu/sentinel/CTCsoentinel-Vol2.Iss-4.pdf>.

(١٣٣) إنه المدى الطويل الذي يخشاه الباكستانيون، خصوصاً أنه إذا لم تواجه المشكلات الاقتصادية الاجتماعية القاسية، فالعمل العسكري سيتصاعد لبعض الوقت.

أفغانستان، إلا أنه، بحسب المصادر الباكستانية، لم يجر تأكيده، ولم يوقّع حتى تاريخ كتابة هذه السطور[١٣٤].

٢ ـ الضغط الأمريكي

إذا كانت هذه الجماعات التي خرجت من «القاعدة» قد كتب لها البقاء، فإن ذلك بفضل الأنشطة الأمريكية في المنطقة. فهجمات الطائرات الأمريكية بلا طيار، وإن قتلت بعض المسلحين، فهي تركت وراءها مئات القتلى من المدنيين، بمن فيهم الأطفال. وقد أذكت الغارات الجوية على منطقة القبائل الروح القومية الباكستانية والأفغانية والمشاعر المعادية لأمريكا. وقد ألّبت الغارات تلك، والخسائر الناتجة منها، الطبقة الوسطى الأفغانية، على وجه الخصوص، فجعلتها أكثر تطرفاً، وباتت مكاناً تجد فيه الجماعات تلك ضالتها. وقد أجمع خمسة صحافيين بارزين من اتجاهات سياسية مختلفة على أن تعميق التورط الأمريكي العسكري في باكستان قد أحال الطبقة الوسطى في المدن أكثر تطرفاً، وهو تطور لافت. وبحسب مصطفى قدري، الصحافي الباكستاني، الذي يكتب لغير صحيفة محلية وأجنبية، فإن: «باكستانيين كثيرين يشعرون أن لا حيلة لهم في وجه القوة الأمريكية الطاغية التي تركت أثراً مدمراً في المجتمع... وعليه، فإن البعض بات يشعر بالحاجة إلى الرد، لأن الإسلام في خطر، وهم لذلك على استعداد لاكتناه أي إحساس بالقوة»[١٣٥]. ويعتبر أحدث اعتداء لطائرات الهليكوبتر التابعة لـ «الناتو» على الأراضي الباكستانية، التي بلغت ذروتها في مقتل ثلاثة حراس حدود شبه عسكريين، إشارة إلى التصعيد العسكري الجاري. وقد أثار مشاعر الغضب في طول البلاد وعرضها. وبسبب ذلك لم تستطع حتى الحكومة المؤيدة للأمريكيين في إسلام أباد إلا الردّ بقطع طرق الإمداد على قوات «الناتو» في أفغانستان، وفي نوع من التجاوب مع المزاج الشعبي الغاضب. وقد هدد القادة الباكستانيون بوقف حماية قوافل إمدادات «الناتو» إذا تكرّرت غارات طائرات هليكوبتر التحالف على أهداف داخل باكستان[١٣٦].

---

(١٣٤) مصادر داخل المسلحين الباكستانيين (نيسان/ أبريل ٢٠١٠).

(١٣٥) «Pakistan, Its Journalists and the Stories the West Forgets».

(١٣٦) Ismail Khan and Jane Perlez, «Pakistan Halts NATO Supplies to Afghanistan after Attack,» *New York Times*, 30/9/2010, and «Nato Strike Kills Pakistan Troops,» Association Press (30 September 2010).

هناك إدراك منتشر على نطاق واسع داخل باكستان، وهو أن الولايات المتحدة تنتهك سيادة بلادهم، وهو إدراك بات أقوى وأكثر علانية، حتى رسمياً، منذ حادثة قتل بن لادن. وتشير مقابلات عدة مع ضباط باكستانيين كبار إلى أن هناك شكاً عميقاً بين الضباط الباكستانيين حيال الولايات المتحدة. ويقول أحد الضباط الكبار من الشمال لـ **واشنطن بوست**: «بين الرتب الدنيا في الجيش، تبدو النزعة المعادية لأمريكا في الحد الأقصى». وكما حال آخرين جرت مقابلتهم، فقد تكلم أحدهم من دون الكشف عن هويته، إذ إنه ليس مسموحاً التعبير عن ذلك علانية(١٣٧).

ووفق تحذير رئيس وزراء باكستان يوسف رضا جيلاني، السياسي المؤيد عموماً لأمريكا، فإن هناك «أزمة ثقة» مع الولايات المتحدة. وبحسب قوله إلى **التايم**: «تقليدياً، فإن الـ «ISI» (المخابرات الباكستانية) كانت تعمل مع الـ «CIA»، إلا أننا نرى الآن أن ليس هناك من مكان للثقة»(١٣٨). وفي ظهور نادر أمام البرلمان، أدان قائد جهاز الاستخبارات الباكستاني الجنرال أحمد خوجة باشا الغارة الأمريكية باعتبارها «عملية غادرة»(١٣٩). وقد أجاز البرلمان الباكستاني قراراً اعتبر بموجبه غارات الطائرات بلا طيار خرقاً للسيادة الباكستانية، وكذلك الغارة السرية على مقر سكن بن لادن. وهدد البرلمانيون بأن باكستان ستقطع طرق إمدادات القوات الأمريكية في أفغانستان إذا تكررت الغارات الأمريكية. إلا أن صنّاع السياسة الأمريكيين، كما يبدو، لا يقدّرون حق التقدير المشاعر الوطنية في صفوف الجيش الباكستاني والتداعيات الأمنية المحتملة لذلك.

لكن التوتر مع الولايات المتحدة كان عالياً في باكستان، حتى قبل الغارة المذلّة في الأول من أيار/ مايو؛ فقد عبّرت الإعلامية قطرينا حسين، صاحبة برنامج «توك شو» معروف، عن مخاوفها من أن الأعمال العسكرية الأمريكية الأحادية قد تقوّض صدقية الحكومة الحالية في إسلام أباد أمام شعبها، كما ستغذي من المشاعر المعادية لأمريكا. تقول قطرينا: «يشعر الكثير من

---

(١٣٧) Karin Brulliard, «Angers Simmers in Pakistani Army Over Bin Laden Raid,» *Washington Post*, 19/5/2011.

(١٣٨) Declan Walsh, «Osama Bin Laden «Revenge» Attack Kills Scores in Pakistan,» *Guardian*, 13/5/2011.

(١٣٩) David E. Sanger and Eric Schmitt, «As Rift Deepens Between U.S. and Pakistan, Kerry Offers Carrots and Sticks,» *New York Times*, 14/5/2011.

الباكستانيين أن الحكومة قد خدعتهم، والنخب المدينية باتت أكثر تطرفاً»، وتضيف: «الشعور المعادي لأمريكا هو الآن في ذروته»[١٤٠].

وللإفادة من المشاعر المتصاعدة ضد أمريكا، دعت طالبان باكستان وميليشيات أخرى إلى الانتقام، وحثّت على تنفيذ هجمات انتحارية في المدن الأمريكية الكبرى. ويقول رجال القانون إن حرب الولايات المتحدة في باكستان، وليس الفروقات الثقافية أو المشاكل الشخصية، هي التي تقف خلف تحويل شهزاد من مواطن مسالم إلى متهم بالإرهاب، رغم بعض الدور للأيديولوجيا في التحول ذاك[١٤١].

لقد حلت باكستان ـ أفغانستان محل العراق كمصدر جديد للمتطرفين المحليي النشأة؛ فقد سافر المتطوعون الباكستانيون حتى اليمن والصومال. ورغم ذلك لا يبدو أن مسؤولي إدارة أوباما راغبين في استخلاص الصلة السببية القائمة بين تصاعد التورط العسكري للولايات المتحدة في باكستان ـ أفغانستان، والموجة الجديدة من التطرف. ووفق منطق حديث الإرهاب تماماً، أو وجهة النظر القاتمة، لا يزال أوباما يسوّق للزعم القائل إن طالبان أفغانستان والقاعدة يعملان بشكل أو بآخر ككيان واحد. بكلام آخر، لا تزال إدارة أوباما تنظر إلى طالبان بمنظار القاعدة والحرب الكونية على الإرهاب.

٣ ـ محاولة الخروج من اللائحة الإرهابية

ومع ذلك، فإن أحد الأهداف الرئيسية لحركة طالبان أفغانستان هو الخروج من اللائحة الإرهابية، والحصول على الاعتراف الدولي كحركة تحرير وطني شرعية. ورغم أن هناك عناصر من طالبان أفغانستان بقيادة حقاني في شرق أفغانستان تقيم علاقات محدودة مع القاعدة، إلا أنه من الوضوح بمكان أن حقاني غير معني بأجندة القاعدة في الجهاد الأممي، وهو ضد تسعير الحرب على الحكومة الباكستانية[١٤٢]. ولا يزال حقاني يستضيف في معقله في شمال وزيرستان بعض المقاتلين العرب، ولكن في درجات متدنية جداً. والحقانيون

---

(١٤٠) المصدر نفسه.

(١٤١) Miller and Markon, «Radicalization of Times Square Suspect Was Gradual, Investigators Say».

(١٤٢) Jane Perlez, «Rebuffing U.S., Pakistan Balks at Crackdown,» *New York Times*, 15/12/2009, <http://www.nytimes.com/2009/12/15/world/asia/15haqqani.html?_r=1>.

مسؤولون عن التملّص من المشاركة في العمليات الانتحارية في أفغانستان، وهو أسلوب القاعدة المفضل، قياساً بمثيلاتها في باكستان، كما أنهم ليسوا عشوائيين، كما طالبان باكستان. وجماعة حقاني هي الأفضل تمويلاً بين تنظيمات طالبان، وهي كما يقال تتلقى الدعم المالي والعسكري من أجهزة الأمن الباكستانية. هم يفعلون ما يطلبه منهم الراعي الباكستاني، وينالون في المقابل مكافأتهم.

رابعاً: تداعيات الحرب في أفغانستان

ملخّص القول، إن الحرب في أفغانستان أبعد من أن تختصر باعتبارها قضية «القاعدة». هي نتاج خليط من التحالف بين قبائل الباشتون والحركة الإسلامية ضد ما يعتبرونه (عن حق أو باطل) تهديداً أجنبياً لهويتهم وطريقة عيشهم. يمكن إذاً القول إن الطالبان هي «جيش الفلاحين» في الضفة الأفغانية[١٤٣]. لقد استقطبت الحرب تلك مئات من المقاتلين الإسلاميين، الكشميريين والعرب، وحتى من بلدان آسيا الوسطى. ولعل القاعدة هي اللاعب الأصغر في هذا التحالف، ومجرد نتيجة جانبية، وكيان نشأ في ظل غياب السلطة والقانون والأمن. ومن غير المعقول أن يتمكّن عشرون إلى خمسين ناشطاً من القاعدة في أفغانستان أن يطلقوا تمرّداً قوياً، ناهيك عن قيادته، أياً تكن سمعة القوة الخارقة التي تلازمهم. لقد كرّرت طالبان غير مرة خطابها من أنها ليست بحاجة إلى مقاتلين أجانب، لأنها تملك الكثير. فخلال الثلاث أو الأربع سنوات الماضية ضاعفت طالبان أفغانستان، بحسب الاستخبارات الأمريكية، أعداد مقاتليها من ٧٠٠٠ إلى أكثر من ٢٥,٠٠٠ عنصراً، وكسبت أنصاراً أكثر بين قبائل البشتون، وهم الأكثرية في أفغانستان، كما لدى مجموعات إثنية أخرى في الشمال، مثل الأوزبك والطاجيك، التي تعارض أيضاً وجود قوات أجنبية في البلاد[١٤٤]. وكانت الاستخبارات العسكرية الأفغانية قد قدّرت في نيسان/ أبريل ٢٠١٠ وجود ٤٠٠٠ مقاتل أجنبي في أفغانستان، معظمهم من باكستان. بين هؤلاء، لا يشكّل جماعة بن لادن أكثر

---

(١٤٣) Antonio Giustozzi, *Koran, Kalashnikov, and Laptop: The Neo-Taliban Insurgency in Afghanistan* (New York: Columbia University Press, 2008).

(١٤٤) يتضمّن هذا العدد فقط المقاتلين بدوام كامل داخل أفغانستان، ويستثني المقاتلين بدوام جزئي والمسهّلين، عدا الذين يخرجون من أرض المعركة للراحة أو العلاج.

من ١ أو ٢ بالمئة من المتطوعين الذين يقاتلون إلى جانب طالبان(١٤٥).

ومع ذلك، فقد اعتبر أوباما قراره نشر ٣٠,٠٠٠ عسكري إضافي من الجيش والمارينز في أفغانستان بحلول مطلع ٢٠١٠ (رافعاً عدد الجنود الأمريكيين في أفغانستان إلى حوالى ١٠٠,٠٠٠) بمثابة ضرورة أمنية داخلية لحماية الولايات المتحدة من «القاعدة». وكما الحرب في العراق، يجري تصوير التمرّد في أفغانستان كقتال للعدو أكثر منه ضربة في بلده. إلا أنه تمرّد طالبان وليس القاعدة. وهو ما لا يجري التركيز عليه، في نوع من الحطّ من الدور المحلي لطالبان أفغانستان، التي تحمل مشروعاً للتسوية السياسية لا علاقة له بالقاعدة(١٤٦).

ورغم ذلك، يستمر أوباما في خطبه الموجهة إلى الجنود، داخل البلاد أو في أفغانستان، بالمساواة بين طالبان والقاعدة. ففي خطاب له في وست بوينت في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩، على سبيل المثال، أبلغ أوباما الحضور أن هدفه في أفغانستان وباكستان سيكون: «بالغ التحديد، وهو شلّ قدرات القاعدة وتفكيكها وهزيمتها والمتطرفين المتحالفين معها»(١٤٧). وفي زيارة له إلى أفغانستان بعد ذلك بأربعة أشهر، أي في نيسان/أبريل ٢٠١٠، دافع أوباما عن قرار تصعيد الحرب، قائلاً للجنود الأمريكيين إن انتصارهم أمر إلزامي من أجل سلامة أمريكا. «أما إذا انزلقت هذه البلاد إلى ما كانت عليه»، ويضيف «أو إذا عادت طالبان فاستولت عليها، ففي وسع القاعدة أن تعمل آنذاك بحرية أكبر، ومزيد من أرواح الأمريكيين ستكون على المحك»(١٤٨).

وفي كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠، كرر أوباما الرسالة عينها في زيارة مفاجئة إلى البلد الذي تمزقه الحرب، قائلاً إن الهدف هو شلّ القاعدة وتفكيكها وهزيمتها وحلفائها الطالبان المتطرفين. وقد أبلغ قرابة الـ ٤٠٠٠ جندي الذي تجمّعوا في أحد المعسكرات أنهم يكسبون المزيد من الأرض في

(١٤٥) يفيد تذكر أن مقاتلي القاعدة، تاريخياً، يندر أن خاضوا معارك، وهم معبأون لدور خاص.

(١٤٦) في لقاءاته الوزارية الحربية، لم يكن السؤال إرسال أو عدم إرسال المزيد من القوات، بل كم؟ تصعيد أوباما الثاني للحرب هذا العام هو الأكبر منذ الحرب العراقية. وهناك أيضاً ٥٠,٠٠٠ جندي من «الناتو» موجودون في البلاد. في ذروة الحرب الأفغانية، فيكون عدد الذين في الجنوب مساوياً لذلك الذي كان في العراق بين سنتي ٢٠٠٣ و٢٠٠٨.

(١٤٧) «Remarks by the President in Address to the Nation on the Way Forward in Afghanistan and Pakistan,» White House (Office of the Press Secretary) (1 December 2009), <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/remarks-president-address-nation-way-forward-afghanistan-and-pakistan>.

(١٤٨) *Washington Post*, 29/3/2010.

أفغانستان وأنهم «في حالة هجوم» الآن، ويحققون المزيد من النجاح ضد طالبان. وقال أوباما مخاطباً الحشد الكبير: «لقد قلنا إننا ماضون باتجاه كسر عزم طالبان، وهذا ما نفعله، فأنتم في وضعية الهجوم بعدما تعبتم من حالة الدفاع»[(١٤٩)]. ولا يخفى ما في القول من إعلان العزم على البقاء في أفغانستان في المدى المنظور.

وفيما هو تحت الضغط لإظهار التقدم في حرب استمرت لحوالى عقد من الزمن، وتعب الأمريكيون منها، وعد الرئيس الأمريكي باستمرار الالتزام بالوصول إلى نتيجة، قال: «لن نسمح بجعل تلك البلاد مرة ثانية ملاذاً للإرهابيين ليهاجموا الولايات المتحدة مرة أخرى. لن يحدث ذلك». وعليه، فهناك ما يكفي من الأدلة التي تثبت أن «مراجعة ديسمبر» ـ أي تحليل سنة كاملة من خطط أوباما في أفغانستان ـ لم تكن في الواقع غير تأكيد جديد على الاستراتيجيا الأمريكية السابقة التي ما زالت مهيمنة. لقد رسم أرفع مساعدي الرئيس جملة توقعات لخطوات مستقبلية لا تتضمن أي تغيير رئيسي في السياسة المتّبعة. وبحسب دوغ ليوت، أعلى مستشاري أوباما لشؤون الحرب، وفيما هو يرافقه في رحلته: «لا اعتقد أننا سنرى تعديلات فورية»[(١٥٠)].

وفي الواقع، فإن نتائج مراجعة سنة كاملة من استراتيجية أوباما الحربية، إنما جاءت لتعكس التوترات والتناقضات عينها التي شابت سياسته من قبل. ولا يستطيع المراقب إلا أن يلاحظ أن إعلان أوباما عن تحقيق «تقدم رئيسي نحو الهدف المعلن، وهو شل [القاعدة] وتعطيلها وهزيمتها»، قد ترافق مع تصاعد التمرّد في أفغانستان، وهو في كل الأحوال كان قابلاً لأن يتحقق من دون التوسع والتصعيد في حرب أمريكا هناك. وقال أوباما أيضاً: «نحن على الطريق نحو تحقيق أهدافنا» ضد طالبان، و«البدء بسحب قواتنا» في تموز/يوليو ٢٠١١[(١٥١)]. إلا أن تقييمين لاحقين لجماعات الاستخبارات في الولايات

---

(١٤٩) Caren Bohan, «Obama Visits Afghanistan, Says U.S. Making Progress,» Reuters (3 December 2010), and Carol E. Lee, «Barack Obama, in Afghanistan, Tells Troops They're «On the Offense»,» *Politico* (3 December 2010), <http://www.politico.com/news/stories/1210/45923.html#ixzz17GOeDCMj>.

(١٥٠) Ben Feller, «Analysis: Obarnas Trip Signals Afghan War Plan Set,» Associated Press (4 December 2010).

(١٥١) Karen DeYoung, «Obama Says U.S. Is «on Track» to Achieve Goals in Afghanistan,» *Washington Post*, 16/12/2010.

المتحدة حول الحرب في أفغانستان كانا أكثر تشاؤماً، ونقضا تقييمي الرئيس ووزير الدفاع غايتس الذي قال بعد زيارته إلى المنطقة إنه مقتنع أن استراتيجية الإدارة في موضوع الحرب الأفغانية تسير على نحو صحيح[١٥٢].

وكما بيّنت سابقاً، فإن هناك صلات عملياتية قليلة قائمة بين طالبان أفغانستان وبعض ناشطي «القاعدة»، على مستوى الإرشاد، كما في التدريب على كيفية تصنيع القنابل التي توضع إلى جانب الطريق. لكن أسلوب التفجيرات الانتحارية هو الأساس، ويجب أن يكون موضع النظر. فقياساً بهجمات طالبان باكستان الانتحارية المتعاقبة، يبدو سجل طالبان أفغانستان في المجال ذاك فقيراً جداً. ومع ذلك، تبقى العلاقة السابقة أكثر تعقيداً، وهو ما يتضح في التحالف مع القاعدة، كما في تبني تكتيكاتها وأيديولوجيتها[١٥٣]. ولقد كان الملا عمر واضحاً في قوله إن الهجمات الانتحارية يجب أن تقرر بحذر، وبعد أن تُجاز من أعلى المراجع. ويذهب طالبان أفغانستان أبعد في محاولة تمييز أنفسهم من القاعدة وطالبان باكستان، رغم أن تنفيذ أوامر القيادات لم يكن دائماً ليتحقق.

ويبدو الملا عمر أكثر اعتدالاً من زعماء طالبان الآخرين، مثل الملاّ دادالله (الذي قتل لاحقاً) من شورى كويتا، الذي أسس للعمليات الانتحارية في أفغانستان، وهي عمليات نفّذتها ما يسمّى بـ «شبكة حقّاني»، وهو تنظيم مستقل متمرّد يتمركز في أفغانستان، ويقوده مولوي جلال الدين حقاني مع ابنه سراج الدين. قاد دادالله الجناح الأكثر تطرفاً في طالبان، وكان له، كما قيل، صلات عربية واسعة. ومع موته سنة ٢٠٠٧ غدا الجناح ذاك من دون قائد. واتهم شقيق دادالله قادة طالبان بالتآمر في موت أخيه، وهي تهمة منتشرة إلى حدّ ما في أفغانستان، رغم نفيها من أجهزة الأمن الباكستانية. ويذكر أن الملا عمر كان في جدل دائم مع دادالله بخصوص سلوكه المتطرّف[١٥٤].

وعليه، فمن الخطأ الفادح أن نجمع معاً «القاعدة»، التنظيم الجهادي الأممي الداعي إلى شنّ حملة عنف على مستوى العالم؛ وطالبان، التنظيم الإسلامي

---

(١٥٢) Ken Dilanian and David Cloud, «U.S. Intelligence Reports Cast Doubt on War Progress in Afghanistan,» *Los Angeles Times*, 15/12/2010.

(١٥٣) «The Taliban in Afghanistan: An Assessment,» Stratfor (29 September 2009), <http://www.stratfor.com/analysis/20090918_taliban_afghanistan_assessment>.

(١٥٤) «Taliban Issues Code of Conduct,» Al Jazeera English (28 July 2009), <http://english.aljazeera.net/news/asia/2009/07/2009727834812481З.html>.

المحلي المنخرط في ثورة تحرير وطني، الذي جعل الجبهة الأفغانية وحدها نصب عينيه على الدوام. ورغم صلات عدة تقوم بين التنظيمين، فهما منفصلان، مستقلان، ذوا تركيبين مختلفين وأهداف مختلفة. ولم تتهم السلطات الأمريكية مرة واحدة طالبان أفغانستان بالتخطيط لهجمات أو تنفيذها خارج أفغانستان. ومع أن حقّاني كان في طالبان، إلا أنه التحق عملياً بالقاعدة. كما أن هناك إجماعاً نسبياً بين أعلى مراجع طالبان أفغانستان أنه إذا قدّر لطالبان أن تعود إلى أفغانستان، فلن تسمح للقاعدة بالعودة أيضاً. كما أن موت بن لادن في باكستان كان فرصة لطالبان أفغانستان أن تنأى بنفسها أكثر عن القاعدة، رغم أنه سيكون من السخف الطلب من الملا عمر ومعاونيه في قيادة طالبان التنكّر لرفاقهم من العرب الأفغان.

ويبقى أن إخراج «القاعدة» وسواها من المتطرفين الأجانب من مناطق البشتون القبلية، أمر يتطلب توافقاً سياسياً واسعاً بين المكوّنات الفاعلة في المنطقة، بما يراعي في آن معاً شرعية الجماعات الإسلامية والوطنية العاملة على الأرض، كما مصالح باكستان وإيران والهند. كما أن هناك إجماعاً بين المراقبين على أن أي سلام دائم في المنطقة يتطلب في الأساس إصلاح النظام القضائي والسياسي القائم، ودمج المناطق القبلية في الحياة العامة للبلاد، ورفع المعاناة غير المحتملة للسكان. وإلى أن يدرك التحالف الغربي أن عليه الاستثمار في الاقتصاد السياسي للمناطق القبلية وحماية المدنيين، فستستمر طالبان في تمردها واستثمارها لحساسية القبائل البشتونية، وفي فرضها لأفكارها المتطرفة. إن حلاً سياسياً متفاوضاً عليه مع قبائل البشتون (وبعضه جلب طالبان إلى الحكومة) سيضمن حلاً نهائياً لمشكلة وجود القاعدة والمقاتلين الأجانب في تلك المناطق القبلية(١٥٥).

والدرس العراقي مفيد هنا. والتحدّي يكمن في إعطاء قبائل البشتون نصيباً في النظامين السياسي والاقتصادي، فيتحولون عن القاعدة. وفي الأصل، فالبشتون لم ينسوا دور القاعدة في الكارثة التي جلبوها على طالبان التي وفّرت لهم الملاذ منذ التسعينيات. ووجهة النظر السائدة تقول إن الطرفين لا يلتقيان

---

(١٥٥) بعد انتصاره الكاسح، قالت إدارة أوباما الجديدة إن الحرب لا تنهى بالحل العسكري، واستكشفت إمكانية حل إقليمي للحرب الأفغانية - بما فيها المحادثات مع إيران؛ كما ركّزت على محادثات سلام محتملة مع عناصر تصالحية في طالبان. لكن ذلك تغير كله الآن. فالجنرال مولن، قائد الأركان المشتركة وصف لقاءات قرضاي مع ممثلي طالبان بغير الجدّية، كما أن ضابطاً رفيعاً حرّك تهمة فساد ضد أحمد قرضاي، شقيق الرئيس، المعروف بعلاقته بعناصر من طالبان. انظر: Robert Dreyfuss, «Karzai Quandary,» *Nation*, 10/4/2010.

إلا بصعوبة. ففي ذروة قوة القاعدة في أفغانستان في نهاية التسعينيات، كان هناك قادة رفيعون كثر في طالبان يرون ويحاولون بقوة إخراج القاعدة من البلاد، وفي مقدمهم وزير خارجية طالبان الملا وكيل أحمد متوكل الذي سعى بكل الوسائل إلى إخراج بن لادن والظواهري والمقاتلين الأجانب من أفغانستان. وكاد الأخير أن ينجح في مسعاه لولا تدخل الملا عمر الذي وفّر الحماية لابن لادن(١٥٦). لكن بن لادن أخلّ بقواعد استضافته فجلب الدمار لطالبان وجرت إدانته بقسوة لدوره ذاك(١٥٧).

وبحسب دوغلاس ساندرز، من صحيفة **غلوب أند مايل** في كندا، فإن الملا عمر استمر «معارضاً جداً» لـ «القاعدة»، وقد رأى معظم قادة المجاهدين المتحالفين في أفغانستان الذين تحدّث معهم أنه «من غير المرجّح» أن يسمح للقاعدة أن تؤسس قاعدة لها هناك فيما لو انتصرت طالبان. ويقول ريتشارد باريت، المتخصّص البارز بالشأن الأفغاني، إن طالبان «لا تريد القاعدة في ملعبها»(١٥٨). وفي السنوات الأخيرة، بعد افتراق متزايد بين السكان المحليين ومقاتلي طالبان، ظهر هناك تناقص واضح بين المجموعات المستقلة من المقاتلين العرب. ومن تبقّى اليوم من هؤلاء، فهو إنما يعمل بإمرة الأفغان(١٥٩).

ويقول الكاتب والصحافي رحيم الله يوسف زاي، الذي كان لثلاثة عقود مراسلاً من داخل أفغانستان وباكستان، والذي أجرى مقابلات مع أعلى قيادات القاعدة وطالبان ـ بمن فيهم الملا عمر، بن لادن، والظواهري ـ إن طالبان لن تغفر للقاعدة، ولن تسمح لها بالعودة إلى أفغانستان فيما لو عادت إلى السلطة. وحين دفعته أكثر للإجابة عن سؤال: ما إذا كانت طالبان ستسمح للقاعدة تحت ظرف ما باللجوء إلى أفغانستان؟، كانت إجابته أنه يشكّ في ذلك؛ فقد تعلّم

(١٥٦) The Revealing memoirs by Abu al-Walid al-Masri, «The Story of the Afghan Arabs: From the Entry to Afghanistan to the Final Exodus with the Taliban,» penned by a senior member of al-Qaeda Shura Council who is considered a leading ideologue in the organization and who witnessed and participated in the most important decisions. The memoirs were serialized in *al-Sharq alAwsat* (December 2004).

(١٥٧) المصدر نفسه.

(١٥٨) John Mueller, «The «Safe Haven Myth»,» *Nation*, 28/10/2009, and Stephen M. Walt, «The «Safe Haven» Myth,» Stephen Walt's Blog on Foreign Policy.com (18 August 2009), <http://waltforeignpolicy.com/posts/2009/08/18/the_safe_ haven_myth>.

(١٥٩) الاتصالات الشخصية لـAG's مع مسؤولي (إيساف) والمحللين الأمنيين في كابول، ٢٠٠٩-٢٠١٠.

قادة طالبان الدرس المرّ، وهو أن أجندة القاعدة للجهاد الأممي تتعارض مع رؤيتهم الوطنية الإسلامية. لقد بذلت طالبان الدم الكثير لطرد الاحتلال الذي تقوده الولايات المتحدة، وحين سيتاح لها العودة إلى السلطة مرة ثانية فهي لن تغامر بالسماح للقاعدة بالعودة ثانية إلى أفغانستان[١٦٠].

وفي مقابلة له مع **الحياة**، الجريدة العربية اللندنية، يؤكد الملا محمد طيّب آغا، رئيس المكتب السياسي في طالبان، الخلاصة السابقة على نحو ضمني. يقول:

«الحلّ هو في يد الشعب الأفغاني حين ينال حريته. يعني حين ينتهي الاحتلال، فيترك أفغانستان، وتعود الفرصة للحكومة التي كانت هناك قبل الاحتلال، وتحديداً حكومة الإمارة الإسلامية، لإعادة الوضع إلى ما كان عليه، فتوحّد البلاد، وتجلب الاستقرار، وتمنع المخدرات .... ونحن على استعداد للتعاون مع الدول الإسلامية ومع سائر دول العالم. على العالم أن يعترف بنا قبل الطلب إلينا القيام بكذا وكذا[١٦١]. ولكن هناك مطالب غربية ودولية يطالبون بتلبيتها قبل الانسحاب، وبخاصة فك الارتباط بين طالبان وتنظيم القاعدة، وعدم السماح للقاعدة بالبقاء في أفغانستان»[١٦٢].

الزواج القسري الحالي بين مقاتلي طالبان وناشطي «القاعدة» سيستمر، إذاً، ما استمر الخلط الغربي بينهما، وما استمر التصعيد العسكري ضدهما. وعليه، يحذّر يوسف زاي من استخدام الوضع الحالي في باكستان وأفغانستان مقياساً للحكم على سلوك طالبان بعد انتهاء الحرب. هو يعترف أن العلاقة بين بعض عناصر التنظيمين غدت أكثر دفئاً، والسبب هو أنهما مستهدفان معاً من القوات الغربية، ولأن القاعدة غدت أكثر اعتماداً في وجودها على طالبان باكستان. غير أن طالبان أفغانستان، بحسب يوسف زاي، يرون في القاعدة، وبخلاف طالبان باكستان، سيفاً مسلطاً على رقابهم. المفتاح إذاً هو بيد الغرب، حين لا يخلط بين القاعدة وطالبان والبشتون، وحين يميّز بينهما، تماماً كما فعل مع القبائل السنّية العراقية في الأنبار[١٦٣].

---

(١٦٠) «Pakistan, Its Journalists and the Stories the West Forgets».

(١٦١) «مقابلة مع الملا محمد طيّب آغا،» **الحياة**، ٤/ ١٢/ ٢٠٠٩.

(١٦٢) المصدر نفسه.

(١٦٣) «Pakistan, Its Journalists and the Stories the West Forgets».

إذا كان هناك من يعرف حال العلاقة بين طالبان والقاعدة في الماضي والحاضر، فها هو أبو الوليد المصري، الشخصية الأسطورية في أوساط العرب الأفغان، وأول أجنبي أقسم يمين الولاء للملا عمر في التسعينيات. ففي مقابلة له على الإنترنت مع دورية **الأسترالي**، قال المصري الذي عمل مع الملا عمر وغيره من قادة طالبان، كما كان مقرّباً من بن لادن ومعاونيه، إن الخلافات بين القاعدة وطالبان هي أكبر الآن ممّا كانت عليه قبل الغزو الأمريكي لأفغانستان سنة ٢٠٠١. وهو على يقين، أن طالبان لن تستضيف من جديد القاعدة، التي طعنتها في ظهرها في أفغانستان. وفي رأي المصري، فإن عودة القاعدة إلى أفغانستان سيشكل خطراً على مستقبل حكم طالبان، لأن «أكثرية السكان هم ضد القاعدة»[١٦٤]. وعن سؤال: لماذا لا تدين طالبان القاعدة علناً، كما تطلب الولايات المتحدة، يجيب المصري، الكاتب الدائم في مجلة **طالبان**، والنصير القديم والمستمر لقيادة طالبان: أن ذلك سيعني استسلاماً لـ «الغزاة الأمريكيين»، وقبولاً بشروطهم من أجل التفاوض. «وهذا شيء مستحيل» يقول المصري. وبدلاً من ذلك، يمكن لقيادة طالبان، «التي لا تثق بامرئ خارج الحدود، بما فيها السلطات الباكستانية، حلفائها الحاليين، أن تحلّ نفسها بشكل غير مباشر من «القاعدة» على النحو الذي تحدّث عنه الملاّ محمد طيّب آغا، رئيس المكتب السياسي في الحركة[١٦٥].

ومن أجل فهم ما يجري، يجب أن نرى السياق المحلي للصراع الأفغاني، حيث يدور صراع قوة لامتلاك روح أفغانستان. ومع أن قرضاي بات يُنتقد علناً في الولايات المتحدة بتهمة إثارة المشاعر الوطنية، إلا أن كلماته تجد صدى لها في آذان الأفغان العاديين. فقد أبلغ قرضاي المشرّعين الأمريكيين، في جلسة خاصة، أن التدخل الأجنبي في بلاده بات يؤجج التمرّد القائم. وبحسب أحد الحاضرين في روايته لـ **وول ستريت جورنال**، قال «إن السبب الوحيد الذي يجعل طالبان والمجموعات المتمرّدة الأخرى تحاربان الحكومة الأفغانية، هو أنهما تريان أن للأجانب الكلمة الأخيرة في كل شيء»[١٦٦].

وأجمع المشرّعون الخمسة على أن قرضاي قد أبلغ هؤلاء الذين التقاهم

---

(١٦٤) Leah Farrall, «Hotline to the Jihad,» *Australian*, 7/12/2009.

(١٦٥) المصدر نفسه.

(١٦٦) *Wall Street Journal*, 4/4/2010.

في القصر الرئاسي أن «ثورة» طالبان سوف تتحول إلى «مقاومة» فيما لو استمرت الولايات المتحدة وحلفاؤها يملون على الأفغان كيف يجب أن يديروا بلادهم[١٦٧]. وفي مقابلة لاحقة مع **الواشنطن بوست** في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠، عبّر قرضاي، المؤيد المعروف للأمريكيين، بلطف عن مشاعر شعبه حيال وجود القوات الأمريكية، إذ قال: «لقد حان وقت تقليص العمليات العسكرية. حان وقت تقليص وجود الأحذية العسكرية في أفغانستان .... وتقليص التدخل في الحياة اليومية»[١٦٨]. كان قرضاي يعبّر بذلك عن امتعاضه من التكتيكات العسكرية الأمريكية، ودعا بدلاً من ذلك إلى تمكين الشعب الأفغاني:

«الإغارة على المنازل في الليل مرعب. مرعب. هذه قضية خطيرة، وهي تسبب خيبة أمل للشعب الأفغاني حيال «الناتو» والحكومة الأفغانية. اقتحام البيوت في الليل، واعتقال الأفغان، هي ليست وظيفة أية قوات أجنبية. على الأفغان القيام بذلك، وأحد أهم عوامل التحول الذي نعمل عليه هو إنهاء هذه الإغارات على منازل الأفغان واعتقالهم من طرف القوات الأجنبية في أفغانستان، وكذلك الضحايا بين المدنيين. وهناك، إلى أشياء أخرى، ما تقوم به الشركات الأمنية الخاصة من عنف وانتهاك لقوانيننا... الإغارات هي مشكلة دائماً، في الماضي، كما الآن. الإغارات الليلية يجب أن تنتهي. الأفغان لا يحبون هذه الإغارات. إذا كان من إغارة يجب أن تحدث، فلتنفذها الحكومة الأفغانية وفق القوانين الأفغانية. هذه نقطة خلاف دائمة بيننا»[١٦٩].

من الخطأ، بالتأكيد، إهمال تحذير قرضاي واعتبار كلماته مجرد ترّهات رجل معزول، مريض نفسياً، وتسكنه على نحو متزايد فكرة المؤامرة، وفق وصف برقية دبلوماسية مسرّبة من الخارجية الأمريكية. لقد قال الجنرال دايفيد باتريوس لـ **الواشنطن بوست** إنه قرأ ملاحظات قرضاي بكثير «من الدهشة وخيبة الأمل». وبمعزل عن اعتبار الأمريكيين له «شريكاً استراتيجياً» ضعيفاً، يجب

---

(١٦٧) يلعب قرضاي ورقته القومية والسلمية ليستعيد مصداقيته الشخصية، وليخفف الضغط من المجموعة الدولية حول الفساد والحاجة إلى الإصلاح. انظر: المصدر نفسه.

(١٦٨) «Excerpts from Afghan President Hamid Karzai's Interview with the Washington Post,» *Washington Post*, 14/11/2010.

(١٦٩) المصدر نفسه.

التوقف عند تحذيره من أن حرب الولايات المتحدة على الإرهاب ـ ليس فقط عمل الوحدات الخاصة، بل كذلك الغارات الجوية على أنواعها ـ تدفع الشعب الأفغاني إلى المزيد من التطرف أكثر مما تعمل على هزيمة طالبان، وأن طالبان يجب أن تكون شريكاً في التفاوض»[١٧٠].

خامساً: التحول في السياسة الأمريكية بعد تفكّك شبكة القاعدة

مع ذلك، ورغم التأكيد المتكرر للقادة الأمريكيين أن ميزان الحراك العسكري قد مال ضد طالبان، فقد حدث تحول مهم في السياسة الأمريكية. فقد كان الأمريكيون حتى الأمس القريب مع استيعاب وإعادة دمج المنشقين من ذوي الرتب الدنيا من طالبان لا أكثر، وضد فكرة المصالحة مع قيادة طالبان. أما الآن فهم يدعمون علناً محادثات السلام التي باشرها قرضاي مع مسؤولين من الصف الأول في الحركة المتمرّدة، من دون ذكر الاعتراف الغربي الرسمي الواسع بمسؤول كبير من طالبان كان يفاوض على عقد هدنة مع الحكومة والتحالف، ثم تبيّن أنه لا يمثل أحداً[١٧١]. وذكرت وسائل إعلام عدة لـ **النيويورك التايمز**، والـ **الواشنطن بوست**، وراديو أوروبا الحرة، وراديو ليبرتي، وسواها، أن القوات التي تقودها الولايات المتحدة في أفغانستان ساعدت في تسهيل اللقاءات بين حكومة قرضاي وأفراد من طالبان، على أمل التوصل إلى تسوية سياسية. وقال الناطق باسم البيت الأبيض روبرت غيبس إن إدارة أوباما قد «دعمت دائماً» كل جهد أفغاني لإنتاج مصالحة، في إشارة واضحة إلى تحول جديد في الاستراتيجيا[١٧٢].

وقد أكد مسؤولو «الناتو» والأمريكيون دورهم العسكري في تسهيل عقد اللقاءات، مع الحذر بخصوص تقدم المفاوضات. وكان رأي الوزيرة كلينتون في

---

(١٧٠) Joshua Partlow and Karen DeYoung, «Petraeus Warns Afghans about Karzais Criticism of U.S. War Strategy,» *Washington Post*, 15/11/2010; Fred Kaplan, «Crazy Like a Fox: What Exactly Is Hamid Karzai Trying to Accomplish with His Latest Comments?,» *Slate* (18 November 2010), and Karen DeYoung, «Cables Show U.S. Officials' Sense of Futility in Afghanistan,» *Washington Post*, 3/12/2010.

(١٧١) Dexter Filkins and Carlotta Gall, «Taliban Leader in Secret Talks Was an Impostor,» *New York Times*, 22/11/2010.

(١٧٢) «Mullah Omar Backs Taliban Talks with Karzai: Report,» AFP (6 October 2010).

كلامها لصحافي في بروكسل أنه من المبكر التحدّث عمّا ستسفر عنه جهود التفاوض: «لسنا الآن في وضع يسمح لنا بإصدار أية أحكام حول ما ستسفر عنه الجهود على جبهة المصالحة»(١٧٣). وأبلغ أعلى قائد أمريكي في أفغانستان، الجنرال باتريوس، المراسلين أنه عقدت فعلاً محادثات بين مسؤولين رفيعين من «طالبان» ومن الحكومة الأفغانية.

يظهر التطور الأخير في استراتيجية الولايات المتحدة حقيقة ساطعة، وهي: أن ما من حلّ عسكري للصراع الأهلي الناشب في أفغانستان. ومع زعم القادة العسكريين لـ «الناتو» أن الحملة العسكرية الأخيرة على طالبان قد حملت بعض الأفضلية لقوات التحالف، فإن الخلاصة التي ينتهون إليها هي أنه لا يمكن إلحاق الهزيمة الكاملة بطالبان؛ ما يمكن فعله هو إضعافها ومنع إعادة إحكام سيطرتها على البلاد. وأمريكا بدورها تنشد أيضاً إنهاء تورطها في أفغانستان، الحرب الأطول في تاريخ الولايات المتحدة، التي تكاد تغطي على مغامرة السوفيات البائسة هناك(١٧٤).

وتلقي البرقيات الدبلوماسية المسرّبة الضوء على استراتيجية الولايات المتحدة في أفغانستان في السنوات الأخيرة، حيث يرسم المسؤولون الأمريكيون صورة قاتمة لأوضاع البلد الذي مزّقته الحرب. ويشير السفير هناك كارل إيكنباري مراراً إلى صعوبة بلوغ نجاحات دائمة ضد المتمرّدين، وإلى مستوى الفساد العالي بين مسؤولي نظام الحكم القائم في كابول. كما يصوّر الرئيس قرضاي بالفوضوي، المريض بجنون العظمة، وغير الموثوق به. وبالرغم من قول الرئيس أوباما وقادته العسكريين إنهم كسروا شوكة طالبان، فإن الوثائق السرية تشير إلى حسّ أمريكي باليأس والرغبة في الانسحاب: «بمعزل عمّا يمكن أن يكون عليه مدى فاعلية الأداء العسكري، فإن المتمرّدين المسلحين جاهزون لملء أي فراغ في الحكم، ومن دون ترتيبات سياسية مناسبة، فإن جهود مكافحة التمرد لن يكتب لها بلوغ خواتيمها الناجحة». وتشير البرقية السابقة إلى تقييم السفير إيكنباري الذي يعكس صدى

---

(١٧٣) Karen DeYoung and Craig Whitelock, «U.S.-Led Forces Reconciliation Talks between Afghan Government, Taliban,» *Washington Post*, 14/10/2010.

(١٧٤) Emesto Londono and Perry Bacon, Jr., «Obama Tells Troops in Afghanistan: Success Is Within Reach,» (3 December 2010).

القلق حول نتائج هجوم التحالف في محافظة قندهار الجنوبية(١٧٥).

لحقت بـ «طالبان» كذلك خسائر بشرية فادحة، وبدا أنها تحاول اختبار فرص التسوية السياسية من خلال المحادثات السابقة الذكر(١٧٦). ورغم النفي العلني من طالبان، فإن المحادثات الأولية مع الممثلين بدت واعدة، كما في الحديث إلى «شورى طالبان كويتا»، أعلى قيادة لطالبان في تلك المنطقة من باكستان. هو إذاً تحول حاسم في موقف طالبان. ووفق **الواشنطن بوست**، فقد دعم الملا عمر، لأول مرة، قيام مفاوضات سرية على مستوى عال مع حكومة قرضاي للوصول إلى نهاية للحرب المستمرة منذ تسع سنوات. ووفق ما أدلى به مصدر موثوق للصحيفة: «فإنهم جادّون جداً، جداً، للتقدم نحو تسوية»(١٧٧). ومع أنه من المبكر، بغياب تقدم حقيقي، رسم تصوّر لنتائج نهائية، فإن الطرفين يجرون، كما يبدو، جولة تقييم ثانية للمفاوضات التي جرت باتجاه إنهاء الحرب القائمة في أفغانستان.

إذاً، عندما يحدث ذلك، فإن ذلك يعني نهاية «القاعدة المركز»، التي لم يعُد لها من كبير سيطرة على أتباعها المتناثرين. وإحدى النقاط الرئيسية التي تظهر من جلسات استماع لضباط الاستخبارات الأمريكية تقول إن المتبقين على قيد الحياة من مسؤولي «القاعدة» يعانون تدهور معنوياتهم، وضياعاً في التوجيهات العملياتية.

وهناك غير دليل على أن سيطرة «القاعدة» على شبكتها المفكّكة هي ضعيفة جداً، وتكاد تقتصر على قائد عملياتها الخارجية، الذي يؤدي أدواراً تدريبية أو تكليف متطوعين. وبات مسؤول العمليات الخارجية يتخذ قراراته من دون العودة إلى التشاور مع مسؤولين أعلى في هرمية التنظيم. وبسبب انكشاف الوضع ذاك، فقد غدا موقف ناشطي التنظيم صعباً، وبخاصة بعد اعتقال واعترافات ناشطين فاعلين أساسيين في «القاعدة»، أو مقتل بعضهم في

(١٧٥) «War Logs: Iraq and Afghan War Logs Explorer,» Wikileaks, <http://213.251.145.96/iraq/diarydig/>, and DeYoung, «Cables Show U.S. Officials' Sense of Futility in Afghanistan».

(١٧٦) Carlotta Gall [et al.], «Afghan Official Confirms Moves Toward Taliban Talks,» *New York Times*, 14/10/2010, and Robert Dreyfuss, «United States Supports Taliban Peace Talks,» *Nation*, 14/10/2010.

(١٧٧) Karen DeYoung, Peter Finn and Craig Whitlock, «Talibanin High-Level Talks with Karzai Government, Sources Say,» (6 October 2010).

العمليات الأخيرة للطائرات بلا طيار، من أمثال خالد شيخ محمد، وعبد الهادي العراقي، وأبو الفرج الليبي، وحمزة الرابعي، وأبو ليث الليبي، وأبو سليمان الجزيري، وأبو عبيدة المصري، ومصطفى أبو اليزيد[١٧٨].

إن فرضية استمرار تماسك القيادة والسيطرة لـ «القاعدة» المركز يلزمه أولاً الصلات المادية التي لم تعُد موجودة. ورغم أن الظواهري والعدل وآخرين لا زالوا موجودين، فهم يعرفون تماماً الثمن القاتل لأية صلة مادية يقيمونها خارج الخلية الداخلية، التي تقلّصت الآن إلى ما دون الاثني عشر رجلاً، بحسب شهادة مجاهدين عادوا أخيراً من ملاذ «القاعدة» على الحدود الأفغانية - الباكستانية. فاستعمال الهاتف المحمول من أي واحد منهم يعني احتمال الموت فوراً بهجوم من طائرات الـ «سي. آي. إيه.» بلا طيار. لذلك، فالبريد البشري هو أكثر وسائل الاتصال أماناً. ولكن أنّى للقاعدة أن تشنّ حرباً كونية ببريد بشري لا غير، فيما قادتها قيد المطاردة اللصيقة، كما حادث اكتشاف مقر سكن ابن لادن وقتله. لم يعتمد بن لادن إلا ساعي بريد واحد، ومع ذلك فقد كان كافياً ليجلب موته.

سادساً: الإخفاق الأكبر للجهاد الأممي

يؤسس الكتاب هذا، كما أعتقد، ومن خلال ما يكفي من الأدلة لفكرة أن التهديد الأصلي الذي كانت تمثله «القاعدة» قد انتهى. فمعظم قادتها المجرَّبين اعتقلوا أو قتلوا، وأبدلوا بناشطين من غير خبرة أو فاعلية؛ والمتطوعون الجدد لن يأتوا. وتستخلص **الغارديان** بعد سلسلة تحقيقات إخبارية أن «الخلية»

---

(١٧٨) «How al-Qaeda «Chief» Was Caught,» BBC (4 March 2003), <http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/south_asia/2818245.stm>; Dafna Linzer, «CIA Held Al Qaeda Suspect Secretly,» *Washington Post*, 28/4/2007, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2007/04/27/AR2007042700729.html>; Robert Windrem, «Who is Abu Farraj al-Libbi?» MSNBC (4 May 2005), <http://www.msnbc.msn.com/id/7734991/>; «Evidence Suggests U.S. Missile Used in Strike,» MSNBC (5 December 2005), <http://www.msnbc.msn.com/id/10303175/>; «U.S. Officials: CIA Kills Topal Qaeda Terrorist in Pakistan,» CNN (1 February 2008), <http://edition.cnn.com/2008/US/01/31/alqaeda.death/Index.html>; «US Airstrike Kills 11 Pakistani Soldiers in «Cowardly and Unprovoked Attack»,» *Times*, 12/6/2008, <http://www.timesonline.co.uk/tol/news/world/asia/article4111277.ece>; Carlotta Gall and Douglas Jehl, «U.S. Raid Killed Qaeda Leaders, Pakistanis Say,» *New York Times*, 19/1/2006, <http://www.nytimes.com/2006/01/19/international/asia/19pakistan.html?_r=1>, and Frank Gardner, «Death of Mustafa Abu al-Yazid «Setback» for al-Qaeda,» BBC (1 June 2008), <http://www.bbc.co.uk/news/10206180>.

المركزية للقاعدة باتت تقتصر على «قيادة من ستة إلى ثمانية رجال»[١٧٩]. وإلى هؤلاء، «هناك بضعة مصريين، وليبي، وموريتاني، يتولون المراكز العليا الأخرى. وفي الإجمال، ربما، هناك حوالى ٢٠٠ ناشط محسوبين على القاعدة»[١٨٠]. لقد فجّر موت بن لادن أزمة قيادة داخل «القاعدة»، التي كان ينقصها في الأصل بنية فعّالة للقيادة والسيطرة فما من واحد من الموجودين في التنظيم يمتلك الآن كاريزما بن لادن وموقعه. فالظواهري، وكما مرّ معنا، وإن كان المثقف الأكثر أهمية في التنظيم، فهو شخص معقّد، تقسيمي، وليس بالتالي قائد المرحلة. فهو عاجز عن منح التنظيم قوة إضافية. ومع ذلك، فإذا ذهبت القيادة إلى أبي يحيى الليبي، القائد الميداني في أفغانستان، أو إلى العدل، وهو قائد ميداني آخر، فستكون تلك إشارة إلى عمق انقسامات التنظيم.

وفي كلّ الأحوال، فأزمة «القاعدة» بنيوية ووجودية وتتجاوز الأشخاص. ففاعليتها الميدانية المتآكلة، والإخفاقات العسكرية المتتالية التي لاحقتها، فاقمت من أزمة الشرعية والسلطة في التنظيم التي عرضنا لها سابقاً. وفي هذه النقطة تحديداً يكمن الإخفاق الأكبر للجهاد الأممي.

تتألف «القاعدة» حالياً، كما رأينا، من مجموعة من العُصب الجوّالة، متمركزة على الغالب عند الحدود الباكستانية ـ الأفغانية، بينما قادتهم موغلون في الاختباء[١٨١]. وفيما تحتفظ الفروع المحلية باسم «القاعدة»، فهي في الآن نفسه وسط حرب بقاء ضد العدو القريب، وعاجزة في الآن نفسه عن التنسيق مع التنظيم الأم، القاعدة المركز. من تبقّى من العناصر التي انتمت إلى الجهاد الأممي هي الآن في حالة تشتّت، من دون قيادة، وفي مواجه بيئة معادية لهم، في داخل بلدانهم، كما خارجها. وتلفت حقاً برقية لأحد قادة القاعدة الميدانيين، التقطتها الاستخبارات الأمريكية، يرجو فيها بن لادن قبل مقتله أن يأتي إلى مخبأ الجماعة، ويظهر بعض القيادة. لكن رجاءه صادف أذناً صمّاء. فقد اختار بن لادن أمنه الشخصي على مستلزمات قيادة التنظيم، ولكن من دون توفيق[١٨٢].

---

(١٧٩) Black and Norton-Taylor, «Al-Qaida Faces Recruitment Crisis».

(١٨٠) المصدر نفسه.

(١٨١) *Washington Post*, 18/3/2010.

(١٨٢) المصدر نفسه.

مع ذلك، ورغم حصارها وتراجعها وخسارتها لقائدها المؤسس، يمكن لـ «القاعدة» أن تنجح في تنفيذ عملية ما داخل الولايات المتحدة أو بريطانيا. وقد ينجح شبان غاضبون بدأوا من تحت إلى فوق ـ مثل شهزاد، وعبد المطلب، وزازي، والعبدلي ـ في أن يجدوا طريقة ما لاختراق الأمن الغربي، ومحاولة قتل مدنيين. وربما تنجح أيضاً بعض العمليات من فوق إلى تحت، كما في محاولتي «أكاب» تفجير طائرتي الشحن. ورغم ما في ذلك من خوف، فإن الاحتمال ذاك يجعل القاعدة شبكة جرمية أكثر مما هي تهديد استراتيجي.

وعلى الرغم من كل ذلك، لا يزال خبراء الإرهاب يقللون من أهمية أزمة الشرعية في التنظيم المنهك، كما من أهمية امّحاء أي تأييد إسلامي للجهاد الأممي. هم يرون أن القاعدة على صعود، وأن الجهاد الأممي كان قصة نجاح. ويضيفون أنه يكفي أن ننظر إلى ما أنجزه بن لادن في السنوات العشرين الأخيرة. فقد ضرب في قلب القوة الأعظم في تاريخ العالم، وجرّها وراءه في حرب طويلة مكلفة؛ هو تمكن كذلك من تأسيس شبكة إرهاب دولية عبر العالم استقطبت متطوعين جدداً؛ وأخيراً، فقد بقي التنظيم وقيادته، بالرغم من كل ما رمته به الولايات المتحدة، ولم تستطع إخضاعه أو وضع حدّ لهجماته الإرهابية.

ومع ذلك، فإن المجاهدين، وبخاصة التائبين منهم، الذين قابلتهم حديثاً، يعرفون أنهم على مفترق طرق. ففي بلدانهم، كما في الخارج، هم يحملون وزر تهمة أنهم جلبوا على أنفسهم، وعلى الأمة، ثقل الولايات المتحدة الذي لا يحتمل. وإلى ذلك، هجرهم كل حلفائهم، وباتوا هدفاً للوم العلماء، كما الجمهور الإسلامي الأوسع. وحدها المعجزة في وسعها أن تنقذ الجهاد الأممي مما هو فيه. ومن يدري كيف ستكون تلك المعجزة: استمرار «الحرب على الإرهاب»، انهيار دولة اليمن أو ليبيا، انفلات الأوضاع في باكستان، حرب عربية ـ إسرائيلية سابعة، تدمير حماس، أو حرب أهلية ستترتب عن انهيار التغييرات الديمقراطية التي سعى إليها الشبّان العرب منذ مطلع ٢٠١١!



خاتمــة

أولاً: عودٌ إلى الحجم الطبيعي

العنف المستند إلى أسباب سياسية، كما الإرهاب، هو وباء اجتماعي، لا أكثر ولا أقلّ تدميراً من أي مرض اجتماعي آخر. وعليه، بدل الاستغلال المتمادي للعنف والإرهاب المستندين إلى أسباب اجتماعية، ومنحه معاني حضارية ووجودية، كان من الأهمية بمكان فهم ما الذي خلق موجة الجهاد الأممي، التي انطلقت في أواخر التسعينيات، وتكسّرت أخيراً إلى مويجات صغيرة ضعيفة. وفيما تبقى المويجات تلك خطرة، لكنها على الأغلب متناثرة ومشتّتة.

هناك، كما حاولت أن أدلل، قطيعة حاسمة بين حديث الإرهاب السائد القائم على التصوّرات ـ التي تجعل «القاعدة» وأخواتها المنتميات إلى عقيدتها تهديداً استراتيجياً وجودياً ـ وحقيقة التهديد، الذي هو أصغر بكثير في الواقع وتكتيكي في جوهره. هذا الشرخ بين التصوّر والحقيقة يثير مخاوف غير حقيقية، ويغذي مجمّعاً أمنياً ـ صناعياً قومياً باهظ التكاليف يشتمل على حوالى مليون فرد يعملون في أجهزة أمنية تابعة له. لقد دللت، أكثر من ذلك، أن التصور الحسّي الذي شكلّه الأمريكيون والغربيون عن «القاعدة»، الممسك بمخيّلتهم الجماعية، ليس مرشحاً للتغيير في وقت قريب. ففي عالم كهذا من التصوّرات الحسّية والأوهام لا مكان للوقائع والحقيقة. كل مخطّط أو حادث مهما كان صغيراً يُنظر إليه كتأكيد لقدرات «القاعدة» غير المحدودة: فطول بن لادن وخلفائه، بحسب الإدارة الأمريكية، يجب ألا يقلّ عن ١٠٠ قدم.

لا يملّ حديث الإرهاب من التكرار أن كل المخطّطات الجرمية حول العالم تحمل توقيع «القاعدة» وبصمات أصابعها. فحتى موته ـ وبعده كذلك ـ

ظلّ تصوّر بن لادن قائداً جريئاً يدفع برجاله نحو الأمان، ويوفر لهم خارطة طريق تفصيلية. وقبل أن يكون لدى المسؤولين الأمريكيين الوقت لترجمة وهضم «كنز» الوثائق التي عثر عليها في مخبأ بن لادن في أبوت أباد، سرّب هؤلاء نتفاً وقطعاً من المعلومات جرى تصميمها كي تظهر أنه كان في موقع قيادة «القاعدة» والسيطرة عليها و«القوة الدافعة» خلف كل مخطّط أخير للقاعدة، يقدّم لمقاتليه حول العالم لا الأيديولوجيا والإيحاء فقط، وإنما كذلك النصح والتوجيه العملياتي. كان هناك جهد مركّز للتقليل من أهمية فقدان «القاعدة» لمؤسسها وقائدها. وبدل طلب نشر كامل الوثائق والأدلة، وإخضاع تسريبات المسؤولين للتدقيق النقدي، يكرّر المعلّقون وخبراء الإرهاب كالببغاوات التهم عينها، ويتهرّبون من مناقشة حديث الإرهاب الانتقائي والمجتزأ. قلة فقط تجرّأت وتساءلت عمّا إذا كان أحد قد اهتمّ بمذكّرات بن لادن الشخصية، وكيف أمكن له ـ مع ساعي بريد واحد ـ أن يستمر «القوة الدافعة» خلف كل مخطّط إرهابي خلال الخمس سنوات الأخيرة حول العالم؟

لقد أشبع الأمريكيون والغربيون حتى الذروة بوجبة ثابتة من السيناريوهات الكارثية والتكتيكات المفزعة. وكما في حقبة الحرب الباردة، لا يأخذ سياسيو ومحللو الاتجاه العام السائد على عاتقهم نقد حديث الإرهاب السائد أو توعية الجمهور الغربي حول قدرات «القاعدة» المحدودة الآن ـ التي تشبه أي تهديد جرمي، وليست خطراً استراتيجياً. وكانت النتيجة بالتالي أن الرأي العام الغربي، وبخاصة الأمريكي، أنشأ خوفه الخاص بالإرهاب وجعله واقعاً قائماً داخله، ليغدو الخوف من الإرهاب بالتالي حالة في الذهن أكثر منه حقيقة في العالم الواقعي؛ ولينظر من خلاله إلى نفسه كما إلى العالم بأسره.

حين سئل الأمريكيون في استطلاع رأي حديث أن يحدّدوا وفق مقياس من ١ إلى ١٠، عشرة بلدان أو كيانات تمثل تهديداً للولايات المتحدة، جعل ٦١ بالمئة من الأمريكيين «القاعدة» بين الدرجتين ٩ و١٠، أو كتهديد من مستوى «عال جداً». ثلثا الأمريكيين تقريباً يعتبرون «القاعدة» وحلفاءها إذاً التهديد الأمني الأكثر خطراً الذي يواجه الولايات المتحدة، وقبل كوريا الشمالية النووية أو إيران ذات اللسان الناري. وللمفارقة، فإن استبيان **الكريستيان ساينس مونيتور** (TIPP) أجري بين ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر و٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠، أي بعد وقت قصير من قيام كوريا الشمالية بقصف جزيرة كورية جنوبية صغيرة قريبة من الشاطئ، ما دفع الولايات المتحدة من جديد باتجاه التوتر الجديد

الناشب في شبه الجزيرة الكورية الذي هدد بالتحول إلى حرب شاملة. ورغم ذلك، فـ «القاعدة» لا تزال تتقدم على كوريا الشمالية كخطر استراتيجي[1].

مزّق بن لادن والظواهري راحة البال لدى الغربيين، وزرعوا الخوف في حياتهم النفسية. ربحت «القاعدة» المعركة إذاً على المستوى النفسي، حتى وإن تمزّقت عسكرياً. فالخوف من الإرهاب الذي بثّته كان أكبر وأقوى مما تملكه «القاعدة» من قدرات وأعداد. ما فعلته استراتيجية «الحرب على الإرهاب» هو أنها شرعنت أيديولوجية «القاعدة» الفاشلة، ووسعت من دائرة الأعداء الذين يستهدفون المصالح الغربية والأمريكية عبر العالم. ولن يكون هناك من نهاية لحديث الإرهاب طالما بقي ولو قلة من رجال «القاعدة» أحياء. وبعكس الحروب التقليدية، فهذه حرب لن يرفع فيها على الأرجح علم أبيض، ولن يجري فيها حفل استسلام. بمفردات أكثر وضوحاً، لا يمكن هزيمة «القاعدة»، لأنها لا تملك جيشاً، ولا عندها أرض تخسرها. وبمعزل عن موت أميرها، فإن أتباعه الباقين سيستمرون في حربهم الخاسرة.

حتى أوباما الذي كان، وحتى لحظة دخوله البيت الأبيض، متشكّكاً حول حديث الإرهاب قبل حملته الرئاسية وفي خلالها، عاد فسقط في فخّها حالما شرع بممارسة واجباته كقائد أعلى. لقد حذّره خبراء الإرهاب، الذين استشارهم في خلال فترة الانتقال الرئاسي حول مسألة «القاعدة»، من مخاطر أي تغيير في السياسة القائمة. تربط الاستراتيجيا الجديدة، كما القديمة، بين طالبان والقاعدة، وترفض أي فصل بينهما. كذلك أملى عليه فريق الأمن القومي الحاجة إلى توسيع عمليات مكافحة الإرهاب حول العالم لمنع الاحتمال الذي لا يمكن حتى التفكير فيه، وهو تسرّب سلاح نووي إلى داخل البلاد. وفي أول تقرير باعث للفزع، أبلغ مايكل هايدن، الذي سيصير مدير الـ «سي. آي. إيه.»، الرئيس الجديد أن عمليات مضادة للإرهاب، فتّاكة، وقذرة، «في أكثر من ٦٠ بلداً حول العالم كانت فعّالة، وأنه إذا خطّطت «القاعدة» لإدخال سلاح نووي أو نشر وباء بيولوجي في مدينة أمريكية، فتلك الأنشطة هي التي ستحول دون ذلك»[2].

(١) Howard LaFranchi, «Al Qaeda? North Korea? Who Americans See as Greatest Security Threat,» *Christian Science Monitor*, 8/12/2010.

(٢) Bob Woodward, *Obama's Wars: The Inside Story* (New York: Simon Schuster, 2010), pp. 51-52.

ولمزيد من التأثير في الرئيس الجديد، حذّر هايدن، وبلير، مدير الاستخبارات القومية، الرئيس من أن هناك مئة غربي، من بينهم حملة لجواز سفر أو تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، جرى تدريبهم في ملاذات باكستان الآمنة ليعودوا إلى بلدانهم وينفذوا عمليات من المستوى العالي: «تدرّب القاعدة في مناطقها القبلية أشخاصاً لو رأيتهم في صف حملة التأشيرات في مطار دالاس، فلن تكتشفهم كإرهابيين محتملين»، وفق تعبير هايدن[٣].

خطف هذا التنبيه اهتمام أوباما. لقد نجح في جلب الرئيس الجديد إلى المنطق الأساسي في حديث الإرهاب واضعاً مشاعره جانباً. وفي مقابلة له مع الصحافي المحقّق بوب وودوارد، يعبّر أوباما عن قلقه من أن هجوماً واحداً للقاعدة يكفي لتأكيد خوف الأمريكيين وتركهم في حالة رعب. يقول:

«ما تراه تضخيماً للقاعدة لن يكون كذلك حين يكون في قدرة عدد من الجماعات المفكّكة المتحالفة، وفي نيتها، تطويع وتدريب أفراد على هجمات قد لا تكون في حجم ٩/١١، إلا أنها غير عادية بوضوح... رجل واحد، متفجرة واحدة... تكفي لتترك تأثيراً استثنائياً ومرعباً في البلاد»[٤].

أكثر من ذلك، استحضر أوباما خلال مقابلته وودوارد في المكتب البيضاوي بضعة أفكار تفصيلية حول الإرهاب، وهي تلقي الضوء على أسباب قبول أوباما من دون نقاش لسيناريوهات فريق الأمن القومي. قال أوباما وسط دهشة وودوارد: «لقد كنت مستمرّاً في فترة مبكرة، كسيناتور، ثم كمرشح رئاسي، والآن كرئيس، في الاعتقاد أن بوسعنا استيعاب هجوم إرهابي يحدث، وعلينا فعل كل شيء لمنع حدوثه. حتى هجوم ٩/١١، الأضخم الذي حدث على أرضنا في التاريخ، أمكننا استيعابه، وخرجنا أقوى مما كنّا قبله. هذه البلاد التي نعيش فيها بلاد قوية، مقتدرة، وشعبنا قادر على التأقلم بطريقة لا تصدّق»[٥].

وأضاف أوباما أن تفكيره السابق يصطدم الآن بقلق من نوع مختلف: احتمال نجاح «القاعدة» في امتلاك سلاح نووي، إذ يكفي ذلك لتغيير شكل

---

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

استراتيجية اللعبة. قال أوباما لوودوارد: «إن التغيير الكبير في استراتيجية اللعبة سيكون احتمال وقوع سلاح نووي في أيدي الإرهابيين يستخدمونه ضد مدينة أمريكية كبرى، أو كذلك سلاح دمار شامل في مدينة أمريكية كبرى». ويضيف أوباما:

«وهكذا حين أضع أمامي جدول الأشياء التي يجب أن أكون قلقاً حيالها طوال الوقت، أي الحدّ الأقصى، فهذا مكان لا يمكنك أن ترتكب فيه أية هفوة. وبالطريقة نفسها علينا، كما قلت، البدء بالتحرك، ووضع ذلك في قلب بعض من نقاشاتنا حول أمننا القومي، والتأكد من أن احتمال حادث كهذا، ولو بعيد، لن يحدث أبداً»[٦].

ما يظهر بوضوح من مقابلة أوباما مع وودوارد هو تأثير حديث الإرهاب في تغيير مواقف الرئيس، حالما دخل البيت الأبيض، من طبيعة التهديد الإرهابي. كان أوباما يعتقد سابقاً أن في وسع الولايات المتحدة استيعاب وتدبّر أي هجوم للقاعدة، بما فيه هجمات ١١ أيلول/سبتمبر الانتحارية، رغم كونها مدمّرة وقاتلة ومكلفة. لم يكن الإرهاب بالنسبة إليه تهديداً استراتيجياً أو وجودياً. أما الآن، فيقول إن في وسع مفجّر واحد، أو هجوم واحد، أن يصدم البلاد نفسياً. لقد بات أوباما الآن أكثر قلقاً حيال الصدمة النفسية للجمهور الأمريكي أكثر من التهديد الحقيقي الذي قد تمثله «القاعدة»، أي تهديد في وسع الولايات المتحدة أن تتعايش معه، كما كان يقول بحق سابقاً.

هوذا، بإيجاز، السبب الذي يجب أن يسمح للرئيس، ولقلة من السياسيين الأمريكيين تحدّي حديث الإرهاب المهيمن. فالخوف من الإرهاب لا يحتل الآن مخيّلة الأمريكيين فحسب، ولكنه يقود أيضاً سياسة حكومتهم.

المشكلة مع حديث الإرهاب هي أنه لا يمكن تكذيبه. فكل مخطّط تآمري من «القاعدة» وحلفائها يقع في أي مكان، هو موجّه ضد الولايات المتحدة والغرب، وسوف يظهر كدليل جديد على استمرار التهديد. السؤال الحقيقي، إذاً، ليس ما إذا كانت «القاعدة» خطرة؟، فهي كذلك فعلاً، إذ بالرغم من ضعفها البنيوي، هناك أدلة متزايدة تظهر أنها لا تزال تخطّط، وتعمل، للضرب داخل الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية الأخرى. إلا أن

---

(٦) المصدر نفسه.

معظم هذه المخطّطات باتت تعتمد على هواة ومبتدئين تنقصهم الكفاءة والتدريب والتصميم الذي كان لدى جيل العرب والمسلمين الأفغان. فإلى زمن موته، كان بن لادن قد غدا معتمداً كلياً على متطوعين يأتون من تحت إلى فوق، مثل صاحب متفجرة الثياب الداخلية الفاشلة، ومحاولة مفجّر أنفاق نيويورك الفاشلة، ومحاولة مفجّر «تايمز سكواير» الفاشلة أيضاً. وبدل إعلان ضعف «القاعدة» الداخلي والبنيوي وتفكّكها، لا تزال رواية الإرهاب تصرّ على أن التنظيم الجهادي الأممي ذاك قد نجح في تكييف نفسه، ونقل تكتيكاته إلى مستوى أدنى؛ هجمات من حجم صغير في اعتراف مباشر بتقلّص قدراته وتلاشيها.

لا تظهر قيادة «القاعدة»، على العكس من ذلك، غير القليل جداً من السيطرة العملياتية على ظاهرة التطرف الجديدة الصاعدة من تحت إلى فوق، خلا خطب الإثارة الأيديولوجية. فالحرب الأمريكية على الإرهاب، في العراق أولاً، ثم الآن في أفغانستان وباكستان، قد استثارت عُصباً من الشباب المسلم اليائس والغاضب الذي يعيش في المجتمعات الغربية، بما فيها الولايات المتحدة. ويلفت جداً في هذا الموضع تحديداً العنوان الذي أعطته **النيويورك تايمز** لمقالة فيها عن عملية «تايمز سكواير»، وهو: «محاربة الإرهاب، خلق إرهابيين»(٧). لقد دفع الوجود المستمر للأحذية العسكرية الغربية فوق أراضي المسلمين، والحروب المدمرة المستمرة، شرائح عدة من الرأي العام المسلم نحو التطرف، وبخاصة الطبقة الوسطى المدينية، ودفعت أكثر من ذلك قلة من الشباب المسلم المتشكّك، واليائس، والغاضب باتجاه السلاح. ورغم نجاحها التكتيكي الظاهر، فإن خطوات الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب، من نوع هجمات طائرات الـ «سي. آي. إيه.» بلا طيّار، تؤجج أكثر من المشاعر المعادية لأمريكا ودعوات الانتقام.

ومع ذلك، فلا آلة الأمن القومي الأمريكي، ولا خبراء الإرهاب، يريدون أن يروا الصلة بين الظاهرة الجديدة من التطرّف تحت ـ فوق وحرب الولايات المتحدة على الإرهاب، وبخاصة في أفغانستان ـ باكستان. وفيما سؤال العلة والأثر هو خبز وملح المؤرخين والعلماء الاجتماعيين، فهو مفقود تماماً في حديث الإرهاب. والبديل معادلة مبسّطة هي أن أنياب «القاعدة» لا تزال تنشر

---

(٧) Scott Shane, «Fighting Terrorism, Creating Terrorists,» *New York Times*, 4/7/2010.

السمّ حول العالم، وهي اكتسبت حيوية جديدة، ولم تضعف بعد موت مؤسسها، وقيادتها تقود الآن موجة إرهاب جديدة.

من جهة «القاعدة»، لا تكفي الخسائر العسكرية وحدها سبباً لتفسير أزمتها البنيوية وأفولها الحادّ. فجهاد بن لادن الأممي وأساليبه جُرّدا من شرعيتهما داخل العالم الإسلامية من طرف علماء دين معروفين وفقهاء وأنصار سابقين كانوا قد قفزوا من السفينة. وفي الحقيقة، لم يقفز المسلمون من سفينة بن لادن والظواهري، لأنها كانت على وشك الغرق، بلا هدف، تائهة، ومن دون خارطة طريق واضحة. فملايين العرب والمسلمين لم يصعدوا إلى تلك السفينة في الأصل. والمسافة شاسعة جداً بين السلوك المعروف للجمهور العربي والمسلم السلمي والمتحفّظ (عموماً) وأساليب بن لادن ومجموعته الصغيرة. وعزلة هذه المجموعة الصغيرة عادت وتبدّت بمزيد من الوضوح منذ بدايات الربيع العربي في مطلع سنة ٢٠١١ حين انتفض ملايين العرب ضد الظلم والظروف الاجتماعية البائسة، فيما لم يكن للقاعدة ما تقدّمه على الإطلاق لهذه الانتفاضة؛ لا خطة اجتماعية اقتصادية، ولا رؤية سياسية حيال التحدّيات والتهديدات التي تهدد المجتمعات العربية الراهنة.

تقلّص الفضاء الاجتماعي للقاعدة على نحو أساسي، وهي تواجه الآن بيئة معادية مع عدد أقل من المتطوعين والملاذات. لقد انضم جمهور المسلمين الغاديين في العراق، واليمن، وفلسطين، والسعودية، والمغرب، وإندونيسيا، وأمكنة أخرى، إلى السلطات في طرد «القاعدة» من ديارهم وشوارعهم، الأمر الذي لا يبشّر بخير لتنظيم بن لادن وأفراده. خسارة «القاعدة» للتأييد العام الإسلامي (الذي لم يكن لها في يوم)، بالإضافة إلى الانقسامات الداخلية، هما ما يفسر الكارثة على مستوى القيادة التي قام رهانها على كسب أفئدة المسلمين وعقولهم في إطار إحداث صدام حضارات بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي. وتفاقمت أزمة «القاعدة» أكثر حين نجح مواطنون عرب في قلب حكّامهم المستبدّين، من دون اللجوء إلى العنف والإرهاب.

وبسبب معرفته بالتأثير المدمّر الذي تركه فقدان تنظيمه للتأييد الإسلامي الشعبي، حاول الظواهري، بعدما بات زعيم «القاعدة»، أن ينأى بالمجموعة عن تهمة سفك الدماء. ففي رسالة صوتية له في الذكرى التاسعة لهجمات ٩/١١، يجري تجاهلها غالباً، ويرد فيها على منتقدي «القاعدة»، ويحاول تغيير الموقف

منها، يدعو الظواهري المسلمين إلى الإقبال على الجهاد، ولكن مع تجنّب القتل العشوائي، يقول: «نحن نتبرأ من أية عملية تنفذها جماعة جهادية ولا تلتزم الحرص على سلامة المسلمين»[٨].

ما من أحد ينفي أن «القاعدة» وحلفاءها ما فتئا يخطّطان بنشاط لمهاجمة المصالح الغربية. وإذا كان التاريخ هو الدليل لفهم صعود وسقوط الجماعات العنفية، فهناك غالباً صلة سببية بين فقدان التأييد الشعبي وأفولها الأيديولوجي والعملياتي ونهايتها. ومع أن «القاعدة» قد تتمكّن في المستقبل المنظور من الاستمرار في ممارسة عنف من درجة منخفضة، إلا أن السياق الهابط الذي دخلت فيه لن يتوقف. ستستمر المخطّطات ضد المجتمعات الغربية طالما استمرت الولايات المتحدة في حروبها في البلدان الإسلامية، وهي الحقيقة المرّة التي يرفض «خبراء» الإرهاب والمسؤولون الغربيون الاعتراف بها. إن الأسباب الجذرية لكثير من الإرهاب المحلي النشأة في المجتمعات الغربية إنما هي في الحروب المستعرة في العراق، وأفغانستان، وباكستان، والصومال، وأمكنة أخرى.

تلهب حرب الولايات المتحدة على الإرهاب المشاعر المعادية لأمريكا في البلدان الإسلامية، وتخلق المزيد من الإرهابيين؛ لقد سمحت في النهاية لعصب مسلحين من هنا وهناك بأن يظهروا أنفسهم كمجاهدين مسلمين شرعيين ومدافعين عن الأمة. ورد الفعل الأمريكي المبالغ فيه عليهم هو الأوكسجين الذي تتنفسه تلك الجماعات وتعيش عليه «القاعدة».

بلغ رجع الترددات الثقافية لحديث الإرهاب الولايات المتحدة والمجتمعات الغربية، وبخاصة تلك المتصلة بالإسلاموفوبيا [الخوف المرضي من الإسلام] والفقدان المتزايد للتسامح والتخلي عن القيم الليبرالية والحقوق الدستورية. فقد أدى الخوف غير العقلاني من الإسلام، مع الحملة الشرسة المركّزة من اليمين المتطرف لمساواة المثل الإسلامية بممارسات المسلحين الإسلاميين، إلى ظهور موقف عدائي من الإسلام والمسلمين في الولايات المتحدة وأوروبا. وأظهرت استطلاعات الرأي على نحو لافت زيادة مطردة في أعداد الغربيين الذين يساوون الإسلام والمسلمين بالعنف والإرهاب. ومع

(٨) «الظواهري: الذكرى التاسعة لهجمات ١١ سبتمبر،» **القدس العربي**، ٩/ ٩/ ٢٠١٠.

التضخيم المقصود لخطر «القاعدة»، ومحو كل تمييز أو تفريق بين الجماعات الدينية المتنوعة والمختلفة، أمكن لحديث الإرهاب أن يزرع بذور عدم الثقة والشك الثقافي، ووفر لابن لادن وورثته بالتالي الذخيرة القوية التي يحتاجون إليها في معركتهم الأيديولوجية ضد المجتمعات الغربية. وقد نجح هؤلاء غير مرة في استعارة أمثلة للإسلاموفوبيا لاستثارة المسلمين، وحملهم على تنفيذ هجمات ضد الغرب.

لم يكن هدف هذا الكتاب تقديم وصفات سياسية مطوّلة، فالتحليلات تغني عن كل الوصفات. ومع ذلك، فسوف أناقش بضعة دروس فقط يمكن استخلاصها من التحليلات تلك: الدرس **الأول** هو أن على صنّاع السياسة الأمريكيين أن يضعوا خاتمة لـ «الحرب على الإرهاب». والدرس **الثاني** هو أنه يجب أن يقوم جهد مركّز لفضح زيف حديث الإرهاب، وكسر احتلال «القاعدة» للمخيلة الأمريكية. يجب أن يعرف الأمريكيون أن العالم الإسلامي هو الذي بادر إلى نزع غطاء الشرعية عن عقيدة «القاعدة» وتكتيكاتها. وما من طريقة أبسط لاكتشاف تناقضات «القاعدة» وهامشيتها اليوم من النظر إلى ملايين العرب المسلمين الذين انتفضوا على حكوماتهم القمعية، ونادوا بالحرية والمجتمع المنفتح. لقد خسرت «القاعدة» رهانها على أفئدة المسلمين وعقولهم، وهي تعاني نزفاً شديداً في الدعم الإسلامي الشعبي لها، كما في القيادات الوسطى، والمسؤولين والمقاتلين المتمرسين. وفيما لا تزال «القاعدة» تنسج الخطط لمهاجمة الولايات المتحدة ومجتمعات غربية أخرى، فهي لم تعُد تملك في الواقع الإمكانيات لتنفيذ عمليات مدوّية من نوع ٩/١١ أو لإيقاع أي تخريب رئيسي.

باختصار، يجب إخبار الأمريكيين أن الحرب انتهت. والمرء ليأمل أن يكون موت بن لادن قد أشّر إلى نهاية احتلال «القاعدة» للمخيلة الأمريكية، وإلى نهاية الحرب على الإرهاب في الوقت عينه. لقد حان وقت إقفال هذا الفصل المكلف، والانتقال إلى استراتيجية احتواء تتعامل مع بقايا «القاعدة» وشركائها المحليين. واستراتيجيا من هذا النوع يجب أن تتضمّن حتماً تمكين المجتمعات الإسلامية ووضع ضوابط قانونية لأي استخدام للقوة. على القادة الغربيين أن يعملوا على السويّة بين مواطنيهم، وأن يحضّونهم على المزيد من المرونة، وعلى إدراك أن لا وجود للأمن المطلق، وأن أمنهم متصل عضوياً بأمن باقي البشرية. هي أيضاً دعوة إلى إدراك حدود وأكلاف استخدام القوة في

الشؤون الدولية. لا يمكن شطب الإرهاب بكبسة زر، كما في هجمات الطائرات بلا طيّار، أو حتى بالتدخل العسكري، لأن من شأن ذلك أن يتسبّب بردود فعل أقوى أحياناً من الإرهاب نفسه.

أما حول كيف يجب أن يكون التعامل مع المخطّطات الإرهابية الراهنة والتطرف المحلي النشأة، فإن هناك حاجة ملحّة إلى إنجاز انسحاب الأحذية العسكرية الغربية، وبخاصة الأمريكية، من بلاد المسلمين[(٩)]. فلهؤلاء، يمثّل وجود عشرات آلاف الجنود من الولايات المتحدة و«الناتو» في بلدانهم، تذكيراً مستمراً ومؤلماً ومهيناً لهم بالإرث الأوروبي الاستعماري؛ تراث من الهيمنة والإخضاع. وخلافاً لزعم حديث الإرهاب، فموقف العراقيين والأفغان من الوجود العسكري الأمريكي ليس الرضا واللامبالاة، ولا هم يأملون منها الأمن والسلام والديمقراطية. هم يرون فيها تحديداً احتلالاً أجنبياً، وانتهاكاً فاضحاً ومذلاً. لقد كان معظم مخطّطات التفجير الأخيرة ردود أفعال على التكتيكات والحملات العسكرية الأمريكية في البلدان الإسلامية.

---

(٩) في كتاب جديد بعنوان: **نزع الفتيل: تفجّر الإرهاب الانتحاري العالمي وكيفية إيقافه** يناقش فيه روبرت بايب وجايمس فلدمان فرضياتهما السابقة، ويذهب المؤلفان إلى أنه منذ ٢٠٠٤ فإن عدد الهجمات الانتحارية، الداخلية أو الخارجية، قد تصاعد بسرعة عالية. ويقدّم المؤلفان، بعد تحليل معمّق لعمليات انتحارية للقاعدة في العراق وأفغانستان وباكستان ولبنان وإسرائيل والشيشان وسريلانكا، دليلاً قوياً جديداً على أنه بخلاف الرأي العام السائد فإن القليل فقط من هذه الهجمات كان وراءها أسباب دينية. السبب الحقيقي كان الاحتلال الأجنبي الذي حرّك مشاعر غضب الناس القوميين والعلمانيين والمتدينين على السواء ودفع بعضهم إلى تنفيذ عمليات انتحارية. انظر: Robert A. Pape and James K. Feldman, *Cutting the Fuse: The Explosion of Global Suicide Terrorism and How to Stop It* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2010).

لمواجهة إرهاب العمليات الانتحارية المتصاعدة ضدّ الأمريكيين، يدعو بايب وفلدمان إلى اتباع استراتيجيتين:

الأولى، «على أساس التلازم الشديد بين الاحتلال الأجنبي وتصاعد العمليات الانتحارية الإرهابية، فإن هدف مواجهة موجة جديدة من الهجمات الانتحارية يوجب على البلدان التي لديها قوات احتلال في مناطق أجنبية وضع استراتيجيات جديدة. ويجب أن تتضمن هذه التخلي عن فكرة تحقيق المصالح في بلاد أجنبية بواسطة الاحتلال العسكري، والعمل على توازن بديل مع وجود عسكري إقليمي حليف، ونشر قوات تدخل سريعة بدل قوات مقاتلة ضخمة...».

الثانية، «تمكين جماعة محلية أساسية من أن تتعامل على نحو جيّد مع الأمن على نحو مستقلّ عن الولايات المتحدة، وعن حكومة البلاد، بما يخفّض من الهجمات الانتحارية، كما حدث في العراق حيث انخفض عدد العمليات الانتحارية في خلال عام واحد بنسبة الثلث. الأكثر أهمية إدراك أن استراتيجية التمكين المحليّ يجب أن تعمل وفق تصور أن الإرهاب الانتحاري يقوده منطق يسعى إلى إزالة التهديد الأجنبي للثقافة المحلية. وعليه، ففي وسع دولة أجنبية اجتثاث سبب الإرهاب الانتحاري من خلال حرمان الإرهابيين من الدعم المحلي عبر تدعيم نمط الحياة المحلية، وتقديم مختلف أشكال المساعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية للجماعة المحلية لملاحقة وتدمير الإرهابيين، الأمر الذي يحتاج إلى معرفة محلية واسعة» (ص ٩).

ويعرف المسؤولون الأمريكيون اليوم أن الاعتماد الزائد على العسكرة، والاستخدام المبالغ فيه للقوة، يسهمان في دفع الشعوب الإسلامية نحو التطرف، ويستحضران دعوات المقاومة والثأر داخل بلدانهم كما خارجها. ومنذ ١١/ ٩ ولّدت حروب أمريكا من الجهاديين المعادين لأمريكا أكثر مما فعلته القاعدة في وقت مضى. وعلى سبيل المثال، وبحسب «التقييم الاستخباراتي القومي لحكومة الولايات المتحدة» في موضوع «اتجاهات في الإرهاب حول العالم: ملاحظات تخصّ الولايات المتحدة»، أدّى غزو الولايات المتحدة وحلفائها للعراق واحتلاله إلى عسكرة الرأي العام المسلم، وصعود جيل جديد من الجهاديين، وإلى توليد مئات من الهجمات الإرهابية الإضافية وعشرات الآلاف من الضحايا المدنيين[١٠]. وتؤكد دراسات مستقلة عدة على النتائج عينها.

لم يعرف العراق قبل الغزو الأمريكي عمليات انتحارية، وعليه غدا للعراق بعد الاحتلال أضخم ترسانة من «الاستشهاديين» عرفها التاريخ، ما يقدم دليلاً إضافياً على علاقة مرجّحة بين الاحتلال الأجنبي والعمليات الإرهابية الانتحارية. ويمكن العثور على أمثلة أخرى من بلدان، مثل لبنان، وكشمير، وسريلانكا، مع أنه في وسع المرء أن يستدرك، فيقول إن الاحتلال في حالتي كشمير وسري لانكا ليس «أجنبياً»[١١]. والآن حلّت الصراعات في أفغانستان ـ باكستان (والصومال بدرجة أقل) محل الحرب العراقية مصدراً رئيسياً للتطرف، بما فيه التطرف المحلي النشأة. كذلك، هناك مخاوف حقيقية من أنه بمقدار ما تطول حرب الولايات المتحدة على الإرهاب في أفغانستان ـ باكستان، بمقدار ما يستمر في المقابل خطر استهداف المصالح الأمريكية والغربية في المستقبل. وإذا حدث وانزلقت باكستان نحو الفوضى، فستكون نتائج ذلك أكثر كارثية على المصالح الأمريكية، وعلى الاستقرار الإقليمي من الفوضى الأفغانية الحالية[١٢].

وحتى لو سحبت الولايات المتحدة قواتها من العراق وأفغانستان في

---

(١٠) <http//motherjones.com/politics/2007103/iraq-l0l-iraq-effect-war-iraqand-its-impact-war-terrorism-pg-1>.

(١١) Mohammed M. Hafez, *Suicide Bombers in Iraq: The Strategy and Ideology of Martyrdom* (Washington, DC: United States Institute of Peace Press, 2007), <http://www.amconmag.com/article/2005/jul/18/00017/>, and Jeffrey Rudolph, «Can You Pass The Terrorism Quiz,» Countercurrents.org (8 August 2010).

(١٢) Ahmed Rashid, *Descent into Chaos: The United States and the Failure of Nation Building in Pakistan, Afghanistan, and Central Asia* (New York: Viking, 2008).

السنوات القليلة المقبلة، كما تعهد الرئيس أوباما، فإن «موطئ القدم» الأمريكية العسكرية التي ستبقى في الشرق الأوسط الكبير، ستكون أكثر من كافية لردع أعدائها هناك. وفي اللحظة التي كان الرئيس أوباما يعلن فيها قرب «نهاية مهمتنا القتالية في العراق»، كان البنتاغون يحفر أكثر عمقاً في الشرق الأوسط من أجل توسيع وتحديث قواعده ومنشآته العسكرية في الخليج العربي، بما فيها الكويت، وقطر، والبحرين، والإمارات العربية المتحدة، وعُمان، والسعودية، إلا أن هذا الوجود العسكري الهائل، لفترة طويلة من الزمن، في بلدان محيطة بالعراق، وعلى نحو يطوّق إيران، سيكون بدوره، على الأرجح، عامل تأجيج لمشاعر معادية لأمريكا في المنطقة، حيث الشكوك في أهداف أمريكا عالية في الأساس[١٣].

لا تستطيع القاعدة في العراق، ولا قاعدة شبه الجزيرة العربية في اليمن، خوض مواجهة مباشرة ضد مجتمعيهما وحكومتيهما. وهما يدركان أن مواجهة كهذه سوف تجلب من ردّ الفعل الشعبي ضد الأساليب الإرهابية ما يكفي لدفنهما معاً. ومواجهات التسعينيات بين المسلحين الإسلاميين والسلطات المصرية والجزائرية شاهد على ذلك. وكان اختصاصيو أجهزة الأمن الغربية قد تخوّفوا في النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين من أن يتمكّن التمرّد الإسلامي من قلب نظامي الحكم في البلدين المؤيدين للغرب. لكن الذي حدث هو أن أساليب المسلحين المدمّرة، وافتقارهم إلى البرنامج السياسي والاجتماعي، حوّل الرأي العام ضدهم، وجلب عليهم بالتالي هزيمة كاملة.

لقد أثبت الجهاديون المحليون والأمميون، تكراراً، أنهم أعداء أنفسهم، فالعنف العشوائي الذي استخدموه انتهى إلى جعلهم أقليات صغيرة معزولة لدى المسلمين العاديين في مصر، والجزائر، والعراق، ولبنان، والسعودية، وإندونيسيا، وأمكنة أخرى. ويصرّ فرع القاعدة في اليمن وبقاياها في باكستان على الأساليب عينها الآن، وهما يتجهان على الأرجح نحو مصير مشابه. وفي وسع الولايات المتحدة، ومعها المجموعة الدولية، بل عليهما، مساعدة اليمن وباكستان في إعادة بناء مؤسساتهما وتمكينهما من مواجهة التحديات الأمنية المعقّدة. وقبل ذلك، على الولايات المتحدة أن تتجنّب إغراء الانجرار إلى

(١٣) Nick Turse, «The Pentagon Digs in Deeper in the Middle East,» Tom Dispatch.com (17 November 2010).

حرب مباشرة ضد الإرهاب، كما تفعل اليوم، وتحويل الحرب بالتالي إلى صراع بين القاعدة والغرب. هوذا تحديداً ما أراد بن لادن لأمريكا أن تفعله؛ أن تتورط عسكرياً في بلاد الإسلام، وأن تحوّل صراعاً سياسياً محلياً إلى صدام ثقافات وحضارات.

وفي ما يبدو من الأهمية بمكان البدء على المدى القصير بسحب القوات الغربية من البلاد الإسلامية، إلا أن ذلك لن يكون وحده كافياً لحلّ التوترات والشكوك القائمة بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي. وعليه، فالحاجة ملحّة على الضفتين إلى تعطيل حقول الألغام الثقافية والسياسية التي تهدد باستمرار بالانفجار. وعلى كليهما تقع المسؤولية الأخلاقية لقطع فتيل التفجير، وعزل الأقليات المتطرفة العاملة خلف ظهرانيهما. وعلى الولايات المتحدة، خصوصاً، التوقف عن النظر إلى الشرق الأوسط من خلال طيف الإرهاب، والطيف الإسرائيلي، وطيف الذهب الأسود؛ النفط.

والثورات الديمقراطية في بلدان عربية عدة هي فرصة اليوم للولايات المتحدِة لإعادة بناء جسور الثقة المهدّمة مع المجتمعات المكافحة في المنطقة، ولدعم مطلبها في الحرية وحق تقرير المصير. وتمثّل التغييرات الحالية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط لحظة زاخرة بالإمكانيات، إذ إن تركيز المتظاهرين كان على الوظائف وحقوق الإنسان، ومن دون نزعات معادية للغرب أو نكهة إسلامية ظاهرة. على الولايات المتحدة التقاط اللحظة والتخطيط لبداية جديدة مختلفة مع شعوب الشرق الأوسط، مع أخذ جانب الشعوب في مطالبتها بحكومات منفتحة وذات تمثيل، ولتحقيق حكم القانون وحقوق الإنسان. وفي استثمار بنيوي في بناء المؤسسات، بما فيها الاقتصاد، تستطيع الولايات المتحدة المساعدة في إنجاز التغيير في منطقة الشرق الأوسط. ولا يكفي أن تكون أمريكا في الجانب الصحيح من التاريخ، بل عليها أن تكون مقتنعة بأن الحكام المستبدين في الشرق الأوسط لم يجلبوا الخراب إلى مجتمعاتهم فقط، بل هم أجّجوا أيضاً المشاعر المعادية لأمريكا وللغرب بين شعوبهم. والشعور السائد لدى شرائح واسعة في المنطقة هو أن الولايات المتحدة شريك في القمع الذي مارسه الحكام المستبدّون أولئك.

ويمثّل النفوذ الزائد (الذي يشبه حق الفيتو) الذي تمارسه إسرائيل على سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية عاملاً رئيسياً مسهماً في عداء المسلمين

الواسع في المنطقة للولايات المتحدة. فالمنظور الإسرائيلي لا يمنع فقط بناء سياسة خارجية للولايات المتحدة في المنطقة تكون متوازنة وعقلانية، بل هو يسمّم منابع العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي عموماً. فمن إيران إلى إندونيسيا يجري تحميل الولايات المتحدة مسؤولية المأساة الفلسطينية من خلال تسليح إسرائيل وتمكينها من احتلال الأرض الفلسطينية. الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي هو خط الاستقطاب الرئيسي في العالم الإسلامي، وليس في الوطن العربي فقط، وفي تقديري أنه مسؤول عن ٧٠ بالمئة من التوترات والشكوك الحالية بين المسلمين والأمريكيين.

وبهذا المعنى، فإن تأسيس الدولة الفلسطينية المستقلة القابلة للحياة هو في صالح المصالح القومية الاستراتيجية للولايات المتحدة في العالم الإسلامي. وأحد الأمثلة الجيّدة على ذلك إنما حدث في أثناء زيارة الرئيس أوباما إلى إندونيسيا في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٠. ففي ردّ على خطاب أوباما في جامعة إندونيسيا، وعلى استراتيجيته في التقارب مع المسلمين، يقول أنيس متّى، السكرتير العام لحزب العدالة والازدهار الإندونيسي، أكبر الأحزاب الإسلامية السياسية في إندونيسيا، إن اقتراب الرئيس من المسلمين هنا وفي كل مكان آخر يتحدّد في ضوء مسألة واحدة: «ماذا ستفعل يا أوباما لحل الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني؟ إذا لم نر أي تقدّم، فما يقوله هو مجرد خطاب»[(١٤)].

لقد أدى استمرار المأساة الفلسطينية إلى دفع شرائح كبيرة من المسلمين نحو التشدّد، على حساب الأصوات الليبرالية، وفي صف القوى الإسلامية. وفي أثناء خطاب تسلمه لجائزة «مؤسسة ميلتون فريدمان لتقدّم الحريات»، قال المنشق الإيراني أكبر غانجي إن «الجرح النازف في فلسطين هو المكان الأكثر ملاءمة لظهور أسوأ أنواع عدوى الأصولية»[(١٥)]. وفي المقابل، فإن الحلّ العادل لمعاناة الفلسطينيين هو تأسيس الدولة الفلسطينية المستقلة، إلى جانب إسرائيل، وهو عامل أساسي في إعادة تكوين صورة الولايات المتحدة في العالم الإسلامي والتحول الديمقراطي في المنطقة[(١٦)]. وبالرغم من جهوده الآنية، لم

(١٤) <http://www.nytimes.com/2010/11/11/world/asia/11ndo.html?_r=1&emc=etal>.

(١٥) Akbar Ganji, «Dreaming of a Free Iran,» *Boston Review* (26 May 2010), <http://bostonreview.net/BR35.31ganji.php>.

(١٦) المصدر نفسه.

ينجح أوباما في تغيير المنظار الإسرائيلي الذي تنظر من خلاله مؤسسة السياسة الخارجية الامريكية، وقبل ذلك الكونغرس، إلى منطقة الشرق الأوسط[١٧].

ينتمي أوباما وإدارته إلى الحديث السائد في موضوع إسرائيل. وفي اللحظة التي كان ملايين العرب ينتفضون ضد مستبدّيهم كانت إدارته تستخدم الفيتو ضد مشروع قرار عربي في مجلس الأمن يدين المستوطنات الإسرائيلية باعتبارها عقبة أمام السلام. والطريف هو أن القرار هذا ـ الذي نال تأييد ١٣٠ دولة في الجمعية العامة، و١٤ دولة في مجلس الأمن ـ ينسجم تماماً مع موقف أوباما الرسمي من المستوطنات اليهودية. وطالما أن استخدام إدارة أوباما للفيتو قد جرى تحت ضغط الكونغرس وأصدقاء إسرائيل، فهو يخاطر بدفع أوباما إلى المزيد من الغربة عن العرب والمسلمين الذين وعد بإصلاح العلاقة معهم. هوذا أقصر طريق لاستمرار سوء التفاهم والمواجهة مع الوطن العربي، لأن موقف العرب من الهيمنة الإسرائيلية واستغلالها المتمادي للأراضي الفلسطينية سيظلّ هو نفسه، ومهما كانت أنواع الحكومات التي سيسفر عنها الحراك الجاري في الوطن العربي.

ولا تغيّر في الحقيقة أعلاه لغة [الرئيس] عبّاس الأكثر ليناً في موضوع المستوطنات، الأمر الذي كشف عنه تسريب نصوص المفاوضات بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل، أو ما اصطلح على تسميته بـ «وثائق فلسطين». ولا يستبعد أن يخسر أبو مازن وحركة فتح الكثير من صدقيتهما أمام الفلسطينيين، كما في أية انتخابات قادمة، ثمناً لهذه الليونة، فيما ستكون «حماس» هي الرابح الأكبر. لقد دفع أبو مازن الكثير من شعبيته ومن قوة سلطته ثمناً للتحالف الذي أقامه مع الولايات المتحدة. ووفق حديث حماس، فهو قد قدّم الكثير من التنازلات غير الضرورية إلى الجانب الإسرائيلي، وخاطر بالتالي حتى بمصير سلطته أمام الشعب الفلسطيني. لقد كسبت حماس الجولة بلا شك، ولكن ما من شيء يشير إلى أنها ستكون الفصل الأخير في مشهد عربي يتغيّر باستمرار، بما فيه المجتمع الفلسطيني.

والواقع أن المصالحة الأخيرة بين حماس وفتح تعكس تطورات ثلاثة معاً:

---

(١٧) في الفصل الأخير من دراما مقاربة الولايات المتحدة لإسرائيل. انظر: Rami G. Khouri, «Washington Bends for Israel Once Again,» *Daily Star* (Beirut), 27/11/2010.

١ ـ سلطة فلسطينية ضعيفة، راهن رئيسها على أوباما ليساعد في ولادة دولة فلسطينية.

٢ ـ فشل الدبلوماسية الأمريكية في توظيف مواردها في التفاوض على تسوية سلمية.

٣ ـ الثورة في مصر التي جلبت تغييراً مهماً في سياسة البلاد الخارجية، والمزيد من الاقتراب من فلسطين.

لقد استخلص عبّاس على نحو واضح أن القيادة الإسرائيلية غير مهتمة بحلّ جذري، وأن إدارة أوباما ليست في وارد تقديم أي اقتراح بذلك إلى الإسرائيليين. وعليه، فقد قرر أن يضغط من أجل إعلان للدولة يصدر عن الأمم المتحدة في أيلول/سبتمبر ٢٠١١، وأن يتحول إلى التركيز على دفع البيت الفلسطيني نحو الوحدة الوطنية.

أما الأداة الأكثر فاعلية في يد إسرائيل للتخلص من مأزقها الأمني، فهو قبولها بتسوية سلمية وفق مقترحات المجتمع الدولي، بما فيه الولايات المتحدة، حليفتها الدائمة: حلّ الدولتين ـ إحداها يهودية تعيش آمنة، والأخرى دولة فلسطينية آمنة، يعيشان جنباً إلى جنب بأمان. ويبقى التحدّي الذي يواجه الولايات المتحدة هو أن تحدّ من التأثير الطاغي الذي تمارسه إسرائيل على سياستها الخارجية الشرق أوسطية، وهي بذلك تخدم المصالح الأمريكية والإسرائيلية أيضاً. وعلى سبيل المثال، ففي خطاب رئيسي له في أول مقاربة له للشرق الأوسط، كان أوباما أول رئيس أمريكي يؤكد علناً أن الحدود بين إسرائيل وفلسطين «يجب أن تستند إلى خطوط ١٩٦٧ مع تبادل في الأراضي متفق عليه»، إلا أنه حين خاطب «أيباك» (اللجنة الأمريكية ـ الإسرائيلية للشؤون العامة)، وهي اللوبي الإسرائيلي، في اليوم التالي، كان على أوباما أن يخاطب على نحو غير مباشر نتنياهو، الذي كان قد رفض كلياً رؤية أوباما، أولاً بتكرار ما اعترض عليه رئيس الوزراء الاسرائيلي ـ فقرة العودة إلى حدود ما قبل ١٩٦٧ ـ ثم بتكييف عبارته في نوع من التنازل الواضح لإسرائيل. أوضح أوباما أن ما يعنيه بـ «تبادل في الأراضي متفق عليه» هو «أن الطرفين ـ إسرائيل والفلسطينيين ـ سوف يتفاوضان على حدود غير تلك التي كانت في الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧». و«من الصعب بالتأكيد أن نرى كيف سيتفاوض الفلسطينيون، الطرف الأضعف، على تبادل متفق عليه للأراضي مع

الإسرائيليين، الطرف الأقوى، الذين يرفضون العودة إلى الحدود التي كانت قبل حزيران/ يونيو ١٩٦٧»[١٨].

والأكثر أهمية من ذلك، أن خطاب أوباما الافتتاحي لم يتضمن أي عمل ملموس من الولايات المتحدة أو أية مبادرة جديدة لتنفيذ رؤية الدولتين، إسرائيل والفلسطينيين، جنباً إلى جنب في سلام. بكلمات أخرى، لقد أرجأ أوباما حلّه للصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي إلى فترته الرئاسية الثانية، إذا أعيد انتخابه طبعاً.

وأخيراً، فإن ما يخيّم على رؤية صنّاع السياسة الأمريكيين هو إدمان البلاد للنفط، ومعارضة أي تغيير حقيقي رئيسي في الشرق الأوسط الكبير. ففي السنوات الستين الأخيرة، ضحّت السياسة الخارجية الأمريكية إلى حدّ بعيد بحكم القانون وحقوق الإنسان على مذبح الاستقرار والأمن بمعناهما الضيّق. فالخوف من تهديد تدفق النفط وزيادة كلفته المالية أعمى المسؤولين الأمريكيين، ودفعهم إلى دعم حكام محليين مستبدين باعتبارهم حراساً على استمرار الواقع كما هو. لم يكن للولايات المتحدة، خلا في حالات استثنائية، الجرأة لدعم الأصوات التقدمية والديمقراطية، وفضّلت بدلاً من ذلك دعم حكام مسلمين مستبدين انتهكوا تكراراً الحقوق الأساسية لمواطنيهم. وقد استغل بن لادن وجماعته الدعم الأمريكي لمستبدين عملاء من أجل إثارة الشباب المسلم كي ينضموا إلى حملته الجهادية ضد «العدو البعيد». وعلى مستوى أكثر عمقاً، فإن النقص في الفضاء السياسي الذي يجب أن يجري فيه النقاش والجدل، خلق فراغاً في شرعية السلطة السياسية: فراغ حاول الأنبياء الدجّالون من مثل بن لادن والظواهري ملأه.

ليس على الولايات المتحدة، ولا مطلوباً منها بالتأكيد، أن تفرض أجندتها الإصلاحية في الشرق الأوسط. ومع ذلك، فحين تنزل ملايين الأصوات العربية لتطالب، منذ مطلع ٢٠١١، بالتغيير الحقيقي، ففي وسع الزعماء الأمريكيين، بل عليهم أن يمنحوا دعمهم الثابت لكل مقاربة تلتزم بنشر حكم القانون وحقوق الإنسان والحرية في بلدها، كما خارجه، ودعم التطلعات الإنسانية

---

(١٨) Helene Cooper, «Obama Challenges Israel to Make Hard Choices Needed for Peace,» *New York Times*, 22/5/2011, and Steven Lee Myers, «Divisions Clear as Netanyahu and Obama Discuss Peace,» *New York Times*, 20/5/2011.

المشروعة بالتالي لملايين العرب. غير أن خطاب أمريكا اللفظي في دعم المبادئ الديمقراطية ترافق في الواقع مع تعذيب مشتبهي الإرهاب ومع الممارسات غير القانونية في السجون التي أدارتها الولايات المتحدة بعد ٩/١١. لقد هزّ ذلك من سلطتها الأخلاقية، وجعل حكام الشرق الأوسط أكثر قبضاً على السلطة في بلدانهم. وعليه، فعلى الولايات المتحدة أن تردم الهوة القائمة بين الخطاب والواقع من خلال العمل على نشر حقوق الإنسان الأساسية بطرق ديمقراطية، وإرسال الرسالة الصحيحة لا اللفظية إلى الصديق والعدو معاً بشأن التزامها الثابت بتلك الأهداف النبيلة. حين تفعل الولايات المتحدة ذلك، فهي تسهم في خرق السور الحديدي للاستبداد والقمع في الشرق الأوسط الكبير، وتصل به إلى نهايته المحتومة.

في خطابه في ٢١ أيار/مايو الذي قارب فيه الثورات العربية الجارية، تحدّث أوباما عن إعادة ترتيب السياسة الخارجية للولايات المتحدة في المنطقة العربية بالقول إن الولايات المتحدة معنية ليس فقط باستقرار البلدان، «وإنما كذلك بحق الأفراد في تقرير مصيرهم». وأضاف إن سياسة الولايات المتحدة سوف تدفع قدماً الإصلاح السياسي والاقتصادي في المنطقة، وحقوق الإنسان، ودعم التحول إلى الديمقراطية. يقول أوباما: «لا يشكل تأييدنا لهذه المبادئ مصلحة لنا من الدرجة الثانية، وإنما أقول بصورة واضحة اليوم إنها في رأس أولوياتنا التي يجب أن تترجم إلى أفعال ملموسة، وأن يجري دعمها بكل الوسائل الدبلوماسية والاقتصادية والاستراتيجية المتوفرة لنا»[١٩]. واعترف أوباما على نحو غير مباشر بأن إدارته لم تكن متطابقة مع هذه المبادئ في سياستها تجاه حلفائها في اليمن والبحرين حيال قمعهما للمعارضة، رغم أنه في النهاية لم يفعل غير فرك أذنيهما لا أكثر. إذا ترجم أوباما خطابه إلى سياسة ملموسة حيال أصدقاء أمريكا وأعدائها على حدّ سواء، فإن ذلك ليفتتح فصلاً جديداً في العلاقات العربية ـ الأمريكية. وفي كل الأحوال، وكما أظهرت الثورات السلمية الأخيرة، فإن العرب وحدهم، بمساعدة المجتمع الدولي، هم من يستطيعون تحويل مجتمعاتهم والالتحاق بركب الديمقراطية. وكما نظراؤهم في أوروبا الشرقية في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، لن يكون ركب

(١٩) San Francisco Examiner, <http://www.sfexaminer.com/blogs/beltway-confidential/2011/05/full-text-obamas-middle-east-speech#ixzz1NDGPRayx>.

الديمقراطية سهلاً، وإنما شاقاً، وفوضوياً، وغير متزن، وطويلاً. ما من ضمانات أكيدة بالنجاح لأي تحول ديمقراطي، وستكون هناك بالتأكيد انتكاسات. وعلى الرغم من إزالة الحاكمين الأقوياء لمصر وتونس، فإن الجيش لا يزال يتصدّر المشهد في كل بلد عربي تقريباً. والتحدّي الأكثر صعوبة هو مأسسة العلاقة بين الجيش والقيادة المدنية، ووضع حدّ نهائي لهيمنة ذوي الرتب العليا في العسكر. وكما في أوروبا الشرقية، فإن التحول العربي من الاستبداد السياسي نحو مجتمعات منفتحة وأكثر تعددية سيستغرق عقوداً، وليس فقط سنوات.

ومع ذلك، فإن عدوى الديمقراطية تنتشر وتبعث لغة جديدة ـ وعصراً جديداً ـ من السياسة في الوطن العربي: عصر لن يسمح فيه العرب والمسلمون لقلة مضللة أن تخطف أصواتهم. وفي هذا المشهد الجديد لن تعثر القاعدة وشبيهاتها على الأوكسجين الذي تحتاج إليه كي تبقى على قيد الحياة، إلا إذا انهار الوعد بحكم القانون والديمقراطية. المخاطر حقيقية، لكن المردود المنتظر أكثر أهمية بكثير. ودور الولايات المتحدة والمجتمع الدولي حاسم في استمرار الضغط على العسكر في مصر وتونس وأمكنة أخرى، كي يلتزموا بوعودهم بحراسة التحول نحو حكم ديمقراطي.

المسلمون هم من يستطيعون، مع دعم المجتمع الدولي، التخلّص من أيديولوجيا القاعدة في الجهاد الأممي، ويزيدون العزلة على بن لادن وجماعته. ومنذ ٩/١١ تولّى فقهاء مسلمون وصناع رأي بارزون التنديد بتكتيكات «القاعدة» العنفية، وشكّكوا في السند الديني والفقهي لعقائدها، وبخاصة دعوى تطبيقها لمؤسسة الجهاد. ومع ذلك، فهناك اعتقاد مغلوط منتشر بين مسلمين كثر، وهو أن القاعدة اختراع أمريكي، وخرافة لا حقيقة، وأنها لا تستحق هذا الجهد كله. وبخلاف حديث الإرهاب في الغرب الذي ينظر إلى القاعدة باعتبارها تهديداً استراتيجياً، فإن كثيراً من المسلمين يعتبرون ذلك مبالغة لا أساس لها، بل هو غير موجود أصلاً. وفيما تمسك القاعدة بمخيلة الغربيين، فهي لا تعني غير القليل للمسلمين. وإذا كان من معنى للفارق بين الخطابين فهو أنه يلقي الضوء على درجة سوء الفهم والشكوك القائمة بين الجانبين.

على المسلمين استكمال المواجهة المباشرة لأيديولوجية القاعدة وصياغة حملة منسقة ومنهجية لتوعية الشباب المسلم بمزالق الأيديولوجية تلك، وهي

بدأت فعلاً في غير مكان. يجب أن تعطى الأولوية الاستراتيجية لتثقيف الشباب المسلم وتجنّب التطرف والتسلّح. يجب فضح الأيديولوجيات المتطرفة التي ما فتئت تزعم استنادها إلى أساس ديني عبر عودتها إلى نصوص وفتاوى مجتزأة وخارج سياقها، تحاول بواسطتها إيهام الشباب المسلم أن الإسلام يبرر العنف الموجّه ضد المدنيين[٢٠].

على المجتمعات المدنية، والحكومات، والمؤسسات الدينية الانضمام إلى الجهود المبذولة لتطوير استراتيجيا فاعلة مضادة للتطرف، وإيجاد القاعدة الشرعية للتسامح الثقافي. هناك حاجة ملحّة إلى إصلاح الأساس الفلسفي والأخلاقي للتوجّهات أو حتى للمؤسسات التي لا تزال تتسامح في موضوعي التطرف والتعصب، وذلك أمر حاسم، وإن يكُ غير سهل. وسياسات الهوية وصراعاتها يجب أن لا تكون عذراً لحجب المبادئ الإنسانية الكونية، فهي تقنية لطالما استخدمتها الأنظمة السياسية المستبدة في المنطقة في العقود الأربعة الأخيرة. وكما أظهرت هجمات ١١/٩، فإن فوبيا الخوف من الغرب لا يقل تعسفاً واعتباطية عن فوبيا الخوف من الإسلام.

وعلى المدى البعيد، لن تجد الأيديولوجيات المتطرفة مكاناً لها في

---

(٢٠) يقترح تقرير نشرته مؤسسة السياسة الاجتماعية والتفهّم أن الطريقة للحؤول دون التطرف والإرهاب تعليمهم دينهم الإسلامي حتى يصبح بمقدورهم نبذ الروايات المتطرفة والفقه العنفي والروايات الجاهلة. وفيما يحاول معظم صناع السياسة الغربيين استبعاد الإسلام وعلمنة الجاليات والمجتمعات الإسلامية، تنصح نتائج التقرير بأسلوب مختلف كلياً، فهي تذهب إلى أن تعليماً للإسلام من مصادر موثوقة هو على الأرجح أكثر تأثيراً في محاربة التطرف والإرهاب؛ وهكذا أكثر إسلامية وليس أقلّ إسلامية هو ما ينفع. لمراجعة التقرير انظر: Azeem Ibrahim, «Tackling Muslim Radicalization: Lessons from Scotland,» (June 2010), <http://www.ispu.org/files/PDFs/ISPU%20-%20Radicalization%20 Report.pdf>.

يحرّك الأفكار الأخيرة مطلب الوصول إلى الشباب المسلم والحيلولة دون أخذه إلى التطرف. لكن جهداً آخر هو المطلوب في الحالات التي يصير فيها الشاب متطرفاً. عملية خفض التطرف عملية ممكنة باتجاه الحد من التشدد لدى الأفراد والجماعات بما يحول دون وصول التطرف إلى مرحلة العنف، وجهود كهذه طبقت بنجاح في الخليج وبلدان شرق أوسطية أخرى مع نتائج مختلطة. يتضمّن برنامج الخفض هذا ثلاثة أبعاد:

أ ـ بعد سلوكي: نبذ العنف.

ب ـ بعد عقائدي: نزع شرعية استخدام العنف.

ج ـ بعد عملاني: إحداث تغييرات جذرية داخل قيادات الجماعة.

التصوّر الخاطئ الشائع يقلّل من أهمية الدور المركزي الذي تؤديه العوامل التنظيمية في الترغيب بالشبكات الإرهابية. إن فهماً أفضل لهذه العوامل يكشف أنه بالإمكان التعامل مع هذا العامل من خلال زيادة تفهم الشاب المعني، وزيادة قدراته وإمكاناته وتفكيك عناصر جذب الشبكات الإرهابية.

البلدان الإسلامية، إلا إذا استمر الفراغ في شرعية الأنظمة السياسية الحاكمة، أي الهوة بين الحكام ومواطنيهم. لقد عانت المنطقة العربية، على وجه الخصوص، العسف السياسي الزائد، والظروف الاجتماعية والاقتصادية البائسة، فنِسبُ العاطلين عن العمل بين الشباب تحتاج في احتسابها إلى خانتين عشريتين، ونِسبُ من هم في فقر مدقع تزيد في البلدان العربية غير النفطية على ٤٠ بالمئة من عدد السكان. ومن الطبيعي بعد ذلك أن تكون البيئة العربية، في ظلّ المناخ المكفهر والفضاء السياسي المقفل، الخاصرة الضعيفة أمام إغراء التطرف. أليس لافتاً، بحسب مسح غالوب في ٢٠١٠، أن يقول ما بين ٣٣ و٥٠ بالمئة من أصل ١٢٠ مليوناً من الشبان العرب بين الأعمار ١٢ إلى ٢٥ أنهم يرغبون في هجرة دائمة إلى بلد آخر؟ هذه الإحصاءات تظهر، أكثر من ذلك، أن رغبة الشاب بالهجرة لا تتعلق حصراً بالسعي إلى العثور على فرصة عمل أعلى أو أجزى، وإنما هي تتصل أيضاً بالموقف من الظروف الاقتصادية ونوع الحكم والسياسية[(٢١)]. لذلك لم يكن مفاجئاً أن تهزّ الثورات الاجتماعية منذ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠ أسس أنظمة الاستبداد السياسي والاقتصادية الفاشلة في الوطن العربي.

يمكن إذاً، وإلى الحدّ الأقصى، الزعم أن المتغير الحاسم الذي سيحدّد على الأرجح التنافس/ المواجهة بين ناشطي القاعدة والحكومات المحلية هو درجة الشرعية التي تمتلكها الأخيرة في أعين الشعوب الإسلامية. والشرعية تلك تتطلب تأسيس حكومات ذات تمثيل ومصداقية وأنظمة سياسية منفتحة، حيث يكون هناك من يستمع علنياً إلى مظالم الناس. بغياب ذلك، وما دامت الأنظمة الإسلامية المدعومة من الغرب تفوز بمعظم معاركها ضد الإرهابيين بواسطة القوة الخالصة لا أكثر، فمن غير المرجّح أنها ستفوز في معاركها إلى الأبد، لأنه سيبقى هناك باستمرار عُصب صغيرة ساخطة في وسعها أن تتحول إلى أرض خصبة للإرهابيين والمتطرفين.

الطغيان، والظروف الاجتماعية البائسة، والأنظمة السياسية الاستبدادية، وفقدان الأمل، توفّر جميعها الوقود الذي يغذّي الأيديولوجيات المتطرفة والشمولية في العالم الإسلامي؛ هي أصل كل الأمراض التي تضرب المنطقة،

---

(٢١) انظر: The Third Silatech-Gallup Survey, <http://www.silatech.com>, and Rami G. Khouri, «A Guide to the Young Arab World,» Agence Global (24 November 2010).

بما فيها القاعدة ـ الطفيلي الذي يعيش على الأزمات الاجتماعية والاضطهاد السياسي. وعليه، فلا معنى للتركيز المبسط على عقيدة القاعدة العنفية من دون إيلاء اهتمام كاف للظروف الاجتماعية التي تسمح بولادة عقائد كهذه.

إن التحدّي الأكبر الذي سيواجه المنطقة العربية ـ الإسلامية في السنوات القادمة هو كيفية إيجاد طريقة للتحول السلمي من الاستبداد السياسي وحكم الحزب الواحد أو الأسرة الواحدة، إلى سياسة ديمقراطية منفتحة يكون فيها جميع المواطنين ـ رجالاً ونساء ـ متساوين أمام القانون.

بكلام آخر، الدمقرطة هي الآن إلزام أخلاقي. وبهذا المعنى، فإذا نجحت الثورات العربية في ملء الفراغ في شرعية السلطة السياسية، فستكون الفرصة متاحة على الأرجح لتلاشي «القاعدة» وأخواتها من الفروع المحلية. وحينها، حينها فقط، لا تموت «القاعدة» كما مؤسسها، فحسب، بل يُسمح لها أخيراً أن تموت.

ثانياً: كيف هزمت الانتفاضات العربية الراهنة نظرية «القاعدة»

قبل شهر واحد من مقتله، على يد وحدة خاصة من مشاة البحرية الأمريكية في غارة شنّتها على مكان اختبائه في أيار/ مايو ٢٠١١، يصف بن لادن في بعض الوثائق والرسائل التي عثر عليها في مسكنه ذاك، انتفاضات الربيع العربي بـ «الحدث الجلل»، ويقترح في السياق عينه المبادرة إلى شنّ حملة إعلامية لاستنهاض «الشعوب التي لم تنتفض بعد، وتحريضها على التمرد على حكامها»، مع الأمل في القدرة على قيادتها بعيداً عن «أنصاف الحلول» التي تدعو إليها السياسات الديمقراطية العلمانية.

تشير الوثائق المسرّبة حديثاً، بخلاف الرواية الإرهابية السائدة في الولايات المتحدة، إلى أن بن لادن كان شديد القلق لخسارته الظاهرة للتأييد الشعبي الإسلامي، بل إنه يقترح في وثيقة تعود إلى أشهر قليلة سبقت مقتله التفكير في تغيير اسم «القاعدة» لتتمكن من الاشتراك على نحو أفضل في الثورات العربية التي كانت تتلاحق سنة ٢٠١١. وأحد الدروس الأساسية التي يمكن استخلاصها، من المقاطع المسرّبة (وهي ليست حتى الآن أكثر من ١٧ من أصل عشرات الآلاف)، هو أن بن لادن ومعه من تبقى من القادة كان

مدركاً تماماً لما بات عليه تنظيمه من تراجع حاد بين العرب والمسلمين، وأن بقاءه موجوداً يستلزم بالتالي إعادة تخريجه وتسويقه من جديد.

وكما بيّنتُ في صفحات الكتاب هذا، فإن جماعة بن لادن، كما قد نسمّي من تبقى من التنظيم، قد خسرت قبل وقت طويل معركة الفوز بقلوب المسلمين وعقولهم. فقد أظهرت المعلومات الواردة من بلدان عدة أن غالب المعلومات عن «القاعدة» باتت تأتي الآن من مواطنين، من الأسرة نفسها، ومن أصدقاء، وجيران، وليس من أجهزة المراقبة والاستخبارات. والتحوّل هذا إنما يدلّ على تصاعد مشاعر العداء لدى الجمهور المسلم لمواقف جماعة بن لادن، وإلى أن دعوته إلى الجهاد الأممي المرتكز على الإرهاب لم تعُد تجد آذاناً صاغية بين المسلمين العاديين.

وخلافاً للأحكام السائدة في الغرب، لم يجر منذ فترة طويلة تسجيل أي دعم شعبي إسلامي لابن لادن ولمجموعته الجهادية الأممية. لقد أضحت الدعوة إلى الجهاد الأممي ظاهرة معزولة هامشية أكثر من كونها حركة اجتماعية شعبية، ولم تعُد تمتلك مكوّنات حقيقية لها وسط المجتمعات المسلمة. وعلى الرغم من أن المسلمين ما انفكوا ينتقدون سياسات الولايات المتحدة الخارجية، وبخاصة حروبها ضد أفغانستان والعراق وباكستان، فإن الدعوة إلى حرب مباشرة مع الغرب أو إلى قتل المدنيين باتت لا تمثّل أكثر من شريحة صغيرة فقط في المجتمعات تلك.

لقد هزّت الانتفاضات العربية ـ في مصر وتونس وليبيا واليمن وسورية والبحرين ـ أكثر ممّا فعله مقتل بن لادن، ليس فقط الأسس العميقة لأنظمة الاستبداد في المنطقة، بل أسس الرواية الإرهابية نفسها. ففيما كانت تتجمّع سحب الانتفاضات العربية، كانت «القاعدة» غائبة على نحو واضح. كذلك، لم تظهر مسيرات ملايين المحتجّين العرب أي صدى لشعارات «الجهاد» أو لأساليبه العنفية.

لم تتمكّن القاعدة من تقديم أية خطة اقتصادية، أو أفق سياسي، ولا أية رؤية للمستقبل. وبينما كان ملايين العرب يطالبون بحقوقهم في مواطنة فعلية، وانتخابات حقيقية، والفصل بين السلطات، كانت «القاعدة» تذهب إلى أن الانتخابات والديمقراطية «هراء» و«مبدأ شرير». وفيما كان ملايين العرب ينتفضون من أجل الإصلاحات السياسية، كان أحد أكبر قادة «القاعدة» أبو يحيى الليبي

يدعوهم، في إشارة إلى عزلته عن الجماهير تلك، إلى «رمي ثمار الليبرالية»، وإلى اعتبار الديمقراطية «طريقاً إلى جهنم». كانت نصيحة «الليبي»، النجم الذي صعد بين قادة «القاعدة» لبعض الوقت بعد مقتل بن لادن، وقبل مقتله هو أيضاً، الدعوة إلى إقامة إمارة إسلامية وفق شريعة القرآن.

وفي حين كان قادة «القاعدة» مستنكفين عن المشاركة السياسية، ويبشرون أن العنف والإرهاب هما ما سيجلب التغيير السياسي، كانت الانتفاضات العربية الصاعدة سلمية إلى الحدّ الأقصى. لقد حدث اصطدام جوهري بين الجماهير وأيديولوجية القاعدة وتكتيكاتها. فقد أظهر ملايين العرب الذين نزلوا إلى الشوارع بقوة، أن السياسة تعنيهم، وأن الاحتجاجات السلمية هي أكثر جدوى، وأنها قادرة على إحداث التغيير. لقد كانت دعوتهم الصارخة إلى الاحتكام إلى صناديق الاقتراع والحياة البرلمانية، لا إلى السيف والخلافة، رفضاً مدوّياً لكل ما قامت عليه أو دعت إليه «القاعدة».

لم يكن هناك بين العرب غير مشترين قلائل لسلع «القاعدة»، وثوراتهم السلمية بالتالي، إنما كانت، إلى حدّ كبير، دليلاً ساطعاً على رفضهم لأيديولوجية «القاعدة» ولتكتيكاتها العنفية في آن معاً.

وفي محاولة منه للقفز إلى قطار المنتفضين وزعم الانتماء إليهم، ذكّر أيمن الظواهري، أمير «القاعدة» الحالي، المصريين، أنه قبل فراره من مصر «اشترك في احتجاجات وتظاهرات شعبية عدة»، منها واحدة «في ميدان التحرير سنة ١٩٧١». لكن الحقيقة ليست كذلك، فقد أخبرني رفاق معاصرون للظواهري أنه لم يؤمن يوماً بالعمل السياسي وسيلة لقلب نظام الحكم العلماني في مصر، ولم يستخدم حتى الجامع للدعوة والتجنيد.

فمنذ شبابه المبكر، وفي خلال حقبة من التغيير الاجتماعي الاقتصادي والسياسي الهائل في مصر الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، رفض الظواهري العملية السياسية، وأعلن حرباً مقدسة ضد الحكومة المصرية، حرباً حملته من المدرسة الثانوية العليا في حي للشرائح العليا من الطبقة الوسطى المصرية في القاهرة إلى ميادين القتال في أفغانستان وباكستان. أما الجماهير المصرية، وبخلاف ذلك تماماً، فقد نجحت بالوسائل السلمية في قلب النظام المستبدّ، فيما أخفق الظواهري بوسائله العنفية وطوال حياته من تحقيق ذلك.

صحيح أن الناشطين الإسلاميين ـ مثل الإخوان المسلمين في مصر،

و«النهضة» في تونس، و«العدالة والتنمية» في المغرب ـ قد يتمكّنون من الحصول على غالب المقاعد النيابية في البلاد العربية في السنوات القادمة. لكن ما يجمع هؤلاء الإسلاميين المحدثين مع «القاعدة» قليل جداً، ومعظمهم يجهر علناً بقبوله القيم الديمقراطية كإطار لتنظيم مستقبل المسار السياسي لمجتمعاتهم. بل إن معظم الإسلاميين، من كل الألوان، يتجنبون عامدين أي ربط بينهم وبين «القاعدة» كما لو كانت وباء.

ورغم المزاعم المتكرّرة للطغاة العرب، كحسني مبارك، ومعمّر القذافي، وعلي عبد الله صالح، وبشّار الأسد، فقد فشلت «القاعدة» ليس فقط في أن تكون طليعة الانتفاضات العربية، بل حتي في أن تكون موجودة في الانتفاضات تلك.

وبعدما صحا قادة القاعدة من الصدمة، عاد هؤلاء فمحضوا الانتفاضات العربية تأييدهم الكامل، ورحّبوا بسقوط أعدائهم في تونس ومصر وليبيا واليمن. لكن الأكثر أهمية هي محاولتهم ركوب موجة الانتفاضات العربية والزعم بامتلاكها. ففي رسالة كُشف عنها لاحقاً عبّر بن لادن عن غبطته وسعادته بالمنتفضين، قائلاً إن «الأمة» كانت تنتظر هذه الانتفاضة منذ عقود. وعبّر، إلى ذلك، عن الأمل في أن «رياح التغيير سوف تهبّ لتشمل كامل العالم الإسلامي»، وتحرره من «الهيمنة الغربية».

ويحتفي الظواهري، في معرض تأبينه بن لادن، بـ «سقوط الفساد وعملاء أمريكا الفاسدين في تونس ومصر، وفي هزّ عروشهم وعروش زملائهم في ليبيا واليمن وسورية». هو يعلن تأييده لانتفاضات اليمن وليبيا، ويدعو الشعب ألا «يُخدع» بالدعم الغربي لهذه الانتفاضات، وبمهمة «الناتو» في ليبيا على وجه الخصوص.

وفي تعبير عن إدراكه للتناقضات بين أيديولوجية القاعدة والمنتفضين، يصف «الليبي»، الساعد الأيمن للظواهري، الانتفاضات بأنها امتداد لكفاح القاعدة الطويل من أجل طرد النفوذ الغربي من العالم الإسلامي، وهي «خطوة أسهمت جهود عدة في بلوغها».

بخلاف ذلك، عززت الانتفاضات العربية ما كان يعرفه الكثيرون منّا، وهو: أن الأيديولوجيا المركزية للقاعدة هي على تناقض ضمني مع التطلعات العالمية للعرب، بما فيها حقوق الإنسان وكرامته، والعدالة الاجتماعية،

والانتخابات الحرة، والتداول السلمي للحكم، والفصل بين السلطات. وفي هذا السياق، لم يحرق المتظاهرون الأعلام الأمريكية أو الغربية، ولا نحوا باللائمة على الاستعمار الغربي للأحوال التي هم فيها.

كان جلّ تركيز المنتفضين على المسائل الداخلية، لا الخارجية، وكانت دعوتهم صارخة باتجاه إعادة هيكلة المجتمعات العربية وفق أسس تعددية، ووضع حد نهائي للاستبداد. وكان الهدف الأول للمتظاهرين هو إحداث تحول سياسي/اجتماعي واقتصادي من خلال صناديق الاقتراع، وعلى نقيض أسلوب الخناجر والتفجيرات الانتحارية.

لقد أسقِط في يد بن لادن والظواهري ومن معهما، وكان عليهم العمل على فهم العاصفة التي هبّت وآثارها المتوقعة. ومن بين جميع الإسلاميين المقاتلين، كان أنور العولقي، الداعية الأمريكي اليمني الذي قتلته غارة من طائرة أمريكية بلا طيّار سنة ٢٠١١، الأكثر واقعية حين استخلص أن ليس لدى القاعدة ما تقدّمه للتطورات التاريخية المتلاحقة التي كانت تعيد رسم صورة المنطقة. ففي مقالة له بعنوان «تسونامي التغيير»، ظهرت في مجلته **إلهام** في أيار/مايو ٢٠١١، يقول عولقي: «لا نعرف حتى الآن نتائج ما يجري، وليس علينا انتظار ذلك، إذ ليس من الضروري أن يكون الوصول إلى حكومة إسلامية شرطاً للحكم على ما يحدث بأنه خطوة في الطريق الصحيح».

العولقي لم يكن يتحدّث بالتأكيد باسم «القاعدة» التي يظل هدفها تأسيس إمارة إسلامية وفق الشرع القرآني، لا حكومات جمهورية برلمانية منتخبة بالاقتراع الشعبي الحرّ. لكن أهداف «القاعدة» لا تجد، كما ظهر، غير القليل من المهتمين، والثورات العربية السلمية، إلى حدّ كبير، كانت من دون شك ضربة قاسية لأيديولوجيا «القاعدة» وأساليبها العنفية كذلك.

لقد أزاحت الثورات العربية الراهنة زعم «القاعدة» الدائم أن الطليعة الإسلامية هي التي ستتصدر عملية التغيير الثوري في المجتمعات الإسلامية. فقد كانت الثورات تلك، وإلى حدّ بعيد، سلمية، غير أيديولوجية، وقادتها نخب من الطبقة الوسطى، ضمّت تحالفاً من رجال ونساء من كل الأعمار والمشارب السياسية: ليبراليون من الوسط، وديمقراطيون، ويساريون، وقوميون، وإسلاميون قبلوا قواعد اللعبة السياسية.

ما أظهرته الثورات العربية هو الأزمة العميقة المتزايدة التي ما انفكّت

تعانيها «القاعدة» لجهتي الشرعية والسلطة، وهي أزمة أكثر تهديداً لمصير «القاعدة» حتى من هزائمها العسكرية. فابن لادن، وخليفته الظواهري، لا ينطقان باسم الأمة، ولا يملكان تأثيراً في الرأي العام العربي. والوثائق التي أفرجت عنها السلطات الأمريكية أخيراً تظهر بوضوح أن بن لادن كان يتبيّن بوضوح في الأيام الأخيرة التي سبقت مقتله ثقل خسارته للرأي العام الإسلامي، وأنه بات بلا قوة أو حول لوقف الانهيار ذاك.

تركت الثورات العربية طليعة بن لادن في الصفوف الخلفية. لكن الرواية الإرهابية أصيبت هي الأخرى في الصميم. فالسؤال الفعلي ليس: لماذا يكره المسلمون أمريكا إلى هذا الحدّ؟، وفق صياغة التقليد الأمريكي الذي ساد بعد ١١ أيلول/سبتمبر، وإنما يجب أن يكون: لماذا يحطّ «الأساتذة» وصنّاع السياسة الأمريكيون إلى هذا الحدّ من تعلّق ملايين العرب والمسلمين بالقيم الكونية، مثل حقوق الإنسان، وحكم القانون، والمواطنة الحقيقية، والمجتمعات التعددية والمنفتحة؟

وبعد، ماذا تبقّى من القاعدة؟ قليل جداً. فهي ليست الآن أكثر من عُصب جوّالة مربوطة بجبال وأودية المناطق القبلية الباكستانية عند الحدود الأفغانية (حيث كان يُظن أن بن لادن يختبئ)، وبالمناطق النائية من اليمن عند الحدود السعودية، وفي المناطق المقفرة من الصحراء الأفريقية والمغرب. كذلك يظهر سلوكها وأفعالها نمطاً عالياً من التذبذب. وباتت قيادتها تعتمد باطراد على منتسبين هواة، من دون خبرة، ويعوزهم العزم والتصميم.

وبعيداً عن أي تقييم نهائي، تظهر الوثائق التي عثرت عليها القوات الأمريكية الخاصة في مسكن بن لادن أنه كان قلقاً من أن الهجمات العشوائية التي نفّذتها الفروع المحلية للقاعدة وحلفائها جعلت الرأي العام الإسلامي ضد تنظيمه.

وحدها المعجزة تستطيع أن تبعث الحياة من جديد في الجهاد الأممي لتشكيلات القاعدة. وعليه، يصبح السؤال، هل الحرب الأهلية، التي ربما تندلع إذا لم يتحقق التغيير الديمقراطي لهؤلاء الذين ملأوا الشوارع في ربيع ٢٠١١، هي التي ستوفر المعجزة تلك؟

«القاعدة» مخلوق طفيلي يتغذّى من القلاقل والاضطرابات الاجتماعية. فإذا تعثّر التحوّل الديمقراطي في البلدان العربية، فقد تبادر الفروع المحلية لـ «القاعدة»

إلى استغلال الاضطراب الناشئ وتبثّ أظافرها هنا وهناك. وفي هذا الصدد، تبدو اليمن وليبيا (ومعهما الحرب المتصاعدة في سورية) أمكنة محتملة، نظراً إلى هشاشة مؤسساتها، وفقدان السلطة المركزية الفاعلة، ولوجود مقاتلين ينتسبون إلى أيديولوجية «القاعدة». والمسؤولون الأمريكيون قلقون من أن المتطرفين الذين ينتسبون إلى أيديولوجية «القاعدة» قد يستغلون التحولات الصعبة في تلك البلدان من أجل تأسيس موطئ قدم لهم ونشر نفوذهم.

لقد سيطر على المدعوّين خبراء في الإرهاب ميل عام إلى التركيز على عقيدة «القاعدة» العنفية حصراً، مع إهمال الإطار الأوسع الذي يحدّد على نحو حاسم كيفية عمل الأيديولوجيا. وعليه، فدراسة الظروف الاجتماعية التي تنشأ في ظلها أيديولوجيات العنف، هي وحدها القادرة على إلقاء الضوء على الدوافع الكامنة وراءها.

ويبقى أن الانتفاضات العربية الأخيرة إنما كانت ردّ فعل الجماهير على عقود من الاستبداد، وسوء استخدام السلطة، والحرمان الاقتصادي، كما لغياب الأمل كنتاج طبيعي للأزمة البنيوية تلك. وعليه، يمثّل «الربيع العربي» تحدياً رئيسياً للظروف نفسها التي ما انفكت تغذّي الأيديولوجيات المتطرفة. وسيكشف الزمن لاحقاً ما إذا كانت الثورات العربية تستطيع معالجة ثغرة السلطة السياسية الشرعية وملأها بالتالي. وإذا تحقق ذلك، يكون الرأي العام العربي قد وجّه ضربته الأخيرة إلى «القاعدة» وفروعها المحلية.

المراجــع

١ ــ العربية

كتب

حافظ، أسامة إبراهيم وعاصم عبد المجيد. **تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء**. الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤.

ـــــ وـــــ . **حرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين**. الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤.

الزيّات، منتصر. **أيمن الظواهري كما عرفته**. القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٢.

سيّد أحمد، رفعت. **النبي المسلّح**. لندن: كتب رياض الريّس، ١٩٩١. ٢ ج.

ج ١: **الرافضون**.

ج ٢: **الثائرون**.

صلاح، محمد. **وقائع سنوات الجهاد: رحلة الأفغان العرب**. القاهرة: خلود للنشر، ٢٠٠١.

الظواهري، أيمن. **فرسان تحت راية النبي**.

عطوان، عبد الباري. **التاريخ السري للقاعدة**. لندن: دار الساقي، ٢٠٠٦.

قطب، سيد. **لماذا أعدموني؟**. القاهرة: منشورات نون، ٢٠٠٧.

دوريات

الأحمدي، خالد. «اليمن: أبين بين صخرة القاعدة والحركات الانفصالية.» **القدس العربي**: ١٧/ ١٠/ ٢٠١٠.

«أسامة رشدي، المسؤول الإعلامي السابق وعضو شورى الجماعة الإسلامية: خطاب بن لادن مثير ومليء بالتعابير التي لا يفهمها إلا المسلمون.» **الشرق الأوسط**: ٢٥/ ١/ ٢٠٠٥.

«استسلام ١٥ من مقاتلي القاعدة في جنوب اليمن.» **القدس العربي**: ٢٦/ ١٠/ ٢٠١٠.

«ترشيد الجهاد في مصر والعالم.» **المصري اليوم**: ١٨/ ١١/ ٢٠٠٧، و٢/ ١٢/ ٢٠٠٨.

حمادي، خالد. «صنعاء تشتكي أن حلفاءها لا يشركونها في المعلومات الاستخباراتية.» **القدس العربي**: ٢/ ١١/ ٢٠١٠.

الحياة: ٢٤/ ١/ ٢٠٠١، و٣٠/ ٩/ ٢٠١٠.

«الحياة في سجن طورا المصري تحاور مؤلف وثيقة «ترشيد الجهاد».» **الحياة**: ١٣/ ١٢/ ٢٠٠٧.

دربالة، عصام محمد. «استراتيجة القاعدة: أخطاء ومخاطر.» **الشرق الأوسط**: ٦ ـ ٩/ ٧/ ٢٠٠٣.

رحيم، أحمد. «بن لادن يعترف بارتكاب الأخطاء.» **الحياة**: ٢/ ١٢/ ٢٠٠٧.

«الزعيم المحلي لتنظيم القاعدة يسلّم نفسه للسلطات.» **القدس العربي**: ٢٨/ ١٠/ ٢٠١٠.

الزيّات، منتصر. «الجماعة الإسلامية: رؤية من الداخل.» (سلسلة مقالات) **الحياة**: ١٠ ـ ١٤/ ١/ ٢٠٠٥.

الزيدي، مهاري. «أبو محمد المقدسي: الأب الروحي للزرقاوي.» **الشرق الأوسط**: ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٥.

شحادة، مروان. «خلاف الزرقاوي والمقدسي.» **الحياة**: ٥/ ٧/ ٢٠٠٥.

الشرق الأوسط: ١٥ ـ ١٦/ ٧/ ٢٠٠٣؛ ٦ ـ ٩/ ٨/ ٢٠٠٣؛ ١٢/ ١/ ٢٠٠٤؛ ٢١/ ٦/ ٢٠٠٤؛ ٢٣ ـ ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٤؛ ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٤؛ ٢٧/ ٦/ ٢٠٠٤؛ ٨/ ١٢/ ٢٠٠٤؛ ٩/ ١٢/ ٢٠٠٤؛ ٢٩/ ٦/ ٢٠٠٥، و١/ ٧/ ٢٠٠٥.

«الشرق الأوسط تتحدث إلى قائد التنظيم الجهادي الإسلامي داخل السجن.» **الشرق الأوسط**: ١٥ ـ ١٦/ ٧/ ٢٠٠٣.

«الظواهري: الذكرى التاسعة لهجمات ١١ سبتمبر.» **القدس العربي**: ٩/ ٩/ ٢٠١٠.

عبد الله، خالد. «غارات «الدرون» تؤجج عدم الثقة بين الحكومة وأمريكا.» **القدس العربي**: ٢٨/ ١٠/ ٢٠١٠.

عزّام، عبد الله. «القاعدة الصلبة.» **الجهاد**: العدد ٤١، نيسان/ أبريل ١٩٩٨.

«قائد القاعدة المسلحة في اليمن يعلن عن نيته تشكيل جيش.» **القدس العربي**: ١٣/ ١٠/ ٢٠١٠.

القدس العربي: ٢٤/ ١١/ ٢٠٠١، و٨/ ١١/ ٢٠١٠.

«مذكرات هاني السباعي قائد سابق في الجهاد.» **الحياة**: ١ ـ ٤/ ٩/ ٢٠٠٢.

المصري اليوم: ١٧/ ١١/ ٢٠٠٧.

المصوّر: ٢١ حزيران/ يونيو ٢٠٠٢، و٢٨ حزيران/ يونيو ٢٠٠٢، و٨ آب/ أغسطس ٢٠٠٣.

«مقابلة مع الملا محمد طيّب آغا.» **الحياة**: ٤/ ١٢/ ٢٠٠٩.

تقارير ومقالات إلكترونية

«جيش عدن ـ أبين، حقيقة أم خرافة؟ خالد عبد النبي: لا وجود لجيش عدن أبين.» الميدان نت (٢ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٠)، <http://news.al-maydan.net/articles-action-show-id-828.htm>.

«القاعدة في اليمن تهدد بحرب عصابات في جنوب اليمن،» يمن ناشن نت (١٩ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٠)، <http://www.yemennation.net/news3611.html>.

«مقتل نائب حاكم مأرب في غارة جوية أميركية عن طريق الخطأ.» الرياض دوت كوم (٢٦ أيار/ مايو ٢٠١٠)، <http://www.alriyad.com/2010/05/26/article529112.html>.

٢ ـ الأجنبية

Books

The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States. New York: W. W. Norton, 2004.

Abu-Rabi, Ibrahim M. *Intellectual Origins of Islamic Resurgence in the Modern Arab World*. New York: State University of New York Press, 1996.

Atran, Scott. *Talking to the Enemy: Faith, Brotherhood, and the (Un) Making of Terrorists*. New York: Harper Collins, 2010.

Barkawi, Tarak. *Globalization and War*. New York: Rowman and Littlefield, 2006.

Bergen, Peter. *Holy War, Inc.: Inside the Secret World of Osama bin Laden*. New York: Touchstone, 2001.

________ . *The Osama bin Laden I Know: An Oral History of al-Qaeda's Leader*. New York: Free Press, 2006.

Berman, Paul. *Terror and Liberalism*. New York: W. W. Norton, 2003.

Bilmes, Linda and Joseph Stiglitz. *The Three Trillion Dollar War: The True Coast of the Iraqi Conflict*. New York: W. W. Norton and Company, 2008.

Bjorgo, Tore and John Horgan (eds.). *Leaving Terrorism Behind: Individual and Collective Disengagements*. London: Routledge, 2009.

Brisard, Jean-Charles. *Zarqawi: The New Face of Al-Qaeda*. Cambridge, MA: Polity Press, 2005.

Bronson, Rachel. *Thicker Than Oil: Americas Uneasy Partnership with Saudi Arabia*. Oxford: Oxford University Press, 2008.

Bunzl, Matti. *Anti-Semitism and Islamophobia: Hatreds Old and New in Europe*. Chicago, IL: Prickly Paradigm Press, 2007.

Burke, Jason. *Al Qaeda: The True Story of Radical Islam*. London: I. B. Tauris, 2003.

Carter, Ashton B. and William J. Perry. *Preventive Defense: A New Security Strategy for America*. Washington, DC: Brookings Institution Press, 1999.

Cole, Juan R. *Engaging the Muslim World*. New York: Palgrave Macmillan, 2009.

Coll, Steve. *The Bin Ladens: An Arabian Family in the American Century*. London: Penguin Books, 2008

Daniel, Norman. *Islam and the West: The Making of an Image*. Oxford: One-world, 2009.

Esposito, John and Dalia Mogahed. *Who Speaks for Islam? What Do a Billion Muslims Really Think?*. New York: Gallup Press, 2008.

Ganor, B. *Defining Terrorism: Is One Man's Terrorist Another Man's Freedom Fighter?*. Washington, DC: International Policy Institute for Counter Terrorism, 1999.

Gerges, Fawaz A. *The Far Enemy: Why Jihad Went Global*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2009.

________ . *Journey of the Jihadist: Inside Muslim Militancy*. Orlando, FL: Harcourt Press, 2007.

Giustozzi, Antonio. *Koran, Kalashnikov, and Laptop: The Neo-Taliban Insurgency in Afghanistan*. New York: Columbia University Press, 2008.

Gold, Dan. *Hatred's Kingdom: How Saudi Arabia Supports the New Global Terrorism.* Washington, DC: Eagle Publishing, 2003.

Gottschalk, Peter and Gabriel Greenberg. *Islamophobia: Making Muslims the Enemy.* Lanham, MD: Roman and Littlefield, 2007.

Gunaratna, Rohan. *Inside Al Qaeda: Global Network of Terror.* New York: Columbia University Press, 2003.

Friedman, Benjamin, Jim Harper, and Christopher Preble (eds.). *Terrorizing Ourselves: Why U.S. Counterterrorism Policy is Failing and How to Fix It.* Washington, DC: Cato Institute, 2010.

Fukuyama, Francis. *America at the Crossroads: Democracy, Power, and the Neoconservative Legacy.* New Haven, CT: Yale University Press, 2006.

Hafez, Mohammed M. *Suicide Bombers in Iraq: The Strategy and Ideology of Martyrdom.* Washington, DC: United States Institute of Peace Press, 2007.

Heclo, Hugh and Aaron B. Wildavsky. *The Private Government of Public Money: Community and Policy Inside British Politics.* London: Macmillan, 1974.

Hentsch, Thierry. *Imagining the Middle East.* Montreal: Black Rose Books, 1992.

Jervis, Robert. *American Foreign Policy in a New Era.* New York: Routledge, 2005.

Khalidi, Rashid. *Resurrecting Empire: Western Footprints and Americas Perilous Path in the Middle East.* Boston, MA: Beacon Press, 2005.

Lacey, Robert. *Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists, Terrorists, and the Struggle for Saudi Arabia.* New York: Viking, 2009.

Messages to the World: The Statements of Osama Bin Laden. Edited and introduced by Bruce Lawrence and translated by James Howarth. London; New York: Verso, 2005.

Mueller, John. *Atomic Obsession.* New York: Oxford University Press, 2010.

______ and Mark G. Stewart. *Terror, Security, and Money: Balancing the Risks, Benefits, and Costs of Homeland Security.* Oxford; New York: Oxford University Press, 2011.

Napoleoni, Loretta. *Insurgent Iraq: Al Zarqawi and the New Generation.* New York: Seven Stories Press, 2005.

Niskanen, William A. (Jr.). *Bureaucracy and Representative Government.* Chicago, IL: Aldine-Atherton, 1971.

Pape, Robert. *Dying to Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism.* New York: Random House, 2005.

______ and James K. Feldman. *Cutting the Fuse: The Explosion of Global Suicide Terrorism and How to Stop It.* Chicago, IL: University of Chicago Press, 2010.

Porter, Patrick. *Military Orientalism: Eastern Wars through Western Eyes.* London: Hurst and Company, 2009.

Qureshi, Emran and Michael Sells (eds.). *The New Crusades: Constructing the Muslim Enemy*. New York: Columbia University Press, 2003.

Qutb, Sayyid. *Milestones* [Ma'ālim fī al-ṭarīq]. Cedar Rapids, IA: Mother Mosque Foundation, 1981.

Rashid, Ahmed. *Descent into Chaos: The United States and the Failure of Nation Building in Pakistan, Afghanistan, and Central Asia.* New York: Viking, 2008.

Singer, Peter W. *Who Provides an Excellent overview in his Work Corporate Warriors: The Rise of the Privatized Military Industry*. Ithaca, NY: Cornell Security Studies, 2003.

Trofimov, Yaroslav. *The Siege of Mecca: The Forgotten Uprising*. London: Penguin Books, 2007.

Woodward, Bob. *Obama's Wars: The Inside Story*. New York: Simon Schuster, 2010.

Wright, Lawrence. *The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/11.* New York: Alfred A. Knopf, 2006.

Periodicals

Abbas, Hassan. «Defining the Punjabi Taliban.» *CTC Sentinel*: vol. 2, no. 4, April 2009.

______ . «A Profile of Tehrik-i-Taliban Pakistan.» *CTC Sentinel*: vol. 1, no. 2, January 2008.

Abdul-Ahad, Ghaith. «Shabwa: Blood Feuds and Hospitality in al-Qaida's Yemen Outpost.» *Guardian*: 23/8/2010.

Barry, John and Evan Thomas. «A War Within.» *Newsweek*: 12 September 2010.

Berger, Joseph. «Pakistani Taliban Behind Times Sq. Plot, Holder Says.» *New York Times*: 10/5/2010.

Bernton, Hal. «Was FBI Grooming Portland Suspect for Terror?.» *Seattle Times*: 30/11/2010.

Bin Sallam, Mohammad. «Government and Houthi Delegations Return to Sanaa.» *Yemen Times*: 2/9/2010.

Black, Ian. «Violence Won't Work: How Author of «Jihadists' Bible» Stirred Up a Storm.» *Guardian*: 27/7/2007.

______ and Richard Norton-Taylor. «Al-Qaeda Faces Recruitment Crisis, Anti-terrorism Experts Say.» *Guardian*: 11/9/2009.

Black, Jeremy. «Determinisms and Other Issues.» *Journal of Military History*: vol. 68, 2004.

Borger, Julian and Richard Norton-Taylor. «Sweden Suicide Bomber's British Connections under Investigation.» *Guardian*: 12/12/2010.

Brulliard, Karin. «Anger Simmers in Pakistani Army over bin Laden Riad.» *Washington Post*: 19/5/2011.

Caton, Steven C. «Yemen: Not on the Verge of Collapse.» *Foreign Policy*: 11 August 2010.

Cole, David. «License to Kill.» *Nation*: 16/4/2010.

Cooper, Helene. «Obama Challenges Israel to Make Hard Choices Needed for Peace.» *New York Times*: 22/5/2011.

DeYoung, Karen «Cables Show U.S. Officials' Sense of Futility in Afghanistan.» *Washington Post*: 3/12/2010.

______ . «Obama Says U.S. Is «on Track» to Achieve Goals in Afghanistan.» *Washington Post*: 16/12/2010.

______ and Craig Whitelock. «U.S.-Led Forces Reconciliation Talks between Afghan Government, Taliban.» *Washington Post*: 14/10/2010.

Dilanian, Ken and David Cloud. «U.S. Intelligence Reports Cast Doubt on War Progress in Afghanistan.» *Los Angeles Times*: 15/12/2010.

Dowd, Maureen. «Our Mosque Madness.» *New York Times*: 17/8/2010.

Dreyfuss, Robert. «Karzai Quandary.» *Nation*: 10/4/2010.

______ . «United States Supports Taliban Peace Talks.» *Nation*: 14/10/2010.

Drogin, Bob and April Choi. «Teen Held in Alleged Portland Plot.» *Los Angeles Times*: 28/11/2010.

______ and ______ . «Mixed Portrait of Oregon Terrorism Suspect.» *Los Angeles Times*: 29/11/2010.

Entous, Adam and Siobhan Gorman, «U.S. Weighs Expanded Strikes in Yemen.» *Wall Street Journal*: 25/8/2010.

«Excerpts from Afghan President Hamid Karzai's Interview with the Washington Post.» *Washington Post*: 14/11/2010.

Farrall, Leah. «Hotline to the Jihad.» *Australian*: 7/12/2009.

Feldman, Noah. «How Different Is Obama from Bush on Terrorism.» *Foreign Policy*: 3 September 2010.

Feldner, Y., Y. Carmon, and D. Lav. «The Al-Gama'a Al-Islamiyya Cessation of Violence: An Ideological Reversal.» *Middle East Research Institute*: no. 309, 21 December 2006.

Fenton, Justin. «Arrest Madein Plot to Blowup Baltimore-area Military Recruiting Center.» *Baltimore Sun*: 8 December 2010.

Fidler, Stephen. «Down but Dangerous: How al-Qaeda Has Been Pushed on to the Defensive.» *Financial Times*: 9/6/2008.

Filkins, Dexter. «09 Deadliest Year for Afghans, U.N. Says.» *New York Times*: 13/1/2010.

_____ and Carlotta Gall. «Taliban Leader in Secret Talks Was an Impostor.» *New York Times*: 22/11/2010.

Finn, Peter and Greg Miller. «E.U. Cites Nationals Training in Terror.» *Washington Post*: 30/9/2010.

Gall, Carlotta [et al.]. «Afghan Official Confirms Moves Toward Taliban Talks.» *New York Times*: 14/10/2010.

_______ and Douglas Jehl. «U.S. Raid Killed Qaeda Leaders, Pakistanis Say.» *New York Times*: 19/1/2006.

Ganji, Akbar. «Dreaming of a Free Iran.» *Boston Review*: 26 May 2010.

Gerges, Fawaz A. «His Mentor Turns on Bin Laden,» *International Herald Tribune*: 21/9/2007.

_____ . «Osama Bin Laden's Growing Anxiety.» *Christian Science Monitor*: 26/10/2007.

Ghosh, Bobby. «Does America Have a Muslim Problem?.» *Time*: 30 August 2010.

Goodstein, Laurie. «Across Nation, Mosque Projects Meet Opposition.» *New York Times*: 7/8/2010.

Gunaratna, Rohan and Anders Nielsen. «Al Qaeda in the Tribal Areas of Pakistan and Beyond.» *Studies in Conflict and Terrorism*: vol. 31, no. 9, September 2008.

Haqqani, Husain. «How Pakistan Is Countering the Taliban.» *Wall Street Journal*: 30/4/2009.

«Al-Hayat Talks to «Dr. Fadl» in Tura Prison.» *Al-Hayat*: 8 December 2007.

Higgins, Andrew and Alan Cullison. «Strained Alliance: Al Qaeda's Sour Days in Afghanistan.» *Wall Street Journal*: 2/8/2002.

_____ and _____ . «Terrorist's Odyssey: Saga of Dr. Zawahiri Illuminates Roots of Al Qaeda Terror.» *Wall Street Journal*: 2/7/2002.

Hoffman, Bruce. «The Myth of Grass-Roots Terrorism.» *Foreign Affairs*: July-August 2008.

Hsu, Spencer S. «Suspect in D.C. Metro Bomb Plot Sought to Fight U.S. Troops Overseas, Records Say.» *Washington Post*: 28/10/2010.

Johnston, Philip. «Anwar al Awlaki: The New Osama bin Laden?.» *Daily Telegraph*: 17/9/2010.

Kaplan, Fred. «Crazy Like a Fox: What Exactly Is Hamid Karzai Trying to Accomplish with His Latest Comments?.» *Slate*: 18 November 2010.

Karon, Tony. «Nine Years After 9/11: Is Al-Qaeda's Threat Overrated?.» *Time*: 11 September 2010.

Khan, Ismail and Jane Perlez. «Pakistan Halts NATO Supplies to Afghanistan after Attack.» *New York Times*: 30/9/2010.

Khan, Kamran and Dana Priest. «Pakistan Pressures Al Qaeda: Military Operation Results in Alert and Arrests.» *Washington Post*: 6/8/2004.

al-Khatib, Ahmed. «Second Revisions of Tanzim al-Jihad: Sayyid Fadl, Mufti al-Jihad, Responds to Zawahiri's «Exoneration»: Al-Qa'ida's Second-in-Command is a «Hypocrite».» no. 12: 1 December 2008.

Khouri, Rami G. «Washington Bends for Israel Once Again.» *Daily Star* (Beirut): 27/11/2010.

Kim, Richard. «The Center Cannot Hold: Why the Mainstream Media Can't Stop the «Ground Zero Mosque» Hysteria.» *Nation*: 19/8/2010.

Kristof, Nicholas D. «Is This America?.» *New York Times*: 11/9/2010.

LaFranchi, Howard. «Al Qaeda? North Korea? Who Americans See as Greatest Security Threat.» *Christian Science Monitor*: 8/12/2010.

Levinson, Charles and Margaret Cocker. «Al Qaeda's Deep Tribal Ties Make Yemen a Terror Hub.» *Wall Street Journal*: 22/1/2010.

Linzer, Dafna. «CIA Held Al Qaeda Suspect Secretly.» *Washington Post*: 28/4/2007.

Luban, Daniel. «The New Anti-Semitism.» *Tablet*: 19 August 2010.

Mackey, Robert. «Updates on Day 18 of Egypt Protests.» *New York Times*: 11/2/2011.

Mamdani, Mahmood. «The Politics of Naming: Genocide, Civil War, Insurgency.» *London Review of Books*: vol. 29, no. 5, March 2007.

Markon, Jeremy, Pamela Constable and Shaiq Hussein. «Va. Suspects in Pakistan Say Mission Was Jihad Not Terrorism.» *Washington Post*: 5/1/2010.

Mazzetti, Mark, «Drone Strike in Yemen Was Aimed at Awlaki.» *New York Times*: 6/5/2011.

_____ and Scott Shane. «Data Show Bin Laden Plots: C.I.A. Hid Near Raided House.» New *York Times*: 5/5/2011.

_____, Sabrina Tavernise and Jack Healy. «Suspect is Said to Admit to Role in Plot.» *New York Times*: 5/5/2010.

Miller, Greg and Jerry Markon, «Radicalization of Times Square Suspect Was Gradual, Investigators Say.» *Washington Post*: 7/5/2010.

_____ and Peter Finn. «CIA Sees Increased Threat from al-Qaeda in Yemen.» *Washington Post*: 24/8/2010.

Al-Mosawa, Shuaib M. «AQAP Announces Formation of Aden-Abyan Army.» *Yemen Observer*: 14 October 2010.

Mueller, John. «How Dangerous Are the Taliban?.» *Foreign Affairs*: 15 April 2009.

_____. «The «Safe Haven Myth».» *Nation*: 28/10/2009.

_____. «Terrorphobia: Our False Sense of Insecurity.» *American Interest*: May-June 2008.

Murphy, Caryle. «Saudi Arabia Announces Arrest of 110 Al Qaeda Suspects.» *Christian Science Monitor*, 24/3/2010.

Murphy, Dan. «In Iraq: A Clear-Cut Bin Laden-Zarqawi Alliance.» *Christian Science Monitor*: 31/12/2004.

Myers, Steven Lee. «Divisions Clear as Netanyahu and Obama Discuss Peace.» *New York Times*: 20/5/2011.

New York Times: 17/3/2010.

Nye, Joseph S. (Jr.). «Redefining the National Interest.» *Foreign Affairs*: vol. 78, no. 4, July-August 1999.

Partlow, Joshua. «In Afghanistan, Taliban Surpasses al-Qaeda.» *Washington Post*: 11/11/2009.

______ and Karen DeYoung. «Petraeus Warns Afghans about Karzais Criticism of U.S. War Strategy.» *Washington Post*: 15/11/2010

Peretz, Martin. «An Apology.» *New Republic*: 13/9/2010.

______ . «The New York Times Laments «A Sadly Wary Misunderstanding of Muslim-Americans: But Really Is It «Sadly Wary» or a «Misunderstanding» at All?.» *New Republic*: 4/9/2010.

Perlez, Jane. «Rebuffing U.S., Pakistan Balks at Crackdown.» *New York Times*:15/12/2009.

______ . «U.S. Urges Action in Pakistan after Failed Bombing.» *New York Times*: 8/5/2010.

______ and Pir Zubair Shah. «Pakistan Regains Control of Remote Area, for Now.» *New York Times*: 8/3/2009.

______ and _____ . «Taliban Exploit Class Rifts in Pakistan.» *New York Times*: 16/4/2009.

Perez, Evan. «Trip Plan Sparked FBI's Terror Sting.» *Wall Street Journal*: 29/10/2010.

Peterson, Scott. «In Yemen, 158 Clerics Vow Jihad if US Military Intervention Broadens.» *Christian Science Monitor*: 14/1/2010.

Pipes, Daniel. «Faisal Shahzad, Jihadi, Explains Terrorism.» *National Review Online*: 25 June 2010.

Power, Carla. «Can a Fatwa Against Terrorism Stop Extremists?.» *Time*: 12 March 2010.

Priest, Dana and William Arkin. «Top-Secret America: A Hidden World, Growing beyond Control.» (Part 1), *Washington Post*: 18/7/2010.

______ and ______ . «Top-Secret America: National Security Inc.» (Part 2), *Washington Post*: 20/7/2010.

______ and ______ . «Top-Secret America: The Secrets Next Door.» (Part 3), *Washington Post*: 21/7/2010.

«Al-Qa'ida was Still Using the Region to Plan Terrorist Strikes against the U. S. and Its Allies.» *Washington Post*: 29/3/2010.

Rashid, Ahmed. «A Deal with the Taliban?.» *New York Review of Books*: 25 February 2010.

______ . «Jihadi Suicide Bombers: The New Wave.» *New York Review of Books*: 12 June 2008.

Rayner, Gordon, Andy Bloxham and Laura Roberts, «Stockholm Bomber Was Thrown out of Luton Mosque for Trying to Recruit Extremists.» *Telegraph*: 13/12/2010.

Roggio, Bill. «US Army Major behind Fort Hood Murders Expressed Sympathy for Islamic Terrorists.» *The Long War Journal*: 5 November 2009.

Salah, Mohammed. «Al-Hayat in the Egyptian Tura Prison Speaks with the author of «Rationalizing Jihad in Egypt and the World».» *Al-Hayat*: no. 1 of 6, 9 December 2007.

Sanger, David E. and Eric Schmitt. «As Rift Deepens Between U.S. and Pakistan, Kerry Offers Carrots and Sticks.» *New York Times*: 14/5/2011.

«Saudi Arabia Tackles Terrorism.» *Economist*: 17 July 2008.

«Saudi Al-Qaeda Urges Killing of Christians.» *Middle East Observatory*: 12 August 2010.

Schemm, Paul. «Egypt Lets the World Know That the Gamaa Islamiya is out of the Terrorism Business.» *Cairo Times*: 27 June 2002.

Schmitt, Eric and Charlie Savage. «In U.S. Sting Operations, Questions of Entrapment.» *New York Times*: 29/11/2010.

______ and Eric Lipton. «Officials Point to Suspect's Claim of al Qaeda Ties in Yemen.» *New York Times*: 26/12/2009.

______ and Scott Shane. «Christmas Bombing Try is Hailed by Bin Laden.» *New York Times*: 24/1/2010.

Scherer, Ron. «Ground Zero and Beyond: Four Mosque Battles Brew across US.» *Christian Science Monitor*: 19/8/2010.

Seamark, Michael. «This Gross Insult.» *Daily Mail*: 4/11/2010.

Shafi, Mohammad A. «Seifal-Adl: Al-Qa'ida's Ghost.» *Alsharq Alawsat*: 1/6/2005.

Shane, Scott. «Fighting Terrorism, Creating Terrorists.» *New York Times*: 4/7/2010.

______ . «Yemen Helps U.S. Fight Al Qaeda, on Its Own.» *New York Times*: 3/12/2010.

______ and Robert F. Worth. «Earlier Flight May Have Been Dry Run for Plotters.» *New York Times*: 1/11/2010.

______ , Mark Mazzetti and Robert F. Worth. «Secret Assault on Terrorism Widens on Two Continents.» *New York Times*: 14/8/2010.

Singer, David E. and Mark Mazzetti. «New Estimate of Strength of Al Qaeda is Offered.» *New York Times*: 30/6/2010.

Somaiya, Ravi. «Tracking the News on Air Cargo Explosives.» *New York Times*: 30/10/2010.

Steinberg, G. M. «Israel's Right to Self-Defense.» *Wall Street Journal*: 23/2/2010.

Sulzberger, A. G. and William K. Rashbaum. «Guilty Plea Made in Plot to Bomb New York Subway.» *New York Times*: 22/2/2010.

Tarschys, Daniel. «The Growth of Public Expenditures: Nine Modes of Explanation.» *Scandinavian Political Studies*: vol. 10, 1975.

«Terrorism: Al-Qaida under Pressure.» *Guardian*: 11/9/2009.

«US Airstrike Kills 11 Pakistani Soldiers in «Cowardly and Unprovoked Attack».» *Times*: 12/6/2008.

Wall Street Journal: 4/4/2010.

Walsh, Declan. «Osama Bin Laden «Revenge» Attack Kills Scores in Pakistan.» *Guardian*: 13/5/2011.

Washington Post: 14/2/2010, and 18/3/2010, and 29/3/2010.

Wilson, Scott and Mary Beth Sheridan. «Obama Leads Summit's Nuclear Security Efforts: «This Is Truly a Global Issue» Challenge Is in Persuading Others.» *Washington Post*: 11/4/2010.

Worth, Robert F. «Is Yemen the Next Afghanistan.» *New York Times*: 6/7/2010.

Zimmerman, Peter D. and Jeffrey G. Lewis. «The Bomb in the Backyard.» *Foreign Policy*: vol. 85, no. 6, November-December 2006.

Electronical Reports and Studies

Ashour, Umar. «De-radicalization of Jihad?.» <http://www.terrorismanalysts.conr/pt/index.php?option=com_rokzine&view=article&id=39&Itemid=54>.

«Asia Report Number 178: Pakistan: Countering Militancy in FATA.» International Crisis Group (21 October 2009), <http://www.crisisgroup.org/en/regions/asia/south-asia/pakistani/78-pakistan-counteringmilitancy-in-fata.aspx>.

Barr, Andy. «Newt Gingrich Compares Mosque to Nazis.» *Politico*: 16 August 2010, <http://www.politico.com/news/stories/0810/41112.html>.

BBC News, ABC News, and NHK. «Iraq Poll September 2007.» (September 2007), <http://news.bbc.co.uk/2/shared/bsp/hi/pdfs/10_09_07_iraqpoll.pdf>.

Bergen, Peter and Bruce Hoffman. «Assessing the Terrorist Threat: A Report by the Bipartisan Policy Center's National Security Preparedness Group.» Bipartisan Policy Center (10 September 2010), <http://bipartisanpolicy.org/sites/default/files/NSPG%20Final%20Threat%20Assessment.pdf>.

«Bin Laden: Message to the People of Iraq.» Nefa Foundation (22 October 2007), <http://www.nefafoundation.org/miscellaneous/nefabiuladenl007.pdf>.

Bin Laden, Usama bin Muhammad. «An Open Letter to King Fahd on the Occasion of the Recent Cabinet Reshuffle.» August 1995, Center for Combatting Terrorism Center, West Point, AFGP-2002-000103-HT-NVTC, <http://www.ctc.usma.edu/aq/pdflAFGP-2002-000103-Trans.pdf>.

Boucek, Christopher. «Saudi Arabia's «Soft» Counterterrorism Strategy: Prevention, Rehabilitation, and Aftercare.» Carnegie Endowment for International Peace (September 2008), <http://www.carnegieendowment.org/publications/index.cfm?fa=view&id=22155&prog=zgp&proj=zme>.

Bruno, Greg. «Interview: The al-Qaeda-Tallban Nexus.» Council on Foreign Relations (25 November 2009), <http://www.cfr.org/publication/20838/al-qaedataliban_ nexus.html>.

Carroll, James. «How to Spot an Islamophobe.» Daily Beast, 30 January 2010, <http://thedailybeast.com/blogs-and-stories/2010-01-30/how-to-spot-ani-slamaph>.

Colvin, Ross and Caren Bohan. «Obama: Al Qaeda Bid to Go Nuclear Is Top «Threat».» Reuters, 11 April 2010, <http://www.reuters.com/article/idUS-TRE63A1YJ20100412>.

«Confidence in Osama Bin Laden.» Key Indicators Database, Pew Research Center, Pew Global Attitudes Project, <http://pewglobal.org/database/?indicat or=20&group=6&response= Confidence>.

«Declassified Key Judgments from «Trends in Global Terrorism: Implications for the United States.» ODNI (April 2006), <http://www.dni.gov/press_releases/Declassified_NIE_Key-judgments.pdf>.

Esposito, Richard, Matthew Cole and Brian Ross, «President Obama's Secret: Only 100 Al Qaeda Now in Afghanistan.» ABC News (2 December 2009), <http://abcnews.go.com/Blotter/president-obamas-secret-100-al-qaeda-now-afghanistan/story?id=9227861>.

«Evidence Suggests U.S. Missile Used in Strike.» MSNBC (5 December 2005), <http://www.msnbc.msn.com/id/10303175/>.

Gallup Center for Muslim Studies. «Muslims in Berlin, London, and Paris.» Gallup (2007), <http://www.gallup.com/consulting/worldpoll/26410/gall-up-center-muslim-studies.aspx>.

Gardner, Frank. «Death of Mustafa Abu al-Yazid «Setback» for al-Qaeda.» BBC (1 June 2008), <http://www.bbc.co.uk/news/10206180>.

«Global Opinion Trends, 2002-2007: A Rising Tide Lifts Mood in Developing World.» Pew Research Center, Pew Global Attitudes Project (24 July 2007), <http://pewglobal.org/reports/pdf/257.pdf>.

«How al-Qaeda «Chief» Was Caught.» BBC (4 March 2003), <http://news.-bbc.co.uk/1/hi/world/south_asia/2818245.stm>.

Ibrahim, Azeem. «Tackling Muslim Radicalization: Lessons from Scotland.» (June 2010), <http://www.ispu.org/files/PDFs/ISPU%20-%20Radicalization%20 Report.pdf>.

«Iraq/Middle East.» Project for the New American Century, <http://www.newamericancentury.org/iraqmiddleeast2000-1997.htm>.

Javers, Eamon. «Clinton: Al Qaeda More «Agile».» *Politico*: 2 July 2010, <http://www.politico.com/news/stories/0210/32633.html>.

Kaufman, Stephen. «Bush's Budget Request Would Continue Increase in Foreign Aid: USAID Administrator Says U.S. Aid Has Nearly Tripled Since 2000.» America.gov, 5 February 2007, <http://www.america.gov/st/washfile-english/2007/February/20070205173017esnamfuak8.193606e-02.html#ixzz0i9F93xof>.

Kurzman, Charles. «Muslim American Terrorism Since 9/11: An Accounting.» Triangle Center on Terrorism and Home Land Security, Duke/UNC/RTI (2 February 2011), <http://sanford.duke.edu/centers/tcths/about/documents/Kur zman_Muslim-Amencan_Terrorism_Since_911_An_Accounting.pdf>.

Lee, Carol E. «Barack Obama, in Afghanistan, Tells Troops They're «On the Offense».» *Politico* (3 December 2010), <http://www.politico.com/news/stories/1210/45923.htrnl#ixzz17GOeDCMj>.

«Letter to al-Zarqawi from al-Zawahri.» MSNBC (11 October 2005), <http://www.msnbc.msn.com/id/9666242/>.

Lobe, Jim. «U.S. Foreign Aid Budget Takes on Cold War Cast.» Inter Press Service (IPS News), 3 February 2004, <http://www.ipsnews.net/interna.asp?idnews=22232>.

«Muslims in Europe: A Report on 11 EU Cities.» Open Society Institute (December 2009), <http://www.soros.org/initiatives/home/articles-publications/publications/muslims-europe-20091215>.

«National Security Strategy.» White House, May 2010, <http://www.whitehouse.gov/sites/default/files/rss_viewer/national_security_strategy.pdf>.

«Notes and Sources: Cost of War Counter.» National Priorities Project, <http://www.nationalpriorities.org/cost-of-war-counter-notes>.

«Obama Blames al-Qaeda for Christmas Day Jet «Bomb».» BBC News (2 January 2010), <http://news.bbc.co.uk/1/hi/8437496.stm/>.

«Obama: Human, Systemic Failure to Blame in Terror Attempt.» CNN.com, 30 December 2009, <http://edition.cnn.com/2009/POLITICS/12/29/airline.terror.obama/Index.html>.

«Obama on Intel System: «This Was a Screw-Up».» CNN.com, 6 January 2010, <http://edition.cnn.com/201O/POLITlCS/01/05/obama.terror.meeting/index.html>.

«Obama Signs Big Pakistan Aid Bill.» BBC News, 15 October 2009, <http://news.bbc.co.uk/l/hi/world/americas/8309643.stm>.

«Office of the Coordinator for Counterterrorism: Chapter 1: Strategic Assessments.» Country Reports on Terrorism 2009 (US Department of State) (August 2010), <http://www.state.gov/s/ct/rls/crt/2009/140882.htm>.

Office of the Director of National Intelligence (ODNI) News Release, no. 2-05, <http://www.fas.org/irp/news/2005/10/dnil01105.html>.

«The Open Meeting with Shaykh Ayman al-Zawahiri.» NEFA Foundation (2 April 2008), <http://www.nefafoundation.org/miscellaneous/FeaturedDocs/nefazawahiri0408.pdf>.

«Pakistan Public Opinion Turning against Taliban.» MSNBC (11 June 2009), <http://www.msnbc.msn.com/id/31267869/>.

«Pakistani Public Opinion: Growing Concerns about Extremism, Continuing Discontent with U.S.» Pew Research Center, Pew Global Attitudes Project (13 August 2008), <http://pewglobal.org/reports/pdf/265.pdf>.

«Pakistani Public Opinion on the Swat Conflict, Afghanistan, and the US.» Program on International Policy Attitudes (PIPA) (1 July 2009), <http://www.worldpublicopinion.org/pipa/pdf/jul09/WPO_Pakistan-Tul09_rpt.pdf>.

Pew Global Attitudes Project. «Muslims in Europe: Economic Worries Top Concerns about Religious and Cultural Identity.» Pew Research Center (July 2006), <http://pewglobal.org/reports/display.php?ReportID=254>.

«Political Punch: Cheny Assails Obama Decision to Close Gitmo: Express concern that Democrats about to Take over Don't Realize World Has Changed.» ABCnews, 13 January 2009, <http://blogs.abcnews.com/politicalpunch/2009/01/cheny-assails.html>.

«Profile: Major Nidal Malik Hasan,» BBC News (12 November 2009), <http://news.bbc.co.uk/1/hi/8345944.stmj>.

«Public Opinion in Iran and America on Key International Issues.» Program on International Public Attitudes (PIPA) (December 2006), <http://www.worldpublicopinion.org/pipa/pdf/jan07/Iran.Jan07_ quaire.pdf>.

«Al-Qaeda Leaders Make Yemen Speech.» Al Jazeera English (22 December 2009), <http://english.aljazeera.net/news/middleeast/2009/12/2009122273913988616.html>.

«Remarks by the President in Address to the Nation on the Way Forward in Afghanistan and Pakistan.» White House (Office of the Press Secretary) (1 December 2009), <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/remarks-president-address-nation-way-forward-afghanistan-and-pakistan>.

«Remarks by the President at United States Military Academy at West Point Commencement.» The White House, Office of the Press Secretary, 22 May 2010, <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/remarks-president-united-states-military-academy-west-point-commencement>.

«Results of a New Nationwide Public Opinion Survey of Pakistan before the February 18th Elections.» Terror Free Tomorrow (Center for Public Opinion) (January 2008), <http://www.terrorfreetomorrow.org/upimagestft/TFT%20 Pakistan%20Poll%20Report.pdf>.

«Results of a New Nationwide Public Opinion Survey of Saudi Arabia.» Terror Free Tomorrow (Center for Public Opinion) (December 2007), <http://www.terrorfreetomorrow. org/upimagestft/TFT%20Saudi%20Arabia%20Survey.pdf>.

Runningen, Roger. «Obama Counter-terror Aide Confers with Yemen's Saleh on Fighting Al-Qaeda.» Bloomberg (20 September 2010), <http://www.bloomberg. com/news/2010-09-20/obama-counterterror-aide-confers-with-yemens-saleh-on-fighting-al-qaeda.html>.

«Saudi Arabia Arrests 172 in Anti-terror Sweep.» MSNBC (28 April 2007), <http://www.msnbc.msn.com/id/18349238/>.

«Saudi Arabia Arrests 701: Qaeda-Linked Militants Plotting «Oil Attacks».» Fox News, <http://foxnews.com/story/0,2933,371267,00.html>.

Seale, Patrick. «Pakistan's Cruel Stalemate.» Agence Global (5 April 2010), <http://www.middle-east-online.com/english/opinion/?id=38246>.

«Selected Questions and Answers from Dr. Ayman al-Zawahiri.» NEFA Foundation (6 May 2008), <http://www.nefafoundation.org/miscellaneous/FeaturedDocs/nefazawahiri0508.pdf>.

Shanahan, James and Erik C. Nisbet. «Restrictions on Civil Liberties, Views of Islam, and Muslim Americans.» 17 December 2004, Institute for Social Policy and Understanding, Media and Society Research Group of Cornell University, <http://www.ispu.org/reports/articledetailpb-64.html>.

Stewart, M. G. and J. Mueller. «Assessing the Costs and Benefits of United States Homeland Security Spending.» Research Report no. 265.04.08, Centre for Infrastructure and Reliability, University of Newcastle, Australia.

Sudam, Mohamed. «Yemen President Tackles Boosting Security with U.S.» Reuters (2 January 2010), <http://www.reuters.com/article/idustre60116k20100102>.

«Support for Suicide Bombings.» Key Indicators Database, Pew Research Center, Pew Global Attitudes Project, <http://pewglobal.org/database/?indicator= 19&survey=1O&response=Rarely/never%20justified&mode=-table>.

Tahir-ul-Qadri, Muhammad. «Fatwa on Terrorism and Suicide Bombings.» *Minhaj-ul-quran International*: 2 March 2010, <http://www.fatwaonterrorism.com/?page_id=24>.

«The Taliban in Afghanistan: An Assessment,» Stratfor (29 September 2009), <http://www.stratfor.com/analysis/20090918_ taliban_afghanistan_assessment>.

«Taliban Issues Code of Conduct.» Al Jazeera English (28 July 2009), <http://english.aljazeera.net/news/asia/2009/07/20097278348124813.html>.

«Transcript of Former Vice President Dick Cheney's Speech on Interrogation.» Delivered at the American Enterprise Institute, 21 May 2009, About.com Guide by Justin Quinn, <http://usconservatives.about.com/od/capitalpunishment/a/Cheney_AEI_Speech.htm>.

«Transcript of President Bush's Address» CNN (20 September 2001), <http://articles.cnn. com/2001-09-20luslgen.bush.transcript_1-jointsession-national-anthem-citizens?_s=PM:US>.

Turse, Nick. «The Pentagon Digs in Deeper in the Middle East.» Torn Dispatch.com (17 November 2010).

«U.S. Officials: CIA Kills Topal Qaeda Terrorist in Pakistan.» CNN (1 February 2008), <http://edition.cnn.com/2008/US/01/31/alqaeda.death/Index.html>.

Velardo, Michael. «Nidal Malik Hasan: His Own Patient?.» Detroit Substance Abuse Examiner (6 November 2009), <http://www.examiner.com/x-8358Detroit-Substance-Abuse-Examiner~y2009m11d6-Nidal-Malik-Hasan-Hisown-patient>.

Walt, Stephen M. «The «Safe Haven» Myth.» Stephen Walt's blog on Foreign Policy.com (18 August 2009), <http://waltforeignpolicy.com/posts/2009/08/18/the_safe_ haven_myth>.

«War Logs: Iraq and Afghan War Logs Explorer.» Wikileaks, <http://213.251.145.96/iraq/diarydig/>.

Windrem, Robert. «Who is Abu Farraj al-Libbi?.» MSNBC (4 May 2005), <http://www.msnbc.msn.com/id/7734991/>.

«Yemeni Scholars Threaten to Declare Jihad against Any Foreign Military Intervention.» NabaNews.Net (14January 2010), <http://www.nabanews.-net/2009123437.html>.

Al-Zawahiri, Ayman. «Exoneration: A Treatise Exonerating the Community of the Pen and the Sword from the Debilitating Accusation of Fatigue and Weakness.» NEFA Foundation (2 March 2008), <http://www.nefafoundation.org/miscellaneous/FeaturedDocs/Zawahiri_Exoneration_ciaosc.pdf>.



فهـــــرس

ـ أ ـ

ـ ب ـ

- ح -

- خ -

- ن -